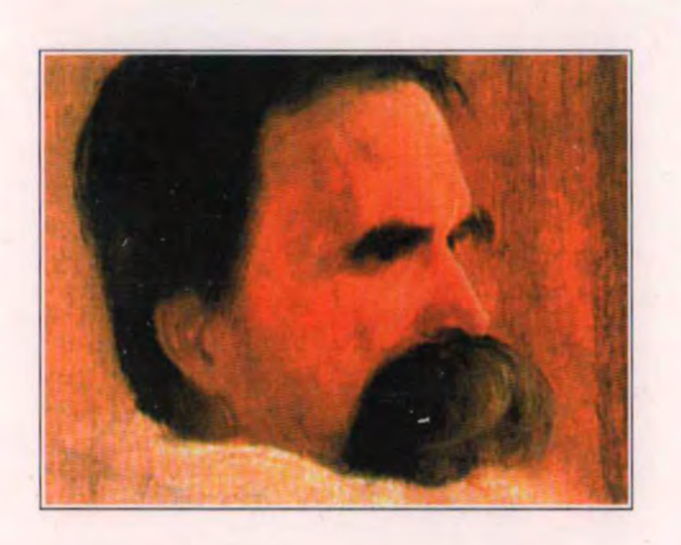
فريدريش نيتشه

إنسانيٌّ مفرط في إنسانيته

كتاب للمفكرين الأحرار

الكتاب الأول



ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل



فريدريش نيتشه

إنسانيٌّ مفرط في إنسانيته

كتاب للمفكرين الأحرار

الكتاب الأول

ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

ولد علي مصباح عام ١٩٥٣ بتونس. روائي ومترجم تونسي يقيم ببرلين. صدر له عن منشورات الجمل: **بيتر سلوتردايك: «الإنجيل» الخامس لنيتشه** (ترجمة) ٢٠٠٢؛ **فريدريش نيتشه: هذا هو الإنسان** (ترجمة) ٢٠٠٣؛ **فريدريش نيتشه: هكذا تكلم زرادشت** (ترجمة) ٢٠٠٧؛ **فريدريش نيتشه: غسق الأوثان** (ترجمة) ٢٠١٠؛ **فريدريش نيتشه: نقيض المسيح** (ترجمة) ٢٠١١؛ **حارة السّفهاء** (رواية) ٢٠١٢.

فريدريش نيتشه: **إنسانيٌّ مفرط في إنسانيته**، الكتاب الأول، الطبعة الأولى
ترجمة: علي مصباح

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Friedrich Nietzsche: *MENSCHLICHES, ALLZUMENSCHLICHES*
Ein Buch für freie Geister
Erster Band, 1878

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الكتاب الأول



إلى روح فولتير

ربما سيكون من المفيد أن نذكّر في مستهل هذه الترجمة بأن كتاب *«إنساني مفرط في الإنسانية»* الذي جعل له نيتشه عنوانا فرعيا: *«كتاب للمفكرين الأحرار»* قد أراد له أن يكون تكريما لفولتير «محرر العقل الكبير» كما كان يسميه. وقد حرص على أن يكون صدوره يوم ٣٠ ماي ١٨٧٨ الذي يوافق الذكرى المئوية لوفاة الفيلسوف الفرنسي. كما أن الطبعة الأولى التي صدرت سنة ١٨٧٨، والتي كانت في الحقيقة الكتاب الأول من المؤلف الذي سيصبح فيما بعد جزئين-أو كتابين- كانت تحمل هذا الإهداء: «مهدى إلى فولتير في الذكرى المئوية لوفاته يوم ٣٠ ماي/ نيسان ١٧٧٨.» ثم سيختفي هذا الإهداء في الطبعات اللاحقة، كما اختفت منها الفقرة المترجمة عن اللاتينية لرينيه ديكارت، التي نجدها هنا تحت عنوان «بمثابة تقديم»، وقد مثلت في تلك الطبعة الأولى لسنة ١٧٧٨ نوعا من الاستهلال أو التقديم.

وفي رسالة إلى صديقه بيتر غاست بتاريخ ٣١ ماي ١٨٧٨ يقول نيتشه إن شخصا مجهولا قد أرسل إليه من باريس منحوتة نصفية للفيلسوف في «يوم فولتير» مرفوقة بكلمة: «روح فولتير تعبر عن تقديرها لفريدريش نيتشه.» ونيتشه الذي لا يخفي إعجابه بفولتير واعتباره فيلسوف التنوير الحقيقي يضعه راية فكرية مهمة ضمن ثلاثي يضم إلى جانبه بيترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) وهو صديق لبوكاشيو وصاحب مؤلفات باللاتينية من أهمها *De contemptu mundi* (في

احتقار العالم) و *De vita solitaria* (عن حياة العزلة) و *De vera Sapientia* (في العلم الحقيقي)، مؤلفات لا يمكن إلا أن تكون مصدر إلهام لنيتشه. أما المفكر الثالث فهو إراسموس نوتردام (١٤٦٦-١٥٣٦) مؤلف كتاب مديح الجنون. تلك هي «الراية الثلاثية للأنوار» بالنسبة لنيتشه (الشذرة رقم ٢٦ من هذا الكتاب).

المترجم

بمثابة تقديم

«توقفت طويلا مدققا في الأمور التي ظلت تشغل الإنسان في هذه الحياة، محاولا أن أنتقي أفضلها. غير أنني لا أرى ضرورة للحديث هنا عن الأفكار التي خامرتني أثناء ذلك؛ يكفيني أنه لم يتراء لي فيما يخصني شيء أفضل من أن أظل متمسكا بصرامة بما آليت عليه نفسي من عمل، أي أن أنذر مجمل نصيبي من الزمن الذي سأعيشه للدأب على تربية عقلي وللمضي قدما في تتبع آثار الحقيقة على النحو الذي رسمته لنفسي. ذلك أن الثمار التي تذوقتها خلال مسيرتي على هذه الطريق كانت من ذلك النوع الذي لن نستطيع أن نجد في هذه الحياة ما يمكن أن يفوقه لذة وبراءة، حسب رأيي. و علاوة على ذلك كان كل يوم، منذ أن انتهجت هذا الضرب من المعاينة، يمنحني اكتشاف شيء جديد له وزنه الخاص دوما وأبعد ما يكون عن المعهود بين العموم. هكذا أضحت حياتي مفعمة فرحا، بما يجعل بقية الأشياء كلها غير قادرة على التأثير فيها.»

ديكارت[1]



توطئة

1

كثيرا ما قيل لي، وبكثير من الدهشة دوما، أن شيئا مشتركا ومميِّزا يتخلل كل كتاباتي، من «مولد التراجيديا» حتى آخر ما نشر لي وهو «توطئة لفلسفة مستقبلية»(٢): جميعها تحمل بين طياتها شباكا وشراكا لطيور عديمة الحذر، وشيئا قريبا من تحريض خفي دائم على قلب التقييمات المعتادة والعادات المتعارف على قيمتها. ماذا؟ *كل شيء* ليس سوى- إنساني، مفرط في الإنسانية؟ بهذه الزفرة يخرج المرء من (قراءة) مؤلفاتي، ليس دون شيء من الريبة والتوجس حتى تجاه الأخلاق، بل مع قدر غير قليل من الإغراء والتشجيع على أن يجعل المرء من نفسه المنافح عن أسوأ الأشياء؛ كما لو أنها الأكثر عرضة للافتراء؟ وقد سُميتْ كتاباتي بمدرسة للريْب، بل والاحتقار، والشجاعة أيضا لحسن الحظ، بل والتهور حتى. وبالفعل فأنا أيضا لا أعتقد أن أحدا قد نظر إلى العالم بمثل هذه الريبة العميقة، وذلك ليس كمدافع عن الشيطان فحسب، بل كذلك، وبالقدر نفسه، كعدو وضد للرب، بلغة علم اللاهوت. ومن سيحزر شيئا مما ينجر عن هذه الريبة العميقة، وشيئا من صقيع و مخاوف الوحدة التي تحكم بها *النظرة المغايرة* المطلقة على كل من كان مصابا بها، سيفهم أيضا كم كنت بحاجة في أحيان عديدة إلى البحث عن ملجأ لي في ضروب متنوعة

من الإعجاب أو العداء، في منحى علمي أو في نزق أو حماقة من أجل الاستراحة من نفسي، ومن أجل أن أنسى نفسي لفترة من الزمن، وسيفهم أيضا لماذا كان علي حيث لا أجد ما *احتاجه* أن أنتزعه لنفسي اصطناعا، أن أزوّره (لنفسي) وأصوغ نظمه بما يوافق الحاجة، (-ثم ما الذي كان يفعله الشعراء على الدوام غير هذا يا ترى؟ ولِم وجد مجمل الفن في العالم يا ترى؟). غير أن أكثر ما كنت أشعر بالحاجة إليه دوما من أجل علاجي واستعادة عافيتي هو الإيمان بأنني *لست* وحيدا، وأنني لا *ارى* بمفردي على هذا النحو؛ استشفافٌ ساحرٌ لعلاقة قرابةٍ وتماهٍ في النظرة والرغبة، استراحة في ثقة الصداقة، عماء متقاسم دون شكوك ونقاط استفهام، متعة في كل ما هو متقدم على الركح، وكل سطحي وقريب وملاصق في كل ذي لون وجلدة وظاهر. ولربما سيعاب علي في هذا الشأن قدر من «التفنن في الكلفة» وقدر من التزييف الحاذق؛ كأن أكون قد أغمضت عيني قصدا وعن وعي عن مسألة إرادة الأخلاق العمياء لشوبنهاور في وقت كنت فيه واضح الرؤية بما فيه الكفاية في ما يتعلق بالأخلاق، أو كأن أكون قد خدعت نفسي بشأن الرومانسية المزمنة لريتشارد فاغنر،[٣] كما لو أنها كانت بداية وليست نهاية في الحقيقة؛ وكذلك في ما يتعلق بالإغريق، وما يتعلق بالألمان ومستقبلهم -ولربما هناك قائمة طويلة من مثل هذه الأمور؟- لكن، لنفترض أن هذه المعيبات حقيقية وأنّ الملامة صادرة عن أسس صحيحة، فما الذي تعرفونه، وماذا يمكنكم أن تعرفوا عن مقدار الحيلة التي غايتها الحفاظ على النفس، وعن مقدار الحكمة والحذر الراقي التي تنطوي عليها هذه المغالطة للنفس، - وكم من الزيف مازال *يلزمني* كي يكون بإمكاني أن أواصل السماح لنفسي بالتمتع بترفِ صدقيّتي..؟ يكفي، أنني مازلت أحيا، وأن الحياة بالنهاية ليست من صنع الأخلاق: إنها تريد الخداع، وهي تحيا بالخداع... ها أنا

أبدأ من جديد وأفعل ما كنت أفعله دوما، أنا اللاأخلاقي العريق وقناص الطيور. . . أليس كذلك؟ -أتكلم لا أخلاقيا، خارجا عن الأخلاق، «في ما وراء الخير والشر»؟-

2

- هكذا *ابتدعت* لنفسي «المفكرين الأحرار» ذات يوم عندما كنت بحاجة إلى ذلك، وإليهم أهدي هذا الكتاب السوداوي الجريء الذي يحمل عنوان «إنساني مفرط في الإنسانية». مثل هؤلاء «المفكرين الأحرار» لا وجود لهم، ولا هم قد وجدوا في يوم ما، - غير أنني، وكما قلت آنفا، كنت بحاجة إلى رفقتهم كي أظل في حال طيبة داخل أحوال سيئة (مرض، عزلة، غربة، Acedia(*)، عطالة)؛ رفاقا وأشباحا عتيدة بإمكان المرء أن يثرثر ويضحك معهم عندما تكون لديه رغبة في الثرثرة والضحك، وأن يبعث بهم إلى الجحيم عندما يصبحون مضجرين: تعويض عن خسارة الأصدقاء المفقودين. أن يكون من *المحتمل* أن يوجد في يوم من الأيام مثل هذا النوع من المفكرين الأحرار، وأن يكون لأوروبّتنا مثل هؤلاء الفتية الأفذاذ المرحين من بين أبناء غدها وبعد غدها، فتية حقيقيون من لحم ودم، وليس مجرد أطياف وأشباح من صنع خيال راهب متوحد كما هو الحال بالنسبة لي، فذلك ما سأكون آخر من يشك به. إني أراهم *قادمين*، ببطء، ببطء؛ ولربما سأفعل شيئا مما يعجّل بقدومهم إذا ما رسمت مسبقا وصفا للطالع الذي أراهم قادمين تحته والطريق التي سيجيئون منها؟--

---

(*) عبارة لاتينية تعني: قرف، لامبالاة، مرارة.

3

يحق لنا أن نتصور على سبيل الافتراض أن عقلا من ذلك النوع الذي ينبغي أن يبلغ نمطُ «العقول الحرة» داخله الاكتمال نضجا وحلاوة في يوم ما، قد أنجز بالنهاية حدثه الحاسم في فعل انعتاق عظيم، وأنه لم يكن فيما سبق سوى عقل مقيّد كان يبدو قابعا في زاويته مشدودا إلى ركنه إلى الأبد. ماالذي يقيّد بأكثر قوة؟ أي القيود هو ذلك الذي يستعصي على الكسر كليا، أو يكاد؟ عند أناس من النوع الراقي والممتاز ستكون الواجبات هي ذلك القيد: ذلك الضرب من الإجلال مما لا يوجد سوى لدى الشباب، ذلك الوجل واللطف تجاه كل جليل ورصيدٍ قديم من الاعتبار، وذلك الامتنان للأرض التي ترعرعوا فوقها ولليد التي أمسكت بأيديهم وللحَرم التي تعلموا فيه العبادة؛ إنها أرقى لحظات حياتهم هي التي تقيّدهم أمتن تقييد وتلزمهم أطول إلزام. يحدث الانعتاق العظيم لدى هذا النوع من المقيَّدين فجأة، في ما يشبه رجة أرضية: وإذا النفس الفتيّة تجد نفسها دفعة واحدة مهتزة منفصلة مجتثة وهي لا تدرك ما الذي يحدث. احتقان وقوة دفع تطغى عليها وتغدو متحكمة بها مثل أمر قاطع؛ إرادة، أمنية تستيقظ وتريد المضي قدما باتجاه مكان ما بأي ثمن؛ فضول جامح وخطير يتقد ويلتهب داخل جميع حواسها اشتياقا إلى عالم مجهول. «الموت ولا الحياة هنا»، هكذا يصدح الصوت الآمر للغواية؛ وكان ذاك الـ«هنا»، «بيت الإقامة» ذاك، هو كل ما ظلت تحبه إلى حد تلك اللحظة! ذعر مفاجئ ونفور من ذلك الذي كانت تحبه، التماعة احتقار صاعق تجاه كل ماكان يدعى «واجبا» لديها، رغبة متمردة مستبدة بركانية في الترحال، ونزوع إلى الغريب، إلى الاغتراب والإصابة ببرد والاحباط والتجمّد، وحقدٌ على الحبّ، وربما نظرة ويد مدنّستان تمتدان *إلى الخلف*، هناك حيث كانت إلى حد تلك اللحظة تتعبد وتحب؛ وربما سيل

حارق من الخجل مما كانت تفعله مع غبطة في الوقت نفسه لكونها قامت بذلك: رعشة نشوة داخلية تنبئ عن غبطة انتصار. انتصار؟ على ماذا؟ على من؟ انتصار مبهم، مشبوه، محل سؤال، لكنه انتصار *أول* على أية حال:-ذلك هو ما يرافق تاريخ الانعتاق العظيم من فظاعة ووجع. وفي الآن نفسه هو مرض يمكن أن يدمر الإنسان، هذا الانفجار الأول للطاقة وللرغبة في تقرير المصير وإعادة تقييم الذات، وهذه الإرادة التي تريد الإرادة *الحرة*. وأي كمّ من المرض ذلك الذي يعبر عن نفسه في الجهود المضنية والأفعال الغريبة التي يسعى ذاك المحرَّر، ذاك المنعتق توا إلى إثبات سيطرته على الأشياء من خلالها! ويظل يجول ناشرا فظاعة قسوته بنهم لا يعرف الارتواء، ويكون على ما حُصّل لديه من غنائم أن يدفع بذلك ثمن التوتر الخطير لنشوة اعتداده بنفسه: إنه يمزّق ما يبهره و يثير رغبته، وبضحكة خبيثة يقلب ما يجده مخفيا مصانا في حماية ضرب من الحياء، محاولا أن يرى على أي هيأة ستبدو تلك الأشياء عندما يقلبها المرء. طغيانٌ ومتعةُ طغيان يجدها في هذا الصنيع وهو يحاول أن يمنح الآن اعتبارا لما ظل طوال الوقت لا يحظى إلا بسمعة سيئة -وهو يتسلل مراودا أكبر الممنوعات يدفعه الفضول والغواية. وفي موضع خلفي وراء تيهه وتجواله-إذ هو يمضي قلقا ودون هدف كالسائر تائها في الصحراء- يعتمل السؤال المحير لفضولٍماانفك يغدو أكثر فأكثر خطورة. «ألا يمكننا أن نقلب كل القيم؟ ألا يكون الخير شرا في الحقيقة؟ والرب مجرد ابتكار وأحبولة من أحابيل الشيطان؟ ألا يكون كل شيء خطأ بالنهاية؟ وإذا ما كنا مخدوعين، ألا نكون بموجب ذلك غشاشين أيضا؟ مثل هذه الأفكار تظل تقوده وتغويه، تجره أبعد فأبعد، وتنأى به أكثر فأكثر. وتظل الوحدة، تلك الربة القاسية والأم الفظيعة للرغبات- *mater saeva cupidinum* تحيط به، تحاصره وتأسره، أكثر فأكثر

تهديدا، أكثر فأكثر إحكاما لخناقها عليه، أكثر فأكثر اعتصارا لقلبه،- لكن من الذي يعرف اليوم *أي شيء هي الوحدة*؟

4

ستظل الطريق طويلة من هذا الانعزال المرضي، ومن صحراء سنوات التجريب إلى ذلك الأمان والعافية المتدفقة الهائلة، التي لا تستغني حتى على المرض نفسه أداةً وصنارة لاصطياد المعرفة، حتى بلوغ حرية العقل *مكتملة النضج*، التي هي في الآن نفسه سيطرة على النفس وأدب للقلب، وهي التي تسمح بفتح الطريق نحو ضروب من التفكير متعددة ومتناقضة، إلى أن تحل في تلك الحالة من الرحابة الداخلية وترف فائض الثراء، التي تدفع عن القلب خطر أن يضيع في متاهة دروبه الخاصة والوقوع في الوله بها ثم يقبع مخمورا في زاوية منتظرا حصول فيض الطاقات الحيوية الضامنة للتعافي والتدارك واستعادة القوى ، ذلك الفيض الذي هو في الحقيقة مؤشر *العافية الكبرى*، وهو الذي يمنح المفكر الحر الامتياز الخطير في أن يحيا على *نحو تجريبي*، وفي أن يلقي بنفسه في أحضان المغامرة: امتياز المفكر الحر بارع الحذق! مابين هاتين الحالتين قد تمتد سنوات طويلة من مسار النقاهة، سنوات مليئة تحولات بديعة متنوعة وأليمة محكومة ومسيّرة *بإرادة عافية* عنيدة يعن لها غالبا أن تتزيا بلباس العافية. إنها حالٌ وسطٌ لا يتذكرها امرؤ ذو مصير من هذا النوع من بعد دون تأثر: ميزة تلك الحال شعاع نور لطيف خافت وسعادة مرهفة باهتة، وإحساس بحرية طائر ونظرة طائر وطيش طائر، حالٌ وسطٌ يتمازج داخلها الفضول ونوع من الاحتقار الناعم. «عقل حر»: هذه العبارة الباردة تكون منعشة في مثل هذه الحال، حتى لكأنها تدفئ. يغدو المرء متحررا من قيود الحب والكراهية، دون نعم، دون لا، قريبا

طوعا، بعيدا طوعا، ومن الأفضل متسللا، مراوغا، مبتعدا بجناحين خفيفين، منصرفا مجدًّدا، ضاربا مجدًّدا في الأعالي؛ يكون المرء انتقائيا ككل من كُتب له أن يرى كما هائلا من التنوع *من تحته*؛ - ويغدو عندها نقيضا لأولئك الذين تشغل بالهم أشياء لا تعنيهم. وللمفكر الحر في الواقع أشياء عديدة تعنيه-وكم من الأشياء!- من تلك التي لا *تشغل باله*...

5

خطوة إضافية في مسار النقاهة، وإذا المفكر الحر يقترب مجددا من الحياة، ببطء في الحقيقة، شبه مرغم، شبه مرتاب. يغدو كل شيء أكثر دفئا من حوله مجددا، يعني أكثر نضجا؛ تكتسي الأحاسيس والشفقة عمقا جديدا، رياح دافئة متنوعة مذيبة للجليد تعبر فوق رأسه. ينتابه الآن شبه إحساس بأن عينيه تنفتحان لأول مرة على الأشياء *القريبة* منه. مندهشا يجلس الآن صامتا: *أين كان قبلها* يا ترى؟وهذه الأشياء القريبة والأكثر قربا، كم تبدو له متغيرة الآن! أي نعومة وأي سحر قد اكتسبت في الأثناء! وها هو يلقي نظرة امتنان إلى الوراء،- امتنان لتجواله، لقسوته واغترابه، لنظراته التي كانت تمضي بعيدا وتحليقه في أعال قارسة. إنه لشيء حسن حقا أنه لم يختر دعة السذّج الناعمين الألوفين الملازمين لزاوية بعينها، والبقاء «في البيت» دوما، في كنف عالمه الأليف دوما! لقد كان *خارج نفسه*: ما من شك في ذلك. والآن فقط أصبح يرى نفسه، وأية مفاجآت يجدها في ذلك! أية قشعريرات كان يجهلها! وأية سعادة في التعب، في ذلك المرض القديم، وفي انتكاسات الناقه! كم يروقه أن يرى نفسه يجلس صامتا في الوجع، يشحذ الصبر، ويستلقي في الشمس! من تراه يدرك مثله معنى السعادة في الشتاء و بقع الشمس المرتسمة على الجدار؟ فقط تلك الحيوانات

الأكثر عرفانا بالجميل، والأكثر تواضعا أيضا، وأولئك الناقهون الذين استعادوا للتو نصف إقبال على الحياة، والسحليات: وهناك طائفة من بينها لا تدع يوما يمر دون أن تعلّق على ذيل ثوبه نشيدا مدائحيا. وبكل جديّة: إنه *العلاج* الجذري ضد كل ضروب التشاؤم (السرطان المدمر لكل المثاليين القدامى وفرسان الأكاذيب، كما هو معروف) أن يمرض المرء على طريقة هذه العقول الحرة ويظل لمدة غير قصيرة مريضا، ومن بعدها يكون عليه أن يقضي زمنا أطول وأطول بكثير في المعافاة، أعني في اكتساب «وضع صحي أفضل». وإنها لحكمة، حكمة حياتية أن لا يتناول المرء من العافية إلا بمقادير صغيرة وعلى مدى زمني طويل.

6

في هذا الفاصل الزمني يمكن أن يحدث أخيرا، وتحت مفاعيل الأضواء المفاجئة لعافية ما تزال غير مستقرة وعرضة لشتى التقلبات، أن يشرع المفكر الحر والأكثر فأكثر حرية في محاولة كشف الغطاء عن لغز ذلك التحرر الكبير الذي ظل حتى تلك اللحظة يقبع غامضا داخل الذاكرة، إشكاليا وشبه مستعصٍ على الإدراك؛ ولئن ظل لوقت طويل لا يجرؤ على التساؤل «لم هذه العزلة؟ وهذه الوحدة؟ متخلّيا عن كل ما كنت أقدسه؟ متخلّ عن التقديس نفسه؟ لم هذه القسوة، وهذه الريبة، وهذا الحقد على فضائلي الخاصة؟»، فإنه الآن يتجرأ ويسأل بصوت مسموع، ويسمع أيضا ما يشبه الجواب عن تلك الأسئلة. «كان ينبغي أن تصبح سيدا على نفسك، سيدا أيضا على فضائلك. في ما مضى كانت فضائلك سيدة عليك، في حين أنه كان ينبغي ألا تكون سوى أدوات في يدك إلى جانب أدوات أخرى. كان عليك أن تكتسب السيطرة على حجج موافقتك وحجج رفضك، وأن تُحكم تعليقها

وإعادة تفعيلها وفقا لمراميك العليا. كان عليك أن تتعلم إدراك المنظوريّ في كل حكم تقييمي: التحوّل وانحراف الآفاق، وغائيتها الظاهرية وكل ما يمت إلى المنظوريّ بصلة، بما في ذلك نصيب الجهالة تجاه القيم المناقضة وكل الخسائر الذهنية التي تدفع ثمنا لكل موقف «مع» ولكل موقف «ضد». كان عليك أن تتعلم إدراك الظلم الحاصل ثمنا *ضروريا* لكل موقف إثبات وكل موقف رفض، الظلم الملازم للحياة، الحياة نفسها كشيء **محدَّد** بالمنظور وما ينطوي عليه من ظلم. كان عليك خاصة أن ترى رؤية العين أين يكون الظلم أعظم دوما: أي هناك حيث تكون الحياة في أحقر وأضيق وأفقر وأدنى حال من تطورها، ومع ذلك لا يسعها إلا أن تعُدّ نفسها هدفا ومقياسا للأشياء كلها، وتعمل سرا وبكل مسكنة ومثابرة على تفتيت كل ما هو أرقى وأعظم وأثرى ووضعِه موضع سؤال، من أجل الحفاظ على نفسها؛ -كان عليك أن ترى بعينك مسألة نظام التراتب وكيف أن القوة والحق وشمولية المنظور تتطور وتنمو معا. «كان عليك»- كفى! فالعقل الحر قد غدا يعرف الآن بأي «ينبغي عليك» كان يأتمر، وكذلك ما غدا **يستطيعه** الآن، وما أصبح ***يحق له***،-بدء من الآن فقط...

7

على هذا النحو يقدم المفكر الحر لنفسه جوابا بشأن لغز التحرر، وينتهي معمما حالته الخاصة، بالحسم في أمر تجربته. «وكما حصل لي، يقول لنفسه، ينبغي أن يحصل لكل أحد يحمل في داخله **مهمة** تريد أن تتجسّد و«تظهر إلى الوجود». تعمل القوة الخفية لتلك المهمة وضرورتها السرية عملها داخل كل وقائع مصيره الفردية، على غرار حبَلٍ غير واع بنفسه، لمدة زمنية طويلة قبل أن يدرك تلك المهمة ويسميها بإسمها. فالرسالة التي نُذرنا لها تظل تتحكم بنا حتى ونحن لا

ندركها: إنه المستقبل الذي يملي قانونه على حاضرنا. وإذا ما افترضنا أننا نعني *قضية النظام التراتبي* عندما نقول، نحن المفكرون الأحرار، إن هذه هي قضيتنا، فإننا الآن، ونحن في ساعة الظهيرة من عمرنا نفهم أخيرا أي إعدادات وأي منعرجات وأنواع من الدربة والاختبارات والغوايات والأقنعة كانت تلزم هذه القضية قبل أن يغدو *بوسعها* أن تظهر لأعيننا، وكم كان علينا أن نعيش روحا وجسدا من حالات الضنك والسعادة كمغامرين وجوّابي آفاق داخل هذا العالم الباطني الذي يدعى «إنسانا»، كمسّاحي قياسات لكل «الأعالي» وكل «المستويات المتراكبة» والتي تسمى هي أيضا «إنسانا»؛ مقتحمين كل مكان، دون خوف تقريبا، دون احتقار لأي شيء، دون إهمال لأي شيء، متذوقين كل شيء، مغربلين لكل شيء نتقيه مما هو عرضي، - إلى أن غدا بإمكاننا أن نقول، نحن المفكرون الأحرار: «ههنا- هنا قضيّة جديدة! ههنا سلّم طويل، فوق درجاته جلسنا وتسلقنا، -تلك السلم التي *كنّاها* نحن أنفسنا في وقت ما! ههنا «أعلى»، ههنا أدنى، ههنا شيء دوننا، ههنا نظام هائل الامتداد، نظام تراتب؛ أشياء نراها كلها: هي ذي- قضيتنا!»

8

لن يظل خفيا عن أي عالم نفساني أو فكاك طلاسم إلى أي موقع من مسار التطور الذي عرضناه آنفا ينتمي هذا الكتاب (أو لِمَ تم إنجازه). لكن أين هم علماء النفس في وقتنا الحاضر؟ في فرنسا دون شك، وربما في روسيا، لكن ليس في ألمانيا، بكل تأكيد. هناك ما يكفي من الأسباب التي تجعل ألمان الحاضر يذهبون إلى حد الافتخار بهذا الأمر: إنه لشنيع بما فيه الكفاية أن يكون الواحد غير ألماني طبعا وتكوينا إلى هذا الحد! هذا الكتاب *الألماني* الذي استطاع أن يجد له

قراء على مدى واسع من البلدان والشعوب -وهو يتجول منذ عشر سنوات- وكان عليه أن يتقن ضربا من أفانين الموسيقى وإتقان العزف على الناي استطاع بفضلها أن يسحر حتى أبعد الآذان الغريبة ويجعلها تصغي إليه، يظل هذا الكتاب في ألمانيا بالذات يقرأ بأكثر ما يمكن من الإهمال ويصغى إليه أسوأ إصغاء: إلام يعود ذلك يا ترى؟ -«إنه شديد التطلّب، يجيبني أحدهم، إنه يتجه إلى أناس غير خاضعين لإكراهات الواجبات اليومية البدائية، ويتطلب آذانا مرهفة وحواس رقيقة، ويستوجب فائضا من الوقت ومن صفاء السماء والقلوب، ومن العطالة *Otium*(*)، وبعبارة أكثر جرأة: أشياء جيدة كثيرة لا نملكها نحن ألمان اليوم، وليس بمستطاعنا أن نمنحها.» بعد هذا الجواب الحكيم أملتْ عليّ فلسفتي أن ألزم الصمت وأن لا أسأل بعدها البتة؛ خاصة وأنه، وكما يقول المثل، لا يمكن للمرء في حالات بعينها أن يظل فيلسوفا إلا إذا لاذ بالصمت.

نيس، ربيع ١٨٨٦

(*) عبارة لاتينية تعني: وقت الفراغ، ومن خلال السياق الذي ترد فيه هنا يبدو أنها تعني لدى نيتشه «العطالة».



الفصل الأول

عن الأشياء الأولى والأخيرة

1

كيمياء الأفكار والأحاسيس

تتخذ المسائل الفلسفية اليوم وفي كل أمر تقريبا صيغة السؤال نفسه الذي كان يطرح قبل ألفي سنة: كيف يمكن لشيء أن ينشأ عن نقيضه، كأن ينشأ المعقول عن اللامعقول مثلا، والحسّاس عن الميت، والمنطق عن اللامنطق، والرؤية اللانفعية عن إرادة التملك، والغيريّة عن الأنانية، والحقيقة عن الخطأ؟ وقد نجحت الفلسفة الميتافيزيقية إلى حد اليوم في تتدبر مخرج لها من هذه المعضلة برفضها لنشأة الواحد عن الآخر، وبأن افترضت للأشياء التي كانت تمنحها قيمة سامية، أصلا خارقا نابعا مباشرة من صميم وجوهر «الشيء في ذاته». وبالمقابل كانت الفلسفة التاريخية، أحدث ما وجد من المناهج الفلسفية، والتي لم يعد من الممكن تصورها بمعزل عن العلوم الطبيعية، تقر من خلال النظر في الحالات المنفردة (ومن المرجح أن ذلك سيكون حكمها في المجمل أيضا) بأن الأمر لا يتعلق بمتناقضات، إلا في المبالغات المعتادة للتصورات الشعبية أو الميتافيزيقية، وأن هذه المقابلة متأتية عن خطأ قد ارتكبه العقل: ليس هناك قطعا حسب تفسيرها لا سلوكات غير أنانية ولا رؤية غير مصلحية

خالصة، والأمران لا يعدوان كونهما محض تصعيدات تجعل العنصر الأساسي يبدو شبه متبخّر، ولا يكشف عن وجوده إلا للمعاينة الأكثر دقة. إن كل ما نحتاجه، وما غدا ممكنا لنا أن نحصل عليه الآن ولأول مرة بفضل المستوى المتطور لكل من العلوم المعاصرة على حده، هو كيمياء للتصورات والأحاسيس الأخلاقية والدينية والجمالية، ولكل الانفعالات التي نعيشها في علاقاتنا الصغرى والكبرى بالثقافة والمجتمع، بل وفي الوحدة: وماذا لو أن هذه الكيمياء تخلص بنا في هذا المجال إلى نتيجة مفادها أن الألوان البديعة تستخلص من المواد البخسة والمحتقرة؟ هل سيكون هناك الكثيرون ممن سيرغبون في متابعة مثل هذه البحوث؟ إن الإنسانية تفضل أن تطرح عن ذهنها كل الأسئلة المتعلقة بالأصل والبدايات: ألا ينبغي على المرء أن يكون مجردا من إنسانيته تقريبا كيما يحس في نفسه بميل مناقض لهذا الميل؟

2

خطا الفلاسفة المتوارث

يعاني جميع الفلاسفة من الخطأ المشترك نفسه، وهو أنهم ينطلقون من الإنسان المعاصر ويعتقدون أنهم سيبلغون الهدف[٤] من خلال ما يجرونه عليه من تحليل. ودون إرادة منهم يتراءى لهم «الإنسان» في هيأة aeterna veritas–حقيقة خالدة، شيئا ثابتا عبر كل الأعاصير، ومقياسا موثوقا لكل الأشياء.[٥] غير أن كل مقولة للفيلسوف عن الإنسان لا تتعدى في الحقيقة كونها شهادة عن إنسان مجال زمني *محدود للغاية*. إن الافتقار إلى الحس التاريخي، هو الخطأ المتوارث لكل الفلاسفة، والبعض منهم يبلغ بهم الأمر، وفي غفلة منهم حد اتخاذهم خطأً أحدث شكل للإنسان، كذلك الذي نشأ تحت تأثيرات دينية بعينها، أو حتى تحت تأثيرات أحداث سياسية بعينها، على أنه

الشكل القار الذي ينبغي على المرء أن ينطلق منه. إنهم لا يريدون أن يتعلموا أن الإنسان نتاج صيرورة، وأن ملكة المعرفة نفسها نتاج صيرورة هي أيضا، فيما يذهب البعض منهم حد استنباط العالم بكليته من ملكة المعرفة هذه. -غير أن مجمل ما هو **جوهري في** تطور الإنسان قد حدث في عهود سحيقة من الزمن قبل هذه الأربعة آلاف سنة التي نعرفها معرفة تقريبية، وهي الحقبة الوجيزة التي يبدو أن الإنسان لم يتغير كثيرا خلالها. لكن ها أن الفيلسوف يرى «غرائز» في الإنسان المعاصر ويعتقد أنها مما ينتمي إلى المعطيات الثابتة للإنسان وعليه فإنه بإمكانها أن تمنحنا مفاتيح لفهم العالم عموما[٦]، و على قاعدة هذا المعطى تأسس مجمل علم اللاهوت، بما جعل المرء يتكلم عن إنسان الأربعة آلاف سنة الأخيرة كما لو كان يتكلم عن إنسان ***خالد*** اتخذت مجمل الأشياء منذ بدايتها اتجاها طبيعيا منقادا إليه. غير أن كل شيء قد صار، وليس هناك من ***معطيات خالدة***؛ كما لا وجود لحقائق مطلقة. وعليه فإن ***تعاطي فلسفة تاريخية*** سيكون بدء من الآن أمرا ضروريا بالنسبة لنا، وبمعيتها فضيلة التواضع.

3

تقدير الحقائق غير الظاهرة

إنها لعلامة مميزة لثقافة راقية أن تعرف كيف تمنح الحقائق الصغيرة الخفية، التي تم العثور عليها بواسطة منهج شديد الصرامة أكثر تقديرا مما تمنح للأخطاء المبهِرة التي تمنح المسرة، والتي نشأت عن عصور وأناس كانت مشاغلها ميتافيزيقية وفنية. أول ما يقابل به النوع الأول من الحقائق هو الهزء والسخرية على كل لسان، كما لو أن لا مكان هنا لشيء من مساواة في هذه المقابلة: فبقدر ما تتراءى الأولى متواضعة، متقشفة، بل ومحبِطة على ما يبدو، تبدو الثانية جميلة،

باذخة، مسكرة، بل وربما حاملةً غبطة أيضا. غير أن ذلك المحصّل بالجهد والعناء، ذلك الثابت والدائم والذي سيفرز تبعا لذلك فوائد جمة بالنسبة لكل معرفة قادمة، لهو الأرقى، وسيكون الانتصار له موقف فحولة، وعلامة شجاعة واستقامة واتّزان. وشيئا فشيئا لن يتوقف هذا الارتقاء إلى مقام الفحولة على الأفراد فقط، بل سيشمل الإنسانية في مجملها، عندما تكون قد تعودت بالنهاية على منح تقدير أكبر لما هو متين ثابت ودائم من المعرفة، وتكون قد تخلصت نهائيا من كل إيمان بالإلهام وبالحقائق المتلقّاة بضروب من المعجزات. وسيكون، والحق يقال، لأنصار الشكل، بمعاييرهم عن الجميل والجليل، ما يكفي من الأسباب للهزء والسخرية بمجرد أن يشرع تقدير الحقائق المغمورة والعقل العلمي في بسط سيطرته؛ لكن، ولأن عينهم لم تتلاءم بعد مع سحر الشكل *الأكثر بساطة*، أو لأن هؤلاء الذين تربوا على مثل هذه الروح العلمية لم يتشبعوا بعد بها باطنيا وكليا، تراهم يعودون دوما ودون وعي منهم إلى استنساخ الأشكال القديمة (وبطريقة رديئة جدا، تماما مثل واحد لم يعد معنيا حقا بقضيته). في ما مضى لم ينصرف العقل إلى ما يتطلبه التفكير الصارم من اعتناء، بل ظل اهتمامه منصبا على ابتداع الرموز ونسج الأشكال. غير أن هذا الأمر قد تغير الآن، فذلك الطابع الجدي الذي كان يُضفى على الرمزية أصبح من العلامات المميزة لثقافة من المستوى الأدنى، وكما أن الفنون قد غدت أكثر فأكثر عقلية وحواسنا أكثر روحانية، وكما أصبحت تقييماتنا لما هو مستساغ للحواس مغايرة لما كانت عليه قبل مئة سنة، فإن أشكال حياتنا ما فتئت تغدو هي الأخرى أكثر تشبعا بالعقل، ربما أكثر قبحا في نظر العصور القديمة، لكن لسبب وحيد وهو أنها لم تكن قادرة على أن ترى كمْ أضحت مملكة الجمال الباطني والروحاني تزداد عمقا واتساعا، وكم أصبحنا

جميعنا نبجل رؤية مشبعة فكرا على أجمل مركّب أو أعظم معلم معماري.

4

التنجيم وما شابهه

من المحتمل أن تكون موضوعات الأحاسيس الدينية والأخلاقية والجمالية متصلة بسطح الأشياء فقط، بينما يحلو للإنسان أن يعتقد متوهما أنه قد لامس هنا على الأقل جوهر الكون. وهو إنما يقع في الوهم لأن تلك الأشياء تسبب له شعورا عميقا بالسعادة أو بالشقاء، ويكشف بذلك عن نفس الشعور بالفخر الذي يبديه إزاء علم التنجيم. فهذا الأخير يعتبر أن الكواكب تدور كلها حول مصير الإنسان؛ في حين يفترض الإنسان الأخلاقي أن ما يشغل قلبه جوهريا، لابد أن يكون هو جوهر الأشياء وقلبها.

5

سوء فهم للحلم.

كان إنسان عصور الثقافات البدائية الخشنة يعتقد أنه يتعرف في الحلم على *عالم حقيقي ثان*، من هنا كان منشأ مجمل الميتافيزيقا. فمن دون الحلم لم يكن للإنسان أن يجد مبررا للانشطار الذي أحدثه على العالم. وللفصل بين الروح والجسد علاقة بذلك التأويل القديم للحلم أيضا، وكذلك فرضية الصورة الظاهرية للروح في الجسد، يعني أصل كل اعتقاد في الأرواح، وربما أصل الاعتقاد في الآلهة أيضا. «الميّت يواصل الحياة، *ذلك أنه* يظهر للأحياء في الحلم»: هكذا كان الاستنتاج الذي ظل متداولا على مدى الآلاف من السنين في الماضي.»

6

روح العلم قوية في الجزء وليس في الكل

يتم التعامل مع المجالات العلمية في أجزائها الصغيرة المنفصلة بموضوعية تامة، وبالمقابل تثير العلوم العامة الكبرى لدى معاينتها ككلٍّ السؤال الذي هو سؤال غير موضوعي في الحقيقة: لأي غرض؟ وأية فائدة من وراء ذلك؟ وبسبب هذا الاعتبار المنفعي يتم التعامل معها إذن بأقل موضوعية مما يتعامل مع أجزائها. وفي الفلسفة خاصة، بما هي قمة هرم العلوم عامة، فإن السؤال عن فائدة المعرفة عامة يرى نفسه يطرح بصفة لا إرادية، ولا شعوريا تأخذ كل فلسفة على نفسها مهمة منحها *أعظم* الفوائد. ولهذا السبب نرى كل الفلسفات محملة بكم هائل من الميتافيزيقا المحلّقة وبنفور كبير من الحلول التافهة ظاهريا التي تقدمها الفيزياء، إذ لا بد أن تظهر أهمية المعرفة بالنسبة للحياة على أرفع وأعظم ما يكون. هنا يكمن التناقض بين مختلف الفروع العلمية والفلسفة. فهذه الأخيرة تريد ما يريده الفن، أي أن تمنح الحياة والعمل أكبر ما يمكن من العمق والمعنى، بينما لا يبحث المرء في الأولى إلا عن المعرفة، ليس أكثر، -كائنا ما كانت النتيجة. وإلى يومنا هذا لم يوجد فيلسوف لم تتحول الفلسفة على يديه إلى مديح للمعرفة، وعلى هذا المستوى على الأقل يكون كل واحد منهم متفائلا، بما هو مطالب بإضفاء طابع الفائدة العظمى على هذه الأخيرة. إنهم جميعهم واقعون تحت السلطان المستبد للمنطق؛ والمنطق تفاؤل في جوهره.

7

مشوّش الأفراح في العلم

لقد انفصلت الفلسفة عن العلوم عندما طرحت سؤال: مع أي معرفة من معارف الكون والحياة يكون للإنسان أن يحيا على أسعد وجه؟

حدث ذلك في المدارس السقراطية؛ وعبر منظور السعادة تم خنق البحث العلمي-وما يزال ذلك متواصلا إلى يومنا هذا.

8

تفسير روحاني للطبيعة

تقدم الميتافيزيقا قراءة روحانية لكتاب الطبيعة مماثلة لما فعلته الكنيسة وعلماؤها من قبل مع الأناجيل. ولا بد من قدر كبير من الذكاء كي نستطيع أن نطبق على الطبيعة نفس المنهج التفسيري الصارم الذي طبقه الفيلولوحيون اليوم على كل الكتب، متحلين برغبة أن نفهم فقط ما يريد النص أن يقوله، لا أن نتحسس معنى *مزدوجا* ما، أو أن نفترضه. لكن، وكما أن الطرق التفسيرية السيئة لم يتم تجاوزها على الإطلاق بعد، حتى في ما يتعلق بالكتب، وأن المرء ما يزال يصطدم حتى في أوساط المجتمع الأرقى ثقافة ببقايا التأويلات الاستعارية والروحانية، فكذلك هو الأمر في ما يتعلق بالطبيعة، بل وأسوء بكثير.

9

العالم الميتافيزيقي

صحيح أنه من المحتمل أن يكون هناك عالم ميتافيزيقي، والاحتمال المطلق لوجوده يكاد يكون غير قابل للدحض. نحن نرى الأشياء كلها من خلال رأسنا البشرية، وليس باستطاعتنا أن نقطع هذه الرأس، بينما يظل السؤال المطروح مع ذلك: ما الذي سيتبقى من العالم لو أننا حقا قطعناها؟ وهذه على أية حال مسألة علمية محضة وغير مناسبة لكي تكون أمرا يؤرق الناس؛ غير أن ما جعل الفرضيات الميتافيزيقية *ذات قيمة لديهم ومرهوبة وممتعة*، وما أوجدها إنما هو الهوى والخطأ ومغالطة النفس. أسوأ أنواع مناهج المعرفة على الإطلاق، وليست

أفضلها هي التي علمتهم الاعتقاد فيها. وبمجرد أن يكشف المرء عن هذه المناهج كأساس لكل الديانات الموجودة وكل ضروب الميتافيزيقا، يكون قد دحضها. لكن، سيظل ذلك الاحتمال بوجودها قائما دائما، غير أنه سيكون عديم الفائدة، ناهيك عن أن يحق للمرء أن يجعل سعادته وخلاصه وحياته معلقة بالخيوط الواهية لمثل هذا الاحتمال. ونحن لا نستطيع بالنهاية أن نقول شيئا عن العالم الميتافيزيقي سوى أنه كينونة مغايرة، كينونة أخرى ممتنعة عنا ومتعذرة على الفهم: سيكون إذن شيئا ذا صفات سلبية. وحتى لو تمت البرهنة جيدا على وجود مثل هذا العالم، فسيكون من المؤكد مع ذلك أن هذه المعرفة ستكون الأعدم فائدة من بين كل المعارف على الإطلاق، أعدم فائدة من ضرورة المعرفة بقوانين التحليل الكيميائي للماء بالنسبة لنوتي داخل إعصار.

10

الميتافيزيقا دون مفعول في المستقبل

لمجرد أن يتم التوصل إلى تدقيق لنشأة الدين والفن والأخلاق بما يجعلنا قادرين على تفسيرها تفسيرا شاملا دون أن نلجأ إلى فرضية التدخلات الميتافيزيقية في بداية نشأتها أو خلال مسارها، سيكف الاهتمام بالمسألة النظرية المحض لـ «الشيء في ذاته» و«الظاهرة». ذلك أننا، ومهما كان الأمر، لن نلمس من خلال الدين والفن والأخلاق «جوهر العالم في ذاته»؛ إنما نظل في مجال التصور، وليس هناك من «حدس» بمستطاعه أن يمضي بنا أبعد. وباطمئنان تام ستتخلى عن السؤال عما يجعل صورة العالم التي لدينا تنفصل كل هذا الانفصال عن جوهر العالم المستنتَج بمحض تصور ذهني وندع أمره إلى الفيزيولوجيا وتاريخ تطور العضويات والمفاهيم.

11

اللغة كعلم مزعوم

تكمن أهمية اللغة بالنسبة لتطور الحضارة في كون الإنسان قد أسس داخلها عالما خاصا به موازيا للعالم الآخر، موقعا كان يعده من المتانة بما يمكّنه من الاستناد إليه من أجل إجراء تغيير جذري على بقية العالم وتنصيب نفسه سيدا عليه. ولأن الإنسان ظل يعتقد على مر عصور طويلة في المفاهيم وأسماء الأشياء **كحقائق خالدة**، فقد منح نفسه تلك الكبرياء التي سما بنفسه بواسطتها على مرتبة الحيوان: كان يعتقد حقا أنه استطاع بواسطة اللغة أن يكتسب معرفة العالم. ولم يكن صانع الكلام على قدر من التواضع كي يفكر بأنه إنما كان يمنح الأشياء مجرد تسميات، بل كان يتصور أنه يعبر عن العلم الأرقى بالأشياء من خلال الكلمات؛ في حين ليست اللغة في الواقع سوى الدرجة الأولى من مسار السعي إلى العلم. لقد كان ***الإيمان بالحقيقة المكتشفة*** هنا أيضا هو الأصل الذي انبثقت منه منابع الطاقة الأكثر قوة. وكان لابد أن يمضي وقت طويل، كي تلوح للناس بعديًا -في عصرنا الحاضر- حقيقة الخطأ الهائل الذي ارتكبوه بترويج اعتقادهم في اللغة. ومن حسن الحظ أن جاء هذا متأخرا بما فيه الكفاية، كيما يكون من الممكن العودة إلى الوراء بمسار تطور العقل الذي تأسس على قاعدة هذا الاعتقاد. -حتى المنطق نفسه يقوم هو أيضا على فرضية ليس لها ما يوافقها في العالم الواقعي، مثل فرضية تساوي الأشياء، والهوية التي تكون للشيء الواحد في أوقات مختلفة من الزمن؛ غير أن هذا العلم قد نشأ عن الاعتقاد المعاكس (أن يكون هناك دون شك شيء مماثل في العالم الواقعي). والأمر لا يختلف بالنسبة للرياضيات، التي ما كان لها أن تنشأ لو أن الإنسان كان يعرف منذ البداية أن لا وجود في الطبيعة لخط مستقيم حقا، ولا لدائرة حقيقة، ولا لقياس مطلق.

12

الحلم والحضارة

الذاكرة هي الوظيفة الدماغية الأكثر عرضة للتأثر السلبي من خلال النوم، لا لأنها تتوقف كليا، لكنها تكون قد تقهقرت إلى حالة من الضعف تذكّرنا بما يمكن أنها كانت عليه في النهار وفي حالة الصحو لدى كل شخص في العصور البدائية للإنسانية. وبحكم ما تكون عليه من عسْف وتشويش، تجد نفسها تخلط بصفة مستمرة بين الأشياء بسبب التشابهات العابرة؛ لكن بواسطة العسف والتشويش نفسهما كانت الشعوب تؤلف أساطيرها، وإلى يومنا هذا مازال الرحالة والمسافرون يعاينون إلى أي مدى ينزع الإنسان المتوحش إلى النسيان، وكيف يشرع عقله في الترنح بعد فاصلة وجيزة من توتر الذاكرة، وفي التفوه في حالة من الإنهاك التام بالأكاذيب والسخافات. لكننا جميعنا نشبه في الحلم ذلك الإنسان المتوحش؛ فالتعرف المنقوص على الأشياء والمماثلات الخاطئة تكون سببا في سوء الاستنتاج الذي نلوم أنفسنا عليه في الحلم، حتى أننا نصاب بالذعر من أنفسنا عند الاستعادة الدقيقة لحلم من أحلامنا في الصحو، لكوننا ننطوي على هذا القدر غير القليل من الحماقة. إن الوضوح التام لكل التصورات الحالمة التي تكون مشروطة بضرورة الإيمان بحقيقيتها تذكرنا مجددا بحالات من أوضاع الإنسانية البدائية كان للهلوسة فيها حضور مكثف بشكل بالغ تستبد فيه بين الحين والآخر بمجموعات وشعوب بأكملها في نفس الوقت. هكذا إذن، نعيد في النوم وفي الحلم عمل الإنسانية العتيقة من أوله إلى آخره.

13

منطق الحلم

في النوم يجد جهازنا العصبي نفسه في حالة دائمة من الإثارة تحت مفعول جملة من العوامل الداخلية المتنوعة، كل الأعضاء تقريبا تنفصل عن بعضها البعض فيما تظل نشطة، والدم يؤدي دورته الصاخبة، بينما وضعية النائم تضغط على بعض الأعضاء، وأغطيته تؤثر على إحساساته بطرق مختلفة، والمعدة تقوم بالهضم وتزعج بحركاتها بعض أعضاء أخرى، الأمعاء تتلوى، ووضعية الرأس تحدث حالات غير معتادة على العضلات، والقدمان الحافيتان ودون موطئ ارتكاز لها على الأرض تسبب شعورا بحالة غير معهودة، مثلها مثل لباس النوم المختلف، كل هذه الأشياء، وبحسب التغيير اليومي ودرجة ذلك التغيير، تهيّج مجمل الجهاز العصبي بما في ذلك الوظيفة الدماغية؛ وبذلك يكون للعقل ألف داع إلى التعجب وإلى البحث عن *أسباب* هذا التهيج؛ لكن سيكون الحلم هو نفسه *البحث وتصوّر الأسباب* لهذه الإحساسات المتهيّجة، يعني الأسباب المتخيَّلة طبعا. فالذي يضع قيدين حول قدميه مثلا، سيرى نفسه يحلم بأن ثعبانين يلتفان على قدميه: يكون ذلك في البداية افتراضا، ثم يتحول إلى اعتقاد راسخ مع ما يرافق ذلك الاعتقاد من تصور مجسّد وتمثّل ذهنيّ: «هذان الثعبانان هما بالتأكيد سبب الإحساس الذي أشعر به أنا النائم»، -هكذا يحكم عقل النائم. ويتحول الماضي القريب المستنتَج على هذا النحو إلى حاضر لديه من خلال خياله المهيَّج. كلنا يعرف عن تجربة بأية سرعة يقحم الحالم صوتا حادا يتناهى إليه، مثل طلقات مدفع أو قرع أجراس، داخل حلمه، أي أنه يفسّر الأشياء من خلاله *بعديًا*، بما يجعله يتصور أنه قد عاش الظروف المسبِّبة أولا ثم ذلك الصوت. -ما الذي يجعل عقل الحالم يذهب إلى الخطإ دائما، بينما يكون ذلك العقل نفسه في اليقظة

متحفظا جدا وحذرا جدا، وعلى قدر كبير من الريبة في ما يتعلق بالافتراضات؟ ما الذي يجره إلى الخطأ مما يجعله يرضى بأول فرضية تخطر له لتفسير إحساس ما، ويغدو فورا مؤمنا بحقيقتها؟ (لأننا في الحلم نؤمن بالحلم كما لو كان واقعا، أي أننا نقبل بفرضيتنا أمرا مبرهنا على صحته تماما). - ما أعنيه: إن الطريقة التي يستنتج بها المرء في الحلم اليوم هي تلك الطريقة نفسها التي ظلت الإنسانية تستنتج بها في *اليقظة* على مدى قرون طويلة: كان الإنسان يكتفي بأول سبب يخطر على ذهنه لتفسير شيء يحتاج إلى تفسير، ويعتبره حقيقةً. (وعلى هذا النحو ما زال يتعامل البدائيون اليوم، حسب ما يرد في روايات الرحالة والمسافرين). في الحلم يظل هذا الجزء العتيق من الإنسانية يواصل عمله فينا، ذلك أنه القاعدة التي تطور على أساسها العقل الراقي وما انفك يتطور لدى كل منا: يحملنا الحلم إلى أحوال بعيدة من ماضي الحضارة الإنسانية ويضع في يدنا أداة لفهمها فهما أفضل. وإذا ما بدا لنا التفكير الحُلمي الآن سهلا فذلك لكوننا وعلى مدى حقب طويلة من مسيرة تطور الإنسانية، قد تم ترويضنا جيدا على مثل هذا الشكل من التفسير المتخيَّل البخس المستمد من الخاطرة الأولى التي تمنح نفسها لنا. وبهذا يكون الحلم فاصلة استراحة للعقل الذي لديه في اليقظة ما يكفي من إلزامات التفكير المجهدة من ذلك الصنف الذي تتطلبه حضارة متطورة. هناك ظاهرة مشابهة في الصحو يمكننا أخذها في الاعتبار كبوابة ورواق للحلم: عندما نغمض عينينا ينتج الدماغ عددا من الانطباعات الضوئية والألوان كنوع من ترديد ورجع صدى لكل المفاعيل الضوئية التي تقتحمه نهارا. غير أن العقل (وبتواطؤ مع المخيّلة) سيحول هذه المفاعيل الضوئية غير المتشكّلة فورا إلى أشكال وصور محددة ومناظر طبيعية ومجموعات حية. ومحصّل ما يحدث هنا هو مرة أخرى ضرب من استنتاج السبب من النتيجة؛ وفيما يتساءل

العقل: من أين تأتي هذه الانطباعات الضوئية والألوان؟ يفترض كأسباب لها تلك الأشكال والصور التي يرى فيها الشروط المحدّدة لتلك الألوان والأضواء، لأنه معتاد في حالة اليقظة وبعينيه المفتوحتين أن يرد كل لون وكل انطباع ضوئي إلى سبب محدِث. هنا تظل المخيلة تمده بصفة متواصلة بصور تستند في إنتاجها على الانطباعات البصرية الحاصلة لديه نهارا، وعلى هذا النحو بالضبط يشتغل الخيال الحُلمي: أي أن العلة المفترضة تستخلص من النتيجة، ويتم تصورها *تبعا* للنتيجة: كل ذلك يحدث بسرعة فائقة مما يُحدث، كما يحصل أمام ألعاب ساحر، تشويشا في التمييز وتعاقبا يتخذ هيأة تزامن، بل هيأة تعاقب في اتجاه معكوس أيضا.

يمكننا أن نستخلص انطلاقا من هذه العمليات الاستنتاجية أن التفكير المنطقي الدقيق والتمييز الصارم بين العلة والسبب لم تتطور إلا في مرحلة *متأخرة جدا*، طالما أن عقلنا والوظائف الذهنية لدينا ما تزال *إلى اليوم* تعتمد تلك الأشكال الاستنتاجية البدائية، وأننا نقضي ما يقارب النصف من حياتنا على هذا الحال. إن الشاعر الفنان يردّ هو أيضا حالاته النفسية وأحواله إلى أسباب ليست حقيقية على الإطلاق؛ إنه يذكرنا في ذلك بالإنسانية العتيقة ويمكنه بالتالي أن يساعدنا على فهمها.

14

رجع صدى

كل الحالات النفسية العنيفة تحدث ترجيعات انطباعات وحالات نفسية مشابهة، وتنبش في الآن نفسه في الذاكرة. هناك شيء يتذكر نفسه في داخلنا عندها ويغدو واعيا بحالات مماثلة وبمصدرها. هكذا تتشكل تداعيات أحاسيس وأفكار سريعة ومألوفة يتم الإحساس بها عندما

تتوالى بسرعة فائقة لا مجموعات مركبة بل *كوحدات*. من هذا المنظور نتكلم عن أحاسيس أخلاقية ومشاعر دينية كما لو أن هذه الأخيرة وحدات بسيطة؛ بينما هي في الحقيقة أنهار لها مئات المنابع والروافد. هنا أيضا، وكما هو الحال غالبا، لا تكون وحدة العبارة ضمانا لوحدة الشيء.

15

ما من باطن وخارج في العالم.

وكما أقحم ديموقريطس مفهومي الفوق والتحت على الفضاء اللامتناهي حيث لا معنى لهما، كذلك يفعل الفلاسفة عامة بإقحامهم مفهومي «الباطن والخارج» على جوهر وظاهر العالم؛ وكانوا يعتقدون أن المشاعر العميقة تجعل المرء ينفذ عميقا إلى الداخل ويقترب من قلب الطبيعة. غير أن هذه المشاعر لا تكون عميقة إلا بما يرافقها، وبصفة بالكاد تكون ملحوظة، من *تهيّج* منتظم لمجموعات مركبة من الخواطر نسميها عميقة؛ إن شعورا ما يكون عميقا لمجرد أننا نعتبر ما يرافقه من أفكار عميقا. لكن الفكرة العميقة يمكنها مع ذلك أن تكون أبعد ما يكون عن الحقيقة، كما هو الشأن بالنسبة للفكرة الميتافيزيقية على سبيل المثال؛ وإذا ما طرحنا عن المشاعر العميقة ما يخالطها من عناصر الخواطر الفكرية فإنه لن يتبقى لنا منها سوى الإحساس *القوي*، وهذا الأخير لا يضمن شيئا للمعرفة غير ذاته، تماما مثلما لا يدل الإيمان المتين إلا عن قوته الخاصة وليس على حقيقة المعتقَد فيه.

16

الظاهر والشيء في ذاته.

اعتاد الفلاسفة أن يقفوا تجاه الحياة والتجربة -أمام ما يدعونه عالم

الظواهر- وقوفهم أمام لوحة قد تم عرضها نهائيا وتعرض بدورها بصفة ثابتة ودائمة نفس المشهد: لا بد من تفسير دقيق لهذا المشهد، يقول هؤلاء، من أجل التوصل إلى استنتاج حول الكائن الذي أنجز هذه اللوحة: يعني حول الشيء في ذاته، الذي يُنظر إليه دائما على أنه الشرط اللازم لعالم الظواهر. وبالقابل فقد توصل مناطقة صارمون، وبعد أن حددوا بدقة المفهوم الميتافيزيقي لللامشروط وتبعا له لللامشترِط، إلى إبطال كل صلة بين اللامشروط (العالم الميتافيزيقي) والعالم الذي نعرفه، بحيث لا يكون في «الظاهري» أي ظهور ممكن للشيء في ذاته، وأن كل استنتاج لأحدهما من الآخر لابد أن يكون مرفوضا. غير أن كلا الطرفين يغفل أن اللوحة -أو ما يسمى لدينا الآن، نحن البشر، حياة وتجربة- إنما *صارت* تدريجيا، بل *ما تزال في طور صيرورتها*، ولذلك لا يحق لنا اعتبارها بعدا ثابتا يصح الاعتماد عليه لاستخلاص علاقة سببية لها بمبدعها (الشرط اللازم)، أو حتى لنفي تلك العلاقة. وبحكم ما دأبنا عليه لآلاف السنين من النظر إلى العالم بمزاعم أخلاقية وجمالية ودينية، وبعماء الميول والهوى أو الخوف، ولكوننا كرعنا حتى الثمالة من العادات السيئة للفكر اللامنطقي، فقد أضحى هذا العالم شيئا فشيئا على نحو بديع من الزخرف ومن الفظاعة ومن العمق ومن الروحانية: أصبح العالم ذا ألوان،-غير أننا كنا نحن الملوِّنين، فالذهن البشري هو الذي أظهر ما هو ظاهر، وهو الذي أقحم تصوراته الأساسية الخاطئة في الأشياء. في مرحلة متأخرة، متأخرة جدا، عنّ للإنسان أن يتفكر جديّا في الأمر، وإذا عالم التجربة والشيء في ذاته يبدوان له على غاية من الاختلاف والانفصال مما جعله ينفي وجود علاقة سببية بين هذا وذاك، أو يدعو، بصفة محيّرة تبعث على الذعر إلى *استقالة* عقلنا وإرادتنا الشخصية؛ كي يتمكن من *خلال ذلك* من بلوغ الجوهر: من أن يصير

الإنسان جوهرا. وبالمقابل عمد آخرون إلى جمع كل الخصائص المميزة لعالمنا الظاهري -أي ذلك الذي تشكّل نسيجه من أخطائنا الذهنية ومن التصور المتوارث لدينا عن العالم، وعوضا عن *إلقاء التهمة على العقل*، فقد أعلنوا جوهر الأشياء سببا في هذا الطابع الحقيقي المخيف جدا للعالم وراحو يكرزون للخلاص من الكائن. كل هذه المفاهيم ستتكفل المسيرة المتصلة والشاقة للعلم بمهمة القضاء عليها بشكل نهائي عندما سيكون لها أن تحتفل أخيرا بنصرها الأكبر في تأسيس *تاريخ نشأة الفكر*، والتي ستتلخص نتيجتها ربما في هذا القانون: إن هذا الذي نسميه اليوم عالما هو حصيلة لجملة من الأخطاء والخيالات التي نشأت شيئا فشيئا ضمن التطور العام للنظام العضوي للكائنات وتداخلت في تطورها، ثم ورثناها اليوم ككنز من محصّل مجمل الماضي-ككنز، ذلك أن قيمة إنسانيتنا قائمة عليه. ولن تستطيع العلوم الصارمة أن تخلصنا من عالم التصور هذا إلا بمقدار ضئيل-وهو أمر غير مرغوب أصلا- نظرا لكونها غير قادرة على إجراء تدمير جوهري للسلطة الساحقة لعادات الإحساس الموغلة في القدم. لكنها تستطيع أن تضفي إنارة تدريجية ومطردة على تاريخ نشأة هذا العالم كتصوّر، وأن ترتفع بنا للحظات فوق هذه الصيرورة. ولربما سنعرف عندها أن هذا الشيء في ذاته لا يستحق أكثر من ضحكة مجلجلة، ذلك أن هذا الذي *كان* يبدو كبيرا، بل كلّ شيء، إنما هو فارغٌ في الحقيقة، أي مجرد من كل معنى.

17

تفسيرات ميتافيزيقية

يمنح الشاب تقديرا للتفسيرات الميتافيزيقية لأنها تظهر له في الأشياء التي يجدها كريهة أو بخسة شيئا على غاية الأهمية، وإذا ما كان غير

راض عن نفسه فإن وطأة هذا الشعور ستخف عنه عندما يكتشف المغزى العميق للعالم أو البؤس العميق للعالم في ما كان ينكره في نفسه. أن يشعر أنه غير مسؤول، وأن الأشياء أكثر أهمية في الآن نفسه، ذلك هو ما سيكون بالنسبة إليه فضلا مضاعفا يدين به للميتافيزيقا. غير أنه سيشعر لاحقا بشيء من الريبة دون شك تجاه مجمل التفسيرات الميتافيزيقية، إذ سيكتشف أن مثل هذه الأحاسيس يمكن أن تتحقق له أيضا من طريق أخرى مغايرة، هي طريق العلم، وأن التفسيرات الفيزيائية والتاريخية تؤدي على الأقل إلى بلوغ نفس الإحساس بعدم المسؤولية، وأن تلك الأهمية التي تولى إلى الحياة ومشاكلها ستغدو ربما أكثر حماسة وتوقدا.

18

المسائل الأساسية للميتافيزيقا

يوم تتم كتابة تاريخ نشأة الأفكار ستجد المقولة اللاحقة لأحد المناطقة الممتازين نفسها تحت إنارة جديدة: «يجد القانون الأصلي العام للذات العارفة منشأ له في الحاجة العميقة لمعرفة كل موضوع في ذاته وفي وجوده الخاص على أنه شيء مطابق لنفسه، أي مستقل بذاته ومماثل لذاته وغير متغير على الدوام، أي باختصار ماهية.»[٧] حتى هذا القانون الذي يدعى هنا «أصليا»، هو أيضا محصّل صيرورة: وذات يوم سيتبيّن كيف ينشأ هذا الميل في الكائنات العضوية الدنيا، وكيف أن العيون الضعيفة لهذه العضويات تظل لا ترى في البداية سوى المماثل، ثم، وعندما تصبح الإثارات المتنوعة للذة والاشمئزاز أكثر وضوحا، تغدو المواد المتنوعة أكثر فأكثر تمايزا، لكن كل على صفة واحدة، أي في علاقة وحيدة بذلك الكائن العضوي المحدد.

تكون الدرجة الأولى من المنطق هي الحكم الذي يقوم جوهره

حسب ما يقره أفضل المناطقة على الإيمان. ويتأسس كل إيمان على قاعدة إحساس *اللذة والألم* لدى الذات الحساسة. وعن هذين الإحساسين المختلفين الأولين ينتج إحساس جديد ثالث هو الحكم في شكله الأدنى. ونحن ككائنات عضوية لا يهمنا من أي شيء في البدء غير علاقته بنا من جهة اللذة والألم. وما بين اللحظات التي نكون فيها على وعي بهذه العلاقة، أي حالات الإحساس، تمتد فترات من الاستراحة، فترات من انعدام الحساسية: هنا يكون العالم وكل شيء عديم الأهمية بالنسبة لنا، ولا نلاحظ أي تغييرات تطرأ عليه (مثلما يحدث اليوم لشخص يكون منشغلا شديد الانشغال فلا يلاحظ مرور شخص من أمامه). فبالنسبة للنبتة يكون كل شيء ساكنا، خالدا، كل شيء دائم التطابق مع نفسه. وقد ورث الإنسان عن مرحلة العضويات البدائية الإيمان بوجود أشياء متطابقة (لن تُدحض هذه المقولة إلا من خلال التجربة المكتسبة عن طريق العلم المتطور). ولعل الاعتقاد البدائي لكل العضويات منذ البدء كان بأن العالم بأكمله شيء واحد ثابت لا يتغير. –تظل هذه المرحلة البدائية من منطق التفكير أبعد ما يكون عن *السببية*. بل وإلى اليوم ما زلنا نعتقد في الأساس بأن كل الإحساسات والأفعال إنما هي فعل إرادة حرة؛ وعندما يعاين فرد حاسّ نفسه فإنه يرى إلى كل إحساس وكل تغيير على أنه شيء معزول، أي لا مشروط ومستقل: أي أنه ينشأ من صلبنا دون علاقة بشيء سابق أو لاحق. نحس بالجوع غير أننا بدئيا لا نعتبر أن الجسد يبتغي الحفاظ على نفسه، بل يبدو كما لو أن ذلك الإحساس يريد فرض نفسه *دون سبب أو غاية*، يعزل نفسه ويبدو *اعتباطيا*. إذن: إن الاعتقاد في حرية الإرادة خطأ بدائي مشترك بين كل العضويات، قديم قدم المنطق الذي يحركه؛ كما أن الاعتقاد في جواهر لامشروطة وفي الأشياء الثابتة خطأ بدائي هو أيضا وقديم لدى كل العضويات. وبما أن

الميتافيزيقا بكليتها قد انشغلت بالجوهر وحرية الإرادة فإنه سيحق لنا أن نعتبرها العلمَ الذي يهتم بالأخطاء الجوهرية للإنسانية، لكن كما لو أنها حقائق جوهرية.

19

العدد

تم ابتكار قوانين العدد على قاعدة الخطأ الأصلي السائد، والقاضي بوجود أشياء عديدة متساوية (لكن لا وجود لشيء مساو لشيء آخر)، أو على الأقل أنه توجد أشياء، (لكن ما من «شيء» هناك). إن فرضية التعدد تشترط دوما أن يكون هناك شيء *ما* يرد متعددا؛ لكن هنا بالذات يكون الخطأ قد شرع في بسط نفوذه، إذ هنا نشرع في تصوّر كائنات ووحدات لا وجود لها. -إحساسنا بالمكان والزمان خاطئ هو أيضا، ذلك أنه يقود، إذا ما فحصناه بصرامة، إلى تناقضات منطقية. وفي كل معايناتنا العلمية نقيم حساباتنا دوما على كميات خاطئة؛ لكن وبما أن الكميات تظل *ثابتة* على الأقل، كإحساسنا بالمكان والزمان على سبيل المثال، فإن نتائج العلم تكتسب صرامة ويقينا تامّين في علاقاتها ببعضها، وبإمكاننا أن نواصل البناء عليها- حتى ذلك الحد النهائي الذي ستدخل فيه تلك الفرضيات الأساسية الخاطئة وذلك الخطأ الثابت في تناقض مع النتائج، كما هو الشأن في النظرية الذرية مثلا. هنا نجد أنفسنا مضطرين إلى افتراض «شيء» أو «مادة» (substrat) يتم تحريكها، بينما مجمل الإجراء العلمي قد جعل مهمته في إذابة كل ما هو من نوع الشيء والمادة في حركات: هنا أيضا نحدث تفرقة بين ما هو محرِّك (بكسر) وما هو محرَّك (بفتح) ونجد أنفسنا لا نستطيع الخروج من هذه الدائرة، لأن الاعتقاد في الشيء مرتبط بكياننا منذ القدم. وعندما يقول كنط «إن العقل لا يستمد قوانينه

من الطبيعة، بل هو الذي يمليها عليها»[٨] فإن ذلك صحيح تمام الصحة فيما يتعلق *بمفهوم الطبيعة* الذي نجد أنفسنا مضطرين لربطه بها (طبيعة= العالم كتصوّر، يعني كخطأ)، لكنه مجموعُ حشد من أخطاء العقل. وهكذا فإن قواعد حسابنا تكون غير قابلة بالمرة للتطبيق على عالم ليس من تصورنا: إنها قواعد تنحصر صلاحيتها على عالم الإنسان دون غيره.

20

بعض خطوات إلى الوراء[٩]

يكون الإنسان قد بلغ درجة عالية من العلم عندما يتجاوز مخاوفه وأفكاره الخرافية والدينية، ويكف مثلا عن الاعتقاد في الملائكة الخيّرة أو في الخطيئة الأصلية، ويكون قد نسي الكلام عن خلاص الروح أيضا: وهو على هذه الدرجة من التحرر سيظل عليه دوما أن يبذل قصارى الجهد العقلي للتغلب على الميتافيزيقا. *عندها* سيكون عليه مع ذلك أن يقوم بحركة *ارتداد إلى الوراء*: سيكون عليه أن يفهم المبررات التاريخية والبسيكولوجية لتلك التصورات، ويكون عليه أن يدرك كيف أن أعظم تطور للإنسانية كان مأتاه من هناك، وأننا من دون هذه الخطوة إلى الوراء سنكون قد حرمنا أنفسنا من أفضل ما توصلت إليه الإنسانية من نتائج. وفي ما يتعلق بالميتافيزيقا الفلسفية أرى عددا أكبر فأكبر ممن لمسوا حدها السلبي (علما وأن ميتافيزيقا إيجابية محضُ خطأ)، لكن عددا قليلا فقط أنجز تراجعا ببضعة درجات إلى الوراء؛ في حين علينا أن نطل على العالم من فوق أعلى درجة من السلّم، لا أن نغدو راغبين في المكوث عند تلك الدرجة. إن أقصى ما يبلغه أكبر المتنوّرين لم يتجاوز كونهم تحرروا من الميتافيزيقا وأصبحوا ينظرون إليها بعين المتفوق نظرتهم إلى شيء يقع خلفهم؛ بينما ينبغي، هنا

أيضا كما في ميدان سباق الخيل، أن تتم الدورة حتى العودة إلى نقطة الانطلاق كي نبلغ نهاية السباق.

21

الانتصار المفترض للريبية

لنسلِّمْ للحظة بالمنطلق الريبي: لو افترضنا أن ليس هناك من عالم آخر ميتافيزيقي، وأن كل التفسيرات المتأتية من الميتافيزيقا عن هذا العالم الوحيد هذا الذي نعرفه غير ذات جدوى بالنسبة لنا، فبأي نظرة سنرى إلى الإنسان والعالم إذن؟ إن هذا أمر يمكن أن نعتبره مفيدا، حتى وإن تم إقصاء السؤال المتعلق بما إذا كان كنط وشوبنهاور قد برهنا علميا على وجود شيء ميتافيزيقي ما. ذلك أنه من الممكن جدا، بحسب المحتمَل التاريخي، أن الناس في مجملهم سيغدون في يوم ما ريبيين بهذا الشأن؛ وهنا يطرح السؤال نفسه: على أي نحو سيتشكل المجتمع الإنساني في ظل تأثير هذه العقلية؟ ربما يكون *البرهان العلمي* على وجود عالم ميتافيزيقي على غاية من الصعوبة بحيث يغدو من *الصعب جدا* على الإنسانية التخلص من الريبة تجاهه. وإذا ما كان الإنسان مرتابا في أمر الميتافيزيقا، فإن النتيجة في مجملها ستكون هي نفسها، كما لو أنه قد تم دحضها ولم يعد يحقّ لنا الاعتقاد فيها. ويظل السؤال التاريخي المتعلق بعقلية لاميتافيزيقية للإنسانية هو نفسه في كلتا الحالتين.

22

عدم الإيمان بـ«المعْلم الخالد» –monumentum aere perennius

هناك سلبية أساسية ترافق بطلان التصورات الميتافيزيقية تتمثل في أن الفرد سيصبح مركّزا بقوة على المحدودية الزمنية لحياته ولن يشعر بدوافع قوية تحركه لتشييد مؤسسات ذات ديمومة تمتد على قرون

طويلة من الزمن؛ إنه يريد أن يقطف بنفسه ثمار الشجرة التي يغرسها، ولذلك لا تغريه تلك الأشجار التي تتطلب رعاية دؤوبة على مدى عشرات السنين، والتي جُعلت لكي تستظل بها أجيال متعاقبة من بعده. فالرؤية الميتافيزيقية تمنح الإنسان الإيمان بأنها موضع الأساس النهائي والأخير الذي ينبغي أن يستقر فوقه مجمل مستقبل الإنسانية ويبني على قاعدته، وبالتالي فإن الفرد يساهم في خلاصه ببناء كنيسة، أو تأسيس دير، لأن ذلك في رأيه سيحسب له في الحياة الخالدة القادمة للروح: إنه عمل من أجل الخلاص الأبدي لروحه. فهل يستطيع العلم أن يثير بنتائجه مثل هذا الإيمان؟ عمليا يتطلب العلم الشك والريبة حليفيْن وفيّيْن، وبالرغم من ذلك، فمع مرور الزمن يمكن لمجموع الحقائق المحصَّنة، تلك التي تغلبت على كل أعاصير الريبة وكل عمليات التفكيك، أن تنمو وتتضاعف (كما هو الحال بالنسبة للحمية الصحية مثلا) بما يجعل الإنسان يقرر الانخراط في إنجاز أعمال «خالدة». وفي الأثناء سيظل *التباين* بين وجودنا المضطرب كفانين والسكينة الطويلة للعصور الميتافيزيقية على أقوى ما يكون، لأن الفترتين ما زالتا تتواجهان عن قرب، والفرد نفسه يمر حاليا بتحولات داخلية وخارجية عديدة تجعله لا يستطيع أن يهيئ أسباب وجوده حتى لمدة حياته الخاصة على نحو مستديم ونهائي. إن إنسانا حديثا بأتم معنى الكلمة عندما يريد أن يبني لنفسه منزلا مثلا يساوره في ذلك شعور كما لو أنه يحشر نفسه حيا داخل ضريح.[١٠]

23

عصر المقارنة

بقدر ما ترتخي روابط الإنسان مع الموروث، بقدر ما تزداد الحركة الداخلية لدوافعه، وتكبر وفقا لذلك وتيرة الاضطراب الخارجي وحركة

التيارات المتداخلة للتنقلات البشرية وتعدد الطموحات. مَن مِن الناس مازال يشده اليوم إلزام صارم بضرورة التصاقه هو ونسله بمكان بعينه. ومن ذا الذي مازال يشده شيء صارم التقييد يا ترى؟ وكما تجد كل الأساليب الفنية نفسها جنبا إلى جنب في مبارةِ محاكاةٍ مفتوحة، كذلك يحدث مع شتى مستويات وأنواع الأخلاقيات والتقاليد والثقافات. إن عصرا كهذا يستمد أهميته من كون مختلف الرؤى والتقاليد والثقافات تستطيع أن تتقارن فيه وأن تعاش كلها جنبا إلى جنب داخله، الأمر الذي لم يكن ممكنا فيما قبل في ظل سيادة ثقافات مرتبطة دوما بمحليتها وفقا لارتباط كل الأساليب الفنية بمكان وزمان بعينهما. واليوم غدا تطور الحس الفني هو الذي يقضي بحكمه النهائي بين ما يعرض نفسه للمقارنة من مختلف الأشكال: سيدع أغلب تلك الأشكال إلى الموت-أي كل تلك التي يرفضها ذلك الحس الفني-. كما تتم أيضا عملية انتقاء تُجرى على الأنماط والعادات في التقاليد الثقافية الراقية التي لا غاية لها سوى اندثار التقاليد الأخلاقية الدنيا. إنه عصر المقارنة! ذلك هو مصدر فخره، وهو، وبكل إنصاف، مصدر معاناته أيضا. لكن، لا تفزعنّنا هذه المعاناة! بل لنمض، وبكل ما أوتينا من إرادة وقدرة في فهم المهمة التي وضعها لنا عصرنا؛ وهكذا ستباركنا الأجيال القادمة على ذلك، ذلك الخلَف الذي سيجد نفسه فوق الثقافات المحلية الأصلية المغلقة وفوق حضارة عصر المقارنة على حد السواء، لكنه يلتفت بنظره إلى ذينك النوعين معا نظَره إلى أثرين عتيقين جديريْن بالإكبار.

24

إمكانية التقدم

عندما يقرر عالم من الحضارة القديمة أن لا يتعامل أبدا مع أناس

يؤمنون بالتقدم، فإنه سيكون على حق. ذلك أن عظمة وفائدة الحضارة القديمة قد غدت في عداد الماضي ، والثقافة التاريخية تفرض علينا أن نقر بأنها لن تستطيع أن تستعيد نظارتها البتة. ولا بد أن يكون المرء على قدر لا يطاق من الحماقة أو من الحماسة الكريهة كي ينكر هذا الأمر. غير أنه يظل بإمكان الناس اليوم أن يقرروا التطور باتجاه حضارة جديدة عن *إرادة واعية* ، بينما كان تطورهم يتم في ما مضى لاإراديا وبمحض الصدفة: بإمكانهم اليوم أن يهيئوا أفضل الشروط لتنشئة نسل جديد وتوفير غذائه وتعليمه وتربيته، ولإدارة اقتصادية للعالم ككل موحد وتقدير الطاقات البشرية عامة وتوظيفها. هذه الحضارة الجديدة ستحكم بالموت على القديمة التي كانت، منظورا إليها في مجملها، تقضي الحياة على نحو حيواني ونباتي؛ وستقضي في الآن نفسه على الشك في التقدم؛ -إنه أمر ممكن حقا. أعني بهذا: إنه ربما من قبيل التسرع الطائش والعبث أن نعتقد بأن التقدم سيحصل *حتما*؛ لكن كيف يمكن للمرء أن ينكر أنه ممكن؟ وبالمقابل إن تقدما بمفهوم الحضارة القديمة وعلى منوالها أمر لا يمكن تصوره أصلا. وعندما يجعل خيال الرومنطيقية من عبارة «تقدم» تعبيرا عن واحد من أهدافها(الثقافات المحلية الأصلية المغلقة مثلا)، فإنها على أي حال تستعير له صورة من الماضي: إن تفكير الرومنطيقية وتصورها في هذا المجال خلو من كل أصالة.

25

أخلاق فردية وكونية

منذ أن كف الاعتقاد بأن إلها يتحكم إجمالا في مصير العالم، وأنه هو الذي يقود بسيادة المولى مسار الإنسانية عبر المنعرجات الظاهرية لطريقها، سيكون على الإنسانية أن تحدد بنفسها وبصفة مؤتلفة أهدافا

شمولية للعالم بكليته. تطالب الأخلاق القديمة، الأخلاق الكنطية على وجه التحديد، الأفراد بأعمال من تلك التي ينتظرها من جميع الناس: كان ذلك شيئا جميلا ساذجا، كما لو أن كل واحد كان يعرف بكل بساطة أي نوع من التصرف يمكنه أن يكون ذا نفع للإنسانية في مجملها، أي أيّ تصرفات يمكن أن تكون مرغوبة بالنهاية. إنها نظرية شبيهة بتلك التي تدعو إلى التبادل الحر، تقوم على مسلمة أن التناغم الكوني لا بد أن يتحقق من لدن نفسه بموجب القوانين الفطرية للتوْق إلى الأفضل. لكن نظرة مستقبلية لحاجيات الإنسانية قد تظهر أنه ليس من المرغوب بتاتا أن يتصرف الناس جميعهم بنفس الطريقة، بل ربما تقتضي مصلحة الأهداف التوافقية العامة أن تحدَّد مهمات خصوصية، ولربما مهمات شريرة أيضا. وفي كل الأحوال، سيكون على الإنسانية، إن لم تكن تريد أن تمضي إلى حتفها من خلال هذا النوع من الإدارة الكونية الواعية، أن تكتسب أولا معرفة *بشروط الحضارة* تفوق كل درجات المعرفة المحصلة إلى حد الآن، تكون مقياسا علميا للأهداف التوافقية الكونية. هنا تقع المهمة الجسيمة الملقاة على عاتق العقول العظيمة للقرن القادم.

26

الرجعية كتقدم

يحدث أن تظهر بين الحين والآخر عقول حادة عنيفة وجارفة التأثير، لكنها متخلّفة مع ذلك، تستحضر مرحلة مضت من مسار البشرية تروم بعثها من جديد: هذه العقول تمثل دليلا لدينا على أن الاتجاهات الجديدة التي تعمل ضدها ما تزال غير متينة بما فيه الكفاية، وأن شيئا ما ينقصها، وإلا لكان بإمكانها أن تتصدى بطريقة أنجع لهذه العقول التي تستحضر الأموات. والإصلاح اللوثري يمدنا بشاهد على أن كل

نزوعات الفكر الحر في عصره كانت غير واثقة، هشة وطفولية؛ ولم يكن العلم قادرا بعد على رفع هامته. أجل، كانت مجمل النهضة تبدو مثل بدايات ربيع مهدد بأن يُطمَر مجددا تحت الثلوج. لكن وحتى في قرننا هذا، تأتي ميتافيزيقا شوبنهاور لتبرهن لنا على أن العقل العلمي ما يزال غير متين بما فيه الكفاية، وهكذا غدا بإمكان مجمل الرؤية المسيحية الوسيطية وتصوراتها عن الإنسان أن تشهد انبعاثها في تعاليم شوبنهاور، بالرغم مما تحقق من إبادة لكل أركان العقيدة المسيحية منذ زمن غير قصير. تصدح تعاليم شوبنهاور بنبرة علم كثير، غير أن ما يسيطر على تلك التعاليم ليس العلم، بل «الحاجة الميتافيزيقية» القديمة المعروفة. لا شك أن شوبنهاور يمنحنا واحدة من أكبر الفوائد التي لا تقدر بثمن وتتمثل في كونه يجعل حساسيتنا تضطر إلى العودة مؤقتا إلى أنواع من الرؤى القديمة ذات النفوذ في مقاربة العالم والإنسان، ما كان لطريق أخرى أن تقودنا إليها بمثل هذه السهولة. إنه كسب كبير للتاريخ والعدالة، فأنا أعتقد أنه من دون العون الذي يقدمه شوبنهاور لن يكون بإمكان أحد اليوم أن يتمكن بسهولة من أن يقضي بإنصاف في شأن المسيحية وشبيهاتها الآسيوية، الأمر الذي يعد مستحيلا من منطلق الأرضية الحالية للمسيحية. الآن فقط، وبعد هذا *الانتصار الكبير للعدالة*، وبعد أن أجرينا في هذه النقطة الأساسية التعديل الضروري على نوع المعاينة التاريخية التي جاء بها عصر التنوير، الآن فقط يحق لنا أن نرفع من جديد راية التنوير- راية تحمل الأسماء الثلاثة: بيترارك، إيراسموس، فولتير-. لقد جعلنا من النكوص الرجعي تقدما.

27

الفلسفة كمعوّض عن الدين؟

يعتقد البعض بأنهم يحسنون للفلسفة عندما يضعونها كمعوّض عن

الدين لدى الشعب. غير أن الواقع في مجال المعاملات الذهنية يقتضي ضرورة أن تتوفر حلقة فكرية انتقالية عند الاقتضاء، ذلك أن المرور من الدين إلى الرؤية العلمية مباشرة يعد قفزة عنيفة وخطيرة، وشيئا ينبغي تفاديه. لكن على المرء بالنهاية أن يتعلم أن الحاجات التي كان يلبيها الدين، والتي يُنتظر من الفلسفة أن تلبيها الآن ليست غير قابلة للتغير؛ فهذه الحاجات أيضا بإمكاننا أن *نضعفها* أو *نلغيها*. فلنتذكر مثلا الشقاء الروحي في المسيحية والتذمر من فساد الأنفس، والانشغال بالخلاص، وكلها تصورات مأتاها الوحيد أخطاء العقل ولا تستحق تلبية، بل يتوجب القضاء عليها. بإمكان فلسفة ما إما أن تمضي إلى تلبية هذه الحاجيات أو إلى إلغائها باعتبارها حاجات مكتسبة ومرتبطة بحدود زمنية وتقوم على فرضيات مناقضة للعلم. ههنا، ولكي نضمن هذا الانتقال، سيكون الفن بالأحرى هو الوسيلة الأجدى للتخفيف عن الأنفس المشحونة بتلك الأحاسيس، لأن الفن لن يمنح تلك التصورات ما تمنحه إياها فلسفة ميتافيزيقية من صيانة وتعهّد. سيكون الفن إذن المعبر الأنجع الذي يمكننا من المرور بسهولة إلى علم فلسفي محرَّر.[١١]

28

كلمات فقدت مصداقيتها

لتذهب إلى الجحيم عبارتا التفاؤل والتشاؤم اللتان اهترأتا حد القرف! فالحاجة إلى استعمالهما ما فتئت تتقلص يوما بعد يوم: وحدهم الثرثارون مازالوا يحتاجون إليها في وقتنا الحاضر. إذ ما الذي يدعو أحدا ليريد أن يكون متفائلا والحال أنه لم يعد لديه إله يريد الدفاع عنه، إله خلق أفضل العوالم، إذا ما افترضنا أنه كان الخيرَ والكمالَ حقا، -لكن أي ذي عقل وفكر ما زال يحتاج إلى فرضية وجود إله؟

ليس هناك أيضا من داع لأي شهادة إيمان قائمة على التشاؤم إن لم تكن للمرء مصلحة في إزعاج المدافعين عن الله وعلماء اللاهوت والفلاسفة ذوي المنحى اللاهوتي، وأن يقذف في وجههم بعنفٍ الطرحَ المضاد القائل بأن الشر يسود، وأن القرف أكبر من اللذة، وأن العالم تفاهة وتمظهر لإرادة شريرة في الحياة. لكن من تراه مازال يهتم باللاهوتيين اليوم-عدا اللاهوتيين؟ وبصرف النظر عن كل لاهوت وعن محاربته، فإنه من البديهي أن العالم لا هو بخير ولا هو بشرّ، ناهيك عن كونه الأفضل أو الأسوأ، وأن فكرتي «الخير» و«الشر» لا معنى لهما إلا بعلاقة بالبشر، بل ربما هما، حتى في هذه الحالة، وبالنظر إلى الطريقة التي تستعملان بها عادة، غير مبررتين: وسيكون علينا في كل الأحوال أن نتخلص من هذه التصورات الشاتمة منها والمادحة للعالم على حد السواء.

29

نشوان بعطر الزهور

هناك رأي يزعم بأن باخرة الإنسانية تكون حائزة على سحب أقوى من الأعماق بقدر ما تكون حمولتها أكبر؛ ويُعتقد بالتالي أنه بقدر ما يكون تفكير الإنسان أعمق، بقدر ما يكون إحساسه أرق وتقديره لنفسه أرقى والمسافة التي تفصله عن الحيوان أكبر-ليبدو أكثر فأكثر في صورة العبقري بين بقية الحيوانات-، وبقدر ما يزداد اقترابا من الجوهر الحقيقي للعالم ومن معرفته. ذلك هو ما يحققه حقا بواسطة العلم، لكنه يزعم أنه سيحقق ذلك بصفة أفضل بواسطة الدين والفنون. وهذه الأخيرة تمثل بحق أزهار العالم، لكنها لاتكون أبدا أقرب إلى جذوره من الجذع: إنها لا تمكن الإنسان البتة من فهم أفضل لجوهر الأشياء، بالرغم من أن هذا هو ما يعتقده الجميع تقريبا. لقد جعل *الخطأ*

الإنسان على قدر من العمق والرقة والقدرة على الابتكار كي تتفتق عنه مثل هذه الزهور من نوع الأديان والفنون؛ وما كان للمعرفة المحض أن يكون بوسعها الإتيان بمثلها. كل من سيكشف لنا عن جوهر العالم سيصيبنا بأمرّ الخيبات. فليس العالم كشيء في ذاته، بل العالم كتصور (كخطأ) هو الذي يكون الأثرى معنى والأكثر عمقا وروعة، والمحمّل بالسعادة والشقاء. تقود هذه النتيجة إلى فلسفة *النفي المنطقي للعالم*؛ علما وأنها فلسفة تستطيع أن تتوافق مع استجابة إثباتية عملية للعالم كما مع نقيضها أيضا.

30

عادات سيئة في الاستنتاج

إحدى مغالطات الاستدلال العقلي الخاطئ الأكثر تداولا هي: هذا الشيء موجود، إذن فهو مشروع. تتم هنا عملية استنتاج لضرورة الوجود من القدرة على الوجود، وللمشروعية من ضرورة الوجود. ومن ثمة: هذا الرأي يُفرح، إذن هو صحيح، ومفعول هذا الرأي جيد، إذن هو بدوره جيد وصحيح. يتم هنا إضفاء محمول مفرح، جيّد، بمعنى النفعي، على النتيجة، ثم يضفي على السبب نفس المحمول جيّد، لكن بمعنى الصلاحية المنطقية هذه المرة. وإذا ما عكسنا المعادلة فسننتهي إلى التالي: هذا الشيء لا يستطيع أن يفرض نفسه وأن يضمن بقاءه، إذن فهو غير مشروع؛ وهذا الرأي يؤلم، يثير الاضطراب، إذن فهو خاطئ. أما المفكر الحر الذي كان له في أحيان عديدة أن يتعرف جيدا على عطب هذا النوع من الاستنتاج وأن يذوق المعاناة من تبعاته فإنه يجد نفسه غالبا واقعا في الانسياق إلى إغراء متابعة الاستنتاجات المعاكسة، التي هي بطبيعة الحال استنتاجات خاطئة بدورها عموما: هذا الشيء لا يستطيع أن يفرض نفسه، إذن

فهو جيّد؛ وهذا الرأي يسبب الشقاء ويدخل الاضطراب، إذن فهو صحيح.

31

ضرورة اللامنطق

من الأمور التي تستطيع أن تحيّر المفكّر ذلك الإقرار بأن اللامنطقي ضروري للإنسان، وأن كثيرا من الخير يصدر عن اللامنطق. واللامنطق يحتل موقعا راسخا داخل انفعالات الشغف واللغة والفن والدين، وفي كل شيء مما يضفي معنى على الحياة عامة، الأمر الذي يجعلنا لا نستطيع اجتثاثه دون أن نحدث على هذه الأشياء الجميلة كسورا لا برء منها. والمفرطون في السذاجة وحدهم هم الذين يمكنهم أن يعتقدوا أنه بالإمكان تحويل الطبيعة البشرية إلى طبيعة منطقية خالصة؛ ولو حصل مجرد الاقتراب من هذه الغاية في يوم ما، فلكم سيكون هناك من الأشياء التي سيتم خسرانها على هذا الدرب! حتى أكثر الناس عقلانية يحتاج من حين لآخر مجددا إلى الطبيعة، أي إلى *علاقته اللامنطقية الأساسية بكل الأشياء*.

32

ضرورة أن لا نكون عادلين

كل الأحكام القيَمية التي أطلقت على الحياة قد نشأت وتطورت على قاعدة غير منطقية، وهي بالتالي غير عادلة. ويكمن عطب الحكم أولا في الطريقة التي تُعرض بها المادة، أي في حالة من النقص التام، ثانيا في الطريقة التي يتم بها الجمع، وثالثا في كون كل جزء من تلك المادة على حده هو نتيجة معرفة غير دقيقة حتما. فليس هناك من اختبار حتى لأقرب الناس إلينا بإمكانه أن يكون كامل الإحاطة بذلك

الشخص كي يمنحنا حقا منطقيا في تأسيس تقييم شامل له، فكل التقييمات هي تقييمات متسرعة ولا يمكنها أن تكون إلا كذلك. وبالنهاية فإن المقياس الذي نعتمده في التقدير، أي كياننا، ليس ذا مقاس غير قابل للتغيّر، فنحن نطوي على أمزجة وتقلبات، ومع ذلك من المفترض أنه يتحتم علينا أن نحدد أنفسنا كمقياس ثابت كي نستطيع التوصل إلى تقييم عادل للعلاقة التي تربط شيئا ما بنا. ولعله سيكون علينا أن نخلص من خلال كل هذا إلى نتيجة مفادها أنه لا ينبغي أن نحكم أصلا، لو أن الإنسان بمستطاعه فقط أن *يحيا* دون تقييم، ودون أن يبدي ميلا أو نفورا!-ذلك أن كل نفور مرتبط بتقييم بعينه، وكذلك كل ميل. إن اندفاعا إلى الاقتراب من شيء أو إلى الابتعاد عنه دون إحساس بالرغبة في ما هو نافع وبالنفور مما هو مضر -اندفاع دون ضرب من التقدير لقيمة الهدف- لا وجود له لدى الإنسان. إننا من حيث الأصل كائنات غير منطقية ومن ثمة غير عادلة، ونستطيع *أن ندرك ذلك*: إنها إحدى أكبر نشازات الوجود وأكثرها استعصاء على الحل.

33

الخطا في تقدير الحياة ضروري للحياة

كل اعتقاد في قيمة الحياة وكرامتها يقوم على تفكير غير سليم، وهو اعتقاد قد غدا ممكنا بسبب أن التعاطف مع الحياة في مجملها ومع معاناة الإنسانية قد ظل ضعيفا لدى الأفراد. وحتى أولئك الأفراد النادرون الذين يسمون بتفكيرهم إلى ما يتجاوز ذاتهم، هم أيضا لا يأخذون في الاعتبار تلك الحياة العامة في مجملها، بل يتوقفون على أجزاء محدودة منها. وإذا ركز المرء انتباهه أساسا على الاستثناءات، أعني على المواهب الكبرى وذوي الأنفس النقية، وإذا جعل من

نشأتهم مقياسا للغاية التي يمضي إليها تطور الإنسانية وابتهج بما ينجزونه من عمل، فإنه سيؤمن تبعا لذلك بقيمة الحياة، لا لشيء إلا لأنه *يهمل* في ذلك بقية الناس: أي أنه يفكر بطريقة غير سليمة. وسيكون الأمر كذلك عندما يولي المرء انتباهه إلى الإنسانية في مجملها، لكنه لا يقر إلا بنوع واحد من الغرائز لديها، تلك الأقل أنانية، ويبررها مقارنة بغيرها؛ عندها يغدو بإمكانه أن يغذي مجددا شيئا من الأمل في الإنسانية عامة، وأن يؤمن بالتالي بقيمة الحياة، وذلك لخطأ في التفكير هذه المرة أيضا. وسواء تصرف الإنسان على هذا النحو أو ذاك فإنه يظل في كل الأحوال *استثناء* بين الناس بتصرفه ذاك. غير أن أغلبية الناس يتحملون الحياة دون تذمر، ويعتقدون بذلك في قيمة الوجود، لكن فقط لأن كل لا يريد ولا يقر إلا بنفسه، ولا يخرج عن نطاق نفسه على غرار أولئك الاستثنائيين؛ وكل ما هو خارج عن نطاق شخصهم لا يُلمح من قِبلهم، أو أنه لا يلمح إلا كظل ضعيف في أفضل الأحوال. وبالتالي فإن قيمة الحياة ترتكز لدى الإنسان العامي العادي على كونه يرى نفسه أهم من العالم. إن الضعف الفادح في الخيال الذي يعاني منه يجعله لا يستطيع أن ينفذ بأحاسيسه إلى بقية الكائنات، وبالتالي لا يقاسمها مصيرها ومعاناتها إلا بأضعف ما يكون من مقدار. أما من كان بالمقابل قادرا على تلك المشاركة فسيجد نفسه مدفوعا إلى اليأس من مستقبل الإنسانية؛ وإذا ما أفلح في أن يتمثل في نفسه ضمير الإنسانية وأن يحس به فإنه سينهار في سيل من اللعنات على الوجود، ذلك أن الإنسانية لا هدف لها في مجملها، وبالتالي لا يستطيع الإنسان، بالنظر إلى مجمل المسار، أن يجد عزاءه أو نقطة ارتكاز له فيها، بل فقط يأسَه. وإذا ما رأى انعدام أية غاية للإنسانية في كل ما يفعله، فسيتخذ عمله في نظره طابع التبذير. أن يشعر بنفسه مبذِّرا بدوره

(لكن كإنسانية لا كفرد) كما نرى الزهور تبذّر واحدة واحدة من طرف الطبيعة، فذلك إحساس يفوق كل إحساس. لكن من تراه يقدر على مثله؟ الشاعر وحده بكل تأكيد: فالشعراء يعرفون دائما كيف يجدون عزاء لأنفسهم.

34

لشيء من الطمانة[١٢]

لكن ألا تتحول فلسفتنا هكذا إلى تراجيديا؟ ألا تصبح الحقيقة معادية للحياة، وللأفضل؟ سؤال يبدو وكأنه يرزح بثقله على لساننا ولا يريد أن يفصح عن نفسه: أيمكننا أن نستمر عن وعي في البقاء على الخطأ؟ أم أن الموت سيكون أفضل، إن نحن وجدنا أنفسنا مجبرين على هذا؟ إذ أنه لم يعد هناك من واجب، فالأخلاق بما كانت تمثله كواجب قد تم إلغاؤها من خلال نوعية معاينتنا، مثلها مثل الدين تماما. فالمعرفة لا تستطيع أن تثبت من الدوافع سوى اللذة والاشمئزاز، والمنفعة والضرر: لكن كيف سيكون على هذه الدوافع أن تتفاعل مع حس الحقيقة لدينا؟ فهذه الدوافع، هي أيضا ذات صلة بالخطأ (طالما أن الميل والنفور ومقاساتهما غير العادلة، كما ذكرنا سابقا، هي التي تحدد جوهريا أحاسيس اللذة والاشمئزاز). إن مجمل الحياة الإنسانية غارقة عميقا في الخطأ، وليس بمستطاع الفرد أن يخرجها من هذه البئر العميقة دون أن يرافق ذلك شعور من الأعماق بالكراهية تجاه ماضيه، ودون أن يرى في الدوافع الحالية، كالشرف مثلا، أشياء لا معنى لها، وأن يواجه حماسة الانفعلات التي تدفع باتجاه المستقبل وإلى السعادة في الحياة المستقبلية بالهزء والازدراء. أصحيح إذن أنه لن يبقى للمرء سوى نوع واحد من التفكير يؤدي إلى اليأس كنتيجة شخصية، وإلى فلسفة تدعو إلى التدمير كنتيجة نظرية؟

أعتقد أن القرار بشأن النتائج المنجرّة عن المعرفة يتحدد بحسب *المزاج* الشخصي: بإمكاني أن أتصور، وبموازاة لتلك النتيجة التي وصفناها سابقا والممكنة لدى بعض الطبائع الفردية، أن أتصور لي واحدة أخرى يمكن أن تنشأ بمقتضاها حياة أكثر بساطة وأقل تعكرا بالانفعالات من هذه التي نعيشها الآن: بحيث ستظل الدوافع القديمة المرتبطة بدوافع الجشع القوية بالتأكيد محتفظة بقوتها في البداية على أساس العادات الموروثة القديمة، إلا أنها ستظل تفقد قوتها تدريجيا تحت تأثير المعرفة المطهّرة. سيكون بالإمكان أن يحيا المرء بين البشر ومع نفسه كما في *الطبيعة*، دون مديح أو عتاب أو حماسة، مستمتعا بالكثير من الأشياء استمتاعه بمشهد كان لا يثير فيه من قبل سوى الذعر. سيجد المرء نفسه وقد تحرر من التفخيم، وسيغادره الإحساس بمهماز التفكير بأنه ليس مجرد طبيعة فحسب، أو أنه أكثر من طبيعة. إن هذا يتطلب بطبيعة الحال، وكما ذكرنا آنفا، مزاجا جيدا وروحا واثقة، معتدلة و مرحة في أصلها، وحالة نفسية لا تحتاج إلى ملازمة التخوف من شتى الخدع والتقلبات المفاجئة ولا يتجلى في تعبيراتها شيء من هرير الغيض أو التوتر؛ تلك الميزات الكريهة التي تختص بها الكلاب المسنة والأشخاص الذين ظلوا مشدودين إلى القيود لزمن طويل. بل أحرى بإنسان قد تخلص للتو من قيود الحياة الاعتيادية أن يواصل الحياة فقط من أجل أن يتعلم أكثر فأكثر كيف يستطيع التخلص من الكثير، بل ربما من كل ما يبدو ذا قيمة لدى الآخرين، دون حسد أو مرارة، وأن يغدو *راضيا* رضاه بما يمكن أن يُرغب فيه، بتلك الحالة من التحليق الحر والخالي من المخاوف فوق بقية البشر والعادات والقوانين والتقييمات التقليدية للأشياء. وبكل سرور يعلن عن المتعة التي يجدها في هذه الحالة، ولعله لاشيء لديه

على أية حال مما يمكن أن يعلن عنه،- وفي هذا بالتأكيد حرمان وتخلّ إضافيان. وإذا ما طُلب منه المزيد مع ذلك، فإنه يشير بإيماءة لطيفة من رأسه إلى أخيه إنسان الفعل الحر، ربما دون أن يخفي شيئا من السخرية؛ ذلك أن لتلك «الحرية» أحوالها الخاصة.



الفصل الثاني

في تاريخ الأحاسيس الأخلاقية

35

فوائد المعاينة البسيكولوجية

أن يُعدّ التفكير في الإنساني المفرط في الإنسانية-أو المعاينة البسيكولوجية، كما يقول التعبير العالِم- واحدا من الوسائل التي تمكن من تخفيف أعباء الحياة، وأن تمنح ممارسة هذا الفن حضورا ذهنيا داخل أوضاع صعبة، وتسلية وسط محيط مضجر، بل وأن يغدو بإمكاننا أن نجني بواسطتها من الملابسات الشائكة والكريهة لحياتنا حِكَما وأن نشعر بأنفسنا من خلال ذلك في حال أفضل بقليل؛ ذلك هو ما كان يعتقده المرء، وما كان يعرفه خلال القرون الماضية. فلم نُسي هذا الأمر في قرننا هذا، حيث حالة البؤس التي عليها المعاينة البسيكولوجية تعلن عن نفسها عبر العديد من المؤشرات، في ألمانيا على الأقل، وفي أوروبا عامة؟ لا تسود هذه الحالة في مجالات الرواية والأقصوصة والمعاينة الفلسفية بالذات-فهذه من أعمال أناس استثنائيين-، بل أكثر منها في تقييم الأحداث والشخصيات العمومية؛ ويُفتقر بصفة خاصة إلى فن التفكيك وإعادة التأليف البسيكولوجيين في مجالس المجتمع من كل الطبقات حيث يتم الحديث كثيرا عن أناسٍ ولا تذكر الإنسانية بالمرة. لِمَ يفوت الناس على أنفسهم إذن الاستفادة

من هذه المادة الأكثر ثراء وبراءة؟ ولماذا كفوا عن قراءة حتى أولئك الأعلام الكبار في مادة الحكم البسيكولوجية؟ السبب في ذلك، ودون أية مبالغة هو أن المثقف الأوروبي الذي قرأ لاروشفوكو ومن شابهه فكرا وفنا[١٣] قد غدا نادرا جدا، وأكثر ندرة منه ذلك الذي يعرفهم ولا يشبعهم شتائم. وربما لن يجد حتى هذا القارئ الاستثنائي متعة فيهم بالقدر الذي من المفترض أن يمنحه إياه مثل هؤلاء الفنانين، ذلك أن أرهف العقول لا يمكنه أن يكون مؤهلا لمنح فن الحبكة المتقنة للأمثال الحِكميّة ما يليق بها من الاعتبار، إن لم يكن قد تربى بدوره على ذلك الفن ولم يدأب على ممارسته[١٤]. فمن دون تلك الدربة العملية سيرى المرء في ذلك العمل وتلك الأشكال شيئا أبسط مما هي عليه في الحقيقة، ولا يحس بما يكفي من الحرارة بما تنطوي عليه من مقدرة وسحر. لذلك لا يجد قراء الأمثال الحِكمية المعاصرين[١٥] سوى متعة ضئيلة في قراءتها، بل بالكاد شيئا من النكهة الطفيفة، ويكونون أشبه في ذلك بالمتفرجين على العقيق المنقوش، بعضهم يطري عليها لأنه لا يستطيع أن يحبّها ويكون على استعداد لإبداء الإعجاب بها بسرعة، لكنه أسرع في الارتداد عنها.

36

اعتراض

أم ترى هناك اعتراض على هذه المقولة بأن المعاينة البسيكولوجية هي إحدى الوسائل التي تضفي على الوجود فتنته وتؤمّن له الخلاص والتخفيف من معاناته؟ هل حصل لدى المرء ما يكفي من القناعة بالنتائج الكريهة لمثل هذا الفن كي يعمد عن قصد إلى صرف طالب المعرفة عنه؟ عمليا يمكن لإيمان أعمى بخيريّة الطبيعة الإنسانية، ولنفور ملقَّن من تشريح أفعال الإنسان، ونوع من الخجل من عراء

النفس البشرية أن تكون مرغوبة أكثر بالنسبة لمجمل سعادة إنسان من خصلة النفاذ البسيكولوجي التي يمكن أن تكون مفيدة في حالات خاصة بعينها؛ وربما كان الإيمان بالخير وبالإنسان الفاضل والأعمال النبيلة وبكمٍّ من العطف اللاشخصاني داخل العالم قد جعل أوضاع البشر أحسن حالا لكونه قد جعلهم أقل ريبة. وعندما يحاكي امرؤ بإعجابٍ أبطال بلوتارك ويشعر بالنفور من البحث بارتياب عن الدوافع التي تقف وراء أفعالهم، فليست الحقيقة هي التي تكون المستفيد من ذلك، بل السير الحسن للمجتمع الإنساني: إن الخطأ البسيكولوجي وتبلد الحس في هذا المجال تساعد الإنسانية على المضي قدما، بينما ربما تستفيد معرفة الحقيقة من خلال الطاقة المثيرة لفرضيةٍ ما كما يطرح ذلك لاروشفوكو في مقدمة الطبعة الأولى لمؤلفه «*أمثلة وحكم أخلاقية*»[١٦]: «ما يسميه العالم فضيلة ليس في العادة سوى شبح من صنع أهوائنا نطلق عليه إسما شريفا كي نفعل ما نشاء في مأمن من كل عقاب.»[١٧]. إن لاروشفوكو وأشباهه من المعلمين الفرنسيين البارعين في سبر أغوار النفس (والذين انضم إليهم ألماني مؤخرا وهو مؤلف «معاينات بسيكولوجية»[١٨]) يشبهون تماما أولئك الرماة البارعين الذين يصيبون مرماهم في الظلام، -لكن في ظلام الطبيعة الإنسانية. إن براعتهم تثير الدهشة، غير أن مشاهدا غير موجه بروح العلم بل بحب الإنسانية سيلعن بالنهاية هذا الفن الذي يبدو أنه يزرع في الأنفس روح التشكيك في الانسان والتقليل من شأنه.

37

ومع ذلك

أيا كانت الحسابات والحسابات المضادة، فإن صحوة المعاينة البسيكولوجية غدت ضرورية في الوضع الحالي لمجال محدد من

العلم، وأنه لا مفر للإنسانية من المنظر القاسي لطاولة المشرّح النفساني ومن سكينه ومباعضه. فالكلمة هنا لذلك العلم الذي يبحث في أصل وتاريخ ما يسمى بالأحاسيس الأخلاقية والمُطالَب في مسار عمله بطرح وحلّ المسائل السوسيولوجية المعقدة. لأن الفلسفة القديمة تجهل هذه المسائل، وظلت على الدوام، وتحت أعذار واهية، تتلافى البحث في أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية. وكانت نتائج ذلك ما يمكن أن نراه اليوم بكل وضوح بعد أن تمت البرهنة بأمثلة عديدة على أن أخطاء الفلاسفة كان منطلقها عادة تفسير خاطئ لأفعال وأحاسيس إنسانية بعينها، كأن يتم على قاعدة تحليل خاطئ للسلوكات اللاأنانية على سبيل المثال تأسيس إيتيقا مزيفة ستُتَّخَذ بدورها رافدا للدين وللأوهام الميثولوجية، ثم ينتهي هذا الشبح القاتم بأن يلقي بظلاله على الفيزياء ومجمل رؤيتنا للعالم.

الآن وقد غدا ثابتا لدينا أن سطحية المعاينة البسيكولوجية قد نصبت وما زالت تنصب الأحابيل لملَكة الحكم والاستنتاج لدى الإنسان، فإن ذلك سيتطلب منا مثابرة في العمل لا تكلّ من جمع ورصف مبناها حجرة حجرة، حصاة حصاة، وهو ما يتطلب أيضا شجاعة على قدر من التبتّل كي لا نشعر بالخجل من هذا العمل المتواضع ونواجه كل ازدراء به بمزيد من التحدي. صحيح أن عددا كبيرا من الملاحظات عن الإنساني والمفرط في الإنسانية قد تم اكتشافها ومناقشتها لأول مرة في أوساط من المجتمع من تلك المتعودة على تقديم كل أنواع التضحية، لا من أجل المعرفة العلمية، بل من أجل رغبة في التبجح الروحاني، وقد ظل عطر ذلك الموطن الأصلي للحكمة الأخلاقية-عطر له غوايته- عالقا بذلك النوع لا يفارقه، الأمر الذي جعل رجل العلم يبدي على الدوام، وبصفة تلقائية، شيئا من الريبة تجاه هذا النوع وجديته. لكن يكفي أن نحتكم إلى النتائج كي

نرى أنه، ومنذ الآن قد غدا بإمكاننا أن نرى كم من نتائج من النوع الأكثر جدية راحت تنبت في حقل المعاينة البسيوكولوجية. ماهي هذه المقولة الأساسية التي انتهى إليه واحد من المفكرين الأكثر جرأة وبرودة، مؤلف كتاب «أصل الأحاسيس الأخلاقية»[١٩] بفضل تحليلاته الصارمة والحاسمة؟ «إن الإنسان الأخلاقي، يقول هذا المؤلف، لا يقع على مسافة أقرب من العالم المعقول (الميتافيزيقي) من الإنسان الفيزيائي.» هذه المقولة، وقد غدت حادة وقاطعة تحت مطرقة المعرفة التاريخية، قد تصبح ذات يوم، في مستقبل ما، الفأس التي ستهوي على جذور «الحاجة الميتافيزيقية» للإنسان، -إن سيكون ذلك نعمة، أم لعنة من منظور سعادة المجموعة الإنسانية؟ من تراه يستطيع أن يجيب عن هذا!- لكنها على أية حال مقولة ذات تبعات خطيرة، خصبةٌ وفظيعة في الآن نفسه، تنظر إلى العالم بذلك الوجه المزدوج الذي تمتلكه كل المعارف الكبرى.

38

إلى اي حد يمكننا ان نكون نافعين

إذن: يظل الأمر غير محسوم على أية حال بشأن ما إذا كانت المعاينة البسيكولوجية تجلب المنفعة أم الضرر للإنسانية، لكن الثابت هو أنها ضرورية، لأنه لا غنى للعلم عنها. إلا أن العلم لا يعرف مراعاة للنتائج النهائية، تماما كما تفعل الطبيعة، بل، وكما أن هذه الأخيرة تخلق أشياء ضرورية أقصى الضرورة دون إرادة مسبقة في ذلك، فإن العلم الحقيقي هو أيضا، بما هو *محاكاة للطبيعة في الأفكار*، يخدم بأوجه متنوعة مصلحة الإنسان ويحقق الضروري، لكن دون *أن يكون قد أراد ذلك مسبقا*. أما إذا ما كان هناك من سيشعر بالبرد يسري إلى عظامه تحت مفعول هذا النوع من المعاينة، فإن ذلك قد يكون مرده

إلى كونه لا يحمل ما يكفي من النار في داخله؛ وبإمكانه أن ينظر من حوله كي يرى أن هناك أمراضا تستوجب ضمادات من الثلج، وأناسا «مجبولين» من نار وعقل بحيث لن يكون هناك من مكان يكون الهواء فيه باردا وحادا بما فيه الكفاية بالنسبة لهم. علاوة على هذا، فإنه، وكما يشعر أفراد ومجموعات من الأفراد من الجديين جدا بالحاجة إلى شيء من الدعابات الخفيفة، يكون آخرون من النشطين جدا وسريعي الاهتياج في حاجة من حين لآخر إلى حمولات ثقيلة ومرهقة ضرورية لصحتهم؛ أفلا ينبغي علينا نحن *رجال العقل* في عصر يبدو واضحا أنه في حالة التهاب متزايد أن نأخذ بكل وسائل الإطفاء والتبريد الممكنة كي نظل محافظين على الأقل على حال الاستقرار والمسالمة والاعتدال التي مازلنا عليها، لعلنا نغدو صالحين لأن نلعب دور المرآة لهذا العصر وحافزا لوعيه بذاته.

39

خرافة الحرية المعقولة

يمر تاريخ الأحاسيس، ما يسمى بالأحاسيس الأخلاقية إذا ما أردنا أن نحدد مسؤولا عن هذا التاريخ، بالمراحل الأساسية التالية: أولا، يُطلق على أعمال فردية اسم خير أو شر دون اعتبار للدوافع التي تقف وراءها، بل بالنظر فقط إلى التبعات المفيدة أو المضرة المنجرة عنها. لكن سرعان ما يُنسى الأصل الذي تأتت عنه تلك الصفات، ويُتخيّل أن تلك الأعمال في ذاتها، دون اعتبار لتبعاتها، تحمل في صلبها صفة «الخير» أو «الشر»، ويتم ذلك بموجب الخطأ نفسه الذي يجعل اللغة تسمي الحجر نفسه صلابةً والشجرة نفسها خُضرةً، -أي بموجب فهم للنتيجة على أنها علّة. بعدها يتم إقحام صفة الخير أو الشر داخل الدوافع يتم النظر إلى الأعمال في حد ذاتها على أنها غامضة أخلاقيا.

ثم يمضي المرء أبعد فيطلق محمول «خير» أو «شر»، لا على الدوافع فقط، بل على مجمل كيان الإنسان الذي تنشأ عنه تلك الدوافع على غرار ما تطلع النبتة من التربة. هكذا يُجعل على التوالي من الإنسان مسؤولا عن نتائج أفعاله، ثم عن أفعاله، ثم عن دوافعه، وبالنهاية عن كيانه. والآن نكتشف أخيرا أن هذا الكيان لا يمكن أن يكون مسؤولا، نظرا لكونه نتيجة حتمية بكليته هو أيضا، وأنه متشكل من تأثيرات أشياء من الحاضر والماضي، وبالتالي لا يمكن أن يُجعل الإنسان مسؤولا عن شيء، لا عن كيانه، ولا عن دوافعه، ولا عن أفعاله، ولا عن نتائج أفعاله. وبهذا نكون قد توصلنا إلى أن تاريخ الأحاسيس الأخلاقية هو تاريخ خطأ، خطأ المسؤولية، الذي يقوم على خطأ حرية الإرادة. غير أن شوبنهاور يمضي إلى الاستنتاج المعاكس: بما أن بعض الأعمال ينجر عنها إحساس *بعدم الارتياح* («شعور بالذنب»)، فإنه لا بد أن تكون هناك مسؤولية، إذ ما كان ليوجد من سبب لهذا الإحساس بعدم الارتياح إن كانت كل أفعال الإنسان تحدث بموجب ضرورة -كما يحدث فعلا، وذلك حتى في رأي هذا الفيلسوف نفسه- ، لكن ليست هذه الأفعال وحدها، بل إن الإنسان نفسه قد حصل له كيانه بكامله بموجب الضرورة نفسها-وهذا ما ينفيه شوبنهاور[٢٠]. يعتقد شوبنهاور أنه بإمكانه انطلاقا من ذلك الإحساس بعدم الارتياح أن يبرهن على وجود حرية لابد أن يكون الإنسان قد حصل عليها بطريقة ما، وذلك لا في ما يتعلق بأفعاله، بل في ما يتعلق بكيانه[٢١]: أي حرية أن يكون الإنسان على هذا النحو أو ذاك، لا حرية أن يتصرف على هذا النحو أو ذاك. وعلى قاعدة الـesse (الوجود)، مجال الحرية والمسؤولية، يتأتى حسب رأيه الـ operari (الفعل)، مجال السببية الصارمة والضرورة واللامسؤولية. ويبدو حسب رأيه أن ذلك الإحساس بعدم الارتياح مرتبط بالـoperari -وبهذا المعنى يكون

خاطئا-، لكنه في الحقيقة مرتبط بالـesse، الذي هو فعل إرادة حرة حسب زعمه، السبب الأساسي لوجود فرد ما؛ هكذا يكون الإنسان ما يريد أن يكونه، وتكون إرادته سابقة على وجوده.[٢٢] هنا يتم الاستنتاج الخاطئ الذي يخلص به من واقع الإحساس بعدم الارتياح إلى مخوّل ومسوّغ معقول لإحساس عدم الارتياح؛ ومن منطلق هذا الاستنتاج الخاطئ ينتهي شوبنهاور إلى خلاصته الوهمية القائلة بالحرية المعقولة المزعومة. إلا أن إحساس عدم الارتياح بعد الفعلة لا يحتاج البتة لأن يكون معقولا، بل هو بكل تأكيد ليس كذلك، بما أنه يرتكز على الفرضية الخاطئة بأن الفعل لم يكن له أن يحصل بموجب ضرورة. إذن: يشعر الإنسان بالندم وبتأنيب الضمير، لا لكونه حرا، بل لأنه يعتقد أنه حر. وعلاوة على ذلك فإن هذا الإحساس بعدم الارتياح شيء بإمكان الإنسان أن يتخلص منه، وهو منعدم لدى العديد من الناس في إتيانهم لأعمال يشعر آخرون كثيرون به بسببها. إنه أمر متغير كثيرا مرتبط بتطورات العادات والثقافة، وربما لا يستقيم له وجود إلا في فترة قصيرة نسبيا من تاريخ الإنسانية.

لا أحد مسؤول عن أفعاله، ولا أحد مسؤول عن كيانه: أن يطلق المرء حكما يعادل هنا أن يكون ظالما. وينطبق هذا أيضا على الفرد الذي يحكم على نفسه. إن المبدأ واضح هنا وضوح الشمس، غير أن الجميع يفضلون العودة إلى العتمة وإلى الخطأ، خوفا من التبعات.

40

الحيوان الأرقى

إن الوحش في داخلنا يحب أن يُكذب عليه؛ والأخلاق كذبُ ضرورةٍ يحفظنا من خطر أن يمزقنا ذلك الوحش. ومن دون تلك الأخطاء التي تنطوي عليها الأخلاق كان الإنسان سيظل حيوانا. لكنه ارتأى في نفسه

شيئا أرقى ووضع لنفسه قوانين صارمة. ومن هنا كانت كراهيته للمراحل التي ظلت قريبة من الحيوانية؛ وعلى هذا الأساس يمكننا تفسير ذلك الاحتقار الذي كان يحظى به العبد في ما مضى، كلا- إنسان، كشيء.

41

الطبع القار

إن القول بأن الطبع ثابت لا يتغير ليس صحيحا بالمعنى الدقيق، بل إن هذه المقولة المحبذة تعني بالأحرى أنه خلال الحياة القصيرة لشخص ما لا تستطيع العوامل الفاعلة أن تحفر فيه بما يكفي من العمق كي تمحو ما انطبع فوقه من تأثيرات القرون العديدة. لكن، لو تصورنا إنسانا بثمانين ألف سنة من العمر لأصبح بإمكاننا أن نجد فيه طبعا متغيرا، بل متغيرا كليا، مما يجعل حشدا من الأفراد المتنوعين ينشأ ويتطور تباعا من كيانه. إن قصر حياة الأفراد هو الذي يقود إلى بعض المقولات الخاطئة حول صفات الإنسان.

42

الأخلاق وتراتب المنافع

إن تراتب المكاسب المتعارف عليه، والإقرار بأن درجة دنيا أو راقية أو أرقى من الأنانية تجعل المرء يرغب في هذا الأمر أو في ذاك هو الذي يحدد الآن طابع الأخلاقية أو اللاأخلاقية. فتبجيل منفعة من درجة دنيا (المتعة الحسية مثلا) على منفعة أرفع (الصحة مثلا) يعتبر لا أخلاقيا مثله مثل تبجيل حياة الرفاه على الحرية. غير أن تراتب المنافع ليس بالأمر الثابت والمتجانس عبر كل الأزمنة، فإذا ما كان أحد ما يفضل الثأر على العدالة فإن ذلك كان يعد بمقاييس ثقافات سابقة أمرا

أخلاقيا، بينما يعد لاأخلاقيا بحسب مقاييس عصرنا الحاضر. «لا أخلاقي» تعني إذن أن شخصا مازال لا يتفاعل، أو لا يتفاعل بما يكفي مع الدوافع الذهنية الراقية والمرهفة التي نشأت عن الثقافة الجديدة الحاضرة؛ إنها تدل على شخصٍ ظل متخلفا، لكن بحسب اختلاف نسبي دوما. -وتراتب المنافع نفسه لا يتم وضعه أو تعديله بحسب وجهات نظر أخلاقية، بل إن الحكم على عمل ما بأنه أخلاقي أو لا أخلاقي يتم دوما بعد كل تحديد أو إعادة تحديد لذلك التراتب.

43

القساة الفظيعون كأناس متخلفين

إن القساة الفظيعين من وقتنا الحاضر يعتبرون لدينا بمثابة بقايا لدرجات من مبنى الثقافات الماضية لم تمّح بعد. من خلالهم يكشف جبل الإنسانية عن مكوّناته العميقة التي تظل خفية عادة. إنهم أناس متخلفون لم تعرف عقولهم، بموجب صدف متنوعة طرأت على مسار الوراثة، تربية ترقيق وانفتاح. يكشفون لنا الحالة التي *كنا* عليها جميعا، ويثيرون فينا الذعر: لكنهم هم أنفسهم ليسوا أكثر مسؤولية في ذلك من مسؤولية قطعة من الصوّان عن كونها صوّانا. ومن الأكيد أننا نحمل داخل دماغنا أخاديد وتلافيف تجسد ذلك النوع من التفكير القديم، تماما مثلما توجد في بعض أعضاء الأفراد آثار تذكر بطور الشكل السمكي. لكن تلك الأخاديد والتلافيف لم تعد المجرى الذي يتدفق فيه اليوم تيار أحاسيسنا.

44

الاعتراف بالجميل والانتقام

إن السبب الذي يجعل القوي يعترف بالجميل هو التالي: كان المحسِن

قد أخطأ عبر إحسانه بأن اقتحم على القوي مجال قوته؛ والآن يخطئ القوي بدوره عبر الاعتراف بالجميل باقتحام مجال المحسن. إنه شكل ناعم من الانتقام. ولولا الرضا الذي يجده القوي في الاعتراف بالجميل لأبان القوي عن ضعفه ولغدا كذلك في أعين الآخرين. لذلك ترفع كل مجتمعات الطيّبين، أو الأقوياء في الأصل، الاعتراف بالجميل إلى مرتبة إحدى الواجبات الأولى. لقد ألقى سويفت(٢٣) بمقولة أن الناس يعترفون بالجميل بقدر ما يغذون من رغبة في الانتقام.

45

ما قبل التاريخ المزدوج للخير والشر

لفكرة الخير والشر ماقبل تاريخها المزدوج: - *أولا*: داخل روح العشائر والطبقات المهيمنة. من كانت له القدرة على مجازاة الخير بالخير والشر بالشر ويمارس المجازاة فعلا، أي معترِفا بالجميل ومتعطشا للثأر، ذاك سيدعى خيِّرا، أما من كان عاجزا ولا يستطيع الانتقام فيعتبر سيئا. ينتمي الخيّر إلى «الصالحين»، أي إلى مجموعة لها إحساس مشترك، لأن كل الأفراد مترابطين فيها بالاعتبار الذي يولونه لروح الثأر. وينتمي السيء إلى «الطالحين» الأشرار، أي إلى لمامة من الخاضعين والعاجزين لا يربط بينهم إحساس مشترك. والصالحون جماعة بينما الطالحون كتلة شبيهة بالغبار. ولقد كانت عبارتا خيِّر وسيِّئ لوقت طويل مرادفا للنبيل والحقير، والسيد والعبد. بالمقابل لم يكن ينظر إلى العدو كسيِّئ؛ فهو قادر على الانتقام. ولقد كان كل من الطروادي والإغريقي خيّريْن في نظر هوميروس. فليس ذاك الذي يمكن أن يلحق بنا ضررا، بل ذاك الجدير بالاحتقار هو الذي يعد سيّئا. وداخل طائفة الصالحين يُتوارث الخير، ومن غير

الممكن أن يخرج سيء من أرض طيبة. وإذا ما حدث مع ذلك أن يأتي واحد من الخيّرين عملا لا يليق بالصالحين، بل بأولئك الذين يستحقون الاحتقار، فإن ذلك يكون عندهم بفعل الوقوع تحت طائلة لعنة ما، وتُلقى المسؤولية في ذلك على أحد الآلهة مثلا، كأن يقال إنه أصاب ذلك الرجل الخيّر بالعمى والجنون. - *ثانيا*: هناك ما ينشأ في أنفس المقهورين والضعفاء: هنا يعد كل إنسان *مختلف* عدوا، غير ذي ورع، مستغِلّ، فظيع، وماكر، نبيلا كان ذلك الإنسان أم وضيعا؛ شرّير هي العبارة المميزة لـ: إنسان، بل لكل كائن حي يُفترض وجوده، لإله مثلا: بشري، إلهي تعنيان شيئا مثل شيطاني، شرير. وتتأول علامات الطيبة والرأفة والإحسان لديهم بكثير من التوجس على أنها خدع وأحابيل تستبق نهاية سيئة، ومخاتلة وتخدير للحذر، أي باختصار كشر متقن الحبكة. بمثل هذه العقلية المترسخة في الأفراد يغدو تكوين منظومة اجتماعية أمرا مستبعدا للغاية، وفي أفضل الحالات لا يُتوصل إلا إلى الشكل الأكثر بدائية منها، وبالتالي فإنه حيثما كان هذا التصور للخير والشر سائدا يكون خراب الأفراد والعشائر والأعراق وشيك الحصول. -لقد نشأت أخلاقياتنا الحالية على أرضية العشائر والطبقات المهيمنة.

46

الشفقة أقوى من المعاناة

هناك حالات تكون الشفقة فيها أقوى من المعاناة ذاتها. فنحن نشعر على سبيل المثال بألم أشد إذا ارتكب أحد أصدقائنا عملا مشينا ما، أكثر مما نشعر بذلك لو كنا نحن أنفسنا الذين اقترفناه. أولا، لأننا نعتقد في نقاوة طبعه أكثر مما يعتقد هو نفسه، ثم لأن محبتنا له، ربما بموجب ذلك الاعتقاد، أقوى من محبته لنفسه. وحتى إذا ما كان على

أنانيته أن تعاني أكثر من أنانيتنا، بحكم أنه هو الذي سيتحمل بصفة أقوى عبء النتائج الكريهة لفعلته، إلا أن غيريّتنا -لا ينبغي أن تؤخذ هذه العبارة بالمعنى الصارم الذي يمكن أن يكون لها، فهي مجرد تسهيل تعبيري- ستكون مع ذلك مستهدفة أكثر من غيريّته.

47

وسواس المرض

هناك أناس يصيبهم وسواس المرض بسبب الشفقة والانشغال بشخص آخر: إن الشفقة التي تنشأ عن مثل هذه الأحاسيس ليست شيئا آخر غير مرض. هناك أيضا وسواس مرض مسيحي يحيق بأولئك الأفراد المتوحدين الذين يحركهم منزع ديني، أولئك الذين يضعون على الدوام نصب أعينهم معاناة وصلب المسيح.

48

اقتصاد الطيبة

إن الطيبة والمحبة بصفتهما من أعشاب التداوي الأكثر نجاعة في مجال العلاقات البشرية هي اكتشافات ثمينة للغاية بحيث يتمنى المرء لو أنه يتوخى أقصى ما يمكن من الاقتصاد في استعمال هذه المادة البلسمية. غير أن هذا غير ممكن. فاقتصاد الطيبة هو حلم الطوباويين الأكثر جسارة.

49

المودة

من بين الأشياء الصغيرة والكثيرة كثرة لا تحصى والأكثر نجاعة بالتالي، والتي ينبغي على العلم أن يوليها أكثر اهتماما مما يولي

للأشياء الكبيرة النادرة، هناك المودة، أعني بذلك تجليات روح الود في العلاقات، تلك الابتسامة التي في العيون وتلك المصافحة وتلك الأريحية، التي تلف عادة مجمل الأعمال الإنسانية. كل معلّم وكل موظف يضيف هذه المكوّنة إلى ما يُعد واجبا لديه: إنه المحرك القار للإنسانية، ما يشبه موجات ضوئها التي ينمو فيها كل شيء، وبصفة خاصة في الدائرة الأصغر، داخل العائلة حيث لا تخضرّ الحياة ولا تزهر إلا بفضل هذه المودة فاللطافة والود وأدب القلب تمثل دوما سيول الغرائز الغيريّة التي لا تتوقف وقد أسهمت في بناء الحضارة بصفة أقوى وأمتن مما فعلت تلك التجليات الأكثر شهرة لنفس الغرائز والتي تدعى شفقة ورحمة وتضحية. غير أنه جرت العادة على التقليل من قيمتها. وفي الواقع هي لا تحتوي على مقدار كبير من الغيرية، ومع ذلك فإن مجموع هذه الكميات الصغيرة ذا حجم هائل، ومجمل طاقتها من بين الطاقات الأكثر قوة. كما أننا نجد في العالم قدرا من السعادة أكبر بكثير مما ترى العين المكدّرة، يعني عندما نجري حسابا دقيقا ولا نغفل خاصة تلك اللحظات من الإحساس بالارتياح التي تملأ كل يوم من كل حياة إنسانية بما فيها الأكثر ضيقا.

50

الرغبة في إثارة الشفقة

كان لاروشفوكو مصيبا وهو يحذر في إحدى المواقع الأكثر روعة من البورتريه الذاتي (طبعت سنة ١٦٥٨ لأول مرة)[٢٤] كل ذوي العقل من الشفقة، في حين ينصح بتركها لعامة الشعب الذين يحتاجونها (لأنهم ليسوا مسيرين بأحكام العقل) كي تدفع بهم إلى مساعدة من يعاني والتدخل بحزم عند حصول كارثة؛ في حين أن الشفقة تستنفد طاقات الروح وتنهكها بحسب حكمه (وحكم أفلاطون أيضا). وفي الحقيقة،

ينبغي أن نعرب عن *الشفقة وأن نحترس من أن نكون حاملين لها*؛ ذلك أن الأشقياء في رأيه على غاية من السخافة تجعل إبداء الشفقة تجاههم أكبر فضل يمكن أن يمنحهم إياه العالم. ولعلنا سنحذر بأكثر إلحاح من هذه الشفقة التي يحملها المرء في نفسه إذا ما اعتبرنا حاجة الأشقياء إليها، لا كسخافة ونقص ذهني واضطراب عقلي يرافق حلول المصيبة (ويبدو أن لاروشفوكو يفهم الأمر من هذا الوجه)، بل كشيء مختلف تماما ومشبوه. لننظر بالأحرى بعين المتفحص إلى الأطفال الذين يبكون ويصرخون كي يستدروا الشفقة، ولذلك يظلون منتظرين اللحظة التي سيقع انتباه الآخرين فيها على حالتهم؛ ولنعايش عن قرب مرضى ومصابين بالإرهاق الذهني، ولنتساءل إن لم تكن تلك الشكوى والتأوهات التي يستعرضون بها تعاستهم تسعى في الحقيقة إلى *إيلام* المحيطين بهم: فالشفقة التي يبديها هؤلاء نحوهم هي إذن عزاء للضعفاء والمتألمين، بما أنها تجعلهم يشعرون معها بأنهم بالرغم من ضعفهم *يملكون سلطة* واحدة على الأقل هي *القدرة على إيلام الآخرين*. يجد الشقي نوعا من اللذة في هذا الشعور بالتفوق الذي يمنحه إياه إبداء الشفقة، ويتفاقم وهمه ليشعر بأنه ما يزال على قدر من الأهمية كي يثير الألم في العالم (المحيط به). وبهذا يكون الظمأ إلى الشفقة ظمأ إلى الالتذاذ بالذات، وذلك على حساب الآخرين؛ ويكشف لنا هذا الأمر عن الإنسان في كامل وقاحة حبه لذاته، وليس في «سخافته» كما يقول لاروشفوكو.

في مناقشات اللقاءات الاجتماعية تُطرح ثلاثة أرباع الأسئلة، وتقدم كل الأجوبة بهدف إحداث ولو قدر قليل من الألم لدى المخاطَب، لذلك يبدي أناس كثيرون تعطشا مفرطا إلى علاقات المجتمع: إنها تمنحهم شعورا بالقوة. من خلال هذه الجرعات المتعددة، لكن بمقادير صغيرة، يكون الخبث وسيلة إثارة قوية في

الحياة، تماما مثلما يكون الإحسان المنتشر داخل المجتمع الإنساني بمثل انتشاره العلاجَ الجاهز له على الدوام. لكن هل سيكون هناك ما يكفي من الصدق كي نعترف بأن هناك متعة في الإيلام؟ وأنه ليس نادرا أن يجد المرء لنفسه تسلية -تسلية جيدة- في الإساءة إلى الآخرين، في الذهن على الأقل، ورشقهم بوابل من الخباثات الصغيرة؟ إن أغلب الناس يفتقرون إلى الصدق، وبعض من الناس على غاية من الطيبة المفرطة كي يقروا بشيء من هذا الأمر المخجل (pudentum)، وبذلك يظل هؤلاء ينكرون أن بروسبير ميريميه على حق عندما يقول: *«لتعلموا أيضا أنه ليس هناك من شيء شائع أكثر من الإساءة من أجل الإساءة.»*(٢٥)

51

كيف يتحول المظهر إلى كينونة

لا يستطيع الممثل بالنهاية أن يكف حتى في الألم العميق عن التفكير في الانطباع الذي تثيره شخصيته وفي مجمل التأثير الركحي، حتى أثناء دفن طفله مثلا، وسيبكي لألمه الخاص ولتجسّده كما لو كان مُشاهدا لنفسه. والمنافق الذي يظل يلعب على الدوام نفس الدور يكف عن كونه منافقا. فالكهان مثلا، الذين يكونون عادة منافقين في سن شبابهم، عن وعي أو عن غير وعي، يصبحون بالنهاية طبيعيين ويغدون فعلا، ودون ضروب من الافتعال، كهانا حقا، وإن لم يوفق في ذلك الأب، فلربما يوفق في ذلك الإبن الذي سيستفيد من تجربة الأب ويرث ما عود نفسه عليه. وإذا ما دأب امرؤ بإصرار ولمدة طويلة على تعويد نفسه على *الظهور* بالمظهر الذي يرغب فيه فإنه سيكون من الصعب جدا عليه بالنهاية *أن يكون* شيئا آخر. إن عمل كل إنسان، حتى عمل الفنان، يبدأ بالرياء، بمحاكاة مظهر ما وباستنساخ ما هو

مؤثر. والذي يظل يضع على الدوام قناع السحنة الودودة سيغدو بالنهاية متحكما في حالات السماحة التي لا يمكن من دونها التحكم في التعبيرات الخارجية عن المودة، إلى أن تنتهي هذه الأخيرة بإحكام سيطرتها عليه؛ وإذا هو ودود.

52

ذرة الصدق في الخداع

هناك خاصية لدى كل المخادعين الكبار يعود إليها الفضل في ما يملكون من قوة. في فعل الخداع وخلال مجمل الاستعدادات، في النبرة المؤثرة للصوت والتعبير والحركات، وفي خضم عملية المسرحة يستولي على أولئك المخادعين ***الاعتقاد في النفس***: ذلك هو إذن ما سيخاطب محيطه بما يشبه المعجزة وبسلطة إلزامية صارمة. يختلف أصحاب الدعوة الدينية عن أولئك المخادعين الكبار بكونهم لا يفارقون البتة هذه الحالة من خداع النفس، أو أنهم نادرا ما يعرفون تلك اللحظات النيّرة التي يتملكهم فيها الشك، وإذا ما حدث لهم ذلك، عادة ما يواسون أنفسهم بأن يلقوا بالمسؤولية على الخصم الخبيث (إبليس- المترجم). لابد من خداع النفس كي يستطيع هؤلاء وأولئك التأثير تأثيرا عظيما. ذلك أن الناس يؤمنون بحقيقةِ ما يكون محل إيمان قوي.

53

الدرجات المزعومة للمعرفة

إحدى الاستنتاجات الخاطئة الشائعة هو هذا: يكفي أن يكون شخص ما صادقا ونزيها معنا كي نعتبر أنه يقول الحقيقة. هكذا يؤمن الأطفال بأحكام والديهم، والمسيحي بما يزعمه مؤسس الكنيسة. وكذلك لا

يريد الناس أن يعترفوا بأن كل تلك الأشياء التي ضحى البشر في القرون الماضية بحياتهم وسعادتهم من أجل الدفاع عنها لم تكن سوى ضلالات؛ ربما يقال لنا إنها كانت درجات بعينها من المعرفة. غير أن ما يفكر فيه في الحقيقة هو أنه سيكون حقا من غير *العدل* أن يكون أحد ما قد آمن بشيء بصدق وقاتل ومات من أجل إيمانه، ثم يتضح أن مجرد خطأ هو الذي كان يحركه. إن مسارا من هذا النوع يبدو متناقضا مع العدالة الأبدية، لذلك يظل قلب أصحاب المشاعر الرقيقة يقرر على الدوام هذا القانون: بين الممارسات الأخلاقية والرؤية العقلية لابد أن يكون هناك خيط وصل ضروري. لكن الأمر غير هذا للأسف، ذلك أنه ليس هناك من عدالة أبدية.

54

الكذب

لماذا يقول الناس غالبا الحقيقة في حياتهم اليومية؟ بالتأكيد ليس لأن الله حرم الكذب. بل، أولا: لأن ذلك أسهل الأمور عليهم، فالكذب يتطلب ابتكارا وتقمصا وذاكرة. (لذلك يقول سويفت: «من يأتي كذبة نادرا ما يلاحظ العبء الثقيل الذي يحمّل نفسه؛ إذ، كي يكذب كذبة واحدة سيكون عليه في الحقيقة أن يبتدع عشرين كذبة أخرى»)[٢٦].
ثانيا، لأنه من الأنفع في ظل علاقات بسيطة أن يقول المرء مباشرة: أريد كذا، فعلت كذا، إلى غير ذلك، لأن طريق الإكراه والسلطة أكثر أمانا من طريق الحيلة. أما إذا ما تربى طفل في ظل علاقات عائلية غير واضحة فإنه سيتعود على الكذب ويقول دائما وبصفة عفوية فقط ما يوافق مصلحته؛ إن حسا بالحقيقة ونفورا من الكذب في ذاته أشياء غريبة عنه وليست في متناوله، وهكذا يكذب بكل براءة.

55

الأخلاق محل ريبة بسبب الإيمان

ليس هناك من قوة تستطيع أن تثبت حضورها عندما يكون ممثلوها من المنافقين. ولئن كانت الكنيسة الكاثوليكية قائمة على العديد من العناصر «الدنيوية»، فإن قوتها ترتكز بالأحرى على ذلك العدد الذي ما يزال كبيرا حتى الآن من الطبائع الكهانية؛ أولئك الذين يصرفون الحياة على نحو عسير وذي معنى عميق، والذين ينبئ مظهرهم وهيأة أجسادهم المنهكة عن ليال من السهر، وعن جوع وصلوات متأججة، وربما جلد أسواط. هؤلاء يهزون الناس ويبعثون فيهم الخوف: هل *كان من الضروري* حقا أن يعيش الإنسان على هذا النحو؟-ذلك هو سؤال الفزع الذي تثيره رؤيتهم في الناس. غير أنهم، وهم ينشرون هذا الشك من حولهم يظلوا يضعون في كل مرة دعامة جديدة لقوتهم، وحتى أكثر الناس جرأة وتحررا ذهنيا لا يجرؤ على مواجهتهم ليقول لأي منهم: «أيها المخدوع، لاتحاول خداعا!» إن اختلافا في وجهة النظر فقط هو الذي يميزهم عنه، لكن ما من فرق في الطيبة أو الخبث على الإطلاق؛ غير أن المرء معتاد على معاملة ما لا يحب معاملة ظالمة. هكذا يتكلم الناس عن مكر اليسوعيين وبراعة فجورهم، لكنهم يتغافلون عن القدر الهائل من التغلب على الذات الذي يمارسه كل يسوعي على نفسه، وكيف أن نوع الممارسة الحياتية المخففة من الأعباء، التي تدعو إليها مؤلفاتهم التعليمية لا تعود بالنفع عليهم هم بقدر ما ينتفع بها عامة الناس. وإنه ليحق أن نتساءل إن سنكون، نحن التنويريون، قادرين باعتماد الخطة والتنظيم نفسهما، وبمساعدة نفس الأدوات على بلوغ هذه الدرجة الجديرة بالإعجاب من ضبط النفس والتفاني المثابرة التي لا تعرف الكلل؟

56

انتصار المعرفة على الشر الجوهري

سيكون من الفائدة بمكان بالنسبة لمن يريد أن يغدو حكيما أن يكون قد عرف عن خبرةٍ شخصيةٍ تصورَ الإنسان الذي تجذر فيه الشر والفساد: إنه تصور خاطئ، مثله مثل نقيضه، غير أنه ولفترة طويلة من الزمن ظل صاحب السيادة لدينا وقد مدت جذوره تفرعاتها عميقا في داخلنا وداخل عالمنا. ولكي نفهم أنفسنا، لابد أن نفهمه، لكن، ولكي نصعد عاليا علينا أن نكون قد صعدنا إلى ما فوقه أولا. وسندرك عندها أن ليس هناك من خطيئة بالمعنى الميتافيزيقي، لكن ليس هناك من فضيلة أيضا بالمعنى نفسه، وأن هذا المجال من التصورات الأخلاقية في حالة من المراوحة وعدم الاستقرار المستمر، وأن هناك مفاهيم أرقى وأدنى للخير والشر وللأخلاقي واللاأخلاقي. ومن لا يطمع من الأشياء في شيء غير معرفتها سيحقق لنفسه سلام الروح ولن يخطئ (يأتي خطيئة، كما يقال) في أقصى الحالات إلا عن جهل، لكن من الصعب أن يفعل عن طمع. ولن يعمد بعدها إلى هرطقة رغباته، أو يسعى إلى استئصالها، وسيجعل منه السعي إلى *المعرفة* كهدف وحيد يشغله ويتملك به كليا شخصا باردا، ويليّن كل متوحش في طبعه. سيكون قد تخلص علاوة على ذلك من كم من التصورات المعذِّبة ولن يجد ما يشد اهتمامه في عبارات العذاب الجهنمي والخطيئة والعجز عن فعل الخير، ولن يرى فيها منذئذ غير أخيلة لعالم مزيف ورؤية خاطئة للحياة.

57

الأخلاق كتجزئة ذاتية لدى الإنسان

إن كاتبا جيدا يضع كل مهجته في خدمة مسألته يتمنى أن يأتي أحد

يلغيه ويسحقه كليا وهو يقدم عرضا أكثر وضوحا للمسألة نفسها ويجيب بصفة شافية عن الأسئلة التي تتضمنها. إن الفتاة العاشقة تتمنى أن تنجح في صيانة الوفاء المتفاني لحبها في مواجهة خيانة معشوقها. ويتمنى الجندي أن يسقط في حقل المعركة فداء لنصر وطنه؛ ذلك أن في انتصار وطنه سيكون انتصار أسمى أمانيه. كما أن الأم تمنح طفلها ما تحرم نفسها منه من نوم وأفضل غذاء ومن ثروتها، وصحتها عندما يقتضي الحال. لكن، هل هذه كلها حالات إحساس غيريّ؟ هل هذه الأفعال معجزة أخلاقية، لأنها «مستحيلة ومع ذلك واقعية» حسب عبارة شوبنهاور؟[٢٧] ألا يبدو واضحا أن الإنسان في كل هذه الحالات يحب *شيئا من نفسه*، فكرة، رغبة، نتاجا ما أكثر من *شيء آخر من نفسه*، بما يجعله يجزّئ نفسه ويضحي بهذا الجزء من أجل الجزء الآخر؟ وهل هناك فرق جوهري مع هذا عندما يقول شخص عنيد: «أَحب لي أن أُردى قتيلا من أن أتنحى قيد أنملة من أمام هذا الشخص»؟ -إن *الميل إلى شيء ما* (أمنية، غريزة، رغبة) حاضر في كل الحالات المذكورة، والاستجابة إلى هذا الميل مع ما ينجر عن ذلك من النتائج ليست في كل الأحوال شيئا «غيريّا» . ففي الأخلاق لا يتعامل الإنسان مع نفسه كفرد لا متجزّئ (*individium*)، بل كمتجزّئ (*dividium*).

58

ما الذي يمكن أن نعد به

يمكننا أن نعد بأفعال، أما بأحاسيس فلا، ذلك أن هذه لا إرادية. ومن يعد أحدا ما بأنه سيظل يحبه دوما أو يحقد عليه دوما، أو يظل وفيا له دوما، فإنه يعد بما ليس في مستطاعه، إلا أنه بإمكانه أن يعد بأفعال تكون منجرة عن الحب أو الكراهية أو الوفاء عادة، ويمكنها أن تتأتى

عن دوافع أخرى أيضا؛ ذلك أن طرقا ودوافع عديدة تقود إلى فعل واحد. إن الوعد بأن يظل الواحد وفيا دوما لأحد ما يعني إذن: طالما سأظل أحبك، سأقوم تجاهك بالأفعال التي تتأتى عن الحب؛ وإذا ما انقطعت عن محبتك فستظل مع ذلك تتلقى نفس الأفعال مني، وإن بموجب دوافع مختلفة. وبالتالي تظل مظاهر المحبة قائمة في ذهن الآخرين كما لو أن المحبة ما تزال قائمة كما هي ولم يطرأ عليها أي تغيير. إننا نعد إذن باستمرار مظهر المحبة عندما نعد أحدا، دون خداع للنفس، بمحبة إلى الأبد.

59

الذكاء والأخلاق

على المرء أن يكون ذا ذاكرة جيدة كي يفي بما وعد به. وعلى المرء أن يكون متمتعا بقدرة تخييلية كبيرة كي يمكنه أن يشعر بالعطف. فالأخلاق شديدة الارتباط بملكة الذكاء.

60

ان تريد الانتقام وتنتقم

عندما تكون للمرء رغبة في الانتقام وينفذها فذلك يعني الإصابة بنوبة حمى، لكنها ستكون عابرة. أما أن تكون لديه فكرة الانتقام دون ما يلزم من قوة وشجاعة لتنفيذها فذلك يعني أن المرء يعاني من ألم مزمن ومن تسمم في الجسد والروح لا يفارقه. والأخلاق التي لا تولي اعتبارا إلا للنوايا تحكم على كلا الحالتين بنفس الحكم، بل عادة ما يحكم على الحالة الأولى على أنها الأسوأ (بسبب التبعات السيئة التي يمكن أن تنجر عن فعل الانتقام). كلا التقديرين يعبران عن قصر نظر.

61

القدرة على الانتظار

إن القدرة على الانتظار أمر على غاية من الصعوبة، بما جعل كبار الشعراء لا ينفرون من اتخاذ عدم القدرة على الانتظار موضوعا لأشعارهم. ذلك ما نجده عند شكسبير في عطيل، وعند سوفوكلس في أجاكس، ذلك الذي كان من الممكن لانتحاره أن يبدو له غير ضروري كما صرح بذلك وسيط الوحي، لو أنه منح نفسه يوما واحدا لكي تهدأ فورة انفعالاته؛ ربما كان سيسخر من همسات غروره المجروح ويخاطب نفسه: من تراه في مثل وضعي لا يرى في الكبش بطلا؟ هل الأمر حقا على هذا القدر من الفظاعة؟ بالعكس، إنه ليس سوى شيء إنساني عادي: هكذا كان أجاكس سيحدث نفسه مواسيا. حماسة الانفعال لا تريد الانتظار، والتراجيديا التي اقترنت بحياة عظماء الرجال لا تعود غالبا إلى خلافهم مع عصرهم وإلى حقارة معاصريهم، بل إلى عدم قدرتهم على إرجاء عملهم سنةً أو سنتين أو خمس سنوات: إنهم لا يستطيعون الانتظار. وفي كل المبارزات يسعى المستشارون من الأصدقاء إلى التأكد من شيء واحد دوما وهو إن ليس بإمكان الشخصين المعنيين أن ينتظرا، وعندما لا يكون الأمر كذلك تغدو المبارزة أمرا مقبولا، طالما أن كلا من الطرفين يؤكد: «إما أن أعيش، وبالتالي على الآخر أن يموت حالا، أو ليكن العكس». إن الانتظار في مثل هذه الحالات يعني أن يظل المرء يطيل مدة العذاب الشنيع للكبرياء المهانة، وذلك على مرأى من مسبِّب تلك الإهانة، وقد يكون ذلك عذابا أكبر مما تستحق الحياة.

62

عربدة الانتقام

من عادة الأفظاظ، عندما يشعرون بالإهانة، أن يفخموا قدر الإمكان من حجم الإهانة وأن يتكلموا عن السبب بعبارات شديدة المبالغة، لا لشيء إلا لكي يتناولوا بشره معربد من لذة ما أيقظوه في أنفسهم من حقد ورغبة في الانتقام.

63

قيمة تحقير الغير

عدد غير قليل من الناس، ربما أغلب الناس، يحتاجون أكيد الحاجة، من أجل الحفاظ على اعتبارهم لأنفسهم وعلى نوع من الجدارة في ما يعملون، إلى الحطّ من قيمة من يعرفون من الناس وتحقيرهم في أذهانهم. لكن، وبما أن الطبائع الوضيعة تمثل الأغلبية، وأن هؤلاء يعلقون أهمية كبرى على مسألة حيازة تلك الجدارة أو فقدانها، إذن. . !

64

المتهيّج

علينا أن نحترز ممن يتهيج ضدنا خوفًنا ممن هدّدنا يوما بالقتل؛ فبقاؤنا على قيد الحياة لا يعود إلا إلى عدم حثول القدرة على القتل، ولو أن النظرات وحدها كانت كافية لذلك لكنا هلكنا من زمان. إنه لمن سمات الطور الهمجي أن يلجأ طرف إلى إظهار القوة الجسدية وإثارة الرعب من أجل إسكات أحد ما. كما أن تلك النظرة الباردة التي يواجه بها النبلاء خدمهم هي من بقايا تلك التفرقة الطبقية بين إنسان وإنسان آخر، سمة من سمات علاقات التقاليد العتيقة؛ والنساء بما هن حافظات للقديم، قد حافظن بكل إخلاص على هذا الأثر المتبقي- *survival* .

65

إلام يمكن أن يؤدي الصدق

كانت لأحدهم عادة كريهة في أن يجاهر في كل مرة بالدوافع التي تقف وراء أعماله، والتي لا تختلف في حسنها وفي سوئها عن دوافع بقية الناس. وكان ذلك يثير الاستنكار في البداية، فالشكوك، ثم غدا منبوذا وموضع توجس في المجتمع، إلى أن انتهى الأمر بأن انتبهت العدالة إلى هذا الشخص المنبوذ بشأن أمور لا تهتم بها عادة، أو تتجاهلها. وكان أن أدى عدم القدرة على السكوت عن أسرار عامة وذاك النزوع إلى رؤية ما لا يريد أن يراه أحد-ذاته الخاصة- بهذا الشخص إلى السجن ثم إلى موت مبكر.

66

مذنبون لا تتم معاقبتهم ابدا

جريمتنا في حق المجرمين أننا نعاملهم كأنذال.

67

البساطة المقدسة للفضيلة *Sancta simplicitas*

لكل فضيلة منافعها: هذه واحدة منها على سبيل المثال: أن تساهم بحزمة حطبها في محرقة المحكوم عليه بالإعدام.

68

التخلق والنجاح

ليس المشاهدون فقط هم الذين يحكمون بأخلاقية أو لاأخلاقية فعلٍ ما بعد نجاحه. كلا، بل فاعل الفعل يفعل ذلك هو أيضا. فالدوافع

والنوايا نادرا ما تكون واضحة وبسيطة، أضف إلى ذلك أن الذاكرة نفسها تبدو معكرة من خلال نجاح الفعل، مما يجعل المرء يختلق دوافع خاطئة لفعله، أو أنه يأخذخذاأخذاً ما هو غير أساسي منها على أنه أساسي. وغالبا ما يضفي النجاح على عمل البريقَ الصادق لراحة الضمير، بينما يغمر الفشل أجلّ الأعمال بظلال تأنيب الضمير. من هنا تأتي قاعدة العمل المعروفة للسياسي الذي يفكر: «أعطني نجاحا فقط، وبه سأكون قد كسبت إلى جانبي كل الأرواح الصادقة، وأكون قد جعلت من نفسي رجلا صادقا في عين نفسي.» وعلى هذا النحو يكون على النجاح أن ينوب عن أفضل حجة. وإلى الآن مازال العديد من المثقفين يدعون بأن انتصار المسيحية على الفلسفة الإغريقية دليل على الحقيقة العظمى التي تمثلها الأولى، بالرغم من أن الفظ والعنيف هو الذي انتصر على العقل واللطافة في هذه الحالة. أما في ما يتعلق بما آلت إليه هذه الحقيقة العظمى، فما نشاهده هو أن نهضة العلوم قد انبنت في الارتباط نقطة بنقطة مع فلسفة أبيقور، فيما فنّدت المسيحية نقطة نقطة.

69

الحب والعدالة

لماذا يبالَغ في تقدير الحب على حساب العدالة، ويحكى عنه بأجمل ما يقال كما لو أنه من ماهية أرقى بكثير منها؟ ألا يبدو جليا أنه أسخف منها بكثير؟ -بكل تأكيد، غير أنه، ولهذا السبب بالذات *ألذ* بالنسبة للجميع. إنه سخيف ويمتلك جرابا ثريا يوزع منه عطاياه على الجميع، حتى على من لا يستحقها، بل ولا هو يُشكر عنها. إنه محايد مثل المطر الذي يبتل به حتى العظم، لا الظالمون فحسب، بل والعادلون أيضا، حسب التجربة وما يرد في الأناجيل.

70

الإعدام

ما الذي يجعلنا نشعر بالإهانة إزاء كل عملية إعدام أكثر مما نشعر إزاء جريمة قتل؟ إنها برودة القاضي، والإعدادات المخجلة، وفكرة أن إنسانا يُستعمل هنا كوسيلة لزجر الآخرين. إذ ليس الجرم هو ما يعاقب عليه حتى وإن كان هناك جرم، فهو يوجد في المربي وفي الأسرة والمحيط، فينا جميعا، وليس في القاتل؛ -أعني في الظروف المهيِّئة.

71

الأمل

أتت بندورا[٢٨] بالإناء الذي يحوي الشرور وفتحته. كانت تلك هدية الآلهة للبشر، هدية شكلها جميل مغر تسمى إناء «السعادة». اندفعت كل الشرور من الإناء كائنات خفيفة محلقة، ومنذ تلك اللحظة وهي تحوم عبر العالم ليل نهار مسببة شتى الأضرار للبشر. هناك شر وحيد ظل حبيس الإناء لأن بندورا وبأمر من زويس أغلقت الإناء في وجهه فلم يستطع الخروج. وإلى الأبد ظل الإنسان محتفظا بإناء السعادة في بيته متصورا شتى التصورات البديعة حول الكنز الذي بحوزته داخل ذلك الإناء: إنه تحت تصرفه ورهن رغبته، يستطيع أن يمد يده إليه في أية لحظة، وهو لا يعلم أن ذلك الإناء الذي جلبته إليه باندورا إنما هو إناء «الشرور»، معتبرا ذلك الشر المتبقي أكبر ثروة: إنه الأمل.

كان زويس يريد بطبيعة الحال أن يجعل الإنسان يتعذب أكثر بتلك الشرور الأخرى ولا يرفض الحياة مع ذلك، بل يظل يقاسي بصفة مستمرة من آلام متجددة دوما، ولذاك الغرض منحه الأمل: وهو في الحقيقة أسوأ الشرور على الإطلاق، لأنه لا يفعل سوى إطالة عذاب البشر.

72

درجة الالتهاب الانفعالي غير محددة

إن معايشة مشاهد وانطباعات صادمة معيّنة، مثل أب يحاكَم باطلا ويعدم أو يعذّب، أو خيانة زوجة، أو حادث اعتداء شنيع، سيحدد ما إذا ستصبح انفعالاتنا على قدر من التأجج وتغدو مسيرة لمجمل حياتنا أم لا. لا أحد يعلم إلى أين يمكن أن تقوده الملابسات المحيطة والشفقة والسخط، فهو لا يعرف درجة الاستثارة في نفسه. إن ظروف عيش حقيرة ومجدَبة تجعل المرء حقيرا، فليست نوعية التجارب، بل كميتها هي التي تلعب دور المحدِّد عادة في أن يكون الإنسان ساميا أو وضيعا، في الخير كما الشر.

73

شهيد رغم انفه

في واحد من الأحزاب كان هناك شخص على درجة من الخوف والجبن كيما يجرؤ على معارضة رفاقه، فكان يُستعمل لكل خدمة ويطوّع لكل أمر، ذلك أنه كان يخشى سوء ظن رفاقه به أكثر من خوفه من الموت: كان نفسا ضعيفة تبعث على الشفقة. وقد أدرك رفاقه ذلك وجعلوا منه على أساس من تلك الصفات المذكورة بطلا ثم شهيدا. ومع أن الإنسان الجبان عادة ما كان يقول لا في قرارة نفسه، فإنه كان يقول دوما نعم، حتى وهو فوق المقصلة حين مات من أجل حزبه: وكان أحد رفاقه القدامى يقف عندها غير بعيد منه وهو يجلده بنظراته وكلماته إلى حد جعله يواجه الموت حقا بأقصى ما يمكن من البسالة، ويكرَّس منذ ذلك الحين كشهيد ورجل شهم.

74

معيار الأعمال اليومية

لن نخطئ إلا نادرا إن نحن رددنا الأعمال المبهِرة إلى الغرور، والرديئة إلى العادة، والحقيرة إلى الخوف.

75

سوء تفاهم فيما يتعلق بالفضيلة

إن من عرف الرذيلة باقتران باللذة مثل ذلك الذي قضى حياة شباب غارقا في المتعة، يتوهم أن الفضيلة مرتبطة حتما بالنفور من اللذات. وبالمقابل فإن من من تعذب كثيرا من جراء أهوائه وعيوبه يَنشُد من خلال الفضيلة الراحة وسعادة القلب. من هنا يغدو ممكنا أن فاضليْن لا يتفقان ولا يفهم أحدهما الآخر أبدا.

76

الراهب

يجعل الراهب من الفضيلة حاجة.

77

الشرف مُسقَطا من الشخص على القضية

يجل الناس عامة أفعال محبة القريب والتضحية من أجله على أي نحو وفي أي موضع تجلّت. وبذلك تقع المبالغة في *تقدير الأشياء* التي يحبها المرء على هذا النحو أو يضحي من أجلها، رغم أنها قد لا تنطوي على قيمة في حد ذاتها. إن جيشا باسلا يُقنع بالقضية التي يقاتل من أجلها.

78

الطموح معوضا عن الإحساس الأخلاقي

يمكن أن تكون الطبائع التي تفتقر إلى الطموح غير خالية من الإحساس الأخلاقي. أما الطموحون فباستطاعتهم بلوغ غاياتهم من دون ذلك الإحساس الأخلاقي، و بنفس القدر من النجاحات تقريبا. لذلك عادة ما ينتهي أبناء العائلات المتواضعة التي لا مكان فيها للطموح، عندما يخذلهم الإحساس الأخلاقي إلى تدهور سريع إلى مرتبة الأوغاد المكتملين.

79

الغرور يثري

كم سيكون فقيرا هذا العقل البشري من دون الغرور! إنه يغدو بفضله شبيها بمحل تجاري ممتلئا متجدد الامتلاء على الدوام بكل ما يثير رغبة كل مشتر ويغريه: يمكن العثور فيه على كل شيء تقريبا، واقتناء كل شيء، شريطة أن يكون بحوزة المشتري العملة المناسبة: الإعجاب.

80

العجوز والموت

يحق لنا، بصرف النظر عما يستوجبه الدين من ملزمات، أن نتساءل: أي كرامة في أن يظل رجل مسن يحس بتدهور قواه وهو يعاين وهنه وتفككه منتظرا موته البطيء، عوض أن يعمد إلى وضع حد للأمر بنفسه وهو في كامل وعيه؟ فالانتحار في هذه الحالة هو العمل الأكثر قربا للذهن والأكثر طبيعية، ومن المفترض أن يعتبر انتصارا للعقل و مجلبة للاحترام، وقد كان بالفعل كذلك في تلك الأزمنة التي كان كبار

فلاسفة اليونانيين والوطنيون الرومان الأكثر شجاعة يعمدون إلى وضع حد لحياتهم بأيديهم. وعلى العكس من ذلك يكون الحرص على تمديد الحياة يوما بعد يوم تحت رعاية قلقة للأطباء ونوعية حياة مزرية، والاقتراب أكثر فأكثر من نهاية العمر في حالة من الوهن أقل مجلبة للاحترام بكثير. غير أن الأديان مليئة بالتعاليم الزاجرة التي تعترض على ضرورة لانتحار: إنها وسيلة لتملق أولئك المولّهين بالحياة.

81

أخطاء الضحية والجاني

عندما ينتزع الغني من الفقير إحدى ممتلكاته (كأن يفتك الأمير من أحد العامة معشوقته) يحدث خطأ لدى الفقير وهو يعتقد أنه لا بد أن يكون الواحد دنيئا مكتمل الدناءة كي ينتزع منه ممتلَكه. فذلك الغني لا يحس عميقا بقيمة ممتلك ما لأنه معتاد على امتلاك الكثير؛ وبذلك فهو لا يستطيع أن يتنزل بإحساسه داخل نفس الفقير، وبالتالي فهو لا يرتكب ظلما بالحجم الذي يعتقده هذا الأخير. كلا الطرفين يحملان تصورا خاطئا عن بعضهما. إن ظلم القوي، الذي ظل غالبا ما يثير الاستياء عبر التاريخ ليس في الحقيقة بالحجم الذي يبدو عليه، فالإحساس الموروث لديه بعظمة شأنه وبعظمة مطامحه يجعله باردا إلى حد ما ويمنحه راحة الضمير؛ ونحن جميعا، عندما نحس بأن الفارق بيننا وبين كائن آخر كبير جدا، لا نشعر بأي ذنب، فنقتل بعوضة على سبيل المثال دون أن نشعر بشيء من تأنيب ضمير. وعليه فإنه ليس هناك من مظهر للسوء في أن ينتزع كسيركس (الذي يصوره لنا كل الإغريق كرجل غاية في النبل) من رجلٍ إبنَه ويجعله يقطّع أجزاء لأن ذلك الرجل عبّر عن شك قلِق ومشؤوم بشأن بعثته الحربية:

يغدو الفرد في مثل هذه الحالة شبيها بحشرة مزعجة يتم القضاء عليها، فهو من الوضاعة بمكان كيما يسمح لنفسه بإثارة أحاسيس مؤلمة ومزعجة متواصلة لدى سيّد ذي نفوذ على العالم. إن الرجل الفظيع ليس على ذلك القدر من الفظاعة الذي يتصوره الضحية، ذلك أن التصور الذي يكون لديه عن الألم لا يطابق حجم معاناة الآخر. كذلك هو الشأن مع القاضي غير العادل، ومع الصحفيّ الذي يضلل الرأي العام ببعض مغالطاته الصغيرة. ترد العلة والنتيجة في كل هذه الحالات محفوفة بمجموعات من الأحاسيس والأفكار المختلفة تمام الاختلاف، بينما يفترض المرء لا إراديا أن الجاني والضحية يفكران ويحسان بصفة متطابقة، ووفقا لهذا الافتراض يقاس ذنب الأول بحسب ألم الثاني.

82

جلدة النفس

وكما أن العظام واللحم والأمعاء ومجاري الدم ملفوفة كلها بجلدة تجعل رؤيتها محتملة للعين البشرية، فإن انفعالات النفس وأهواءها يلفها الغرور: الغرور جلدة النفس.

83

نوم الفضيلة

إذا نامت الفضيلة، تصحو من بعدها أكثر نضارة.

84

مراوغات الخجل

الناس لا يخجلون من التفكير في شيء قذر، بل عندما تساورهم فكرة أن الآخرين يظنونهم قادرين على مثل تلك الأفكار القذرة.

85

الشر نادر

إن أغلب الناس منشغلين غاية الانشغال بأنفسهم كيما يكونوا أشرارا.

86

إبرة الميزان

إننا نمدح أو نذم بحسب ما يمنحنا هذا أو ذاك من إمكانيات لإظهار ملكة الحكم لدينا.

87

لوقا ١٤: ١٨ مصحّحة[٢٩]

من يضع نفسه يريد أن يُعلى من شأنه.

88

عن منع الانتحار

هناك قانون يخوّل لنا حرمان شخص من الحياة، لكن ما من قانون يخول لنا أن نحرمه من الموت: إن هذا محض فظاعة.

89

الغرور

نهتم كثيرا برضا الآخرين عنّا، أولا لأن لنا فائدة في ذلك، ثم لأننا نريد أن ندخل الفرحة عليهم (الطفل على أبويه، والتلميذ على مدرّسه، والمحسنون عامة على بقية الناس). فقط حيث يكون رأي الآخرين مهمًّا بقطع النظر عن الفائدة وعن الرغبة في إدخال البهجة، نتكلم عن غرور. في هذه الحالة يريد المرء أن يدخل الفرحة على

نفسه، لكن على حساب الآخرين، وذلك إما بأن يجعلهم ينقادون إلى رأي خاطئ، أو بالطمع في تحقيق درجة من «الرضا» يصبح معها محرجا للآخرين (من خلال إثارة الحسد). يسعى الفرد عادة من خلال رأي الآخرين إلى تأكيد الفكرة التي لديه عن نفسه وتدعيمها أمام نفسه؛ لكن التعوّد القوي على السلطة -تعوّد قديم قدم وجود الإنسان- يجعل الكثيرين يلجؤون إلى تثبيت رأيهم في أنفسهم على دعائم السلطة، أي بانتزاع ذلك الرأي من الآخرين: هؤلاء يثقون في حكم الآخرين عليهم أكثر من حكمهم الخاص على أنفسهم. هذا الاهتمام بالنفس، والرغبة في إرضاء الذات تبلغ لدى المغرور حدا من الارتفاع يجعله يستدرج الآخرين إلى تقدير خاطئ له، أي تقديرٍ غاية في الغلو، ومع ذلك يأخذ من بعدها بسلطة حكم أولئك الآخرين؛ أي أنه يقود واعيا إلى الخطأ ويصدقه مع ذلك. علينا أن نعترف إذن بأن المغرورين لا يريدون نيل إعجاب الآخرين، بقدر ما يريدون إعجابهم بذاتهم، وأنهم يمضون بعيدا في ذلك إلى حد أنهم يهملون مصلحتهم الخاصة في ذلك، إذ هم غالبا ما يثيرون لدى الاخرين مشاعر لن تكون في مصلحتهم من حسد والعداوة، أي كل ما يكون مجلبة للمضار، لا لشيء إلا لكسب الرضا عن النفس والتلذذ بنرجسيتهم.

90

حدود محبة الآخرين

كل إنسان قد قضى في شأن إنسان آخر بأنه غبي وسيء سينزعج إذا ما انتهى ذاك الشخص بأن يثبت له أنه ليس كذلك.

91

اخلاقيات دامعة

كم من المتعة تجلبها الأحاسيس الأخلاقية للناس! لنتذكر فقط ذلك البحر من الدموع الرقيقة التي سالت لدى الاستماع إلى أقاصيص الوقائع النبيلة والشجاعة!-سيختفي هذا البريق المثير الذي في الحياة إذا ما كتب للإيمان باللامسؤولية التامة أن يبسط نفوذه.

92

اصل العدالة

تنشأ العدالة (الإنصاف) بين أناس *متساوين في القوة* تقريبا، كما فهم ذلك جيدا ثوقيديدس (في الجدالات الرهيبة بين مبعوثي أثينا والميليين)[٣٠]: حيث لا يكون هناك تفوق واضح للعيان، بل صراع دون أفق انتصار قد يغدو مدمرا للطرفين، تنشأ فكرة التفاهم والتفاوض حول مطالب كلا الطرفين: إن طابع *المقايضة* هو المكوّنة الاصلية لطابع العدالة. كل طرف يرضي الطرف الآخر بأن يحصل كل واحد على ما يعتبره هو أكثر قيمة مما يبدو للآخر. يمنح المرء للآخر ما يريد الحصول عليه، وما هو ملك يده الآن، ويتسلم مقابل ذلك شيئا يريده. فالعدالة إذن تعويض ومقايضة في ظل ميزان قوى شبه متوازن؛ هكذا يكون الانتقام بدئيا جزء من مجال العدالة، فهو مقايضة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاعتراف بالجميل.

تعود العدالة طبيعيا إلى منطلق النزوع الواضح إلى الحفاظ على النفس، أي إلى الأنانية التي تقود هذا التفكير: «لِمَ أدفع بنفسي إلى هلاك لا فائدة من ورائه، وقد لا أحقق هدفي؟»

هذا إذن هو أصل العدالة. وبما أن الناس، وبحكم عاداتهم الذهنية، قد انتهوا إلى *نسيان* الغرض الأصلي لما يسمى بالأفعال

العادلة والمنصفة، ولأن الأطفال ظلوا على مدى قرون طويلة يربّون على الإعجاب بتلك الأفعال ويدرّبون على محاكاتها، فقد نشأ شيئا فشيئا ذلك التوهم بأن فعلا عادلا هو فعل لا أناني. لكن على أساس هذا التوهم يقوم التقدير الفائق لتلك الأفعال، وهو علاوة على ذلك، وككل تقدير، يظل يتطور ويتضاعف بصفة متواصلة؛ ذلك أن ما هو محل تقدير يظل محل رغبة الجميع، يحاكونه ويضاعفونه عبر جهود وتضحيات كثيرة، وهكذا ينمو ذلك التقدير بفعل ما ينضاف من قيمة الجهد والحماس المبذولين من طرف كل فرد على القيمة الخاصة بذلك الشيء الذي يحظى بالتقدير. -لكم ستبدو مهلهلة أخلاقية هذا العالم من دون النسيان! لشاعر أن يقول إن الله وضع النسيان حارسا على عتبة معبد الكرامة الإنسانية.

93

عن حق الاضعف

عندما يجد أحد ما نفسه في ظل شروط بعينها خاضعا لمن هو أقوى منه، مثل مدينة محاصرة، يكون الشرط المعاكس هو أن يدمر نفسه وأن يحرق المدينة وهكذا يمكنه أن يسبب خسارة كبيرة لذلك القوي. وبذلك يتكون نوع من *المساواة* يغدو بموجبها من الممكن وضع قواعد. فالعدو له مصلحة في بقاء عدوه. وعلى هذا الأساس توجد أيضا حقوق بين العبيد والأسياد، أي بحسب القدر الذي تكون ملكية العبيد فيه مفيدة وهامة بالنسبة للسيد. ويذهب الحق إلى حد أبعد، بحيث يبدو الواحد بالنسبة للثاني ثمينا وأساسيا لا ينبغي فقده ولا تمكن هزيمته، إلى غير ذلك. . ومن هذا المنظور يكون للأضعف أيضا حقوق، لكن بمقدار أقل. من هنا تلك المقولة الشهيرة: *unusquisque tantum juris habet, quantum potentia valet* (بقدر

ما للشخص من قوة يكون له من الحقوق)[٣١]، أو بصفة أدق: *quantum potentia valere creditur*- على قدر القوة تكون المصداقية.

94

المراحل الثلاث لأخلاقية الاجتماع

العلامة الأولى على أن يكون الحيوان قد تحول إلى إنسان هي عندما تصبح أفعاله موجهة ليس نحو تحقيق متعة آنية، بل نحو ما هو دائم، أي ما يعود *بالنفع* على الإنسان ويخدم *غاياته*: عندها تبرز أولا السيطرة الحرة للعقل. ثم يبلغ درجة أرقى عندما يصبح عمله موجها بمبدأ *الشرف*؛ وبموجب هذا المبدأ يحدد موقعه وسلوكه ويخضع نفسه للأحاسيس المشتركة، وذلك هو ما يرتقي به فوق المرحلة التي كان يقوده فيها ما يراه فائدة شخصية فقط: أي أنه يحترم ويريد أن يكون محترَمًا، بما يعني أنه غدا يدرك أن الفائدة مرتبطة برأيه في الآخرين وبرأي الآخرين فيه. أخيرا سيغدو سلوكه، وقد بلغ أرقى مراحل الأخلاقية إلى حد الآن، محددا بمقياسه *الخاص* للأشياء والناس: هو الذي يحدد لنفسه وللآخرين ما هو نافع ومشرّف، وقد غدا بذلك مشرّعا للآراء وفقا لمفهوم النافع والمشرّف المتطور باستمرار نحو الأرقى. لقد منحته المعرفة القدرة على تبجيل النافع، أي ذي الفائدة العامة الدائمة على الشخصي، وتقديم الاعتراف بما هو ذي قيمة عامة دائمة على الآني: إنه يحيا ويتصرف كفرد جمْعي.

95

اخلاق الفرد الناضج

ظل الطابع اللاشخصي إلى حد الآن يعتبر العلامة الأساسية للتصرف

الأخلاقي، وقد غدا ثابتا أن اعتبار الفائدة العامة هو ما كان في البداية معيارا للإطراء على عمل غيريّ وتكريسه. ألا ينبغي أن نجري تعديلا هاما على هذه الاعتبارات، الآن وقد غدا أكثر فأكثر وضوحا أن الاعتبارات الأكثر شخصية بالذات هي التي تنطوي أيضا على فائدة عمومية أكبر، بحيث يكون التصرف الشخصي الصرف موافقا للمفهوم الحالي للحس الأخلاقي (باعتباره فائدة عمومية)؟ أن يجعل المرء من نفسه *شخصا*، وأن يجعل نصب عينيه *خيره الأكبر*، سيكون أكثر فائدة من كل تلك الانفعالات المشفِقة والأعمال التي يقوم بها من أجل الآخرين. فنحن مازلنا نعاني فعلا من الضعف الفادح في الاعتبار الذي نوليه لما هو شخصي فينا، وقد ربّيناه على نحو سيء جدا، -لنعترف بهذا الأمر: لقد تم بالأحرى التعسف على عقلنا وتحويله قسرا عما هو شخصي لكي يضحَّى به لصالح الدولة والعلم والمعوزين، كما لو أن ذلك هو أسوأ ما فينا وما ينبغي التضحية به. والآن أيضا مازلنا نريد أن نعمل من أجل غيرنا، لكن بالمقدار الذي نجد معه أقصى الفائدة لنا في ذلك العمل، لا أكثر ولا أقل. وكل ما في الأمر هو أن نحدد ما الذي نفهمه من *الفائدة الخاصة*؛ فالفرد البدائي الفج وغير الناضج بالذات سيفهم ذلك على النحو الأكثر بدائية.

96

الأخلاق والأخلاقي

أخلاقي وذو مكارم ومؤدّب، تعني أن يكون الواحد مطيعا لقانون أو تقليد قائم منذ القدم. وسواء أرغم المرء نفسه على تلك الطاعة، أم فعل ذلك طواعية فذلك غير مهم: يكفي أنه يفعل ذلك. «صالحا» سيدعو الناس ذلك الذي يتبع السلوك الأخلاقي بتلقائية وسهولة بمثل دافع طبيعي بحكم تعوّد متوارث منذ زمن طويل، وذلك بحسب ما

تمليه تلك المسلكيات الأخلاقية، (كأن يمارس الأخذ بالثأر عندما يكون الأخذ بالثأر من مكارم الأخلاق كما هو الشأن لدى الإغريق القدامى). يدعى ذلك الإنسان صالحا، لأنه صالح «الشيء ما»؛ لكن، وبما أن الإحسان والشفقة وما شابههما راحت، ضمن التبدلات التي طرأت على القيم الأخلاقية، تعدّ «صالحة لشيء» وتعتبر مفيدة، فإن المحسن والعطوف هما اللذان يسمَّيان اليوم «صالحيْن». شرير يعني أن يكون المرء لاأخلاقيا (عديم الأخلاق)، وأن يمارس ما ينافي الأخلاق ويناقض الأعراف، معقولة كانت تلك الأعراف أم سخيفة. وقد ظل الضرر بالأقربين يعتبر في كل القوانين الأخلاقية على مر العصور والثقافات بمثابة الأمر المضرّ، حتى أن عبارة «شر» غدت تجعلنا اليوم نفكر مباشرة في الضرر المتعمد بذي القربى. لم تكن «الأنانية» و«الغيرية» هي الثنائية التي حددت تمييز الناس لما هو أخلاقي وما هو لاأخلاقي، ماهو خير وما هو شر، بل ثنائية الارتباط بالأعراف التقليدية أو التنصل منها. أما كيف *نشأت* تلك الأعراف فذلك ما يظل أمرا غير مهم؛ وعلى أية حال فإن ذلك لم يكن من منطلق اعتبار الخير والشر أو أي ضرب من ملزم وجوبي محايث، بل بغاية حفظ **مجموعة** أو شعب وضمان بقائهما في المقام الأول. كل عادة خرافية متأتية عن تأويل خاطئ لصدفة ما تفرض تقليدا يكون اتّباعه سلوكا أخلاقيا؛ وبالتالي يكون التنصل منه سلوكا يلحق ضررا أكبر بالمجموعة مما يلحق بالفرد (لأن الآلهة تنزل عقابها بالمجموعة عن كل انتهاك للمقدسات وكل اعتداء على امتيازاتها، ومن خلالها فقط على الفرد). إلا أن كل تقليد يكتسب أكثر فأكثر مهابة بقدر ما يغدو منشؤه بعيدا، وبقدر ما يطويه النسيان؛ فالاحترام الذي يحظى به يظل يتراكم جيلا بعد جيل إلى أن ينتهي التقليد بأن يصبح مقدسا وشيئا يوحي بالإجلال؛ هكذا تكون أخلاق التقوى في

كل الأحوال أقدم بكثير من تلك التي تستوجب أفعالا لاأنانية.

97

متعة الأخلاق

هناك نوع هام من المتعة ومن أصل الأخلاق أيضا ينشأ عن العادة. فنحن نقوم بما هو معتاد بسهولة وبشكل أفضل، ونرغب فيه أكثر من غيره، نجد متعة في ذلك ونعرف عن تجربة أن ذلك المعتاد ظل محافظا على وجوده، بما يعني أنه مفيد؛ والعادة التي غدا بإمكاننا التعامل معها بسهولة قد أثبتت كونها صحيّة ومفيدة، على عكس كل التجارب الجديدة التي لم يتم اختبار صلاحيتها بعد. وبالتالي تكون العادة هي الجمع بين الممتع والمفيد في آن واحد، عدا أنها تتطلب تفكّرا. وطالما يظل بوسع المرء أن يمارس إكراها، فإنه يمارسه من أجل فرض *عاداته* ونشر ممارستها، ذلك أنها تمثل في نظره الحكمة الحياتية التي أثبتت صلاحيتها. وعلى هذا المنوال ترغم مجموعة من الأفراد كل فرد على عادات مشتركة بينها. هنا يكمن الاستنتاج السفسطائي: بما أن المرء يشعر بالارتياح مع عادة ما، أو لأنه يستطيع على الأقل فرض وجوده بواسطتها، فإن تلك العادة تكون إذن ضرورية، إذ تعدّ الإمكانية *الوحيدة* التي تمكّن المرء من الشعور بالارتياح؛ أي أن حياة الراحة تبدو كما لو أنها ناتجة حصرا عنها. هذا المفهوم الذي يعتبر الاعتيادي شرطا للوجود سيُسحب على مجمل العادة بأدق تفاصيلها. وبما أن المعرفة بالسببية الحقيقية تظل ضئيلة لدى شعوب وثقافات الطور البدائي، فإن الناس هناك سيحرصون بكثير من الرهبة الخرافية على أن تظل الأشياء تمضي دوما في مسارها المعتاد، وحتى عندما تكون العادة ثقيلة وشديدة ومضنية، فإنها تظل لذلك السبب بالذات محتفظة بفائدتها الكبرى كما يتراءى لهم. ويجهل

هؤلاء أن نفس الدرجة من الرفاه يمكن بلوغها بواسطة عادات أخرى، بل ويمكن بلوغ درجات أرقى أيضا. غير أننا نلاحظ أن كل التقاليد، بما فيها الأكثر شدة تغدو مع مرور الزمن ليّنة ومستساغة، وأن أشد طرق الحياة صرامة يمكنها أن تتحول إلى شيء معتاد وبالتالي إلى متعة.

98

اللذة والغريزة الاجتماعية

يكتسب الإنسان من خلال علاقاته مع الآخرين نوعا جديدا من *المتعة* تنضاف إلى أحاسيس المتعة التي يجدها في نفسه، وبذلك يوسع مجال الإحساس بالمتعة عامة على نحو مهم. ولعله قد اكتسب عناصر غير قليلة من هذا الأمر من الحيوانات التي تحس بمتعة في ملاعبة بعضها البعض، كالأم مع أولادها مثلا. ثم لنفكر في العلاقات الجنسية التي تجعل كل أنثى تقريبا تبدو من جهة المتعة محل اهتمام لدى كل ذكر، والعكس بالعكس. إن إحساس المتعة القائمة على العلاقات الاجتماعية يجعل الإنسان يغدو أفضل على العموم؛ فالفرح المشترك والمتعة المتقاسمة ترفع من شأنه، وتمنح الفرد وثوقا وتجعل مزاجه أكثر اعتدالا وتبدد الريبة والحسد: إذ يحس المرء بالارتياح في نفسه ويرى نفس الارتياح لدى الآخرين. إن *التعبيرات المتشابهة التي تتجسد بها المتعة* توقظ خيال الإحساس المشترك وإحساسا بما يشبه المساواة؛ والأمر نفسه تحدثه أيضا المعاناة المشتركة والأعاصير والمخاطر والأعداء المشتركين. على هذا الأساس تتأسس دون شك تلك الرابطة الأكثر قدما، والغاية منها هي الاحتماء من كل كريه مهدِّد وإبعاده، خدمة لمصلحة كل فرد. هكذا تنشأ الغريزة الاجتماعية من صلب المتعة.

نصيب البراءة في ما يسمى أعمالا شريرة

كل الأعمال «الشريرة» تتم بدافع من غريزة البقاء أو، بصفة أدق، بدافع من إرادة المتعة وتجنب الأحاسيس الكريهة لدى الفرد؛ إلا أنها وهي تنشأ عن هذه الدوافع، ليست شريرة. «إحداث الألم لأجل الإيلام في ذاته» شيء لا وجود *له*، عدا في أذهان الفلاسفة، وكذلك «الإمتاع في ذاته» (الشفقة بالمفهوم الشوبنهاوري). في طور ما قبل الدولة كنا نقتل الكائن (قردا أو إنسانا) الذي يريد استباقنا إلى قطف ثمرة من الشجرة في الوقت الذي نكون فيه جائعين وفي طريقنا إلى الشجرة؛ وذلك ما سنفعله اليوم مع الحيوانات عند ترحالنا عبر ربوع غريبة موحشة. إن الأفعال الشريرة التي غالبا ما نعبر عن استيائنا منها ترتكز على الخطأ الذي يجعلنا نعتقد أن الآخر الذي يقوم بها تجاهنا يفعل ذلك طوع إرادته، أي أنه كان *بإمكانه* أن لا يفعل بنا ذلك السوء. هذا الاعتقاد في هذا «الإمكان» يثير الحقد والتعطش إلى الثأر والحيلة وفسادا كليا في الخيال، بينما سيكون غيضنا على الحيوان أقل بكثير لأننا نعتبره غير مسؤول. والإساءة لا بدافع من غريزة البقاء، بل من أجل الانتقام هي نتيجه حكم خاطئ، وهي بالتالي غير مسؤولة. في مرحلة ما قبل الدولة يمكن للفرد أن يعمد إلى معاملة الآخرين بشدة وفظاعة بغية *الترويع*، ذلك أنه يريد أن يؤمّن وجوده عن طريق هذه الممارسات المروّعة لقوته. وكذلك يفعل مؤسس الدولة البدائية العنيف والقوي، الذي يُخضع الضعفاء. إنه يمنح نفسه الحق في ذلك، مثلما تنتزع الدولة اليوم لنفسها هذا الحق أيضا، بل لنقل أن ليس هناك من حق يمكنه أن يمنعها من ذلك. ولن يغدو بالإمكان تهيئة أرضية للأخلاق إلا عندما يقوم فرد أقوى أو شخصية جماعية كالمجتمع مثلا أو الدولة بإخضاع بقية الأفراد، أي أن ينتزعهم من وجودهم الفردي المشتت

وينظمهم داخل رابطة. يكون *الإكراه* إذن سابقا على الأخلاقية، ذلك أنها تظل هي نفسها لزمن ما إكراها يُستعمل وسيلة لتجنب النفور. بعدها فقط تتحول إلى عادة، ثم إلى طاعة فيما بعد، إلى أن تنتهي إلى ما يشبه الغريزة، وإذا هي أخيرا، مثل كل ما غدا منذ مدة طويلة من الزمن عادة وطبيعة، تغدو مرتبطة بالمتعة -وتسمى عندها فضيلة.

100

الحياء

يوجد الحياء دوما حيثما يكون هناك «لغز»؛ إلا أن هذا مفهوم ديني كان له انتشار واسع في العصور الأولى للحضارة الإنسانية. وفي كل مكان هناك مجالات مسيّجة يقضي الحق الإلهي بتحريم ولوجها، إلا ضمن شروط محددة: كان الأمر يشمل في البداية مناطق بكاملها، ثم مدنًا بعينها يُمنع أن تطأها أقدام المدنّسين، الذين يشعرون بالخوف والرهبة بالقرب منها.[٣٢] وقد تم نقل هذا الشعور إلى مجالات أخرى متعددة من العلاقات البشرية، كالعلاقات الجنسية مثلا، التي تعتبر امتيازا وحرَما-adyton[٣٣] خاصا بالكهول ينبغي أن يظل بعيدا عن أنظار الشباب، حرصا على صيانة ذلك الامتياز. وكانت حراسة تلك العلاقات وحماية قدسيتها موكلة إلى عدد من الآلهة يفترض أنها تقف حارسة لها داخل حجرات الزوجية (لذلك تسمى تلك الحجرات عند الأتراك حريما -«حرم»، أي أنها تسمى بالإسم نفسه الذي يطلق عادة على أروقة المسجد). -وعلى هذا النحو تكون الملَكية مركزا تشع منه القوة والأبهة ويمثل في أعين الرعايا لغزا مليئا أسرارا وحياء. وما زالت بقايا من هذه الخشية والحياء تعبر عن نفسها إلى الآن، في عصر لا تعدّ شعوبه من الخجولين على الإطلاق. وعلى هذا النحو ما يزال عالم الحالات الباطنية، ما يسمى بـ«الروح» إلى يومنا لغزا في نظر غير

الفلاسفة، بعد أن ظل، وعلى مدى طويل جدا من الزمن، يعد جديرا بأصل إلهي وبعلاقة مع الألوهية[٣٤]؛ وبالتالي حرما يوحي بالحياء.

101

لا تطلق حكما[٣٥]

لابد أن نحترس من الوقوع في الشتيمة الظالمة لدى معاينتنا للعصور القديمة. فمظلمة العبودية وشناعة خضوع الأفراد والشعوب لا يمكن قياسها بمقاساتنا الحالية. إذ لم تكن غريزة العدالة فيما مضى على قدر كاف من التطور. فمن ترى كان سيحق له أن يلوم كالفين[٣٦] على حرق الطبيب سيرفت[٣٧]؟ كان ذلك تصرفا منطقيا منحدرا من قناعاته، وبذلك تكون محاكم التحقيق على حق؛ غير أن الأفكار السائدة آنذاك هي التي كانت خاطئة وتمخضت عن نتائج تبدو لنا اليوم قاسية لأن تلك الأفكار أصبحت غريبة عنا. فماذا يعني في نظر الناس آنذاك حرق شخص ما مقارنة بعذاب الجحيم الأبدي الذي يتهدد الجميع تقريبا! وبالفعل كانت تلك الفكرة سائدة في العالم آنذاك دون أن يكون ذلك، مع ما ينطوي عليه من فظائع جسيمة مما يمكن أن يلحق ضررا مهما بفكرة الله. عندنا أيضا يعامل المنشقون السياسيون بقسوة وشناعة، لكن، وبما أننا تربينا على الإيمان بضرورة الدولة، فإننا لا نشعر بالفظاعة هنا بالقدر الذي نشعر به هناك حيث نرفض المفاهيم التي تقف وراءها. كما أن القسوة ضد الحيوانات لدى الأطفال والإيطاليين تعود إلى عطب في الفهم، فالحيوان قد حكمت عليه مصالح التعاليم الكنسية بالارتداد إلى منزلة متدنية جدا خلف الإنسان. كما أن العديد من الفظاعات والمعاملات اللاإنسانية عبر التاريخ، والتي بالكاد نستطيع التصديق بوجودها، تغدو أقل حدة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الآمر والمنفذ أناس مختلفون عنا: الأول لا يعرف مشهد الفظاعة،

وبالتالي لا يستطيع تمثلها بقوة، والثاني يطيع أوامر رئيس، وبالتالي فهو غير مسؤول. وأغلب الأمراء والقادة العسكريين يَبدون بموجب افتقار إلى ملكة التمثل قساة وفظيعين، دون أن يكونوا كذلك.

الأنانية مثلا، ليست شرا، لأن تصور «القريب» -عبارة مسيحية الأصل لا تعكس الحقيقة- ضعيف جدا لدينا، وموقفنا تجاهه أقرب إلى الموقف من النبات والحجر، موقف المتحرر من كل ارتباط ومن لامسؤوليةً له تجاهه. أن نعرف أن الآخر يتألم مسألة ينبغي *على المرء أن يتعلمها أولا*؛ وتعلمها على نحو كامل أمر غير ممكن.

102

«حسنٌ ما يفعله الإنسان دوما»

نحن لا نحكم على الطبيعة بأنها لا أخلاقية عندما ترسل علينا الصواعق وتبللنا بالأمطار؛ فلِمَ نسمي الإنسان الذي يُلحق الأذى لاأخلاقيا إذن؟ لأننا نفترض إرادة حرة موجودة فيه بالضرورة. لكن هذه التفرقة محض خطأ. وبالتالي، حتى ذلك الذي يسبب ضررا مقصودا لا نسميه في أي حال من الأحوال لاأخلاقيا؛ يقتل المرء على سبيل المثال بعوضة عن قصد ودون ورع، فقط لأن طنينها مزعج، كما يعاقَب المجرم عن قصد، ويُلحَق به الأذى من أجل حمايتنا وحماية المجتمع. في الحالة الأولى يكون الفرد هو الذي يسبب ضررا من أجل بقائه أو كي يجنب نفسه اشمئزازا، وفي الثانية تكون الدولة هي التي تفعل ذلك. كما أن كل أخلاق تجيز الأعمال المضرة المقصودة في حالة *الدفاع عن النفس*: يعني عندما يتعلق الأمر بحفظ النفس! لكنّ وجهتيْ النظر هاتين كافيتان لكي نوضح بشأن كل أعمال الشر التي يرتكبها الإنسان ضد الإنسان كالتالي: يريد المرء لنفسه متعة أو يسعى لدرء أمر كريه عنه، وبالمعنيين كليهما يتعلق الأمر دائما بحفظ النفس، ويكون سقراط

وأفلاطون على حق إذن عندما يؤكدان: أيا كان الفعل الذي يقوم به الإنسان فهو يفعل دوما فعلا حسنا، أي بما يعني: ما يبدو له خيرا (نافعا)، بحسب مستوى ذكائه ومقدار رجاحة العقل لديه في كل مرة.

103

وجه البراءة في الشر

ليس إيذاء الآخر هو ما يرمي إليه الفعل المسيء، بل متعتنا الشخصية، كإحساس بلذة الانتقام أو كتهييج عصبي قوي. بل إن كل معابثة تبدي لنا كيف أننا نجد متعة في ممارسة قوتنا على الآخرين ونستمد من ذلك شعورا لذيذا بالتفوق. فهل تتمثل *اللاأخلاقية* إذن في أننا نجد متعة في كدر *الآخرين*؟ وهل لذة الشماتة شيء شيطاني كما يقول شوبنهاور؟[٣٨] وبما أننا نبحث عن متعتنا في الطبيعة أيضا من خلال كسر الأغصان واقتلاع الحجارة ومقاتلة الحيوانات الوحشية من أجل اختبار طاقاتنا واكتساب الوعي بها. فهل معرفتنا بأن أحدا يتألم من خلال فعلنا سيجعل لا أخلاقيا الأمر نفسه الذي نفعله دوما دون أن نشعر بأية مسؤولية تجاهه؟ لكن إذا ما كنا لا نعرف ذلك فإن متعة الشعور بالتفوق ستكون غائبة هي أيضا في فعلنا ذاك، إذ هي لا تخبر عن *نفسها* إلا من خلال ألم الآخر، كما يحدث في المعابثة مثلا. كل متعة يجدها المرء في نفسه لا هي بالخيرة ولا هي بالشريرة؛ فمن أين لنا هذا القانون الذي يقضي بأنه لا يحق لنا أن نسبب كدرا للآخرين ونحن نبحث عن المتعة في أنفسنا؟ ومن وجهة نظر الفائدة، أي بالنظر إلى ما سينجر من *نتائج*: من كدر محتمل عندما يعبر المتضرر أو الدولة التي تنوب عنه عن نية عقابٍ أو انتقامٍ متتظر، فهذا وحده يكفي لكي يمدنا منذ البداية بسبب لإلغاء مثل ذلك الفعل.

إن الشفقة لا تضع غاية لها في متعة الآخر، بالقدر الذي لا يكون

هدف الخبث، كما بيّنا سابقا، إيذاء الآخر في حد ذاته، لأنها تحمل في صلبها عنصرين (وربما أكثر من ذلك) لمتعة شخصية وتكون بالتالي متعة يجدها المرء في نفسه: مرة كلذة في الانفعال، مثل الشفقة في التراجيديا، ومرة عندما تدفع إلى الفعل، كلذة رضى مستمدة من ممارسة القوة. وإذا ما كان المتألم علاوة على ذلك شخصا قريبا منا، فإننا سنزيح عن أنفسنا مقدارا من الألم من خلال القيام بأفعال تنم عن الشفقة. -وإذا ما استثنينا بعض الفلاسفة، فإن الناس ظلوا على الدوام يضعون الشفقة في درجة دنيا من سلم الأحاسيس الأخلاقية: وكانوا في ذلك محقّين.

104

الدفاع عن النفس

إن نحن قبلنا بالدفاع عن النفس عموما كشيء أخلاقي، فإنه سيكون علينا أن أن نقبل أيضا على نحو كلي تقريبا بالظواهر التي تجسد ما يدعى بالأنانية اللاأخلاقية: فالمرء يؤذي، ويسرق أو يقتل بهدف حفظ النفس أو من أجل حماية النفس، أو للاحتماء من مكروه يتهدده؛ كما يكذب المرء حيث تكون الحيلة والخداع الوسيلة الناجعة للحفاظ على النفس. وعندما يتعلق الأمر بوجودنا أو بأماننا (حفظ راحة حياتنا) يعتبر *الإيذاء المتعمّد* أخلاقيا؛ والدولة نفسها تمارس هذا الإيذاء بهذا المعنى عندما تصدر أحكام العقوبات. كما تسقط اللاأخلاقية بطبيعة الحال عن الإيذاء غير المتعمّد، إذ يكون الفعل هنا محكوما بالصدفة. هل يوجد إذن إيذاء متعمد لا يتعلق الأمر فيه بوجودنا وبحماية راحة حياتنا؟ هل يوجد إيذاء بدافع *الشر المحض*، في القسوة مثلا؟ وعندما لا يدرك المرء أي ألم يسببه فعل ما، لن يكون ذلك فعل شر، كذلك لا يكون الطفل خبيثا، ولا شريرا بسبب معاملته القاسية للحيوان: إنه

يختبر ويدمر هذا الأخير مثل لعبته. لكن هل يعرف المرء بالنهاية جيدا أي ألم يمكن أن يسببه فعل ما لشخص آخر؟ إننا نظل حريصين دوما على تفادي الألم ضمن حدود جهازنا العصبي، ولو أن هذا الأخير بمستطاعه أن يمتد إلى ما أبعد، أي حتى النفاذ إلى داخل الآخرين، لما قمنا بما يؤذي أحدا (عدا في تلك الحالات التي نعمد فيها إلى إيلام نفسنا، أي تلك التي نلجأ فيها إلى الحز والقطع من أجل العلاج، أو نجهد نفسنا ونرهقها من أجل المعافاة). نستنتج بموجب قياس أن هذا الأمر أو ذاك يسبب ألما، ومن خلال التذكر وقوة الملكة التخييلية يمكن أن ينتابنا إحساس بالألم بسبب ذلك. لكن أي فارق يظل هناك دائما بين وجع الضرس، والألم (الشفقة) الذي يثيره فينا مشهد وجع الضرس! وبالتالي، عندما نحدث أذى بموجب ما يسمى شرا تظل درجة الألم المحدَث غير معروفة في كل الأحوال، لكن لمجرد أن تكون هناك لذة في ممارسة الفعل (إحساس بالقوة، وبحدّة الانفعال)، فإن العملية ستتم من أجل حفظ راحة الفرد، وتتنزل بموجب ذلك في منظور شبيه بالدفاع عن النفس، وبالكذب الاضطراري،[٣٩] بهدف حماية النفس.

ما من حياة دون متعة، والصراع من أجل المتعة صراع من أجل الحياة. أما أن يخوض الفرد ذلك الصراع على هذا النحو ليقال عنه أنه خيّر، أو على ذاك ليقال عنه أنه شرير، فذلك أمر يظل مرتبطا بمستوى ومدى متانة تركيبته الذهنية.

105

عدالة المكافاة

من تكوّن لديه فهم كامل لمبدأ اللامسؤولية التامة لن يمكنه بعدها أن ينزّل ما يسمى بعدالة العقاب والمكافأة ضمن مفهوم العدالة، في

صورة ما إذا كانت هذه الأخيرة تعني أن يُمنح كلٌ حقه. ذلك أن من يعاقَب لا يستحق العقاب؛ إنما يستعمل فقط كوسيلة لترهيب الآخرين وردعهم عن أفعال بعينها، كما لا يستحق الذي يكافأ تلك المكافأة، إذ ليس بوسعه أن يفعل غير ما فعله. وبالتالي لا يكون للمكافأة من معنى سوى تشجيع له ولغيره بهدف التحفيز على أعمال مستقبلية من ذلك النوع؛ فهتافات التشجيع يصرخ بها الناس للفارس وهو ما يزال في حلبة السباق، وليس بعد بلوغ الهدف. فلا العقاب ولا المكافأة يمكن أن يكونا شيئا يعود إلى المرء كحق مكتسب، إنما تمنح له من منطلق أغراض نفعية، دون أن يكون له أن يطالب بها من جهة العدل. على المرء بالتالي أن يقول أيضا: «الحكيم لا يكافِئ لأجل عمل حسن تم القيام به»، كما قيل: «الحكيم لا يعاقِب لأجل عمل سيء تم القيام به، بل لكي لا يؤتى عمل سيء في المستقبل.» وإذا ما انعدم العقاب والمكافأة، انعدمت معهما الدوافع المتينة التي تصدّ عن أعمال بعينها وتدفع إلى أخرى بعينها؛ فمصلحة الإنسانية تقتضي إذن بقاءهما، وبما أن للعقاب والمكافأة، وللوم والمديح أشد التأثير على الغرور، فإن نفس المصلحة تقتضي بقاء الغرور.

106

عند الشلال

عند مشاهدة شلال مائي يساورنا الاعتقاد بأننا نرى في التموجات والالتواءات والانكسارات العديدة للتيار إرادة حرة ورغبة؛ بينما كل شيء يجري بموجب الضرورة، وكل حركة محسوبة بصرامة رياضية. ولا يختلف الأمر أيضا في أفعال الإنسان؛ سيكون بإمكاننا أن نحسب مسبقا كل فعل كما لو كان المرء محيطا علما بكل شيء، وكذلك بكل تطور للمعرفة، وبكل خطأ وكل شر. والإنسان الفاعل نفسه لا ينجو

مع ذلك من وهم الإرادة الفاعلة، ولو أن عجلة الزمن تتوقف للحظة واحدة، ويكون هناك عقل حسوب محيط بكل أمر كي يستغل تلك الفاصلة من التوقف، فسيكون بوسعه أن يحدثنا بأدنى جزئية من كل ما سيجري حتى أبعد طور من الزمن المستقبلي ويخبرنا عن كل كائن، ويصور لنا كل أثر ستمضي فوقه تلك العجلة. كما أن الوهم الذي يعتري الإنسان الفاعل حول ذاته، وفرضية الإرادة الحرة هي أيضا جزء من هذه الآلية التي سيضبط حسابها.

107

اللامسؤولية والبراءة

إن اللامسؤولية التامة للإنسان عن أفعاله وكيانه هي الجرعة الأكثر مرارة التي سيكون على رجل المعرفة أن يتجرعها إذا كان طوال الوقت يرى في المسؤولية والواجب عنوان شرف لإنسانيته. ستجد كل تقديراته وتكريساته وميوله نفسها وقد تجردت من قيمتها وغدت خاطئة؛ وإذا ما كان يكنه من عميق الاحترام للشهيد والبطل مجردَ خطأ لا غير، ولن يحق له بعدها أن يمدح أو أن يعاتب، إذ من العبث مدح الطبيعة والضرورة ومعاتبتهما. وكما يعشق أثرا فنيا، لكن دون أن يمدحه، لأن ذلك الأثر لا قدرة له على نفسه، وكما يقف أمام الزهرة، كذلك يجب عليه أن يقف إزاء أفعال الإنسان وإزاء أفعاله الخاصة أيضا. يمكنه أن ينظر بعين الإعجاب إلى ما فيها من طاقة وجمال وثراء، لكن لا يحق له أن يُلبسها مزايا: فالتفاعلات الكيميائية[٤٠] وصراع العناصر، ومعاناة المريض وهو يتعطش إلى الشفاء ليست بالمزايا إلا بالقدر الضئيل الذي في تلك الصراعات الروحية وحالات التأزم النفسي التي يتخبط المرء في خضمها ممزقا بين مختلف الدوافع إلى أن يحسم الأمر بالنهاية لصالح الأقوى من بينها-كما يقال (وفي الحقيقة إلى أن

يحسِم الدافعُ الأقوى الأمر ويقرر بشأننا). غير أن كل هذه الدوافع، مهما كانت فخامة الأسماء التي نطلقها عليها، هي نبْتٌ طالع من نفس الجذور، تلك التي نعتقد أنها مكمن السموم الشريرة؛ وبين الخير والشر لا يوجد فارق في النوع، بل في الدرجة فقط، على أقصى تقدير. أفعال الخير هي أفعال شر أضفي عليها طابع الجلال، وأفعال الشر هي أفعال خير محوَّلة فظاظة وحماقات. إن الرغبة الوحيدة للفرد في الاحتفاء بالذات (ومعها الخوف من الحرمان من ذلك) تجد تلبية لها في كل الأحوال أيما استطاع الإنسان أن يفعل، بمعنى كيفما كان عليه أن يفعل: إنْ في أعمال الغرور، أو الانتقام، أو المتعة، أو المصلحة، أو الخبث، أو المكر، أو في أعمال التضحية أو الشفقة أو المعرفة. وإن درجات ملكة التقدير هي التي تحدد إلى أي اتجاه سيدع المرء هذه الرغبة تقوده. لدى كل مجتمع ولدى كل فرد كان هناك على الدوام سلم تراتب للأشياء يحدد أفعاله وفقا له ويحكم على أفعال الآخرين. إلا أن هذا المعيار يتغير بصفة مطردة، وبالتالي يكون هناك العديد من الأفعال التي تعتبر شريرة، بينما لم تكن سوى أفعال سخيفة، لأن درجة الذكاء الذي حكم عليها كانت من درجة دنيا. نعم، وبمعني ما فإن أعمالنا الآن سخيفة هي الأخرى، ذلك أن أقصى درجة من الذكاء البشري التي يمكن بلوغها الآن سيتم تجاوزها بكل تأكيد، وعندها ستبدو *كل* أعمالنا وأحكامنا لمن سينظر إليها من مسافة متقدمة محدودةً جدا ومتسرعةً، تماما مثل ما تبدو لنا اليوم أفعال وأحكام شعوب الطور البدائي المتوحشة.

أن يرى المرء كل هذا سيجعله يشعر بمرارة عميقة، لكن يظل هناك عزاء: إنّ الآلام أوجاعُ ولادة. الفراشة تريد تحطيم شرنقتها، تشد عليها وتسحب بقوة، تمزقها؛ ثم هو ذا النور اللامعتاد -مملكة الحرية- يبهرها ويدخلها في حالة من الاضطراب. لدى هؤلاء الناس

القادرين على مثل هذا الحزن -وكم هم قلة!- سيتم اختبار ما إذا ستكون الإنسانية *قادرة على التحول من إنسانية أخلاقية إلى إنسانية* حكيمة. إن شمس إنجيل جديد ترسل شعاعها الأول فوق أعلى القمم في أرواح هؤلاء الأفراد: هناك تتراكم السحب أكثر كثافة مما في أي مكان آخر، وجنبا إلى جنب يمتد الضياء الأكثر صفاء والغسق الأكثر كدرا. كل شيء ضرورة، هكذا تقول المعرفة الجديدة؛ وهذه المعرفة ضرورة هي نفسها. كل شيء براءة؛ والمعرفة هي الطريق المؤدية إلى استكشاف تلك البراءة. وإذا ما كانت المتعة والأنانية والغرور ضرورية لإنتاج الظاهرات الأخلاقية وازدهارها الأقصى، ولحسّ الحقيقة وعدالة المعرفة، وإذا ما كان الخطأ وضلال الخيال الوسيلة الوحيدة التي مكنت الإنسانية من التدرج نحو هذا المستوى من العرفان الذاتي والخلاص الشخصي،-فمن سيحق له إذن أن يقلل من شأن هذه الوسيلة؟ ومن سيحق له أن يحزن عندما يلمح الهدف الذي تقود إليه هذه الطريق؟ كل شيء في مجال الأخلاق نتاج صيرورة، متغير، متقلّب، كل شيء داخل السيل؛ إن هذا صحيح؛ لكن *كل شيء يمضي مع التيار أيضا*: إلى غاية. صحيح أن عادات الأخطاء الموروثة لدينا، من تقدير ومحبة وكراهية تواصل بسط نفوذها علينا، غير أنها ستغدو أضف فأضعف تحت تأثير المعرفة المتزايدة؛ وربما ستنبت لدينا شيئا فشيئا، وعلى نفس الأرضية، عادة جديدة: عادة الفهم، وعدم المحبة، وعدم الكراهية، والنظرة الفوقية الشاملة، وقد تغدو بعد آلاف من السنين على قدر من القوة كي تمنح الإنسانية الطاقة على إنجاب الإنسان الحكيم والبريء(الواعي ببراءته) مثلما تنجب اليوم عديم الحكمة والجائر والذي يرزح تحت الشعور بالذنب: يعني *نموذج الممهّد الضروري وليس نقيض هذا الذي سيأتي* -.

الفصل الثالث

الحياة الدينية

108

طريقتان للصراع ضد الشر

عندما يحل بنا سوء، يكون أمامنا إما أن نتغلب عليه بالقضاء على علته، أو أن نعمد إلى تغيير المفعول الذي يكون له على أحاسيسنا: أي بتأويل الشر بما يجعل منه خيرا، تأويل ربما تتجلى منفعته فقط في ما بعد. يجتهد الدين والفن (والفلسفة الميتافيزيقية أيضا) في العمل على تغيير الإحساس، عن طريق تغيير حكمنا على الوقائع حينا (بمساعدة هذه المقولة مثلا: «إن الله يبتلي من يحب من عباده»)، [٤١] وعن طريق إثارة لذة في الألم وفي الأحاسيس عامة حينا آخر (وذلك هو منطلق الفن التراجيدي). وبقدر ما يميل شخص ما إلى التأويل والتبرير، بأقل ما يولي اهتماما لأسباب السوء ويعمل على إزالتها؛ فالتخدير والتهدئة المؤقتة، كما يحدث عادة في حالات أوجاع الضرس، تكون كافية بالنسبة له حتى في حالة الألم العميق. وكلما تراجعت سيطرة الدين وكل فنون التخدير، ازدادت صرامة الناس في الانشغال بالإزالة الحقيقية للألم، وهو أمر سيء بالنسبة للشاعر التراجيدي بطبيعة الحال،- إذ ستتضاءل مادة التراجيديا، لأن مجال المصير المحتوم الذي لا يقهر ما ينفك يزداد تقلصا- لكن الأمر أسوأ

بالنسبة للقساوسة، إذ هؤلاء ظلوا إلى الآن يعيشون من تخدير الآلام الإنسانية.

109

الأسى معرفة

لكم يود المرء لو أنه يعوض عن المزاعم الخاطئة للكاهن بأن هناك إلها يأمرنا بالخير وينتصب حارسا وشاهدا على كل أفعالنا وكل نظرة منا وكل فكرة تخامرنا، إلها يحبنا ومن وراء كل مكروه لا يود لنا سوى الأفضل،- لكم يود المرء لو أنه يعوض هذه المزاعم بحقائق تكون بدورها حاملة شفاء وطمأنينة وخيرا! لكن مثل هذه الحقائق لا توجد، ولا تستطيع الفلسفة أن تطرح مقابلا لها سوى مزاعم ميتافيزيقية في أقصى الأحوال (أي أباطيل أخرى في الحقيقة). وبذلك تكون المأساة هي التالية: أننا لا نستطيع أن نصدق بهذه المعتقدات الدينية والميتافيزيقة إن كنا نحمل في عقولنا وفي قلوبنا المنهج الصارم للحقيقة، وأننا من ناحية أخرى قد غدونا بحكم التطور الذي عرفته الإنسانية، على غاية من الرقة والهشاشة والمعاناة، كي تكون بنا حاجة إلى خلاص وسلوان من النوع الأرقى؛ الأمر الذي ينشأ عنه خطر أن يظل الإنسان ينزف وجعا من جراء معرفة الحقيقة. ذاك هو ما يعبر عنه بايرون في هذه الأبيات الخالدة:

Sorrow is knowledge: they who know the most
Must mourn the deepst o'er the fatal truth,
The tree of knowledge is not that of life.(*)

(*) *حزن هي المعرفة: والذي يعرف أكثر*
هو أكثر من يبكي الحقيقة القاسية
كلا، شجرة المعرفة ليست شجرة الحياة.

أمام هذه الهموم ليس هناك من علاج أفضل من أن نستدعي إلينا الخفة البهيجة لهوراس، للساعات الأكثر كربا على الأقل، وللحظات خسوف الروح، وأن نردد معه:

quid aeternis minorem
consiliis animum fatigas
cur non su balta vel platano vel hac
pinu jacentes-(*)

من الأكيد أن الخفة أو الكآبة تظل على جميع المستويات أفضل من النكوص الرومانسي والفرار والتقارب مع المسيحية بأي شكل من الأشكال؛ ذلك أنه لم يعد من الممكن في الوضع الحالي للمعرفة أن نربط صلة وفاق معها دون أن نكون قد لطّخنا ضميرنا العقلي إلى الأبد وخنّاه في نظرنا كما في نظر الآخرين. قد تكون هذه الآلام قاسية جدا، لكن من دون آلام لا يمكن للمرء أن يصبح قائدا ومربيا للإنسانية: والويل لمن سيحاول ذلك وقد فقد هذا الضمير النقيّ![٤٢]

110

الحقيقة في الدين

من المؤكد أن عصر الأنوار لم يكن منصفا في حكمه على أهمية الدين، لكنه من المؤكد أيضا أن ردة الفعل اللاحقة والمناهضة للأنوار قد انحرفت بدورها عن الإنصاف بما جاء فيها من تعامل بحب، بل بولع مع الأديان والاعتراف لها بفهم عميق للعالم، بل الفهم الأعمق

(*) *لِمَ تعذب عقلك المسكين*
بفكرة لغز الخلود؟
لم لا تستلق تحت أشجار الدُّلب السامقة،
أو هنا تحت أشجار الصنوبر؟

على الإطلاق، فهم سيخلع عن العلوم معطفها الدوغمائي كي تتوصل إلى المسك بـ«الحقيقة» في شكل مجرد من الخرافة. يعني أن الأديان، كما يرد في مزاعم مناهضي التنوير، ستكون المعبّر مجازا sensu allegorico وبما يراعي فهم عامة الجمهور عن تلك الحكمة القديمة، التي هي الحكمة في ذاتها، باعتبار أن كل العلوم الحقيقية للعصور الحديثة تظل على الدوام تقود إليها، عوض أن تصرف عنها، مما يجعل العلاقة بين حكماء العصور القديمة للإنسانية وكل اللاحقين علاقة يسودها الانسجام، بل وتطابق في الآراء، وتقدم المعارف-إذا ما كانت هناك نية للكلام في هذا الأمر- لا يتعلق بمحتوى هذا التقدم بل بعملية تناقله. إن مجمل هذا التصور للدين والعلم خاطئ كليا، ولم يكن ليوجد من سيتجرأ اليوم على إعلان انحيازه لمثل هذا التصور لو لم يمنحه شوبنهاور رعاية بلاغته(٤٣)؛ تلك البلاغة ذات النبرة الرنانة، والتي لا تبلغ مستمعيها مع ذلك إلا بعد جيل. وبقدر ما هو متأكد أننا نجد فائدة كبيرة في فهم المسيحية وبقية الديانات من خلال التفسير الديني الأخلاقي للعالم والإنسان الذي يقدمه شوبنهاور، يمكننا أن نكون على نفس القدر من الوثوق من أنه قد أخطأ في تقييمه لأهمية *الدين بالنسبة للمعرفة*. ولم يكن بدوره سوى تلميذ طيّع لأساتذة علوم عصره الذين اختاروا تمجيد الرومانسية وارتدوا عن روح التنوير، ولو أنه ولد في عصرنا هذا لما كان بإمكانه أن يتكلم عن معنى مجازي sensus allegoricos للدين، ولكان بجّل الحقيقة، كما عهدنا ذلك منه دوما، ولكانت كلمته: *أبدا ما كان لدين، لا بصفة مباشرة ولا بصفة غير مباشرة، لا كمعتقد ولا كمجاز، أن يكون منطويا على حقيقة*. ذلك أن كل ديانة كان منشؤها الخوف والحاجة، وكل واحدة منها قد تسللت إلى الوجود عبر دروب تيه سار عليها العقل، ولعلها قد عمدت بين الحين والآخر، مدفوعة بالخطر الذي يتهددها من العلم، إلى

تزوير نظرية فلسفية ما أقحمتها كذبا داخل نظامها بغية أن يجدها الناس فيه لاحقا؛ غير أن تلك حيلة من حيل اللاهوتيين من زمن كان الدين فيه مهتزا بالشك في نفسه. هذه الحيل اللاهوتية -تلك التي تمت ممارستها في الحقيقة مبكرا داخل المسيحية، ديانة من عصر عالم متشبع بالفلسفة- هي التي قادت إلى خرافة المعنى المجازي sensus allegoricos، وأكثر منها أيضا عادات الفلاسفة (على وجه الخصوص منهم أولئك الهجُن، الفلاسفة المتشاعرين والفنانون المتفلسفون) في التعامل مع كل الأحاسيس التي وجدوها قائمة فيهم على أنها ماهية أساسية للإنسان عامة، وفي جعل أحاسيسهم الدينية تبعا لذلك تؤثر تأثيرا بالغا في بناء نظامهم الفكري. ولأن الفلاسفة كانوا يتعاطون الفلسفة في أحيان عدة تحت التأثير التقليدي للعادات الدينية، أو على الأقل تحت السيطرة المتوارثة لتلك "الحاجة الميتافيزيقية" المزعومة، فقد وجدوا أنفسهم ينتهون إلى آراء نظرية لها في الواقع قرابة واضحة مع الآراء الدينية اليهودية والمسيحية أو الهندية،-قرابة من تلك التي في شَبَه الطفل بأمه، سوى أن الآباء في هذه الحالة لم يكونوا ليولوا اهتماما لتفسير هذا النسب الأمومي، كما يحدث عادة- بل ظلوا بكل براءة ينسجون الخرافات حول هذه القرابة العائلية بين كل الأديان والعلوم. في الواقع ليس هناك من قرابة بين الدين والعلم الحقيقي، وليس هناك صداقة، ولا حتى عداوة؛ إنهما بكل بساطة يقيمان فوق كوكبين مختلفين. وكل فلسفة تريك بريق مذنّب ديني يعبر ظلمة المناطق القصية من رؤاها تجعل كل ما تطرحه كعلم في داخلها مشبوها: يبدو إذن أن كل شيء فيها ليس سوى دين، وإن جاء مكسوّا بمُسوح العلم. وبالمناسبة، لو أن شعوب الدنيا اتفقت جميعها على أمور دينية بعينها، كوجود إله مثلا (والحال أن الأمر، لنقلها بين قوسين، ليس كذلك في هذه المسألة بالذات)، فإن ذلك لن يكون

سوى برهان *مضاد* ينفي مثل هذه الأمور المزعومة، كوجود إله مثلا: فالإجماع العام - *consensus gentium* و الإنساني- *hominium* عموما لا يمكن أن يعتبر، وبكل إنصاف، إلا حمقا. بالمقابل ليس هناك من إجماع للعلماء consensus omnium sapientium إطلاقا، وبشأن أي شيء عدا هذا الاستثناء الذي تتكلم عنه الأبيات التالية لغوته:

كل العلماء من كل الأزمنة
يبتسمون ويهزون برأسهم، وبصوت واحد يقولون:
حمق هو الإصرار على علاج الأحمق!
يا أبناء الحكمة، ليكن الحمقى
في أعينكم حمقى، كما تقتضي الحكمة!

ومن دون نظم أو قافية سنقول بخصوص الحالة التي نحن بصددها: إن إجماع العلماء *consensus sapientium* يتمثل في أن الإجماع العام *consensus gentium* يعدّ حمقا.

111

أصل العبادة (الدينية)

إذا ما عدنا إلى تلك الأزمنة التي عرفت الحياة الدينية فيها أوج ازدهارها فسنجد هناك قناعة أساسية لم نعد نشاطرها اليوم، وكان هذا سببا في أننا أوصدنا الباب نهائيا أمام الحياة الدينية: تتعلق تلك القناعة بالطبيعة وعلاقتنا بها. لم يكن للإنسان في تلك الأزمنة من علم بقوانين الطبيعة، ولم يكن هناك من قواعد ضرورة بالنسبة للأرض كما للسماء: الفصول، وطلوع الشمس، ونزول الأمطار التي بإمكانها أن تأتي أو لا تأتي كما يحلو لها. كان هناك غياب تام لقانون السببية

الطبيعية في الأذهان، فعندما يعالج المرء المجداف ليست ضربة المجداف هي التي تدفع بالسفينة، بل إن معالجة المجداف لا تعدو كونها طقسا لإخضاع جنيّ وإرغامه على دفع السفينة. كما أن كل الأمراض، والموت كذلك هي نتائج لأفعال سحر، ولا يتعلق الأمر البتة بفعل طبيعي في المرض والموت، ففكرة «السير الطبيعي» بكليتها كانت منعدمة، ولم تعرف فجر ظهورها إلا لدى الإغريق القدامى، أي في فترة متأخرة جدا من تاريخ الوجود البشري، في مفهوم المويْرا[٤٤] Moira - التي كانت تجلس على عرش فوق الآلهة. وعندما يرمي شخص بسهم فإن هناك دوما يدا لا بشرية وقوة لا معقولة تحرك ذلك الفعل، وإذا ما نضبت الينابيع فجأة يذهب التفكير مباشرة إلى شياطين أعماق الأرض وحيلها الشريرة، وعندما يهلك شخص فلا بد أن سهم إله هو الذي أرداه قتيلا تحت مفعوله اللامرئي. في الهند يدأب النجار (حسب لوبوك)[٤٥] على تقديم القرابين لمطرقته وفأسه وبقية أدوات عمله، وبنفس الطريقة يعامل البراهماني القلم الذي يكتب به، والجندي سلاحَه، والمزارع محراثَه والبناء مسجّته. فالطبيعة بكليتها في تصور الإنسان المتديّن مجموع أفعال لكيانات يحركها وعي وإرادة: مركب هائل من *إرادات اعتباطية*. وفي ما يتعلق بكل ما هو خارج عنا، ما من استنتاج هناك بأن شيئا ما سيكون على هذا النحو أو ذاك، ويجب أن يحدث على هذا النحو أو ذاك؛ ما هو شبه ثابت ومتيسر للإحاطة إلى حد ما، هو نحن: الإنسان هو *القاعدة*، والطبيعة غياب *القاعدة*،- هذه المقولة تحمل في صلبها القناعة الأساسية التي تسود الثقافات العتيقة البدائية ومنتجة الأديان. أما نحن المعاصرون، فإحساسنا يمضي في الاتجاه المعاكس تماما: كلما ازداد الإحساس الداخلي للإنسان اليوم بثرائه، كلما ازداد تعدد الأصوات التي تتردد في ذاته، وكلما تضاعفت قوة تأثير الوحدة الطبيعية فيه؛ ونحن جميعا نعتبر

مع غوته أن الطبيعة هي الوسيلة الكبرى لتهدئة الروح المعاصرة، نستمع إلى دقات رقاص هذه الساعة الكبرى بكثير من الحنين إلى الهدوء وإلى الحميمية والسكون، كما لو كنا نتشرب هذا الانسجام ومن خلاله فقط نستطيع أن نبلغ حالة المتعة التي نجدها في ذاتنا. كان الوضع على عكس هذا في ما مضى: لنتذكر الأوضاع البدائية للشعوب القديمة أو لننظر إلى البدائيين غير بعيد منا في وقتنا الحاضر، وسنجدهم محددين إلى حد بعيد *بالناموس والتقاليد*: الفرد فيها مرتبط بصفة آلية تقريبا بذلك القانون وتلك التقاليد ويتحرك بحسب الآلية المنتظمة لرقاص الساعة. تتراءى له الطبيعة - تلك الطبيعة الغامضة، السرية، الفظيعة والتي تتعذر على الفهم - في مقام *مملكة الحرية* والإرادة الاعتباطية والقوة الأرقى، بل مثل درجة وجودية أرقى من المنزلة الإنسانية؛ كإله. يشعر كل فرد من تلك الأزمنة وتلك الأوضاع أن وجوده وسعادته وسعادة العائلة والدولة وكذلك نجاح كل أعماله مرتبطة بتلك الإرادة الاعتباطية للطبيعة: هناك أشياء يجب أن تحدث في وقت بعينه، وهناك أشياء يجب أن تغيب في وقت بعينه. كيف يمكن للإنسان إذن أن يمارس تأثيرا ما على هذا المجهول الفظيع، وكيف يمكنه أن يقيّد مملكة الحرية؟ هكذا كان يبحث خائفا، وهكذا كان يسأل نفسه: ألا توجد وسيلة ما لجعل هذه القوى تشتغل بحسب انتظام مضبوط بالقانون والتقاليد، كما تشتغل أنت بانتظام مضبوط؟ - لقد كان التفكير السحري موجها نحو السعي إلى *إخضاع الطبيعة إلى قانون*؛ وباختصار، كانت الشعائر الدينية هي نتيجة هذا التفكير. كان الإشكال الذي طرح نفسه على هؤلاء الناس هو كيف يمكن *للأضعف* أن يملي قوانين على *الأقوى* ويحدد وجوده ويوجه أفعاله-بما يناسب الأضعف-؟ سيحاول المرء في البداية اللجوء إلى استعمال نوع من الإكراه اللين من ذلك الذي يستعمله امرؤ عندما يكون راغبا في

استمالة شخص ما: عن طريق الاستعطاف والتوسل، وعن طريق الخضوع، وعن طريق الالتزام بتقديم منتظم للهدايا والنذور، وعن طريق المدائح المتملقة سيكون ممكنا أيضا أن نمارس إكراها على القوى الطبيعة باستمالتها: فالحب يُلزم ويغدو بدوره ملزَمًا. ذلك أننا نستطيع إبرام عقود يلتزم الطرفان بموجبها بسلوك محدد، يقدمان الضمانات ويتبادلان العهود. لكن أهم بكثير من هذا هناك ذلك النوع الثاني من الإكراه العنيف عن طريق السحر والرُّقية. فكما يستطيع الإنسان أن يلحق ضررا كبيرا بعدو قوي ويضعه في حالة من الخوف منه عن طريق السحر، وكما تفعل رقية الحب مفعولها عن بعد، فإن الإنسان الضعيف يعتقد أنه يمكنه أن يتحكم في الأرواح الجبارة للطبيعة أيضا. والوسيلة الرئيسية في السحر تقتضي أن يضع المرء يده على شيء من أشياء الشخص المعني شعرا أو ظفرا أو أكلا من مائدته، وحتى صورته أو إسمه. بهذه الأشياء يمكن ممارسة السحر، ذلك أن الفرضية الأساسية للسحر هي القائلة بأن لكل روح عنصر جسماني يستطيع أن يساعد على تقييد تلك الروح وإلحاق الضرر بها وتدميرها، فالجسماني يمنحنا وسيلة القبض على الروح. وبالتالي فإنه، وكما يمكن للإنسان أن يتحكم في الإنسان، يمكنه التحكم على النحو ذاته في أي روح من الطبيعة، إذ لهذا الأخير أيضا عنصره الجسماني الذي يمكن القبض عليه من خلاله. فالشجرة والبذرة التي نبتت منها، هذا التجاور الغامض يبدو وكأنه يقدم الدليل على أن روحا واحدة قد اتخذت لها موطنا في كلا الشكلين، مرة في حجم صغير ومرة في حجم أكبر. والصخرة التي تتدحرج فجأة هي الجسم الذي تتحرك في داخله روح، وإذا ما كانت هناك صخرة هائلة وسط مرج ناء فسيكون من المستحيل التفكير في قوة بشرية قد دفعتها إلى هناك، وبالتالي فلا بد أن تكون الصخرة هي التي تحركت من لدن نفسها، يعني أنها لابد

أن تكون مسكونة بروح. كل ما له عنصر جسدي هو في متناول السحر، إذن فالأرواح الطبيعية أيضا في متناول السحر. وعندما يكون إله ما مقترنا بصورة فسيغدو بإمكان الإنسان أن يمارس عليه هو أيضا إكراها مباشرا (عن طريق منعه من طعام القرابين، وبجلْده ووضعه في القيود وما شابه ذلك). كان بسطاء الناس من الصينيين إذا ما أرادوا انتزاع الكرامات التي يحبسها عنهم إلههم يعمدون إلى تكبيل صنم الرب الذي تخلى عنهم بالحبال ثم يطرحونه أرضا ويجرجرونه في الأوحال وأكوام القاذورات عبر الشوارع وهم يشتمونه: «أيها الكلب، لقد أسكنّاك في معبد فاخر وكسوناك ذهبا وأطعمناك جيدا وقدمنا لك القرابين والأضاحي، لكنك لا تبدي اعترافا بالجميل.» مثل هذه الأساليب الانتقامية حصلت ممارستها خلال هذا القرن في بعض من بلدان المسيحية الكاثوليكية ضد صور للقديسين ولأم المسيح عندما تخاذلوا عن أداء واجبهم في أزمنة الطاعون والجفاف مثلا.

من خلال هذه العلاقات السحرية مع الطبيعة برز إلى الوجود عدد هائل من الطقوس الاحتفالية، وعندما تفاقم هذا الخليط وتكاثر اجتهد الناس في ترتيبها وتنسيقها بطريقة يهدفون من ورائها إلى ضمان سير مناسب لمجمل السياق الطبيعي، أي لتلك الدورة السنوية الكبيرة، وذلك عن طريق نسق مناسب لنظام الطقوس الاحتفالية. إن المغزى من وراء العبادات الدينية هو التحكم في الطبيعة وتطويعها بما يناسب مصلحة الإنسان، أي أن *يوضع لها نظام قانوني لم يكن لها في الأصل*؛ بينما نريد في عصرنا الحاضر أن نعرف قوانين الطبيعة كي ندمج أنفسنا داخلها.

وباختصار، إن العبادة الدينية تقوم على قاعدة التصور السحري في علاقة الإنسان بالإنسان، والساحر أقدم من الكاهن. لكن الدين يرتكز كذلك على تصورات مختلفة وأنبل؛ إنه يفترض علاقات أكثر

تعاطفا بين الإنسان والإنسان ووجود العطف والاعتراف بالجميل والاستجابة للمتوسل والمعاهدات بين الأعداء وقضاء العهود وحق حماية الملكية. والإنسان، حتى في ظل الثقافات الدنيا، لا يقف عبدا ضعيفا أمام الطبيعة، ولا هو بالضروة قنّ عديم الإرادة: في المرحلة الإغريقية للدين وبصفة أساسية في العلاقة مع آلهة الأولمب كان يمكن حتى التفكير في تعايش طائفتين، واحدة نبيلة وأكثر قوة، والثانية أقل نبالة، لكنهما متعاضدتان كلاهما بشكل ما من حيث الأصل، وتكوّنان نوعا واحدا، ولا تشعر الواحدة منهما بالخجل من الأخرى. ذلك هو وجه النبالة في التديّن الإغريقي.

112

من وحي بعض الطقوس التضحوية العتيقة

هناك كم من الأحاسيس قد غدا مفتقَدا لدينا اليوم، وهو ما نلمسه في عدم قدرتنا على إدراك تعايش التهريجي، بل والفاحش أيضا، مع الإحساس الديني؛ يتقلص الإحساس بهذا المزيج لدينا حد الامحاء، ولم يعد بوسعنا أن ندرك أنه كان موجودا إلا بصفة تاريخية في احتفالات ديميتير وديونيزوس وفي ألعاب حفلات عيد الفصح والطقوس السرية المسيحية. لكننا مازلنا نعرف مع ذلك امتزاج المقدس بالساخر وما شابهه، والمؤثّر بالمضحك، الشيء الذي قد لا يظل مفهوما في العصور القادمة.

113

المسيحية كشيء من التاريخ القديم

عندما نسمع الأجراس العتيقة تقرع صباح يوم أحد نجد نفسنا نتساءل: أيعقل هذا؟ كل هذا من أجل يهودي صُلب قبل ألفي سنة كان يقول إنه

ابن الله، لكن ما من برهان هناك على هذا الزعم. من الثابت أن المسيحية في عصرنا الحاضر شيء عتيق قادم من الأغوار البعيدة للزمن، والاعتقاد في هذا الزعم-في حين نبدي في ما عدا هذا صرامة شديدة في تمحيص المزاعم- ربما يكون في حد ذاته أقدم قطعة من هذا الموروث. إله ينجب أطفالا مع امرأة من الفانين، وحكيم يأمر بالانقطاع عن العمل والكف عن المقاضاة، والانتباه عوضا عن ذلك إلى علامات نهاية العالم الوشيكة، وعدالة تقتضي أن يكون البريء ضحية بالنيابة، وشخص يطالب أتباعه بشرب دمه، وصلوات لاستدعاء المعجزات، وخطايا تُقترف في حق إله ويكفّر عنها إله، خوف من آخرة يكون الموت بوابة العبور إليها، وصورة الصليب كرمز في زمن لم يعد يعرف غاية الصليب ولا مهانته! -أي قشعريرة تنتابنا من هذه الأشياء بما يشبه رجفة ذعر تهب علينا من رواميس ماض سحيق! هل نستطيع أن نصدق بأننا مازلنا نؤمن بمثل هذه الأشياء؟

113

ما ليس إغريقيا في المسيحية

لم يكن الإغريق يرون في الآلهة الهوميرية أسيادا عليهم، ولا كانوا يرون في أنفسهم عبيدا تحتها كما يفعل اليهود. كانوا يرون فيها مجرد انعكاس للنماذج الأكثر نجاحا من طائفتهم، أي مثالا وليس نقيضا لكيانهم الخاص. كان لديهم إحساس برابطة قرابة معها، وبينهم وإياها علاقات مصالح متبادلة، نوع من الحلف كذلك الذي يربط بين مدينتين أو مملكتين (symmachie). تنشأ لدى الإنسان فكرة نبيلة عن نفسه وهو يمنح نفسه مثل هذه الآلهة، ويضع نفسه داخل علاقة شبيهة بتلك التي تربط بين فئة أرستقراطية من مرتبة أصغر بالأرستقراطية العليا؛ بينما للشعوب الإيطالية ديانة مزارعين تعيش في ظلها حالة خوف دائم

من الأرواح الشنيعة الشريرة ذات المزاج المتقلب. وحيثما تراجعت آلهة الأولمب كانت حياة اليونانيين أكثر قتامة وخوفا.

المسيحية بالمقابل تسحق الإنسان وتحطمه كليا وتغرقه عميقا في الأوحال: ومن داخل الإحساس بالحقارة التامة تلوح له فجأة ببريق رحمة إلهية مما يجعل الإنسان في غمرة المفاجأة والذهول اللذين يحدثهما فيه بريق الرحمة يطلق صيحة المنخطِف ويعتقد للحظة أنه يحمل الجنة بكليتها بين أضلعه. هذا الشطط الانفعالي المرضي وما يلزمه من فساد يطرأ على العقل والقلب هو غاية ومبتغى ما تبتدعه المسيحية من حيل ومؤثرات: إنها تريد أن تسحق وتخدر وتسكر. شيء واحد لا تريده: الاعتدال، ولذلك هي في عمق كنهها همجية، آسيوية، غير نبيلة، لا إغريقية.

115

فائدة التدين

هناك أناس متقشفون وتجار مولعون يكون الدين بالنسبة لهم مثل وشاح يعلّقونه عنوان انتماء إلى الإنسانية الراقية: هؤلاء يحسن بهم أن يظلوا محتفظين بتديّنهم؛ إنه يجمّلهم. كل الذين لا يتقنون حرفة حربية ما- بما في ذلك حرفة اللسان والقلم- يغدون مستعبَدين: لهؤلاء تكون الديانة المسيحية مفيدة جدا، ذلك أنها تجعل العبودية تتخذ هيأة الفضيلة المسيحية وتجمّلها على نحو مدهش. والناس الذين تتراءى لهم حياتهم اليومية خاوية ورتيبة يصبحون بسهولة متديّنين: إنه أمر يمكن تفهمه وغفرانه، غير أنه لا يحق لهم البتة أن يطالبوا أولئك الذين لا تمضي حياتهم اليومية خاوية ورتيبة بأن يكونوا متديّنين.

116

المسيحي العادي

لو أن المسيحية كانت محقة في مقولاتها عن الإله المنتقم و عن الخطيئة عامة ورحمة الاصطفاء وخطر العذاب الأبدي، فإنه سيكون من علامات الحماقة وفساد الطبع إذن أن لا يصبح المرء قسًّا، حواريًا، راهبًا، وأن لا يعمل برهبة وخوف من أجل خلاص روحه فقط؛ وسيكون من العبث أن يغفل الفائدة الأبدية لصالح الرفاه العابر. وإذا ما افترضنا أن هناك مجال *للإيمان* أصلا، فإن المسيحي العادي سيكون كائنا بائسا، إنسانا غبيا (لا يحسن حقا العد حتى الثلاثة)، وهو بالتالي، وبسبب قصوره الذهني بالذات، لا يستحق أن يعاقب بمثل ذاك العقاب الشديد الذي تعده به المسيحية.

117

في براعة المسيحية

إنه لمن براعة المسيحية أن تعلّم علنا وبوضوح بمقولات خطيئة الإنسان عامة وحقارته، بما يجعل احتقار الإنسان لغيره من الناس أمرا غير ممكن. «ليخطئ ما طاب له أن يخطئ، فلن يجعله ذلك يختلف جوهريا عني، أنا الدنيء والحقير على جميع المستويات»، ذاك هو ما يقوله المسيحي لنفسه. لكن هذا الإحساس أيضا قد غدا مفتقِدا لشوكته الأكثر حدة، ذلك أن المسيحي لا يؤمن بحقارته الفردية: إنه شرير بما هو إنسان، وبهذه المقولة يهدئ قليلا من روعه: إننا جميعنا من ذات الطينة.

118

تغيير في الولاء

لمجرد أن تصبح ديانة سائدة يصبح لها مناهضين من أولئك الذين كان من الممكن أن يكونوا أنصارها الأولين.

119

مصير المسيحية

نشأت المسيحية من أجل طمأنة القلب، إلا أنها الآن تملأ القلب كربا، كي تستطيع التفريج عنه في ما بعد. وبالتالي فهي ماضية إلى حتفها.

120

برهان المتعة

الرأي الممتع يُعتبر رأيا صحيحا: إنه برهان المتعة (أو برهان القوة، كما تقول الكنيسة) الذي تفخر به كل الديانات أي افتخار، في حين كان عليها أن تخجل من جرائه. لو أن الإيمان لا يجعل الناس سعداء، فلن يكون هناك إيمان: أي قدر ضئيل من القيمة إذن هذا الذي ينطوي عليه الإيمان!

121

لعبة خطيرة

من يفسح مجالا في نفسه للأحاسيس الدينية سيكون عليه أن يدعها تنمو وتتطور، ليس له من خيار في ذلك. هكذا يشهد كيانه تغيرا تدريجيا، يُبجّل في داخله ما هو ذا ارتباط وقرابة مع العنصر الديني، ويغدو محيط الحكم والإحساس لديه بكليته مغشّى ومغمورا بظلال دينية. إن الإحساس لا يستطيع أن يظل ثابتا؛ فلنكن على حذر إذن!

122

أتْباع عميٌ
طالما يكون إنسان على معرفة جيدة بقوة وضعف مذهبه وبأفانينه وديانته فإن قوة ذلك المذهب تظل ضئيلة. فالتابع والحواري الذي لا يرى شيئا من ضعف المذهب والديانة وغيرها، منبهرًا حد العمى بمقام المعلّم وببِرّه له، يكون عادة أكثر قوة من المعلّم. فمن دون الأتباع العمي لم يكتب لرجل أبدا ولعمله أن يحققا تأثيرا كبيرا. إن العمل على ضمان الانتصار لفكرة غالبا ما لا يعني سوى: مؤاخاتها مع الحماقة بما يجعل ثقل هذه الأخيرة يغتصب النصر للأولى.

123

تفتيت الكنائس
ليس هناك ما يكفي من الدين في العالم كي يكون علينا فقط أن نقضي على الديانات.

124

الإنسان ليس خطيئًا
إذا ما فهمنا «كيف جاءت الخطيئة إلى العالم»، أي من خلال خطأ عقلي غدا البشر بموجبه يرون بعضهم البعض، بل يرى الفرد نفسَه، أكثر سوادا وأكثر شرا مما عليه الأمر في الواقع، فإن مجمل إحساسنا سيعرف انفراجا، وسيتراءى لنا العالم أحيانا محاطا بهالة من البراءة مما يجعل الإنسان يشعر بالارتياح في أعماقه. إن الإنسان داخل الطبيعة يظل ذلك الطفل في ذاته. وذلك الطفل يحلم بين الحين والآخر حلما ثقيلا مخيفا، لكنه حالما يفتح عينيه يجد نفسه في الجنة من جديد.

125

لاتديّن الفنانين

لقد كان هوميروس في بيته وهو بين آلهته، وكان يشعر بصفته شاعرا بكثير من الارتياح معهم بحيث لا يمكن له أن يكون إلا غير متديّن؛ كان يتعامل مع ما يعرضه الإيمان الجماهيري - إيمان خرافي بائس فج ومرعب في أغلب الأحيان- بكثير من الحرية كما يتعامل النحات مع الصلصال، أي بذلك القدر من التلقائية التي كانت لدى إخيليوس وأريستوفان، ثم أصبحت تميز كبار الفنانين من العصر الحديث مثل شكسبير وغوته.

126

الفن وقوة التاويل الخاطئ

كل رؤى القديس وحالات رعبه ووهنه وانخطافاته هي حالات مرضية معروفة *يتأولها* بموجب أخطاء دينية وبسيكولوجية مترسّخة تأويلا مختلفا تماما، أي على أنها شيء آخر غير أمراض. ولعل شيطان سقراط ليس شيئا آخر في الحقيقة غير عطب في السمع كان يفسره بحسب المنحى الأخلاقي للتفكير الذي كان مهيمنا لديه تفسيرا مغايرا لما يمكن أن يفسر به اليوم. ولا يختلف الأمر بالنسبة لجنون الأنبياء وهذيانهم والكهنة العرّافين؛ فدرجة المعرفة ومستوى الخيال والاجتهاد والأخلاق في عقول *المتأولين* وقلوبهم هي التي جعلت منهم ما صاروا عليه. ومن بين عناصر القدرة التأثيرية الكبرى لأولئك الرجال الذين يسميهم الناس عباقرة وقديسين هو أنهم يفلحون في إرغام المؤوّلين على سوء فهمهم من أجل خلاص الإنسانية.

127

إكبار الجنون

عندما لاحظ الناس أن الانفعال غالبا ما ينجم عنه وضوح في الذهن ويكون مصدر إلهامات موفقة، ذهب بهم الاعتقاد إنه بالإمكان التوصل بواسطة الانفعالات القصوى إلى أسعد الإلهامات وأرقى الخواطر، وهكذا غدا المجنون يحاط بالإكبار كحكيم ومتكلم بالخوارق والنبوءات. إنه رأي قائم على استنتاج خاطئ.

128

وعود العلم

يضع العلم الحديث هدفا له هو: أقل ما يمكن من الألم وأطول ما يمكن من العمر؛ أي نوعا من السعادة الدائمة، وهو وعد متواضع جدا مقارنة بوعود الدين.

129

سخاء ممنوع

ليس هناك كفاية من الحب والخير في هذا العالم كي يحق لنا أن نقتطع جزء منهما نمنحه لكائنات خيالية.

130

استمرار الشعائر الدينية داخل النفس

كانت الكنيسة الكاثوليكية، ومن قبلها كل الشعائر العتيقة، تجيد التحكم في كل الوسائل التي تمكّن من الزج بالإنسان في حالات نفسية غير معتادة والابتعاد به عن التقدير الهادئ لما فيه منفعته، أو التفكير بعقلانية محض. كنيسة تهتز بأنغام ثقيلة قاتمة؛ ابتهالات مبهمة منتظمة

رخيمة لفريق من القساوسة ينقل بصفة تلقائية توتره إلى الجمع ويجعله ينصت بما يشبه الخوف كما لو أن معجزة وشيكة تهيئ نفسها للحصول؛ ثم ما تتضوع به الهندسة المعمارية من انطباع بأنك في حضرة مسكن للرب ممتد فضاؤه إلى ما لانهاية، ويثير من كل الزوايا والحجرات المعتمة إحساسا بالخوف من ظهور ذلك الرب،- من تراه سيريد العودة بالناس إلى مثل هذه الأحوال إن لم تعد الشروط الضرورية لها قائمة؟ غير أن نتائج هذه الطقوس لم تذهب كلها سدى رغم ذلك: فالعالم الباطني لتلك الأحوال النفسية الرفيعة والمنفعلة والملهَمة والممتلئة بشعور عميق بالذنب والمفعمة أملا قد تحول من خلال الطقوس الشعائرية إلى طبع ثابت في الإنسان؛ وما ظل مترسبا منه اليوم في النفس هو ما تم غرسه ورعايته على نطاق واسع في ما مضى، عندما بدأ بذرةً، فنبتا ثم حقلا مزهرا.

131

رواسب دينية

مهما كان الاعتقاد كبيرا بأننا انفصلنا عن الدين، فإن ذلك لم يتحقق بدرجة أصبح المرء معها لا يشعر بالسرور لدى عثوره على أحاسيس وحالات نفسية دينية، دون مضمون مفهومي، في الموسيقى على سبيل المثال؛ وعندما تعرض علينا فلسفةٌ ما[٤٦] مبرِّرَ الآمال الميتافيزيقية وسلام الروح التي تستمدها منها، وتحدثنا عن «مجمل اليقين الإنجيلي في عيني عذراء رفائيل»، فإننا نتقبل هذه العبارات والتعليلات بمشاعر الغبطة والارتياح: يجد الفيلسوف هنا سهولة فائقة في إثبات ما يريد إثباته، فهو يستجيب، بما يريد أن يقدم لما يريد قلبٌ أن يتسلّم. نستطيع أن نلمس من خلال هذا كيف أن مفكرين أحرارا من أولئك الذين تنقصهم الحصافة لا تزعجهم في الحقيقة غير أركان العقيدة،

بينما يستطيبون سحر الأحاسيس الدينية؛ وسيكون من الصعب جدا عليهم أن يتخلوا عن هذه الأخيرة بسبب الأولى. سيكون على الفلسفة العلمية إذن أن تكون شديدة الحذر لئلا تقع بسبب هذه الحاجة -وهي حاجة مكتسبة، وبالتالي عابرة- في تهريب الأخطاء: إذ هناك حتى مناطقة[٤٧] ممن يتكلمون عن «حدس» الحقيقة في الأخلاق والفن (مثلا عن الحدس «بأن جوهر الأشياء واحد»)، وهو ما ينبغي أن يكون ممنوعا عليهم في الحقيقة. فبين الحقائق المستنتجة بجهد تمحيص وتدقيق وتلك الأشياء المدركة «بمحض حدس» تمتد هوة لا تُعبر بين واحدة من نتاج الذكاء وأخرى من صنع الحاجة. فالجوع لا يدل على أنه يوجد أكل لإشباعه، بل يتمنى أكلا. و«الحدس» لا يعني أنه يتعرف بأية درجة على وجود شيء، بل هو يظن ذلك الوجود ممكنا طالما يظل يرغب في ذلك الشيء أو يخافه؛ وعليه فإن الحدس لا يتقدم بنا خطوة واحدة في مجال اليقين. لا إراديا يتكوّن لدى الناس الاعتقاد بأن المقاطع ذات التلوينة الميتافيزيقية من فلسفة ما هي التي تبرهن على صحتها أكثر من غيرها، إلا أن الأمر على عكس ذلك في الحقيقة، إنما هي أمنية عميقة في أن يكون الأمر كذلك؛ أي أن يكون ما يدخل الغبطة هو الحقيقة أيضا. هذه الرغبة هي التي تقودنا إلى القبول بحجج رديئة على أنها الجيدة.

132

عن الحاجة المسيحية إلى الخلاص

لابد أنه سيكون من الممكن أن نتوصل من خلال تفكّر جدّي إلى إيجاد تفسير مجرّد من الأسطورة؛ أي تفسير بسيكولوجي صرف للظاهرة المحرّكة لنفس المسيحيّ، التي تدعى حاجة إلى الخلاص. وفي الحقيقة، ظلت التفسيرات البسيكولوجية للظاهرات والأحوال الدينية

إلى حد الآن تحظى بسمعة سيئة، لأن تيولوجيا مزعومة قد جثمت بحضورها العقيم على هذا المجال، ذلك أنها ومنذ البداية، وكما نستشف ذلك من خلال روح مؤسسها شلايرماخر(٤٨)، بدت منشغلة بحفظ الديانة المسيحية واستمرار اللاهوتيين المسيحيين، هؤلاء الذين سيكون بوسعهم أن يكسبوا بواسطة التحليل النفسي لـ«وقائع» الدينية نقطة ارتكاز جديدة، ونشاطا جديدا في المقام الأول.

في مأمن من الضلال الذي يسببه هؤلاء الأوائل سنجازف هنا بالتفسير التالي للظاهرة التي نحن بصددها: إن الإنسان يدرك بوعي بعض الأعمال التي تحتل مرتبة دنيا في سلم السلوكات، بل إنه يكتشف في نفسه نزوعا إلى مثل تلك الأعمال يبدو له على نفس المستوى من الثبات الذي عليه مجمل كيانه. ولكم حاول جاهدا أن يدفع بنفسه إلى تلك الأعمال الأخرى التي تحظى في التقدير العام بسمعة الأعمال السامية، ولكم كان يعجبه أن يرى نفسه مفعما بذلك الإحساس براحة الضمير الناجمة على ما يبدو عن نمط تفكير لاانتفاعي! غير أن الأمر يظل للأسف لا يتجاوز حدود الأماني: ينجر عن هذا العجز عن تحقيق ذلك التمني شعور بعدم الرضا سينضاف إلى بقية أنواع الشعور بعدم الرضا الناتجة عن قدَر حياته عامة، أو التي تثيرها في نفسه تبعات تلك الأعمال التي تدعى بالشريرة، الأمر الذي يولّد لديه كدرا عميقا يدفع به إلى البحث عن طبيب يمكن أن يزيل عنه هذه الكَربة وكل أسبابها. كان من الممكن أن لا يكون الإحساس بهذه الحالة على هذا القدر من المرارة لو أن الإنسان قارن نفسه فقط ببشر آخرين بطريقة عادلة؛ إذ ليس له من داع في الحقيقة لكي يكون على هذه الدرجة الخاصة من عدم الرضا عن النفس، بل سيرى نفسه يقاسم الآخرين الحمل المشترك لعدم الرضا وعدم الكمال الإنساني عامة. غير أنه يقارن نفسه بكائنٍ هو وحده القادر على مثل هذه الأعمال التي

تدعى لاأنانية ويحيا داخل الوعي المستمر لنمط تفكير غيريّ: اللّه. ولأنه ينظر إلى نفسه من خلال هذه المرآة الصقيلة، تتراءى له صورة كيانه معكّرة غاية العكَر، وعلى قدر غير معتاد من التشوّه. عندها سيخيفه التفكير في هذا الكائن الذي يتراءى لخياله في هيأة عدالة عقابية؛ وفي كل المحن الصغيرة والكبيرة الممكنة سيعتقد أنه يرى غضب ذلك الكائن ووعيده، بل ويحس مسبقا بلسع سياط قضاته وجلاديه. من ترى سيساعده داخل هذا الخطر الذي، بالنظر إلى الزمن اللامحدود لهذا العقاب، يفوق في فظاعته كل ما يمكن أن يتصوره الخيال من رعب؟

133

قبل أن نواصل معاينة هذه الحالة في تطورات نتائجها اللاحقة لابد أن نقرّ بأن الإنسان لم ينته إلى هذا الوضع بسبب من «ذنبه» أو «خطيئته»، بل جراء سلسلة من الأخطاء العقلية، وبأن الخطأ يعود إلى المرآة إذا ما تراءى له كيانه في هذا المستوى قاتما وكريها، وأن تلك المرآة كانت من صنع عمله، ذلك العمل المنقوص للخيال وملكة الحكم لدى الإنسان. أولا، إن كائنا بإمكانه أن لا يأتي سوى أعمال غيرية صرفٍ لهو أكثر خرافية من طائر الفينيق؛ إنه أمر لا يمكن حتى تصوره، لأن مفهوم «العمل اللاأناني» في مجمله لا يمكن أن يصمد أمام التدقيق الصارم. لم يحدث أبدا لأي شخص أن قام بفعل كان موجها بكليته للآخرين ودون أي دافع شخصي، وكيف يمكنه أن يقوم بشيء لا تكون له علاقة بنفسه، أي دون ضرورة داخلية (ينبغي أن يكون أساسها قائما على حاجة شخصية)؟ كيف سيمكن للأنا أن تفعل دون أنا؟ إن إلها كله محبة، كما يُفترض عادة، سيكون غير قادر على إتيان عمل لا-أناني واحد؛ هنا تعاودنا خاطرة لليشتنبرغ، وإن كانت تتعلق بمجال أقل

سموا: «لا يمكننا البتة أن نحس لأجل الآخرين، كما يحلو لنا أن نردد؛ إننا لا نحس إلا لأجل أنفسنا. ربما تبدو هذه المقولة قاسية، لكنها ليست كذلك إذا ما فهمناها جيدا. فنحن لا نحب لا أبا ولا أما ولا زوجة ولا ولدا، بل نحب الأحاسيس الممتعة التي يولدها هؤلاء فينا»[٤٩]، أو كما يقول لاروشفوكو[*]: «إذا ما اعتقدنا أننا نحب معشوقتنا حبا فيها، فنحن واقعون حقا في مغالطة». فالسبب الذي يجعلنا نولي المحبة تقديرا أرقى مما نولي لبقية الأشياء لا يتعلق في الحقيقة بجوهرها، بل بنفعيتها، ولنقارن في هذا الصدد بما أسلفنا من تدقيقات «حول أصل الأحاسيس الأخلاقية»[٥٠]. أما إذا ما رغب شخص ما في أن يكون كله محبة على غرار ذلك الرب، وأن يفعل كل شيء لأجل الآخرين، ولا شيء لنفسه، فإن ذلك سيكون بالنهاية مستحيلا، لأنه سيكون عليه أن *يفعل الكثير* لنفسه أولا، كي يتسنى له أن يفعل شيئا محبة في الآخرين. إن هذا يفترض أولا أن يكون الآخر على قدر هائل من الأنانية كي يظل يتقبل دون انقطاع تلك التضحية وتلك الحياة التي توهب له؛ ذلك ما يجعل أناس المحبة والتضحية يجدون مصلحة لهم في استمرار هذا النوع من الأنانيين عديمي المحبة والعاجزين عن التضحية. والأخلاقية السامية لا يستقيم لها وجود دون أن يكون عليها أن *تعمل على* إذكاء وإعادة إنتاج اللاأخلاقية (ومن ثمة تلغي نفسها في الحقيقة). علاوة على كل ذلك: إن تصور وجود إله يدخل الاضطراب وإحساسا بالمهانة، طالما ظل الإيمان به قائما، أما كيف *نشأ* هذا التصور، فذلك ما نستطيع أن نبدد كل شك حوله على

(*) بالفرنسية في النص الأصلي(كما يفعل نيتشه غالبا في استشهاداته):
"Si on croit qu'on aime sa maîtresse pour l'amour d'elle, on est bien trompé."

ضوء ما توصل إليه علم الأنتربولوجيا المقارنة اليوم؛ ولمجرد معرفتنا بهذه النشأة يسقط كل إيمان. إن المسيحي الذي يقارن كيانه بتصوره عن كيان الرب يشبه دون كيخوته الذي يستنقص شجاعته لأن رأسه ممتلئة بخوارق أبطال روايات الفروسية؛ فالمقياس المستعمل في كلتا الحالتين ينتمي إلى مجال الخرافة. إما إذا ما زال تصور الإله فسيزول معه إحساس «الخطيئة» كعمل مناقض لأحكام الله وكدنس لُطخت به خليقة مكرَّسة لله. قد لن يتبقى عندها سوى ذلك القلق الذي له قرابة وعلاقة وثيقة بخشية عقاب العدالة الدنيوية أو ازدراء الناس؛ وستخف حدّة القلق المنجر عن تأنيب الضمير والإحساس بالذنب على أية حال عندما يدرك الإنسان أنه فعلا قد أتى عملا منافيا للأعراف الإنسانية ومناقضا للقوانين والنظام البشريين، لكن لا شيء فيه من تهديد لـ «خلاص الروح الأبدي» ولعلاقتها بالكائن الإلهي. وإذا ما توصل المرء بالنهاية إلى القناعة الفلسفية القائلة بالضرورة الحتمية لكل الأعمال وبراءتها التامة، واستبطان هذه القناعة حتى تصبح جزء من دمه ولحمه، فستضمحل عندها هذه البقايا من تأنيب الضمير.

134

إذا كان المسيحي قد انتهى إلى الوقوع في احتقار الذات من خلال بعض الأخطاء، كما ذكرنا سابقا، أي من خلال تأويل غير علمي خاطئ لأعماله وأحاسيسه، فإنه سيلاحظ بكثير من الدهشة كيف أن هذه الحالة من احتقار الذات وتأنيب الضمير والقرف عامة غير دائمة، وكيف تحل به بين الحين والآخر ساعات تنقشع عنه فيها كل هذه الأحاسيس ليجد نفسه مغمورا بإحساس بالحرية والشجاعة. وفي الحقيقة إن المتعة التي يجدها المرء في نفسه والغبطة التي يستمدها من قوته، متعاضدة مع ارتخاء يطرأ حتما على كل انفعال عميق، هي التي

قادت إلى هذا الانتصار: وإذا الإنسان يحبّ نفسه مجددا، ويشعر بذلك. غير أن هذه المحبة بالذات؛ هذا التقدير الجديد للذات، تتراءى له أمرا لا يصدّق، ولا يستطيع أن يرى فيها سوى هبوط شعاع من رحمة سماوية غير مستحَقّة. وإذا ما كان في ما مضى يتوهم في كل حادثة تطرأ له رؤية إنذارات وتوعدات وعقوبات، وكل أنواع علامات السخط الإلهي، كذلك *يتأول* الآن تجاربه على نحو يقحم *فيها* الرحمة الإلهية: هذا الحدث يبدو له مفعما محبة، وذاك علامةً منقذة، والآخر، وبصفة أخص مجمل حالة الحبور والبهجة دليلا على أن الله رحيم. وكما كان في حالة إحباطه السابقة يتأول أعماله تأولا خاطئا، كذلك يفعل الآن في تأول تجاربه النفسية: يدرك حال السلوان الذي يعيشه على أنه من فعل قوة تسود من خارجه، ويتراءى له الحب الذي يكنه في الحقيقة لنفسه محبة إلهية؛ -إن ذاك الذي يسميه رحمة ومذاقا أوليا للخلاص، إنما هي في الحقيقة رحمة نابعة من نفسه وخلاصا ذاتيا.

135

خلاصة القول: إن بسيكولوجيا خاطئة بعينها، وضرب بعينه من الفنطازيا في تفسير الدوافع والتجارب هي الشرط الضروري لكي يصبح المرء مسيحيا ويشعر بالحاجة إلى الخلاص. وبإدراك هذا الضلال الذي يطرأ على العقل والخيال، يكف المرء عن كونه مسيحيا.

136

عن الزهد والقداسة في المسيحية

بقدر ما اجتهد بعض المفكرين المنعزلين في جعل تلك الظاهرتين النادرتين للأخلاقية المسماة عادة زهدًا وقداسة شيئا من قبيل المعجزة

يُعدّ إخضاعها إلى أضواء تفسير عقلاني أمرا قريبا من الإثم والتدنيس، بقدر ما يظل الإغراء الذي يمارسه هذا الإثم بالمقابل قويا. هناك نزوع طبيعي ظل على مدى العصور يدفع إلى الاحتجاج على هذا النوع من الظاهرات عامة، والعلم، بما هو محاكاة للطبيعة كما قيل سابقا، يجيز لنفسه على الأقل بأن يعلن اعتراضه على مزاعم ما هو غير قابل للتفسير وغير قابل للمقاربة في طبعهما. صحيح أنه لم يوفق في ذلك إلى حد الآن: هاتان الظاهرتان ما زالتا غير مفسرتين، لحسن حظ وسعادة المعجبين بالخوارق الأخلاقية المذكورين أعلاه، ذلك أن ماهو غير مفسّر ينبغي أن يكون، من وجهة نظر العموم، غير قابل للتفسير، وما هو غير قابل للتفسير أمرا غير طبيعي إطلاقا، فوق الطبيعة، أمرا خارقا، -ذلك هو ما ما يمليه المقتضى اللزومي الذي يقطن أنفس كل المتدينين والميتافيزيقيين (وكذلك الفنانين، إذا ما كانوا في الآن نفسه مفكرين)، بينما يرى رجل العلم «مبدأ الشر» في هذا المقتضى. إن الاحتمال العمومي الأول الذي يتوصل إليه الباحث لدى معاينة ظاهرتي الزهد والقداسة هو أنها من طبيعة *معقدة*: ذلك أنه وفي كل موقع من المجال الفيزيائي كما في المجال المعنوي قد تم، لحسن الحظ، إرجاع الخارق المزعوم إلى مجال المعقّد ومتعدد الشروط المحدِّدة. لنجازف إذن بعزل الدوافع المنفردة في نفس القديس والزاهد كي ننتهي من بعدها إلى تمثلها متداخلة متلاحمة بعضها ببعض.

137

هناك نوع من *التعسف على النفس* تمثل بعضُ أشكال الزهد إحدى تجلياته الأكثر تكريسا. وبعض الناس يشعرون بحاجة ملحة لممارسة قوتهم ورغبتهم في الهيمنة، الأمر الذي يجعلهم، في حالة عدم عثورهم على موضوع يمارسون عليه تلك الرغبة، أو لفشلهم المتكرر

في ذلك، ينتهون إلى ممارسة التعسف على بعض أجزائهم، أو لنقل على بعض مقتطعات أو مستويات من كيانهم. هكذا يتبنى بعض المفكرين آراء لا تساعد على تمتين سمعتهم أو تحسينها؛ وبعضهم يستثير بشكل واضح ازدراء الآخرين به، بينما كان من الأسهل عليه أن يحافظ عبر صمته على سمعة الرجل المحترم؛ وآخرون يتنكرون لأفكار سابقة لهم ولا يخشون في ذلك أن يدعوهم الناس بغير المنسجمين مع أنفسهم، بل تراهم يجتهدون في ذلك ويتصرفون مثل الفرسان الطائشين الذين لا يحبون الجواد إلا حين يكون قد بلغ حالة من الجموح المتوحش وغدا مغمورا بالعرق وجفولا؛ كذلك يفعل المرء وهو يتسلق دروبا خطيرة كي يجد فرصة للسخرية من خوفه ومن ارتعاد ركبتيه، وكذلك يتبنى الفيلسوف آراء الزهد والتبتل والقداسة التي تتراءى صورته تحت بريق بهائها في أبشع مظهر. هذا التدمير الذي يمارس على الذات، وهذه السخرية من الطبيعة الخاصة وإبداء الاحتقار للحقارة الخاصة *spernere se sperni*- التي أعلى الدين من شأنها على نحو هائل هي في الحقيقة درجة عليا في الغرور. ومجمل أخلاقية موعظة الجبل تنتمي إلى هذا المجال: يشعر الإنسان بلذة شهوانية حقيقية في الاغتصاب الذي يمارسه على نفسه بواسطة ما يفرضه عليها من متطلبات مشطة، ثم يؤله في نفسه ذلك الشيء المتطلّب الطغياني فيما هو يمارس الاغتصاب على نفسه بواسطة المتطلبات المشطة. في كل أخلاقِ زهدٍ يعبد المرء جزء من نفسه كإله ويكون عليه أن يشيْطن الجزء المتبقي لأجل ذلك.

138[٥١]

لا يكون الإنسان على نفس القدر من الأخلاقية في كل ساعة، وهذا أمر معروف: إذا ما قاس المرء مستوى أخلاقيته بحسب قدرته على قرارات

التضحيات الكبرى ونكران الذات (والتي تكون في حال ديمومتها وتحولها إلى عادة قداسةً)، فإنه يكون على أكبر قدر من الأخلاقية في الانفعال؛ فالإثارة القصوى تمكنه من دوافع جديدة تماما لا يستطيع أن يخطر له في حالات الهدوء والبرودة أن يعتقد أنه قادر على مثلها. كيف يحدث هذا؟ ربما يكون ذلك بفعل الاحتكاك عن قرب بكل ما هو عظيم وعلى درجة عليا من الإثارة؛ فإذا بلغ المرء حالة من التوتر اللامعتاد يغدو بمستطاعه، وعلى حد السواء أن يتخذ قرارا بالإقدام على أشنع أنواع الانتقام، أو بتخلٍّ لا يقل شناعة عن رغبته في الانتقام. إنه لا يريد في كل الأحوال تحت تأثير الانفعال العاتي سوى ما هو كبير وعنيف وفظيع، وإذا ما لاحظ أن التضحية بنفسه بإمكانها أن تضمن له نفس القدر، أو قدرا أكبر من الرضا مما تجلبه التضحية بغيره، فإنه سيختار الأولى. إن ما يهمه في الحقيقة ليس شيئا آخر سوى إفراغ شحنة انفعاله، وإذا هو في سعيه للتفريج عن توتره، يمسك بكل رماح عدوه ويغرسها في صدره الخاص. لقد كان على الإنسانية أن تقضي زمنا طويلا من تعويد النفس وتربيتها على الإقرار بأن نكران الذات ينطوي على عظمة شأن هو أيضا، وليس الانتقام وحده؛ إن إلها يضحي بنفسه كان أكبر رمز عن هذا النوع من العظمة والأقوى تأثيرا على الإطلاق. شيء شبيه بالانتصار على العدو الأقوى والذي يصعب التغلب عليه أكثر من أي عدو، إحكام سيطرة فجئية على انفعال قوي، هكذا *يتراءى* ذلك النكران للذات، وبموجب هذا يعتبر قمة الأخلاقية. لكن الأمر يتعلق في الحقيقة باستبدال لهذا التصور بذاك، بينما يظل الشعور نفسه كما هو، على نفس الدرجة وعلى نفس وتيرة مدّه. في حالة من الهدوء وارتخاء وتيرة الانفعال لا يعود بإمكان هؤلاء الناس أن يفهموا الأخلاقية التي تنطوي عليها تلك اللحظات، لكن إعجاب كل الذين عايشوها من حولهم يظل يضمن الحفاظ على تلك الأخلاقية:

وتصبح الكبرياء عزاءهم عندما يتراجع الانفعال وتخذلهم القدرة على فهم عملهم الذي قاموا به. وبالتالي: إن أعمال نكران الذات هذه ليست أخلاقية في الحقيقة، طالما هي لم تنجز بغاية اعتبار صارم للآخر، بل إن ذلك الآخر لم يكن سوى مانح فرصة للتخفيف من حدة توتر انفعاله، من خلال عملية نكران الذات المذكورة.

139

إن الزاهد يسهّل على نفسه الحياة من وجهة ما، وذلك بالخضوع الكلي عادة، إلى إرادة خارجية أو إلى قانون أو طقس من المحيط، على غرار البراهماني تقريبا، الذي لا يترك شيئا لقراره الشخصي، ويجعل نفسه في كل لحظة محددا بالتعاليم المقدسة. يمثل هذا الخضوع أداة قوية للمسك بزمام النفس؛ يكون الإنسان مشغولا، أي أنه لا يعرف الضجر، لكنه في الوقت نفسه متحرر من مثيرات الإرادة والهوى الشخصي؛ وبعد إنجاز كل فعل يكون مجردا من الإحساس بالمسؤولية وبالتالي من عذاب الندم. يكون المرء هنا قد تخلص إلى الأبد من إرادته، وهذا أسهل عليه من أن لا يفعل ذلك إلا في مناسبات بعينها، مثلما هو أيسر على المرء أن يتخلص من رغبة مرة واحدة وإلى الأبد من أن يظل يجتهد في تقييدها والتحكم فيها. وإذا ما اعتبرنا المسألة من وجهة علاقة الفرد حاليا بالدولة فسنجد أن الطاعة اللامشروطة أيسر من الطاعة المشروطة. فالقديس ييسّر على نفسه إذن من خلال هذا التخلي التام عن شخصيته، وإننا لنخطئ إن نحن رأينا في هذا الأمر أرقى المآثر الأخلاقية التي نحيطها بالإكبار. وعلى أية حال يظل من الأصعب على المرء أن يمارس ويفرض شخصيته دون تردد أو غموض من أن ينسلخ عنها بالطريقة التي ذكرناها، علاوة على أن ذلك يتطلب قدرا أكبر من العقل ومن التفكير.

140

بعد أن اكتشفتُ في العديد من الأفعال التي يصعب تفسيرها ظاهرات لتجسد متعة *الانفعال في ذاته*، سيكون بإمكاني أيضا، في ما يتعلق باحتقار الذات الذي يعدّ إحدى مميزات القداسة، وكذلك في أفعال تعذيب النفس (عن طريق الجوع والجلد وخلع الأعضاء وافتعال الجنون) أن أتعرّف على وسيلة تواجه بها هذه الكائنات الفتور العام الذي أصاب إرادة الحياة لديهم (أي أعصابهم): إنهم يلجؤون إلى أكثر وسائل الإثارة إيلاما وفظاعة كي يجدوا لهم، لمدة محدودة من الزمن على الأقل، مخرجا من حالة الركود والضجر التي يقذف بهم داخلها غالبا خمولهم الذهني وذلك الخضوع إلى إرادة خارجية، الذي تحدثنا عنه آنفا.

141

الوسيلة المعتادة التي يستعملها الزاهد والقديس كي يجعل من حياته محتملة ويدخل عليها شيئا من التسلية تتمثل في خوض حروب ظرفية، وفي تناوب حالات الانتصار والهزيمة، وذلك يتطلب بطبيعة الحال خصما سيجده في «العدو الداخلي». أي أنه يتخذ ميله إلى الغرور وهوسه المرَضي بالمجد والسيطرة، وكذلك شهواته الحسية وسائل ليجعل من حياته شيئا شبيها بمعركة ذات فصول متعددة، ومن نفسه ساحة قتال تتصارع فوقها روح الخير وروح الشر في تناوب مطرد على الانتصار. من المعروف أن الخيال الشبقي يعتدل من خلال الممارسة الجنسية المنتظمة، بل ويُكبت تقريبا، وبالمقابل فإن الإمساك أو الاضطراب في العلاقات الجنسية يطلق له العنان ويدفع به إلى الشطط. والكثير من القديسين المسيحيين يتميزون بخيال على درجة فائقة من الفحش، وبفضل تلك النظرية القائلة بأن تلك الشهوات

شياطين حقيقية تصول في داخلهم، فإنهم لم يكونوا ليشعروا بمسؤولية شخصية كبيرة لهم في ذلك الأمر؛ وهذا الشعور هو الذي تمكنّا بفضله من الاستفادة من الصراحة الدقيقة في الشهادات التي تركوها عن أنفسهم. كان من مصلحتهم أن يجعلوا ذلك الصراع يتواصل دون انقطاع، لأنهم كانوا يُدخلون بواسطته شيئا من التسلية على حياتهم القاحلة، كما سبق أن ذكرنا. لكن، ولكي يبدو ذلك الصراع على قدر كاف من الأهمية، ولكي يظل يشحذ تعاطف وإعجاب الناس من غير القديسين بصفة دائمة، كان لابد من المواظبة على مزيد من هرطقة الحسيّة[٥٢] ومزيد من تبليسها، وجعلها مرتبطة شديد الارتباط بخطر العذاب الأبدي في ذهن الناس، مما جعل المسيحيين وعلى مدى قرون عديدة ينجبون نسلهم داخل الإحساس بالذنب؛ الأمر الذي ألحق بكل تأكيد ضررا عظيما بالإنسانية. إن الحقيقة تتبدى مقلوبة على رأسها هنا؛ وهو وضع غير مريح للغاية بالنسبة للحقيقة.[٥٣] صحيح أن المسيحية قد أعلنت: كل إنسان حُبِل به ووُلد في الخطيئة، ثم إن المسيحية المغالاتية لكالديرون[٥٤] ستظهر هذه الفكرة في صيغة مكثفة متوترة هذه المرة، لتتخذ هيأة المفارقة الأكثر غرابة في هذا البيت الشعري الشهير:

الخطيئة الكبرى للإنسان
أنه وُلد.[٥٥]

في كل الديانات المتشائمة يُنظر إلى كل فعل إنجاب على أنه سيّئ في ذاته، غير أن هذا الاعتبار أبعد ما يكون عن كونه أمرا مشتركا بين البشر عموما، بل إن حتى حكم كل المتشائمين ليس فيه من إجماع على موقف موحد إزاء هذا الأمر. أمبيذوقلس[٥٦] على سبيل المثال لا يرى شيئا مخجلا شيطانيا خطيئا في كل الأمور الإيروتيقية؛ بل على العكس من ذلك فهو لا يرى في المدى الشاسع للهلاك سوى تجلٍّ

واحد للخلاص والأمل: أفروديت. وتمثل افروديت في نظره ضمانا لكي لا تظل الفتنة سائدة إلى الأبد، بل لتؤول بالنهاية إلى أن يسلَّم الصولجان في يوم ما إلى مارد أقل قسوة. أما مسيحيو الممارسة المتشائمون فلهم كما رأينا مصلحة في أن يظل رأي آخر هو الذي يسود؛ كانوا في وحدتهم وضمن التصحر العقلي لحياتهم في حاجة إلى عدو حي على الدوام: عدو معترف به لدى العموم يستطيعون من خلال محاربته والتغلب عليه أن يظلوا يقدمون أنفسهم لغير القديسين بصفة متجددة ككائنات خارقة غير طبيعية وشبه متعذرة على الفهم. وعندما يتوصلون عبر طريقة حياتهم الخاصة وتدهور صحتهم إلى جعل ذلك العدو يفر عنهم بالنهاية فإنهم سيسارعون *باكتشاف* شياطين جديدة تعمر دواخلهم. إن صعود وهبوط كفتي ميزان الغرور والتواضع تُدخل تسلية على أدمغتهم المجترّة، تماما كما كان يفعل تناوب الشهوة وهدوء النفس لديهم. كانت النفسانيات تستخدم في ما مضى لا لإثارة الريبة فقط حول كل ما هو إنساني، بل لثلبه وتشويهه، ولتسويطه وصلبه؛ كان المرء يريد أن يرى نفسه سيئا وشريرا قدر الإمكان، وكان يبحث عن الخوف بغية خلاص الروح، وعن فقدان الأمل في قوته الخاصة. كل ما هو طبيعي مما جعلوه مقترنا في ذهنهم بصورة السيء والآثم (كما هو معتاد الآن بالنسبة لكل ما يتعلق بالإيروتيقي) أصبح يرهق، يكدّر الخيال ويمنح هيأة خجولة، ويدفع بالإنسان إلى نزاع دائم مع نفسه ويجعله غير واثق ومرتابا، ويكون حتى لأحلامه مذاق الضمير المعذّب. غير أن هذا الشقاء من جراء كل ما هو طبيعي لا مبرر له البتة في واقع الأشياء: إنه مجرد نتيجة لآراء يكونها الإنسان عن الأشياء. ونلاحظ بسهولة كيف أن الناس يصبحون أكثر سوء لمجرد أن ينعتوا ما هو ضرورة طبيعية بالسيئ، ثم يغدو كذلك من حيث طبيعته في أذهانهم فيما بعد. إنها الحيلة البارعة للدين

وللميتافيزيقيين الذين يريدون أن يكون الإنسان سيئا وشريرا من حيث طبيعته، فيغذون فيه الريبة تجاه الطبيعة ومن ثمة *يجعلونه* سيئا بدوره: وهكذا يتعلم أن يرى إلى نفسه ككائن سيء، بما أنه لا يستطيع أن يتجرد من ثوب الطبيعة. وشيئا فشيئا سيشعر بنفسه عبر حياة طويلة ضمن الشروط الطبيعية مثقلا بعبء ساحق من الخطايا ويصبح في حاجة بالتالي إلى قوى فوق طبيعية تستطيع أن تخلصه من ذلك العبء؛ وهكذا تدخل إلى الحلبة تلك الحاجة المزعومة إلى الخلاص المذكورة آنفا، والتي ليست بالحاجة الحقيقية على الإطلاق، بل مطلبا موافقا لخطيئة متوهمة. لنستعرض واحدة واحدة تلك القواعد الأخلاقية التي وضعتها التشريعات المسيحية وسنرى في كل المواضع أن المتطلبات ممطّطة على نحو يجعل الإنسان لا يستطيع أن يستوفي تلبيتها؛ فالمبتغى ليس أن يصبح الإنسان أكثر أخلاقية، بل أن يظل يشعر بنفسه *خاطئا أقصى ما يمكن*. ولو أن ذلك الإحساس كان غير مريح، فلم ابتدع إذن هذا التصور وظل متمسكا به طوال كل هذا الوقت؟

وكما كان إنسان الحضارات العتيقة ينفق طاقات ذهنية وابتكارية هائلة من أجل مضاعفة بهجة الحياة عن طريق الطقوس الاحتفالية، فإنه في زمن المسيحية ينفق قدرا هائلا من الطاقة الذهنية أيضا، لكن من أجل غاية أخرى: ينبغي على الإنسان أن يشعر بنفسه آثما فيحدث له من جراء ذلك تهيّج وحيوية وحركيّة نفسية.[٥٧] الإثارة والتنشيط وتحريك النفس بأي ثمن؛ أليس هذا شعار عصر منهَك، مفرط النضج، مفرط في التحضّر؟ النفس قد أصابها الإعياء من فرط ما ركضت لمئات آلاف المرات حول دائرة الأحاسيس الطبيعية؛ عندها أبدع القديسون والزهاد نوعا جديدا من منشطات الحياة. عرضوا أنفسهم أمام الأعين، لا كنموذج للمحاكاة بالنسبة للكثيرين في حقيقة

الأمر، بل كعرض مخيف وساحر مع ذلك، عرض يقدّم على تلك التخوم الواقعة بين العالم وما فوق العالم، حيث كان يخيّل للإنسان العادي آنذاك أنه يلمح أشعة نور سماوي تارة، وألسنة لهب مفزعة صاعدة من أعماق الهاوية تارة. عين القديس المركزة على المعنى الشنيع في كل الأحوال لهذه الحياة الدنيا القصيرة وعلى الحلول الوشيك لساعة القرار النهائي بشأن المدى اللامتناهي لحياة أخرى قادمة، تلك العين المتفحّمة في جسد شبه مندثر كانت تبعث الذعر في أقصى أعماق إنسان العالم القديم: يلقي نظرة، يحوّل نظره مرتعبا، ثم يسلم إحساسه من جديد إلى سحر المشهد، يستسلم له، يكرع منه حتى الثمالة، إلى أن تهتز النفس في غمرة اللهب المستعر ورعدة الحمى؛- كانت تلك آخر *متعة ابتدعها العالم القديم* بعد أن تكلست أحاسيسه تجاه عروض القتال بين الإنسان والحيوان.

142

ولكي نحوصل ما قلناه: تتشكل تلك الحالة النفسية التي يغتبط لها القديس والسائر في طريق القدسيّة من عناصر نعرفها جميعنا جيدا، غير أنها تتراءى تحت لون مغاير في ظل تأثير تصور آخر غير التصور الديني، وتصبح بالتالي موضع ملامة شديدة لدى الناس، بالقدر نفسه الذي تستطيع به- أو ما كانت تستطيعه في الأزمنة الماضية على الأقل- أن تستدعي الإعجاب والإجلال وهي تحت وشاح الدين والمعنى الجوهري للكائن. مرة يمارس القديس على نفسه ذلك التحدي الذي له قرابة مع الولع بالسلطة، والذي يمنح حتى أكثر الناس عزلة إحساسا بالقوة؛ ومرة يقفز إحساسه المتورّم بالرغبة في إطلاق العنان لأهوائه، ثم يجعلها تهوي على الأرض مثل جياد متوحشة تحت السطوة العاتية لنفس ملؤها الكبرياء؛ ومرة يريد توقفا

تاما لكل الأحاسيس المزعجة والمعذِّبة والمهيِّجة ويتمنى نوم يقظة واستراحة دائمة في حضن كسل بلامبالاة الحيوان والنبات؛ ومرة يبحث عن الصراع ويؤججه في نفسه، لأن الضجر قد أطل عليه بوجهه المتثائب: يجلد تأليهَه لذاته بسياط الفظاعة واحتقاره لنفسه، يلتذ بالفوران العاتي لرغباته، وبالألم الحاد للخطيئة، بل بفكرة ضياعه، ويجيد نصب الفخاخ لأهوائه، وللشغف المفرط بالسيطرة مثلا، ليقفز إلى حالة الإذلال الأقصى ويرى نفسه المتهيجة وقد تصدّعت أركانها من جراء هذه الأحوال المتناقضة، وأخيرا، وعندما يشتاق إلى رؤى ومكالمات مع أموات أو كائنات إلهية، فإن ذلك في الحقيقة نوع غريب من الشهوانية التي يراودها، لكنها قد تكون تلك الشهوانية التي تلتقي وتتشابك في داخلها كل الشهوات مجتمعة. وقد عبر نوفاليس ذات مرة، وهو واحد من السلطات المرجعية في مسائل القداسة، وذلك عن حدس وتجربة، عن مجمل هذا السر بمرح ساذج:[٥٨] «إنه لأمر مدهش بما فيه الكفاية كيف أن ترابط الشهوة والدين والفظاعة لم يجلب انتباه الناس إلى علاقة القرابة المتينة التي تربط بينها وإلى نزوعها المشترك.»[٥٩]

143

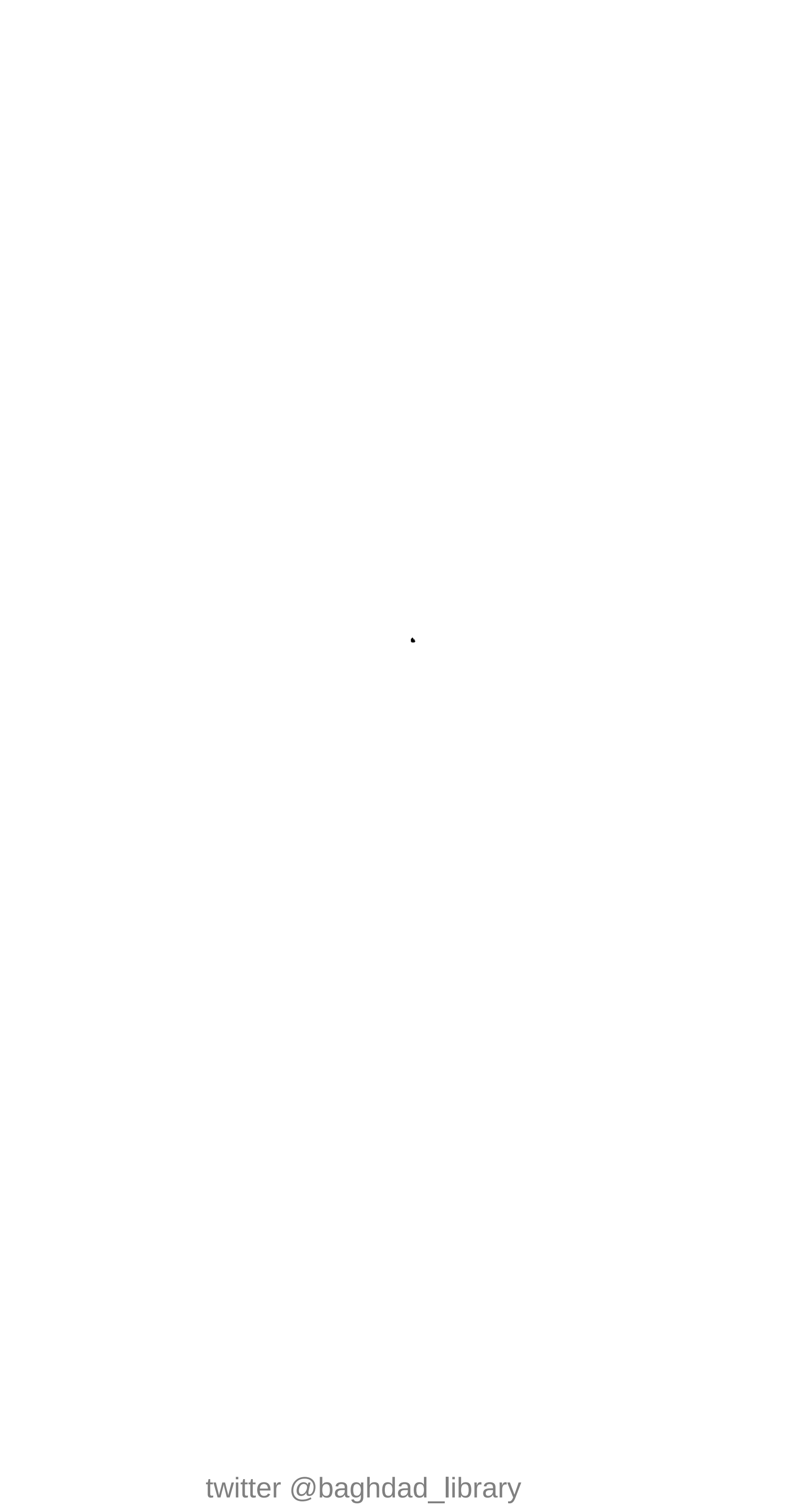
إن ما يمنح القديس قيمته التاريخية ليس القديس بما هو، بل ذلك الذي يعنيه في نظر غير القديسين. ولأن الناس كانوا مخطئين في شأنه، بحيث تأولوا حالاته النفسية تأولا خاطئا وجعلوا مسافة هائلة تفصله عنهم كشيء من نوع غريب لا مثيل له البتة ومن منزلة فوقبشرية؛ بسبب كل هذا اكتسب قوة غير معهودة استطاع أن يسيطر بها على خيال شعوب وعصور بأكملها. أما هو فلم يكن يعرف نفسه، وكان يفهم الملامح العامة لأحواله وميوله وأعماله بحسب فن تأويلي

مفخِّم (بالكسر) ومصطنع يعادل في طابعه التفخيمي والمصطنع التأويل الروحاني للإنجيل (*pneumatische Interpretation*). ما كان شاذا ومرضيا في طبعه بارتباط مع فقر ذهني ومعرفة رديئة وصحة معكرة وأعصاب متهيّجة ظلت كلها خفية عن نظره كما عن مشاهديه. لم يكن إنسانا طيبا بشكل خاص، وأقل من ذلك إنسانا حكيما؛ لكنه كان يعني شيئا يتجاوز المقاييس الإنسانية للخير والحكمة. وكان الإيمان به سندا للإيمان بما هو إلهي وإعجازي وبمعنًى ديني لمجمل الوجود، وبيوم قيامة قادم. داخل الإشعاع الغسقي لشمس نهاية العالم الذي يسطع فوق الشعوب المسيحية راح ينمو ظل القديس متخذا حجما هائلا، إلى أن بلغ علوا جعل حتى عصرا مثل عصرنا هذا الذي لم يعد يؤمن بالله يظل يضم عددا غير قليل من المفكرين الذين يؤمنون بالقديس.

144

من البديهي أن هذه الصورة التي تمت صياغتها عن القديسين انطلاقا من متوسّط النوع في مجمله، يمكن أن تقابلها بعض صور أخرى سيكون بإمكانها أن تثير انطباعا أفضل. فهناك بعض استثناءات تتميز عن مجمل النوع سواء برقتها الكبيرة ومحبتها للبشر، أو بسحر طاقة عمل نادرة؛ وهناك آخرون يتمتعون بدرجة عالية من الجاذبية لأن تصورات وهمية قد أهرقت على كيانهم سيولا من النور، كما هو الحال مثلا بالنسبة لمؤسس المسيحية الشهير، الذي يرى في نفسه إبنا لله ويشعر بنفسه بالتالي معصوما-وهو ما لا ينبغي أن نؤاخذه عليه بشدة، لأن تلك العصور القديمة كانت تعج كلها بأبناء الله-، مما جعله يحقق عن طريق هذا التوهم بلوغ الهدف نفسه، من إحساس بعصمة تامة ولامسؤولية تامة، الذي يمكن أن يبلغه أي إنسان اليوم عن طريق العلم. كما أنني تركت جانبا القديسين الهندوسيين الذين يقفون

في موقع وسط بين القديسين المسيحيين والفلاسفة الإغريقيين، ولا يمثلون بالتالي نوعا قائما بذاته: وقد كانت المعرفة والعلم-طالما كان هناك شيء من هذا القبيل- والارتقاء فوق مرتبة بقية الناس عن طريق التربية المنطقية والدربة على التفكير، تمثل لدى البوذيين أمورا يشجع عليها كعلامة مميزة للقداسة، بقدر ما كانت الخصائص نفسها تُرفض وتكفّر كعلامات دنس في العالم المسيحي.



الفصل الرابع

من روح الفنان والكاتب

145

في كون المكتمل لا ينبغي ان يكون نتيجة صيروة

لقد تعودنا تجاه كل ما هو مكتمل الصنعة على إهمال السؤال المتعلق بصيرورة تشكله؛ بل نكتفي بالاستمتاع بوجوده كما لو أنه انبثق من الأرض بضربة عصا سحرية. يبدو أننا واقعين هنا تحت تأثيرات انطباع ميثولوجي قديم. وما يزال يتملكنا نفس الإحساس *تقريبا*(مثلا داخل معبد إغريقي كمعبد باستوم) كما لو أن إلها قد شيّد بيته بهذه الصخور الضخمة ذات صباح فيما كان يلعب؛ وأحيانا كما لو أن روحا قد تم تحويلها قديما إلى حجر، فجأة و بفعل سحر، وهي تحاول الآن أن تنطق من خلاله. إن الفنان يدرك أن عمله لن يكون له فعل التأثير الكامل إلا إذا ما أثار الاعتقاد بارتجالٍ ما وبطابع المفاجأة القريبة من المعجزة التي تم بها تشكله؛ وبالتالي فإنه سيعمل على المساعدة على حصول هذا الوهم ويضمّنه منذ بداية عمله الإبداعي عناصر تلك الحيرة المعجَبة وعناصر الفوضى المتخبطة خبط عشواء والحلم المتوفّز، كخدع تعمل على تعديل نفسية المشاهد أو السامع بما يجعلها تعتقد في ذلك الانبثاق الفجئي للعمل المكتمل. - إن علم الفنون مطالب، كما هو بديهي، بأن يدحض هذا الوهم بأقصى ما لديه

من الدقة والوضوح وأن يفضح الخلاصات المزيّفة و مغالطات الذهن التي تجعله ينقاد إلى الوقوع في فخاخ الفنّان.

146

حسّ الحقيقة لدى الفنّان

يتمتع الفنان في ما يتعلق بمعرفة الحقائق بمواصفات أخلاقية أضعف مما يوجد لدى المفكر؛ إنه يرفض رفضا كليا أن تُنتزع عن رؤيته المعاني الناصعة والعميقة للحياة، ويتصدى لكل المناهج والنتائج الدقيقة والمجردة من كل الزوائد. في الظاهر يبدو الفنان كما لو أنه يكافح من أجل الكرامة االقصوى للإنسان وقيمته المعنوية؛ إلا أنه في الحقيقة لا يريد التخلي عن شروط التأثير الأقصى التي يحوز عليها فنه، أي العجائبي والأسطوري والغامض والقصووي، وإقامة وزن لما هو رمزي، وتفخيم أهمية الشخص، والاعتقاد في ما هو ضرب من المعجِز في العبقرية: بمعنى أنه يرى أن استمرارية عمله الإبداعي أكثر أهمية من التفاني العلمي من أجل ما هو حقيقي في كل ظاهرة حتى وإن بدت على غاية من البساطة.[٦٠]

147

الفن كاستحضار للأموات

ينهض الفن بصفة موازية بمهمة الحفظ، وبإضفاء قليل من اللون حتى على تصورات منطفئة وشاحبة؛ وعندما يؤدي تلك المهمة يقوم بنسج رباط يضم مختلف العصور ويستدعي عودة أرواحها. يكون ذلك أشبه في الحقيقة بطيف حياة تنهض فوق القبور، أو بعودة موتى من الأحباء في الحلم، إلا أنه، ولبضعة لحظات على الأقل، ستعود الحيوية إلى الأحاسيس القديمة وينبض القلب على إيقاع قد طواه النسيان. واعتبارا

لهذه الفائدة التي في الفن، سيكون علينا إذن أن نغفر للفنان كونه لا يقف في الصفوف الأمامية لحركة التنوير والتدرج بالإنسانية نحو سنّ *البلوغ*: يظل الفنان طفلا أو مراهقا طوال حياته ومتوقفا عند النقطة التي تملّكت به فيها غرائزه الفنية؛ غير أن أحاسيس الفترات الأولى من العمر تظل، كما تقر بذلك المعرفة العامة، أقرب إلى أحاسيس العصور القديمة منها إلى أحاسيس القرن الحالي. لا إراديا ستكون مهمته إذن هي العودة بالإنسانية إلى طور الطفولة: ذاك هو عنوان مجده، وتلك هي محدوديته.

148

الشاعر ملطّفا للحياة

وبما أن الشعراء يريدون هم أيضا التخفيف من وطأة الحياة على الناس فإنهم يصرفون نظرهم عن الحاضر المثقل بالمتاعب، أو يسعفون الحاضر بألوان جديدة عن طريق نور يجعلونه يشع عليه من الماضي. ولكي يوفّقوا في ذلك ينبغي عليهم أن يكونوا هم أنفسهم، في بعض من الأوجه كائنات مستديرة إلى الخلف، بحيث يمكن اتخاذهم جسورا تربط مع أزمنة وتصورات موغلة في القدم ومع ديانات وثقافات منقرضة أو في طور الانقراض. إنهم دوما وبالضرورة ورثة في حقيقة الأمر. وهناك بالتأكيد بعض المآخذ التي يمكن أن نذكرها في ما يتعلق بتلطيفهم للحياة: إنهم لا يسعفون ويعالجون إلا عرضا وللحظة فقط؛ بل هم يصدون الناس عن العمل من أجل إصلاح حقيقي لأحوالهم، بتحييد توتر انفعال المكبوت وتسكينه، ذلك التوتر الذي يدفع إلى العمل.

149

سهم الجمال المتأنّي

إن أنبل أنواع الجمال هو ذلك الذي لا يغزو دفعة واحدة ولا ينقضّ عنيفا ومدوّخا (ذلك النوع سرعان ما يثير القرف)، بل ذلك الذي ينسرب إلينا ببطء فنظل نحمله فينا دون شعور منا ثم نلتقي به مجددا في حلمنا، لكن فقط بعد أن يكون قد استقر طويلا ويتحفظ في قلبنا وتملك بنا كليا وملأ مآقينا دموعا وقلوبنا حنينا. -إلام نحنّ عند مشاهدة الجميل؟ إلى أن نكون جميلين؛ ونتصور أن قدرا غير قليل من السعادة مرتبط بذلك. لكن ذلك خطأ.[٦١]

150

الحشو الروحاني للفن

حيثما تتراجع الأديان يرفع الفن هامته. إنه يتبنى الكثير من الإحساسات والحالات النفسية التي أنشأها الدين، يملأ بها قلبه ويغدو بدوره أكثر عمقا وأكثر امتلاء روحانيا بما يجعله قادرا على الإشعاع بانطباعات السمو والإعجاب؛ الأمر الذي لم يكن قادرا عليه قبلها. إن ثراء الأحاسيس الدينية المتكون في هيأة تيارات متدفقة تجد نفسها على الدوام تندفع فائضة مجددا وتسعى إلى غزو ممالك جديدة. لكن حركة التنوير المتنامية قد رجّت دعائم المعتقدات الدينية وبثت ريبة جذرية في النفوس؛ وهكذا فإن هذه الإحساسات، وقد أقصيت من المجال الديني عن طريق التنوير، تجد نفسها منقذفة داخل الفن، وفي حالات متفردة داخل المجال السياسي أيضا، بل وحتى داخل العلوم. وحيثما يلمح المرء تلوينة قاتمة عالية الدرجة داخل الطموحات الإنسانية، يحق لنا أن نفترض أن شيئا من أرواح مرعبة و رائحة بخور وأطياف كنائس ما تزال عالقة هناك.

151

الوزن حجابا وحلية

يلقي الوزن حجابا على الواقع؛ يضفي على الكلام شيئا من التكلّف وعلى الفكر غمامة؛ فمن خلال الظلال التي يلقيها على الفكرة، يحجبها حينا ويُظهرها حينا. وكما أن الظل ضروري من أجل التجميل، يكون «الغامض» ضروريا من أجل مزيد من الوضوح. إن الفن يجعل مظهر الحياة محتملا لأنه يلقي عليها حجاب الفكر الغامض.

152

فن الروح القبيحة

نجعل حدودا ضيقة للفن عندما نطلب منه أن يكون معبرا عن الروح المنسجمة والمتوازنة أخلاقيا فقط. وكما في الفنون التشكيلية، يوجد في الموسيقى والشعر أيضا فن للأرواح القبيحة إلى جانب فن الأرواح الجميلة، ولعل أقوى تأثيرات الفن؛ ما يفتت القلب ويحرك الحجر ويؤنسن الحيوان، تتحقق في أغلب الأحيان عن طريق هذا النوع.

153

الفن يعكّر مزاج المفكّر

على أي قدر من القوة هي الحاجة الميتافيزيقية، وأي عناء تجد الطبيعة في التخلص منها بالنهاية، ذلك هو ما يمكن أن نستنتجه من كون المفكر الحر أيضا، وبعد أن يكون قد تحرر من كل ما هو ميتافيزيقي، يظل يستمع داخل القوة التأثيرية القصوى للفن إلى رنين مرافق من تلك الأوتار الميتافيزيقية الخرساء منذ زمن طويل، بل والممزقة أحيانا، كأن يشعر بنفسه في مقطع بعينه من السمفونية التاسعة لبتهوفن يحلق داخل

قبة الكواكب العلوية وقلبه مغمور بحلم *الخلود*: تتراءى له الكواكب متلألئة كلها من حوله، والأرض هابطة أكثر فأكثر نحو قاع بعيد. وإذا ما غدا واعيا بهذه الحالة فسيحس بالتأكيد بوخز عميق في القلب ويتنهد باتجاه الشخص الذي يمكنه أن يعيد إليه حبيبته الضائعة، دينا سمّيْنا تلك الحبيبة أم ميتافيزيقا. مثل هذه اللحظات هي التي تضع طبعه العقلي على المحك.

154

لعب مع الحياة

كان لابد من الخفة والنزق الهوميري من أجل التخفيف من شطط الوجدان المتوقد والعقل القاطع لدى اليونانيين وتحييده بين الحين والحين. إذ لكم تبدو الحياة مريرة وقاسية كلما نطق العقل لديهم! وهم لا يخدعون أنفسهم، بل يراوغون الحياة عمدا بما يبتدعونه من أكاذيب. وقد نصح سيمونيد أهله بأن يأخذوا الحياة على أنها لعبة؛ وكان هؤلاء قد خبروا جيدا الألم من خلال الجدية (وكان بؤس الإنسان بالفعل الموضوع المبجل للأغاني التي كانت الآلهة تحب الاستماع إليها)، وكانوا يدركون جيدا أنه من خلال الفن وحده يمكنهم أن يجعلوا حتى من البؤس متعة. إلا أنهم، وعقابا لهم على هذا التصور، قد أصيبوا بمحنة الولع بنسج الخرافات والأساطير إلى حد غدا يصعب عليهم أن يصرفوا حياتهم اليومية دون كذب وخداع، شأنهم في ذلك شأن كل الأمم الشاعرة التي تجد متعة في الكذب، ليس دون براءة مع ذلك. وكانت الشعوب المجاورة لهم تجد ذلك أحيانا أمرا محيّرا للغاية.

155

الإيمان بالإلهام

للفنانين مصلحة في أن يظل الناس يعتقدون في الحدوسات المفاجئة لما يسمى بالإلهام، كما لو أن فكرة العمل الفني أو الشعري، أو الفكرة الأساسية لفلسفة ما شيء شبيه بشعاع الرحمة الذي يهبط من السماء. وفي الحقيقة إن خيال الفنان ينتج بصفة مستمرة الجيد والرديء والضحل، غير أن *ملكة الحكم* المصقولة والمدربة جيدا لديه تنتقي وترفض وتربط وتؤالف بين الأشياء، مثل ما نلاحظه اليوم من أن بتهوفن قد ألف أروع ألحانه تدريجيا وانتقاها بدقة شديدة من مسودات عديدة متنوعة. من سيكون قليل الصرامة في انتقائه ويعتمد بالأحرى على الذاكرة المنتجة فسيكون بإمكانه ضمن ظروف بعينها أن يصبح مرتجلا كبيرا؛ إلا أن الارتجال الفني يحتل موقعا متدنّيا جدا مقارنة بالفن العميق المتأتي عن عمل انتقاء مجهد. كل العظماء كانوا مجتهدين كبارا لا يعرفون الكلل، لا ابتكارا فقط، بل حذفا وانتقاء وترتيبا وإعادة تشكيل.

156

عن الإلهام مرة أخرى

إذا انحبس الإنتاج لمدة من الزمن وظل سيلانه معطلا بعائق ما، يَحدث بعد ذلك تدفق مفاجئ كما لو أن إلهاما مباشرا دون عمل باطني سابق، أي ضربا من المعجزة قد حصل. وذلك هو ما يخلق الوهم المعروف الذي يحرص كل الفنانين كما ذكرت آنفا، حرصا غير قليل على التعلّق به. غير أن ما حدث هو أن رأس المال قد تراكم قبلها، ليس إلا، ولم يكن ذلك شيئا هبط من السماء دفعة واحدة. مثل هذا الإلهام

الظاهري يوجد بالمناسبة في أوضاع أخرى، في مجالات الطِيبة مثلا، والفضيلة والرذيلة.

157

آلام العبقرى وقيمتها

يريد العبقري الفنان جلب المسرة، غير أنه حالما يبلغ ذروة عالية ينصرف عنه المعجبون بسرعة: يعرض على الناس طعاما ولا أحد يرغب فيه. يضفي عليه هذا الوضع في بعض الأحيان حالة انفعالية مؤثرة ومضحكة؛ إذ لا يحق له في الحقيقة أن يرغم الناس على متعة ما. نايه يعزف، لكن لا أحد يريد أن يرقص؛ فهل يمكن أن يكون هذا الأمر مأساويا؟ -ربما هو كذلك. لكن يظل لديه بالنهاية تعويض عن هذا الحرمان في كونه يجد في عمله متعة أكبر مما يجد بقية الناس في كل أنواع الأعمال التي ينجزونها. سيجد الناس ألمه على قدر من المبالغة، لأن نبرة شكواه عالية ولسانه أكثر فصاحة؛ ومع ذلك فإن معاناته كبيرة جدا *أحيانا*، لكن، فقط لأن طموحه وجشعه كبيران جدا. والعبقري العالم، مثل كبْلر وسبينوزا، لايكون عليه إقبال كبير في العادة، ولا يجعل من معاناته وحرمانه الكبيرين الحقيقيين مثل هذه القضية الصاخبة. فهو يعول بكثير من الثقة على الأجيال القادمة ولا يُقيم اعتبارا للحاضر، بينما الفنان الذي يفعل الشيء نفسه يظل يلعب على الدوام لعبة اليأس التي تملأ قلبه بالأشجان. في حالات نادرة جدا-أي عندما تتداخل لدى شخص محدد عبقرية العمل والمعرفة والعبقرية الأخلاقية- ينضاف إلى الآلام المذكورة نوع من الألم الذي يمكن اعتباره الأكثر فرادة من نوعه في العالم: أحاسيس تتجاوز حدود الفرد وتتعلق بشعب، بالإنسانية وبمجمل الحضارة وكل وجود معذّب، و تستمد قيمتها من صلتها بمعارف على قدر من المرارة

والعمق البعيد (لا قيمة للشفقة في حد ذاتها). لكن أي مقياس لدينا، أي ميزان ذهب لقياس صدقها؟ أليس من مقتضيات الواجب تقريبا أن نرتاب من كل من يتحدث بأنه مسكون بمثل هذا النوع من الأحاسيس.

158

لعنة العظمة

ما من ظاهرة عظيمة إلا وتبعها انحطاط، في مجال الفن على وجه الخصوص.[٦٢] مثال العظيم يدعو الأنفس المغرورة دوما إلى محاكاته أو إلى المزايدة عليه: هكذا تكون المواهب العظمى حاملة لتلك اللعنة التي تتمثل في سحق الكثير من الطاقات والبذرات الأقل قوة محدِثة بذلك تصحرا من حولها داخل الطبيعة.[٦٣] غير أن الحالة المثلى في مسار تطور فن من الفنون تكون في تواجد عبقريات عديدة تحد من جموحات بعضها البعض، وفي خضم هذا الصراع تكون هناك عادةً فسحةُ هواء وضوء للطبائع الأضعف والأكثر رقة.

159

الفن خطير على الفنّان

عندما يتملك الفن بشخص بعنف فإنه يسحبه إلى الوراء باتجاه تلك العصور التي كان فيها في أقوى فترات ازدهاره، وبالتالي يمارس عليه فعل ارتداد على الأعقاب. يظل الفنان يمضي أكثر فأكثر في إجلال التهيّجات الفجئية، يؤمن بالآلهة والشياطين، يضفي روحا على الطبيعة، يكره العلم، ويغدو متقلب المزاج مثل إنسان العصور البدائية، ويشتهي تقويض كل الشروط التي لا تتلاءم مع الفن، كل ذلك بعنف وتعسف طفل. والفنان في ذاته يظل كائنا قد توقف في طور مبكر من التطور، لأنه ظل متوقفا عند اللعب الذي هو من شأن

الطفولة والصبى؛ ينضاف إلى هذا أنه يتربى تدريجيا على العودة إلى أزمنة غير زمنه الحاضر. وهكذا ينشأ تنافر حاد بينه وبين مجايليه من الزمن المعاصر وينتهي نهاية قاتمة، كما حدث بحسب روايات القدامى لهوميروس وأسخيلوس اللذين انتهى بهما المطاف إلى العيش ثم الموت في حالة من الكآبة.

160

شخوص مختلَقة

عندما يقال إن الكاتب المسرحي (والفنان عامة) *يخلق* حقا شخصيات، فتلك خدعة جميلة ومبالَغة يستمد الفن من إشاعتها مجدا لم يكن يرغب فيه، وفائضا عن الحاجة في الآن نفسه. ونحن في الحقيقة لا نفهم الكثير عن إنسان حي حقيقي، ونعمم بكثير من السطحية عندما ننسب إليه هذا الطبع أو ذاك: وتصورنا *المنقوص جدا* هذا يوافقه عمل الشاعر الذي يضع رسوما عمومية سطحية لشخصيات بشرية («يخلقها» بحسب هذا المعنى)، بنفس القدر من سطحية معرفتنا للإنسان.(٦٤) هناك الكثير من ذر الرماد في الأعين في هذه الشخصيات التي يخلقها الفنان؛ إنها أبعد ما يكون عن النتاج الطبيعي الحيّ، بل هي أشبه بأشخاص اللوحات؛ تفتقر إلى عمق ولا تتحمل أن يُنظر إليها عن قرب. وإذا ما قيل إن الإنسان الواقعي العادي يظهر غالبا على أحوال متناقضة، وذلك الذي يبتدعه الكاتب المسرحي هو الصورة الأصلية التي لوّحت بملامحها في عين الطبيعة، فإن ذلك خاطئ تماما. الإنسان الواقعي شيء *ضروري الوجود* تماما وبكليته (بما في ذلك في تلك التناقضات المزعومة)، غير أننا لا ندرك هذه الضرورة دائما. الإنسان المبتكَر، صنيعة الوهم الخيالي، يطمع في أن يكون المعبر عن شيء ضروري، لكن فقط بالنسبة إلى أولئك الذين لا يفهمون الإنسان

الواقعي إلا في شكل تبسيط بدائي ولا طبيعي، حتى أن بعض ملامح البارزة والمكررة، مع كثير من الضوء المسلط عليها وقليل من الظلال ونصف العتمة من حولها، تكون كافية لإرضاء متطلباتهم. إنهم على استعداد إذن للتعامل مع الطيف المخيَّل على أنه إنسان ضروري حقيقي، لأنهم قد تعودوا في تعاملهم مع البشر الحقيقيين على الاكتفاء بطيف أو خيال غائم أو اختزال تعسفي معتقدين أنه الإنسان في كليته. أن نزعم بأن الرسام والنحات يعبران عن «فكرة» الإنسان، فذلك محض توهّم غرور وخدعة حسيّة؛ والذي يقول ذلك واقع تحت استبداد العين، إذ هذه لا ترى من الجسد الإنساني غير السطح والجلدة، بينما يظل باطن الجسد من مشمولات الفكرة. يريد الفن التشكيلي أن يجعل طباعا ترتسم فوق الجلدة، بينما يستخدم فن اللغة الكلمةَ للغرض نفسه: يرسم الطباع من خلال أصوات الحروف. ينطلق الفن من *الجهل* الطبيعي للإنسان بداخله (جسما وطباعا): لا شيء فيه إذن مما يمكن أن يكون مادة للعالم الفيزيائي والفيلسوف.

161

تقدير خاطئ للذات في الإيمان بالفلاسفة والفنانين

نعتقد جميعنا أن عملا فنيا يأخذ بقلوبنا ويرجنا يمثل دليلا على قيمة ذلك العمل وقيمة الفنان. لكن يظل علينا أن نثبت *قيمتنا الخاصة* فيما يتعلق بالحكم والإحساس؛ وهو أمر غير متحقق. فمن كان له في ميدان الفن التشكيلي أن يسحر ويأخذ بالألباب أكثر من برنيني[٦٥] الذي كان له تأثير لا يضاهى، أو ذلك الخطيب اللاحق على ديموستين،[٦٦] والذي أدخل الأسلوب الآسيوي[٦٧] وجعل منه أسلوبا مهيمنا لمدة قرنين من الزمن؟ هذه السيادة الممتدة على مدى قرون ليست حجة على الجودة والقيمة الدائمة لأسلوب ما؛ لذلك لا ينبغي

للمرء أن يكون كثير الوثوق في إيمانه بأي فنان، لأن ذلك ليس مجرد إيمان بصحة إحساسنا فقط، بل بعصمة حكمنا أيضا، بينما يمكن للحكم أو الإحساس، أو لكليهما معا، أن يكون على مستوى من الفجاجة أو الدقة، مفرطَ الحماس أو بدائيا. كما أن التأثيرات المريحة والغبطة التي تنجر عن فلسفة أو ديانة لا تمثل البتة حجة على الحقيقة التي تتضمنها، تماما مثلما لا تستطيع السعادة التي يستمدها الأحمق من الفكرة المستبدة بذهنه أن تكون حجة على صواب فكرته.

162

إجلال العبقرية من مكر الغرور

ولأننا نظن خيرا بأنفسنا، لكننا لا ننتظر من أنفسنا أن نتوصل إلى إنجاز رسم من رسومات رفائيل أو مشهد من دراما شكسبيرية، تجدنا نقنع أنفسنا بأن الملكة الضرورية لإنجاز مثل تلك الأعمال شيء من قبيل الأعاجيب الخارقة والصدف النادرة، أو نعمة من السماء، إن نحن نطقنا عن إحساس ديني. وهكذا يكون غرورنا وأنانيتنا هما اللذان يغذيان فينا إجلال العبقري: ذلك أن العبقري لا يجرح كبرياءنا طالما بقينا نعتبره بعيدا جدا عنا بُعد معجزة (وغوته نفسه، الرجل الذي لا يعرف الحسد، كان يسمي شكسبير نجما من أعالٍ بعيدة، ويمكننا أن نذكر بهذا البيت: «إن النجوم لا يطالها اشتهاؤنا»[٦٨]). لكن، وبقطع النظر عن هذه الإيحاءات التي يهمس لنا بها غرورنا، فإن نشاط العبقري لا يبدو أنه يختلف في شيء عن عمل المخترع المكيكانيكي والعالم الفلكي أو التاريخي أو خبير الخطط الحربية. تجد كل هذه الأنشطة تفسيرا لها، إذا ما استحضرنا في تصورنا رجالا ينشط فكرهم في اتجاه واحد، يستخدمون كل شيء مادة لعملهم ولا يكفون عن معاينة حياتهم الباطنية وحياة الآخرين بكثير من الحماس، ويرون في

كل مكان أمثلة تحتذى ونماذج مثيرة، ولا يكلّون من تركيب وتنسيق وسائلهم. والعبقري لا يفعل شيئا آخر سوى أنه يبدأ بوضع حجر فوق حجر، ثم يتعلّم البناء، ولا يكف عن البحث عن مواد والعمل على إعطائها شكلا. كل عمل يعمله الإنسان، وليس عمل العبقري وحده، معقد على نحو يبعث على العجب؛ لكن ما من عمل يمكن أن يعد «معجزة». من أين جاء هذا الاعتقاد إذن بأنه لا يوجد عباقرة إلا بين الفنانين والأدباء والفلاسفة؟ وأنهم وحدهم يتمتعون بـ«حدس»؟ (بموجبه يُمنحون منظارا سحريا يمكنهم من النظر مباشرة في «الجوهر»!). يبدو أن الناس لا يتكلمون عن عبقرية إلا حيث تكون تأثيرات العقل ممتعة بالنسبة لهم، وحيث لا يشعرون برغبة في الحسد. أن يُنعت شخص بـ«الألوهي» يعني: «لا حاجة لنا هنا في المنافسة». ثم إن كل ما هو جاهز ومكتمل يثير الدهشة، وكل صائرٍ منتقَصٌ. وبما أنه ليس بمستطاع أحد أن يتابع عمل الفنان وكيفية صيرورته، فإن ذلك من حسن حظه، لأنه حيثما شاهد المرء صيرورة عمل أصابه شيء من الفتور. إن فن التعبير في المنجَز التام يستبعد كل تفكير في الصيرورة؛ يستبدّ ويسحق كحضور مكتمل. لذلك يُعد الفنانون التعبيريون عباقرة، أما رجال العلم فلا. وفي الحقيقة ليس هذا التقدير وهذا الانتقاص سوى صبيانية عقلية.

163

جدية العمل الحرفي

لندع الكلام عن الموهبة والملكة الفطرية! فهناك رجال عظام من كل صنف يمكن أن نذكرهم من أولئك الذين لم يكونوا على قدر كبير من الموهبة. لكنهم *اكتسبوا* عظمة وصاروا «عباقرة» (كما يقال) وذلك بفضل خصال لا أحد يود الكلام عن فقدانها عندما يحس بذلك في

نفسه: كانت لهم تلك الجدية المثابرة للحرفي الذي يبدأ أولا بتعلم التركيب المحكم للأجزاء قبل أن يتجرأ بالنهاية على إنجاز الأشياء الكاملة الكبيرة، ويدَعون لنفسهم ما يكفي من الوقت لذلك، لأنهم يجدون متعة في الإنجاز المتقن للأشياء الجانبية الصغيرة أكثر مما يجدون في مفاعيل الكلّي المبهِر. سيكون من السهل تقديم وصفة للطريقة التي تجعل أحدا ما يصبح قصّاصا جيدا على سبيل المثال، لكن تطبيقها يشترط توفر خصوصيات هي تلك التي يتجاهلها المرء عندما يعلن: «لا أملك ما يكفي من الموهبة». على المرء أن ينجز مئة مسودة أو أكثر لمشاريع أقصوصات لا تتجاوز الواحدة منها الصفحتين، لكن على قدر من الدقة يجعل لكل كلمة فيها مكانها الضروري؛ أن يسجل يوميا بعض النوادر إلى أن يتعلم كيف يجد لها الشكل الأكثر قدرة على الفعل والتأثير، أن لا يكل المرء من تجميع ورسم طبائع ونماذج شخصيات، وأن يواضب خاصة على رواية أكثر ما يمكن من القصص، وأن يستمع إلى قصص بعينين وأذنين متنبهتين إلى مدى تأثيرها على المستمعين، أن يسافر مثل رسام مشاهدَ طبيعية ومصمم أزياء، أن يستخرج من كل علم ما من شأنه أن يكون له تأثيرات فنية عندما يعرض بطريقة جيدة، أن يتفكر في دوافع الأعمال البشرية، وأن لا يحتقر أية إشارة يمكن أن تساعد على ذلك، وأن يعمل ليل نهار على تجميع مثل هذه الأشياء. يُمضي المرء حوالي عشر سنوات في مثل هذه التمارين، ثم سيكون على ما سينجَز بعدها داخل المخبر أن يخرج إلى ضوء النهار. -لكن ما الذي يفعله أغلب الناس عادة؟ إنهم، على العكس من هذا، لا يبدؤون بالجزء، بل بالكل. ربما يسعفهم الحظ مرة بضربة سعيدة فيثيرون الاهتمام، ثم يظلون من بعدها لا يفعلون سوى إعادة الضربات الخاطئة لأسباب جدّ طبيعية. -أحيانا عندما لا يتوفر الذكاء وقوة الطبع كي ينجز المرء مثل

هذا المخطط لحياة فنية، تتكفل الضرورة والقدر بهذا الدور ويقودان الفنان المستقبلي خطوة خطوة عبر كل مقتضيات حرفته.

164

مخاطر وإيجابيات عبادة العبقري

الإيمان بالعقول العظيمة المتفوقة والفظيعة غير ضروري، لكنه مرتبط في أغلب الأحيان بالخرافة الدينية أو شبه الدينية القائلة بأن تلك العقول من أصل فوقبشري وتملك قدرات خارقة تأتي بواسطتها المعرفةَ من سبل تختلف عن سبل بقية الناس. تُنسب إليهم القدرة على النظر مباشرة في جوهر العالم، بما يشبه النظر من ثقب في معطف العالم الظاهري، ويعتقد الناس أنهم بفضل هذه القدرة الخارقة على النظر النبوئي يستطيعون دون عناء العلم وجهوده الصارمة أن ينبئوا بما هو جوهري قطعي ونهائي في العالم والإنسان. وطالما ظلت المعجزة في مجال المعرفة تجد أناسا يؤمنون بها، ربما سيكون بإمكاننا أن نعترف لها بفائدة قد تحصل منها لهؤلاء المؤمنين، بما أن هؤلاء، بما يتميزون به من خضوع لا مشروط لسلطة العقول العظيمة، سيضمنون لعقولهم الخاصة في فترة تطورها نظاما ومدرسة من أفضل ما يمكن أن يوجد. وبالمقابل سيكون علينا أن نتساءل على الأقل عما إذا ستكون خرافة العبقري وامتيازاته وقدراته الخارقة ذات فائدة بالنسبة للعبقري نفسه عندما تترسخ في ذهنه. وإنها في كل الأحوال لعلامة خطيرة أن يتملك بالإنسان شعور بالذعر من نفسه، سواء كان ذلك ذعر القياصرة الشهير، أو ذعر العبقري في حالتنا الراهنة، عندما تتسلق أبخرة القرابين المنذورة في العادة للآلهة رأس العبقري وتقتحم عقله، بما يجعله يشرع في الترنح وفي الاعتقاد بأنه من منزلة فوقبشرية. وتكون التبعات البطيئة هي التالية: إحساس بعدم المسؤولية وبالامتيازات

الاستثنائية، والاعتقاد بالبركة المتأتية من معاشرته، والحنق الجنوني الذي يتملك به عند كل محاولة لمقارنته بالآخرين أو اعتباره أقل شأنا وتسليط الضوء على مواقع النقص في عمله. ولأنه قد كف عن ممارسة النقد على نفسه، فقد ظلت القوادم تسقط عن ريشه الواحدة تلو الأخرى: تلك الخرافة تجتث طاقاته من الجذور، بل تحوله أيضا إلى منافق بعد أن يكون قد فقد كل قواه. لعله سيكون من المفيد بالنسبة لأهل العقول العظيمة أيضا لو أنهم يكتسبون وعيا بقوتهم وبمصدر تلك القوة، وأن يدركوا إذن أية خصال إنسانية صرفة قد اجتمعت سيولها في داخلهم، وأية ظروف ملائمة ساهمت في ذلك: أولها طاقة قارّة وثبات على متابعة أهداف جزئية محددة، وقدر كبير من الشجاعة، ثم حظ التمتع بتعليم منحهم منذ وقت مبكر أفضل المعلمين والنماذج والمناهج. وفي الحقيقة، إذا ما كان هدفهم يتمثل في إحداث أكبر أثر ممكن، فإن عدم معرفتهم، مضافا إليها شيء من شبه جنون قد كان لها مفعولها في ذلك، فعلى مر العصور كانوا محاطين بالإعجاب والحسد، بالذات على تلك الطاقة التي لديهم، والتي كانوا يجردون بفضلها جميع من حولهم من الإرادة ويجعلونهم ينقادون إلى التوهم بأن قادة من منزلة فوقطبيعية يقودون مسيرتهم. أجل، إن الإيمان بشخص ذي قدرات خارقة يرفع من شأن المؤمن بذلك ويسحره، ذلك أن الجنون ظل يغمر البشر على الدوام بأكبر النعَم، كما يقول أفلاطون(٦٩). وفي بعض الحالات الفردية النادرة يمكن لهذا الشيء من الجنون أن يكون أيضا الوسيلة التي مكنت من ضمان تماسكٍ متين لطبيعة تتنازعها شتى ضروب الشطط. وحتى في حياة الأفراد يكون للتصورات المجنونة غالبا قيمة دواء لا يخلو من سموم؛ غير أن السم يصبح لدى كل «عبقري» يؤمن بألوهته أكثر فأكثر حضورا كلما تقدم «العبقري» في الشيخوخة: يمكننا أن نتذكر كمثال

على ذلك نابليون الذي تطورت شخصيته بل تأكيد من خلال إيمانه بنفسه وبطالعه ومن خلال ما ينضح به كيانه من احتقار للإنسان، حتى بلوغ تلك الوحدة المتينة التي تميزه عن بقية الرجال المعاصرين، إلى أن أفضى ذلك الإيمان بالنهاية إلى نوع من القدرية المجنونة، وسلبه نظرته اليقِظة والثاقبة وكان سببا في انهياره.

165

العبقري والرديء

يحدث للفنانين الأصيلين بالذات، تلك العقول التي تنهل من نفسها، أن يتمخضوا في ظل ظروف معينة عن قشرة وفراغ. في حين أن آخرين بعقول أقل استقلالية، من أولئك المدعوين «مواهب»، والذين تعج ذاكرتهم بشتى الأشياء الجيدة، يمكنهم حتى في لحظات الضعف أن ينتجوا أشياء مقبولة. بينما الأصيلون، إن هم خذلتهم نفسهم، لن تهب الذاكرة لنجدتهم: ويصبحون عندها فارغين.(٧٠)

166

الجمهور

لا يطلب الجمهور من التراجيديا في الحقيقة أكثر من أن تؤثر فيه عميقا كي يطلق العنان لدموعه؛ أما الفنان الذي يشاهد عرضا تراجيديا جديدا فيجد متعته في الابتكارات التقنية والفنية الذكية، وفي طريقة استعمال وتوزيع المادة، وفي الاستعمالات الجديدة للمواضيع والأفكار القديمة. الزاوية التي ينظر منها إلى العمل الفني هي زاوية نظر الجمالية، زاوية نظر المبدع؛ بينما تلك التي وصفناها آنفا، والتي ينصبّ اهتمامها كليا على مادة الأثر فهي زاوية نظر الشعب. أما عن ذلك الصنف الذي بينهما فليس هناك ما نقوله؛ فلا هو من الشعب ولا

هو فنان، ولا يعرف ماذا يريد؛ وهكذا تكون متعته غير واضحة وضئيلة.

167

التربية الفنية للجمهور

إن لم يتم تناول الموضوع نفسه لمئات المرات من خلال فنانين مختلفين فإن الجمهور لن يستطيع أن يرتقي باهتمامه إلى ما فوق مادة ذلك الموضوع، غير أنه إذا ما كان عارفا بالموضوع منذ مدة طويلة من خلال معالجات متنوعة، ويكون قد فقد أثناء ذلك كل تحفز لما سيرد فيه من جديد ومشوّق، فإنه سيتوصل بالنهاية إلى إدراك الفروق والابتكارات الجديدة الدقيقة في تناول ذلك الموضوع، وإلى تذوقها.

168

الفنان وجمهوره: تعديل الخطوة

ينبغي أن يتم المرور من درجة أسلوبية إلى درجة أعلى ببطء حتى يستطيع، لا الفنان وحده، بل جمهور المستمعين والمشاهدين أيضا أن يرافق هذا المرور ويفهم ماذا يجري، وإلا فإن هوة واسعة ستحدث فجأة بين الفنان الذي ينجز أعماله من فوق أعال بعيدة والجمهور الذي لم يعد قادرا على الصعود إلى تلك الأعالي فيدفع به القنوط إلى الهبوط إلى مستويات أدنى. عندها لن يغدو بإمكان الفنان أن يساعد جمهوره على الصعود مجددا، لأن هذا الأخير يكون قد انحدر بسرعة فائقة، بل إنه يهوي إلى مستوى أكثر عمقا وخطرا بقدر ما يكون عبقري قد رفعه قبلها عاليا، مثل النسر الذي يجعل سلحفاة تقع من مخالبه بغية هلاكها بعد أن يكون قد رفعها إلى مستوى السحاب.

169

أصل الكوميديا

عندما نضع في الاعتبار أن الإنسان ظل لمئات الآلاف من السنين يعيش وضع حيوان معرض لأقصى درجات الخوف، وأن كل ما هو مفاجئ وغير منتظر كان يضعه في حالة استعداد للقتال، ربما ما يعني حالة استعداد للموت، حتى أنه يظل فيما بعد، وفي ظل علاقات اجتماعية متطورة يرتاح إلى كل ما هو متوقع، وإلى ما هو تقليدي في الرأي وفي العمل، فلن نتعجب إذن إذا ما رأينا أن الإنسان كلما وجد نفسه أمام أمر مفاجئ وغير منتظر يتم دون خطر أو إحداث ضرر، يغدو مرتاحا ويمر إلى حالة مناقضة لحالة الخوف: ذلك المتكور على نفسه المرتعد خوفا ينطلق، يتفتق، -الإنسان يضحك. هذا المرور من حالة خوف مؤقت إلى مرح قصير الأمد يسمى *كوميديا*. وبالمقابل يمر الإنسان في الظاهرة المأساوية بسرعة من المرح الكبير الدائم إلى الخوف الشديد؛ لكن، وبما أن المرح الكبير الدائم أمر أقل حضورا من دواعي الخوف في حياة الفانين، فإننا نجد أكثر هزليات من تراجيديات في العالم؛ هكذا يضحك الناس أكثر مما تهتز مشاعرهم بالتأثر.

170

طموح الفنان

كان الفنانون اليونانيون، مؤلفو التراجيديا مثلا، يؤلفون بهدف تحقيق الانتصار؛ ولا يمكن تصور مجمل فنهم دون اعتبار للمبارزة: إريس[٧١] الطيبة لهزيود، أي الطموح، هي التي كانت تمنح عبقريتهم أجنحة. غير أن هذا الطموح كان يتطلب قبل كل شيء أن يحقق عملهم أرقى درجات الامتياز *في أعينهم*، بحسب الفهم الذي كان لهم للامتياز دون اعتبار للذوق الشائع والرأي المتداول حول ما يعد ممتازا

في أثر فني ما؛ وهكذا ظل كل من إسخيلوس ويوربيدس غير ناجحين لمدة طويلة من الزمن، إلى أن توفق الفنانون بالنهاية في تربية جيل من حكّام الفن الذين أصبحوا يقدّرون أعمالهم بحسب المعايير التي وضعوها هم لذلك. وكانوا يطمحون بهذه الطريقة إلى تحقيق انتصار على منافسيهم وفقا لتقديرهم الخاص وأمام محكمتهم الخاصة: كانوا يريدون حقا أن *يكونوا* ممتازين، ولذلك الغرض كانوا يطلبون موافقة من الخارج على تقديرهم الخاص وإثباتا لحكمهم. إن مطمحهم هذا يسمى: «أن يجعلوا أنفسهم متفوقين، مع الأمل في أن يبدو الأمر كذلك للعموم.» وإذا ما لم يتحقق المطمح الأول، لكن مع بقاء الرغبة في الثاني، فسيدعى ذلك عندها *غرورا*. أما إذا ما لم يتحقق الثاني، دون أن يسبب شعورا بالحرمان، فسيدعى ذلك *كبرياء*.

171

الضروري في الفن

أولئك الذين يتكلمون كثيرا عن الضروري في عمل فني ما، يبالغون بدافع من *in majorem artis gloriam*؛ «من أجل المجد الأعظم للفن»، إن كانوا من الفنانين، وعن جهل إن كانوا من الغريبين عن المجال الفني. إن الأشكال التي يعبر بها عمل فني عن أفكاره، أي طريقته في الكلام لا تخلو من مجال للاختيار مثل كل ضروب التعبير. فالنحات يستطيع أن يرسم العديد من الملامح الصغيرة أو أن يتركها، وكذلك الأمر بالنسبة لفنان الأداء، ممثلا كان أم عازفا بارعا أو قائد أركسترا عندما يتعلق الأمر بالموسيقى. كل تلك الملامح واللمسات تروق له اليوم ولا تعجبه غدا، فهي هناك لخدمة الفنان أكثر مما هي لخدمة الأثر الفني، ذلك أنه يحتاج هو أيضا من حين لآخر، في خضم الجهد والإكراهات التي يفرضها على نفسه وفقا لما يتطلبه

تجسيد الفكرة الأساسية، إلى قطعة من الحلوى أو لعبة كي لا يصيبه العبوس.

172

تجاوز المايسترو

عندما يقدّم عازف البيانو عمل موسيقار كبير سيكون عزفه كأفضل ما يكون إذا جعل المستمع ينسى المايسترو ويبدو كما لو أنه يروي قصة من حياته الخاصة، أو أنه يعيشها أثناء العزف. وفي الحقيقة، إذا ما لم يكن ذا شأن خاص، فإن الجميع سيلعنون الهذر الذي يروي به قصة حياته؛ عليه إذن أن يعرف كيف يكسب خيال المستمع. غير أنه ومن خلال هذا الأمر بالذات تجد كل نقائص وحماقات «المهارة» تفسيرا لها.

173

تصحيح الحظ

تطرأ على حياة الفنانين الكبار صدف كريهة كتلك التي تجعل رساما يضطر للتوقف في إنجاز أهم أعماله على مجرد رسم أولي سريع، أو تلك التي اضطرت بيتهوفن مثلا إلى أن لا يترك لنا من بعض سوناتاته الكبرى (كسوناتة بي مول وسي ماجور) غير مقتطعات عزف بيانو من عمل سمفوني غير مكتمل. هنا سيكون على الفنان الذي سيأتي من بعد أن يحاول تصحيح أخطاء حياة المايسترو: ذلك ما سيفعله مثلا ذاك الذي، ببراعة المايسترو الأركستري، سيحيي السمفونية التي تبدو مستسلمة للموت في مقطوعة البيانو.

174

تصغير

هناك أشياء وأحداث أو شخصيات لا تتحمل أن يتناولها المرء مصغّرة. فمن غير الممكن مثلا تجسيد مجموعة لاوكون[٧٢] في صورة تحفة صغيرة؛ إنها تستوجب الحجم الكبير. لكن أكثر صعوبة من ذلك أن يكون شيء صغير بطبعه قابلا للتكبير، لذلك سيظل كتاب السيرة دوما ينجحون في تقديم رجل عظيم في هيأة صغيرة أكثر من تقديم واحد غير ذي شأن في هيأة عظيمة.

175

الحسية في الفن المعاصر

يخطئ الفنانون في حساباتهم غالبا عندما يراهنون في وقتنا الحاضر على تأثير حسي ما لأعمالهم، ذلك أن جمهورهم لم يعد متملكا بكامل حواسه، ويقع بالتالي من خلال العمل الفني، خلافا لنوايا الفنان، في نوع من «قدسية» انطباعية قريبة من الضجر. ربما تبدأ حسيتهم هناك حيث تنتهي حسية الفنان؛ فهما تلتقيان إذن في هذه النقطة الوحيدة في أقصى الأحوال.

176

شكسبير الأخلاقي

فكر شكسبير كثيرا في انفعالات الشغف، ولعله قد استطاع بحكم طبعه الخاص أن يعايش الكثير منها عن قرب (فالمسرحيون عامة أناس على قدر من غير قليل من السوء)، إلا أنه لم يكن يجيد الكلام عنها مثل مونتانيي، بل كان يضع معايناته حول الانفعالات على لسان شخصياته، وهو أمر مناقض للطبيعة في الحقيقة، لكنه يجعل مسرحياته

ثرية فكرًا، حتى أن كل ما عداها يتراءى خاويا ويثير النفور بسهولة. فأمثال شيللر مثلا (والتي تقوم دائما على أسس من أفكار خاطئة أو عديمة الأهمية) هي بالضبط أمثولات مسرحية ولها بحكم ذلك تأثير قوي، بينما الأمثال الحِكمية لشكسبير هي مما يشرّف مونتانيي، مثالُه النموذجي، وتحتوي على أفكار على غاية الجدية في شكل صقيل بالغ الجودة، لكنها لذلك بالذات تبدو لعين الجمهور المسرحي بعيدة جدا ودقيقة جدا، أي غير ذات تأثير.

177

كيف يجعل المرء نفسه مسموعا على نحو جيد

لا يكفي أن يكون الواحد عازفا جيدا، بل عليه أن يضع نفسه في موقع يسمح له بأن يكون مسموعا كما ينبغي، فالكمان لن يندى عنه على يد أكبر مايسترو سوى صرصرة غامضة عندما تكون القاعة كبيرة جدا، وعندها لن يغدو بالإمكان تمييز المايسترو من أي مهلهل غير مقتدر.

178

المنقوص وقوة تاثيره[٧٣]

بمثل ما يكون للنقوش البارزة من تأثير كبير على الخيال كما لو أنها في طريقها للخروج من الجدار لكن يصدها فجأة شيء ما ويجمدها في مكانها، كذلك يكون تجسيد فكرة غير مكتملة أو مجمل فلسفة على نحو ناتئ أكثر تأثيرا من العرض المتكامل. فذلك يدع مجالا أكبر لعمل المتفرج الذي يجد نفسه مستثارا لمواصلة تشكيل ما برز أمامه في تضاريس ناتئة من الضوء والظلال، ولدفع التفكير فيه إلى منتهاه، وإلى الرغبة في أن يتغلب بنفسه على تلك العوائق التي منعته إلى حد تلك اللحظة من إتمام ظهوره.

179

ضد المثيرين

عندما يرتدي الفن أكثر الأثواب رثاثة ندرك بصفة أوضح أنه فن.

180

العقل الجماعي

الكاتب الجيد لا يكون ممتلكا لعقله الخاص فقط، بل ولعقل أصدقائه أيضا.

181

وجهان لسوء التقدير

إن سوء حظ الكتّاب العميقين والواضحين هو أن الناس يعدّونهم سطحيين ولذلك لا يكلفون أنفسهم عناء الاهتمام بهم، وحظ الغامضين هو أن القارئ يجهد نفسه في قراءتهم ويسجل لحسابهم تلك المتعة التي يجدها في اجتهاده الخاص.

182

العلاقة بالعلم

كل أولئك الذين لا يتحمسون لعلم من العلوم إلا إذا ما اكتشفوا بأنفسهم شيئا فيه، ليس لديهم في الحقيقة أي اهتمام بأي علم.

183

المفتاح

الفكرة التي يوليها إنسان ذو شأن أهميةً كبرى تحت عاصفة من ضحك وهزء ذوي الشأن الوضيع، هي مفتاح الكنز المخفي بالنسبة له، بينما

لا تعدو كونها قطعة معدن قديمة بالنسبة للآخرين.

184

ما هو غير قابل للترجمة

ليس أفضل شيء في كتاب ما، ولا أسوأ ما فيه ما يكون غير قابل للترجمة منه.

185

مفارقات الكاتب

ما يسمى بمفارقات الكاتب التي تصدم هذا القارئ أو ذاك، غالبا ما لا توجد في مؤلَّف الكاتب، بل في عقل القارئ.

186

فكاهة

الكتّاب الأكثر فكاهة لا تندى عنهم غير الابتسامة التي لا تكاد تلمح.

187

الطرح النقيض

الطرح النقيض هو الباب الضيق المبجل الذي يتسلل منه الخطأ إلى الحقيقة.

188

المفكر كاسلوبي

أغلب المفكرين يكتبون بشكل رديء، لأنهم لا يبلّغوننا أفكارهم فقط، بل تفكير الأفكار.

189

الأفكار في الشعر

يسوق الشاعر أفكاره بصفة احتفالية فوق عربة الإيقاع؛ عادة لأن هذه الأخيرة لا تستطيع أن تمشي على قدميها.

190

خطيئة في حق عقل القارئ

عندما ينكر الكاتب موهبته لا لشيء إلا ليجعل نفسه في مستوى القارئ، فإنه يقترف الخطيئة المميتة الوحيدة التي لا يغفرها له هذا الأخير، في صورة ما إذا لاحظ ذلك بطبيعة الحال. فالكاتب يستطيع أن يقول كل أنواع الشرور عن الإنسان، لكن ينبغي عليه أن يعرف كيف يحفظ له غروره في الطريقة التي يقول بها ذلك.

191

حدود الصدق

أكثر الكتّاب صدقا تفلت منه كلمة فائضة عن اللزوم عندما يحاول أن يفخّم مقطعا ما.

192

أفضل الكتّاب

أفضل الكتاب ينبغي أن يكون ذلك الذي يخجل من أن يصبح كاتبا.

193

قانون تعسفي ضد الكتّاب

لا بد أن ينظر إلى الكاتب كفاسق لا يستحق التبرئة أو العفو إلا في

حالات نادرة: ستكون تلك وسيلة لمحاربة تكاثر الكتب.

194

مهرّجو الحضارة الحديثة

مهرجو البلاطات من العصر الوسيط هم المعادل القديم لمحرري القصص الصحفية في عصرنا الحاضر؛ إنه نفس الصنف من البشر، نصف عقلاء، أصحاب مُلح، ذوو شطط، سذّج، وأحيانا يكونون هناك فقط من أجل تلطيف الأجواء عن طريق المُلح والثرثرة والتغطية بصراخهم على الصخب الاحتفالي الثقيل للأحداث العظمى؛ في خدمة الأمراء والنبلاء في ما مضى، والآن في خدمة الأحزاب (تماما مثلما يكون هناك جزء لا بأس به من عقلية خضوع الرعايا للأمراء قديما يواصل الحياة اليوم في ذهنية الحزب والتربية الحزبية). إلا أن أغلبية الطبقة الأدبية اليوم شبيهة إلى حد بعيد بمحرري القصص الصحفية: إنهم «حمقى الحضارة الحديثة»، الذين سنكون متسامحين جدا في حكمنا عليهم إذا ما اعتبرناهم غير مسؤولين تماما عن أعمالهم. إن اعتبار نشاط الكتابة مهنة لابد أن يعدّ ضربا من الجنون.

195

على نهج الإغريق

ما يعيق المعرفة في الوقت الحاضر هو أن كل الكلمات غدت بموجب التفخيم الأحاسيسي الذي عرفته على مدى مئات السنين كلمات منتفخة وبخاريّة.[٧٤] إن الطور الأعلى للحضارة الذي يقع تحت سيطرة المعرفة (إن لم يكن تحت سلطتها الاستبدادية) يتطلب تقشفا كبيرا في الأحاسيس وتكثيفا عاليا لكل الكلمات، الأمر الذي سبقنا إليه اليونانيون من عهد ديموستين. فالمبالغة هي ما يميز كل الكتابات

الحديثة، وحتى عندما تكون مكتوبة ببساطة، فإن الكلمات لها وقع الغرابة على *إحساسنا*. التفكير الصارم، الإيجاز المكثف، والبرودة والبساطة والتحكم الأقصى في الشعور بصفة إرادية حتى وإن تم الدفع به إلى حده الأدنى ومراودة تخوم الصمت: ذلك وحده هو العلاج. وبالمناسبة، إن هذا النوع البارد من الكتابة والإحساس قد أضحى، كنمط نقيض، جذابا جدا في وقتنا الحاضر؛ وهنا يكمن خطر جديد بطبيعة الحال، ذلك أن البرودة الحادة هي أيضا وسيلة إثارة، تماما مثل درجة عالية من الحرارة.

196

رواة جيدون، مفسرون رديئون

نجد غالبا لدى الرواة الجيدين وثوقا وصرامة بسيكولوجيين جديرين بالإعجاب، طالما ظلت تتجسد من خلال أفعال شخصياتهم وفي تناقض واضح مضحك مع عدم خبرتهم في التفكير البسيكولوجي، مما يجعل ثقافتهم تتراءى على درجة ممتازة من الرقي في لحظة ما، ثم على درجة مؤسفة من التدني في اللحظة اللاحقة. وغالبا ما يحدث لهم أن يقدموا تفسيرا *خاطئا* لشخصيات أبطالهم وأفعالهم، وهذا أمر لا مجال للشك فيه، مهما بدا ذلك غير معقول. ولعل عازف البيانو الكبير قلّما عن له أن يفكر في الشروط التقنية وفي فضائل ونقائص وإمكانيات استعمال كل إصبع وقابلية تدريبه وتربيته (إيتيقا إصبعيّة) حتى أنه إذا ما تكلم في مثل هذه الأشياء نطق بأخطاء شنيعة.

197

كتابات أولئك الذين نعرفهم وقراءتها

نقرأ كتابات أولئك الذين نعرفهم (أصدقاء وأعداء) بطريقة مزدوجة،

ذلك أن معرفتنا تظل تهمس لنا بصفة مستمرة: «إنه من صلبه، إنها علامة من كيانه الباطني، من تجاربه، من موهبته»، وفي الآن نفسه يعمل نوع آخر من السعي إلى المعرفة بالمقابل على تقصّي أي إضافة جاء بها هذا العمل في حد ذاته، وأي تقدير يستحق بقطع النظر عن صاحبه، وأي إثراء للمعرفة يحمل معه. هذان النوعان من القراءة يدخلان الضيم على بعضيهما كما هو متوقع. كذلك هو الشأن مع محادثة بين صديقين لا تتمخض عن نتائج مفيدة بالنسبة للمعرفة إلا إذا ما كف كل منهما عن التفكير في شيء آخر غير موضوع المحادثة ونسيا أنهما صديقان.

198

تضحية إيقاعية

يعمد كتّاب جيدون إلى تغيير إيقاع بعض المقاطع لا لشيء إلا لأنهم لا يتمثلون في القراء العاديين قدرة على استيعاب الوزن الذي جاء عليه المقطع في صياغته الأولى؛ لذلك يسهلون عليهم الأمر بأن يبجلوا استعمال إيقاعات معهودة لديهم. ولكم أثارت هذه المراعاة لعدم الخبرة الإيقاعية للقارئ المعاصر من تنهدات الحسرة لكثرة ما قدم لهذا القارئ من تضحيات. الا يحدث مثل هذا أيضا لموسيقيين من الطراز الجيد؟[٧٥]

199

النقص كعنصر تاثير فني

يحدث المنقوص غالبا أثرا أكبر مما يحدث المكتمل، في المديح على وجه الخصوص: فأغراض المديح تتطلب نقصا مثيرا كعنصر لاعقلاني يُظهر لخيال المستمع صورة بحر وساحلا في هيأة أشبه بضباب على

الطرف المقابل؛ أي ما يحجب حدود الممدوح. عندما نذكر الخصال المعروفة لممدوح ونتوسع في ذلك ونستوفي ذكرها، فإننا نثير بذلك شكا بأنه لا يملك غير تلك الخصال. فالمادح بتلك الطريقة المستوفية يضع نفسه فوق الممدوح، ويبدو كما لو أنه لا *يراه* وهو يشمله بنظرة فوقية. لذلك يكون المستوفي إضعافا (للموضوع المستوفى).

200

ما يدخل في الاعتبار في الكتابة وفي التعليم

من مارس الكتابة وكان حاملا لشغفها، يتعلم من كل ما يفعله ويعيشه تقريبا فقط ما هو قابل للإبلاغ في شكل كتابة أدبية. لن يفكر بعدها في نفسه، بل في الكاتب وجمهوره؛ يريد الفكرة، لكن ليس لاستعماله الخاص. ومن كان مدرّسا سيكون غير قادر على القيام بشيء لنفسه ولغبطته الخاصة، إنه لا يفكر إلا في غبطة تلامذته، وكل معرفة لا تسره إلا بقدر ما يستطيع تعليمها، وهو لا يرى إلى نفسه بالنهاية إلا كمعْبر للعلم، وإجمالا كوسيلة، حتى أنه يكون قد فقد نهائيا كل اعتبار جديّ لنفسه.

201

ضرورة وجود الكتاب الرديئين

سيظل هناك دوما كتاب رديئون، ذلك أنهم يوافقون ذوق الفئات التي لم تعرف تطورا ونضجا؛ ولهؤلاء أيضا حاجتهم، مثلهم مثل الناضجين. ولو أن حياة البشر كانت أطول لكان عدد الناضجين يفوق أو يعادل على الأقل عدد غير الناضجين، لكن أغلب الناس يموتون في سن مبكرة، وبالتالي يكون هناك دوما عدد أكبر بكثير من العقول غير المتطورة ذات الذوق الرديء. وهذه العقول ترغب بكل ما في

حماسة الشباب من قوة في تلبية حاجياتها، وبذلك *تفرض* وجود ما يرضيها من كتّاب رديئين.

202

قريبون جدا، بعيدون جدا

إن القارئ والكاتب لا يتفاهمان غالبا لهذا السبب، وهو أن الكاتب يعرف موضوعه جيدا، وقد غدا يجده مملا تقريبا مما يجعله يتخلى عن أمثلة يعرفها بالمئات؛ غير أن الأمر يظل غريبا في رأي القارئ ولا يرى مبررا جديا لأن يحبس عنه الكاتب تلك الأمثلة.

203

التربية الفنية المفقودة في التعليم

كان التدريب على الأسلوب اللاتيني أكثر المواد أهمية من بين كل ما كان يقدمه المعهد الثانوي: كان ذلك بالفعل *تدريبا فنيا*، بينما تلاحق بقية المواد جميعها غرضا واحدا هو العلم. أن نعطي أولوية لمادة التحرير باللغة الألمانية، فذلك ضرب من الهمجية، لأنه ليس لدينا أسلوب ألماني متطور يستطيع أن يكون نموذجا لبلاغة عمومية. أما إذا ما أراد المرء أن يجعل من تمارين التحرير بالألمانية تدريبا على التفكير، فإن ذلك سيكون أفضل دون شك، في صورة ما إذا صرفنا النظر عن الأسلوب عموما، أي إن نحن فرقنا بين التدريب على التفكير والتدريب على التعبير. فهذا الأخير يعنَى بتعلم الطرق المتنوعة لصياغة مادة ممنوحة، وليس بابتكار مستقل لمادة ما. مجرد التعبير عن مادة ممنوحة كانت مهمة درس الأسلوب اللاتيني الذي كان الأساتذة القدامى يملكون له أذنا مرهفة أضحت مفقودة منذ أمد غير قصير. ومن حظي في ما مضى بتعلم الكتابة بلغة حديثة، إنما

كان له ذلك بفضل دروس الأسلوب اللاتيني (أما الآن فسيكون على من يرغب في ذلك أن يتوجه مضطرا إلى مدرسة الفرنسيين)، بل أكثر من ذلك، كانت تتكون لديه فكرة عن رفعة وصعوبة الشكل الأسلوبي وبذلك يكون قد وضع نفسه على الطريق الصحيحة الوحيدة التي تؤهل للفن، طريق الممارسة.(٧٦)

204

المعتّم والإضاءة المبهرة جنبا إلى جنب

الكتّاب الذين لا يعرفون مجملا كيف يعبرون بوضوح عن أفكارهم، سيبجلون في تناول الجزئيات اختيار العبارات الأكثر حدة والأكثر مبالغة، واعتماد صيغ التفضيل المفخّمة: ينتج عن ذلك مفعولُ مؤثرات ضوئية شبيه بضوء المشاعل فوق دروب متشابكة داخل غابة.

205

رسم باسلوب ادبي

إن أفضل طريقة لرسم شيء ذي أهمية هي أن يتناول الرسام الألوان التي سيستعملها في اللوحة من ذلك الشيء نفسه مثل خبير كيمياوي، ثم يستعملها مثل فنان بطريقة تجعل الرسم ينشأ من منطقة انفصال الألوان وتحولاتها. هكذا تكتسب اللوحة شيئا من سحر العنصر الطبيعي الذي يجعل الشيء المرسوم نفسه ذا أهمية.

206

كتب تعلّم الرقص

هناك كتّاب، لأنهم يصورن المستحيل في صورة الممكن ويتكلمون عما هو فاضل وعبقري كما لو أنهما من سبيل المزاج والنزوة، يثيرون

بذلك إحساسا بحرية عارمة، كما لو أن إنسانا ينتصب على أطراف أصابع القدمين مدفوعا بمتعة داخلية جارفة إلى الرقص.[٧٧]

207

افكار لم تستوف مسار تشكلها

وكما أن الشباب والطفولة أيضا، لا الكهولة فقط، لها قيمة في ذاتها وليس كمرحلة انتقالية وجسر عبور فحسب، كذلك تكون للأفكار التي لم تستكمل مسار تشكلها قيمتها هي أيضا. لذلك لا ينبغي أن يعذِّب الشاعر بالتأويلات الدقيقة لأفكاره والسخرية من عدم وثوق أفقه، كما لو أن حشدا من الأفكار مازالت لم تجد طريقها لديه. يقف المرء على العتبة وينتظر كما لو كان أمام عملية استخراج كنز من تحت الأرض؛ كما لو أن اكتشافا سعيدا لأفكار عميقة ينبغي أن يحدث حتما. يستشعر الشاعر مسبقا شيئا من متعة المفكر وهو يعثر على فكرة أساسية ويوقظ فينا شهوة تجعلنا نركض وراءها؛ لكن هذه الأخيرة تعبر مرفرفة فوق رأسنا، تلوّح لنا بأجمل جناح فراشة -ومع ذلك تفلت منا.

208

الكتاب يكاد يتحول إلى إنسان

يظل كل كاتب يفاجأ على الدوام بكتابه وهو يكتسب حياة خاصة به لمجرد أن ينفصل عنه؛ يتكون لديه انطباع كما لو أنه جزء من حشرة قد انفصل عن الجسد ومضى الآن في طريقه الخاصة. ربما ينسى الكاتب كتابه كليا، وربما يرتقي فوق ما ضمنه من آراء داخله، وربما يغدو غير قادر على فهمه وقد افتقد ذلك الاندفاع الذي كان يطير به في ما مضى وهو يشكله في ذهنه؛ بينما يمضي الكتاب باحثا عن قرائه، يوقد جذوة حياة، ويمنح سعادة، ويثير ذعرا، ويولّد أعمالا جديدة،

ويتحول إلى روح لمبادئ وأعمال، وفي كلمة: يحيا مثل كائن ذي روح وعقل، وما هو بإنسان مع ذلك.

إن الحظ السعيد الذي سيحظى به كاتب يكون عندما يستطيع وهو في سن الشيخوخة أن يقول إن كل ما كان لديه من أفكار وأحاسيس مبدعةِ حياةٍ، مانحةِ قوةٍ، محمّسة ومنيرة ما تزال تواصل الحياة داخل كتاباته، وأنه، هو الآن لا شيء سوى ما تبقى من رماد، بينما النار ما تزال محفوظة ومتناقَلة في كل مكان. وإذا ما اعتبرنا أن كل عمل يعمله الإنسان، وليس ما يكتبه فقط، يتحول بشكل من الأشكال إلى حافز لأعمال وقرارات وأفكار أخرى، وأن ما ينجز الآن يرتبط برباط وثيق مع كل ما سينجز، سندرك عندها ما هو *الخلود* الحقيقي الذي يمكن أن يوجد، وهو خلود الحركة: ما كان حركة في يوم ما يجد نفسه مؤبّدا داخل سلسلة الكينونة الكليّة مثل الحشرة داخل الكهْرمان.

209

غبطة الشيخوخة

يشعر الكاتب، وكذلك الفنان الذي هرّب أفضل ما في نفسه داخل أعماله بغبطة ماكرة وهو يرى جسمه وعقله يستسلمان للتدمير والتخريب اللذين يصيبهما بهما الزمن، كما لو كان ينظر من زاوية خفية إلى لص يجتهد في فتح خزنة أمواله، بينما يدرك هو أنها فارغة وأن كنوزه محفوظة في مكان آخر.

210

خصوبة هادئة

أرستقراطيو العقل بالولادة ليسوا متوقدي الحماس؛ تنبت أعمالهم وتهوي من الشجرة خلال مساء خريفي هادئ دون أن توقظ رغبة أو

تلهفا عليها، دون أن يزحزحها عمل جديد عن مكانها. فالرغبة الدائمة في الإنتاج شيء عاميّ، ويعبر عن غيرة وحسد وغرور. وعندما يكون المرء مهما لا تكون له حاجة إلى عمل أي شيء في الحقيقة، -ويفعل الكثير مع ذلك. فوق الناس «المنتجين» يوجد نوع أرقى.

211

آخيل وهوميروس

إن الأمور دوما على غرار ما بين أخيل وهوميروس: الأول يملك التجربة والإحساس، والثاني *يصفهما*. والكاتب الحقيقي لا يمنح تجربة الآخرين وأحاسيسهم سوى كلمات، إنه فنان، وذلك يجعله قادرا على أن يستمد الكثيرَ تخيّلا واستنتاجا من القليل الذي أحس به. والفنانون ليسوا من أصحاب الانفعالات الكبرى على الإطلاق، لكنهم غالبا ما *يتظاهرون* بذلك، مع إحساس لاشعوري بأن الناس سيمنحون مصداقية أكبر للانفعال الذي يرسمونه عندما تكون حياتهم الخاصة تحدّث بتجربة في هذا المجال. يكفي الواحد منهم إذن أن يطلق العنان لنفسه، أن لا يسيطر على نفسه، وأن يفسح أوسع مجال لغضبه ورغباته، وسيصرخ الجميع عندها: كم هو متّقد الانفعال! لكن الانفعال المتّقد في الأعماق والذي يلتهم صاحبه وغالبا ما يستهلكه فهو أمر أكثر جدية؛ والذي يعيشه لا يصفه بالتأكيد في عمل درامي أو في ألحان أو روايات. إن الفنّانين أشخاص ذوو جموح *منفلت* من كل قيد، وبالذات عندما لا يكونون فنانين: غير أن هذه مسألة أخرى.

212

الشكوك القديمة حول تاثير الفن

هل صحيح أن التراجيديا تمكن من تصريف شحنات الشفقة والخوف،

كما يزعم أرسطو،[٧٨] مما يجعل المستمع-المتفرج يعود إلى بيته أكثر برودة وهدوء؟ هل تجعل أقاصيص الأرواح الناس أقل فزعا وإيمانا بالخرافات؟ إن هذا الأمر صحيح في بعض مجالات النشاط الجسدي، كالمتعة الجنسية مثلا، حيث ينجر عن إرضاء الحاجة تخفيف وهبوط مؤقت للرغبة الغريزية. لكن الخوف والشفقة لا تمثلان بهذا المعنى حاجات مرتبطة بأعضاء جسدية تطلب إرضاء لها. بل إن كل غريزة ستكتسب مزيدا من القوة مع مرور الزمن وعبر تمارين إرضائها، بالرغم من التخفيف المؤقت الذي يطرأ عليها. ربما يكون من الممكن أن يعرف الخوف والشفقة تصريفا وتخفيفا في حالات منفردة عن طريق التراجيديا؛ ومع ذلك يمكنهما في المجمل والعموم أن يعرفا تضخما تحت تأثير التراجيديا، وسيكون أفلاطون[٧٩] عندها على حق عندما يعتبر أن الإنسان يصبح أكثر خوفا وحساسية من خلال التراجيديا. وسيكتسب الكاتب التراجيدي إذن بالضرورة رؤية قاتمة ومخيفة للحياة وروحا ليّنة حساسة وميالة للبكاء، وسيكون علينا أن نوافق أفلاطون رأيه، إذا ما هوى الكتّاب التراجيديون ومجمل المجموعات الحضرية التي تلتذ بأعمالهم على نحو خاص إلى حالة من الانحطاط المطرد نحو انعدام التحفظ وضبط النفس. لكن أي حق سيكون لعصرنا الحاضر في متابعة السعي إلى الإجابة عن السؤال الأفلاطوني الكبير عن تأثير الفن؟ وإذا ما كان لنا فنّ، فأين يوجد لدينا تأثير، *تأثير ما* للفن؟

213

الغبطة في العبث

كيف يمكن للإنسان أن يجد غبطة في العبث؟ حيثما يكون هناك مجال للضحك في العلم كله، يكون الأمر كذلك، بل يمكن أن نقول إنه حيثما تكون هناك سعادة، في كل مكان تقريبا، تكون هناك غبطة في

العبث. إن انقلاب التجربة إلى نقيضها، انقلاب الغائي إلى ما لا غاية له، والضروري إلى المرغوب، دون أن ينجم عن ذلك أي ضرر وأن لا يتأتى إلا عن نزق مزاج عابث، يسلينا لأنه يحررنا للحظة من إكراهات الضرورة والغائية ومن التجربة اليومية التي يظهر لنا فيها وجه أسيادنا الطغاة. نلعب إذن ونضحك عندما يُفرغ المتوقّع (ذلك الذي يسبب الذعر والتوتر عادة) شحناته دون أن يصيبنا منه ضرر. إنها غبطة العبيد في الاحتفالات الشبقية لعيد زحل.

214

الواقع معظّماً

ولأن البشر كانوا يرون في الغريزة الأفروديسية إلها ويعيشون الإحساس بفعلها فيهم بكثير من الامتنان والإجلال، فقد اصطبغت هذه الغريزة لديهم على مر الزمن بجملة من المفاهيم السامية وغدت بموجب ذلك محاطة بالإكبار. هكذا استطاعت بعض الشعوب، بفضل هذا الفن التعظيمي، أن تخلق من الأمراض عوامل قوة ثقافية: فاليونانيون على سبيل المثال، الذين كانوا يعانون خلال القرون الأولى من أوبئة أمراض عصبية كبيرة (في شكل صرع و رقصة القديس فيتوس (Veitstanz) قد ابتدعوا من خلالها النموذج الفني الرائع المعروف باسم كاهنات باخوس. وقد كان الإغريق يتمتعون في الحقيقة بتوازن صحي متين؛ سرهم في ذلك أنهم كانوا يحيطون المرض أيضا، إذا ما كان ضارب القوة، بإجلال إله يعبدونه.

215

الموسيقى

ليست الموسيقى في ذاتها ولذاتها ذات دلالة كبرى بالنسبة لكياننا

الداخلي مهما كان تأثيرها العميق الذي يجعلها تحظى بسمعة اللغة المباشرة للأحاسيس، بل إن ارتباطها القديم بالشعر قد أضفى الكثير من الرمزية على الحركة الإيقاعية وعلى قوة وضعف الأصوات مما جعلنا نتوهم أنها تخاطب دواخلنا مباشرة، وأنها متأتية من تلك الأعماق. ولا تغدو الموسيقى الدرامية ممكنة إلا عندما تكون أفانين الصوت قد غزت مجالا هائلا من الوسائل الرمزية عبر الأغنية والأوبرا وعدد من محاولات التصوير الصوتي المتنوعة. «الموسيقى المطلقة» من نوعين؛ إما شكل في ذاته في طور الوضع الخام للموسيقى، حيث الصوت الموقّع ومتنوع الدرجات قوة وانخفاضا هو الذي يحدث المتعة، أو رمزية أشكال تخاطب الفهم دون مساعدة من الشعر بعد مسيرة تطور طويلة عرف كلا الفنّيْن فيها مرحلة من الترابط والتعضد، إلى أن أصبح الشكل الموسيقي مكتملا بالنهاية في نسيج من الأحاسيس والأفكار. لذلك فإن الذين لم يواكبوا تطور الموسيقى سيكون لهم إحساس شكلي بحت بنفس المقطوعة الموسيقية التي سيفهم المتقدمون كل شيء فيها بطريقة رمزية. ليس هناك من موسيقى عميقة وذات دلالة في ذاتها، ولا هي تخبر عن «إرادة» وعن «أشياء في ذاتها»؛ إنما ذلك هو ما يمكن أن يتوهمه العقل في عصر أخضع مجمل مجال الحياة الداخلية للرمزية الموسيقية. إن العقل نفسه هو الذي *أقحم* هذه الدلالة داخل النغم، مثلما فعل في مجال العلاقات بين الخطوط والأحجام داخل الهندسة المعمارية، حيث أقحم دلالة هناك أيضا، مع أنها في ذاتها أمر غريب كل الغرابة عن قوانين الآلية.

216

الحركات واللغة

أقدم من اللغة محاكاةُ الحركات التي تنشأ بصفة لا إرادية، وما تزال

إلى حد الآن، وقد عرفنا تقلصا واضحا في لغة الحركات وتحكما مكتسبا في العضلات، قوية بما فيه الكفاية حتى أننا لا نستطيع أن ننظر إلى حركات وجه ما دون أن ينشأ إعصاب في الوجه لدينا (يمكننا أن نلاحظ أن تثاؤبا مفتعلا ينجر عنه تثاؤب طبيعي لدى من يراه). فحركة المحاكاة تحيل الذي يحاكيها على الإحساس الذي يعبر عن نفسه في وجه المحاكَى. هكذا كنا نتعلم الفهم؛ وهكذا مازال الطفل يتعلم فهم أمه. وبصفة عامة كانت الأحاسيس المؤلمة تعبر عن نفسها هي أيضا بالحركات التي تثير بدورها الألم (مثل تنف الشعر، لطم الصدر، فتل وتوتير عضلات الوجه على نحو عنيف). وبالمقابل تكون الحركات التي تعبر عن المتعة ممتعة هي نفسها، وتكون بذلك أكثر قدرة على تيسير التفاهم (الضحك كتجسيد لمفعول الدغدغة التي هي ممتعة، هو أيضا وسيلة للتعبير عن أحاسيس ممتعة أخرى). ولمجرد أن غدا الناس قادرين على التفاهم من خلال الحركات، غدت نشأة رمزيةٍ إيمائيةٍ ممكنة: أعني أنه أصبح بالإمكان التفاهم حول لغة علامات صوتية، مع الاعتماد في البداية على الصوت والحركة (التي كانت تُلحَق به كعلامة رمزية)، ثم الاكتفاء بالصوت وحده فيما بعد. يبدو أن الأمر الذي حدث في ذلك الزمن البعيد هو نفسه الذي يحدث اليوم أمام أعيننا وفي أسماعنا في مجال تطور الموسيقى، في الموسيقى الدرامية على وجه الخصوص: فبينما تكون الموسيقى من دون رقص وحركات إيمائية مساعدة (لغة الإيماء) مجرد أصوات مجردة من أي معنى في البداية، فإن الأذن ستتربى مع الزمن وبفضل تعود طويل على اقتران الموسيقى بالحركات على التأويل الفوري للصور الصوتية، وتبلغ بالنهاية درجة من الفهم السريع دون أن تكون لها حاجة إلى الحركات المرئية، وتغدو قادرة على فهم الأثر الموسيقي من دونها. نتكلم عندها عن موسيقى مطلقة، أي عن

موسيقى يتم فهم كل شيء فيها رمزيا وبصفة فورية مباشرة دون حاجة إلى أية مساعدة.

217

الإفقار الحسي للفن الراقي

لقد غدت أذننا بفضل الدربة الذهنية الخارقة للعادة المنجرة عن التطور الفني للموسيقى الجديدة أكثر فأكثر ذهنيّة. لذلك أصبحنا نتحمل اليوم أصواتا أشد قوة، أكثر «صخبا»، لأننا غدونا أكثر دربة من أسلافنا على الإصغاء إلى صوت *العقل* في داخلها. وبالفعل فإن حواسنا كلها، ومن خلال بحثها عن العقل، أي سؤالها عن «ماذا يعني» وليس عن «ما هو»، قد أصبحت متبلّدة إلى حد ما؛ تبلّد يعلن عن نفسه مثلا من خلال الهيمنة الكلية لحدّة الأصوات، إذ أن الأذن التي مازالت تستطيع تمييز الفروق الدقيقة، بين دو رافعة (cis) وسي خافضة (des) مثلا، تعد من الاستثناءات اليوم. ومن هذا المنظور فإن أذننا قد اخشوشنت. ثم غدا قبح العالم وجانبه الذي كان في الأصل جارحا لحواسنا مجالا ضمته الموسيقى إلى حوزتها؛ وهكذا توسعت دائرة سلطتها في مجال التعبير عن الجليل والمرعب وعالم الأسرار الغامضة على نحو مذهل: لقد أصبحت موسيقانا الحالية تمنح نطقا لأشياء لم يكن لها من لسان في ما مضى. وعلى نحو مشابه جعل بعض الرسامين العين أكثر عقلا وذهبوا بعيدا في تجاوز ما كان يسمى من قبلُ متعةَ أشكال وألوان. وهنا أيضا تم غزو المجال الذي كان يعتبر في البداية الجانب القبيح للعالم لينضم إلى دائرة العقل الفني.

ما الذي انجر عن كل هذا؟ كلما أصبحت العين والأذن أكثر قدرة على استيعاب الأفكار، كلما اقتربنا من الحدود التي تتجرد فيها من الحسية: تتحول المتعة إلى العقل، وتصبح الحواس متبلّدة وضعيفة،

ويحل الرمز شيئا فشيئا محل الكائن، - وعلى هذا السبيل نمضي باتجاه الهمجية بالوثوق نفسه الذي يمكن أن يقودنا إليه أي سبيل آخر. ومؤقتا ما زال يمكننا القول: لقد غدا العالم أقبح من أي وقت مضى، لكنه *يدل* على عالم أجمل مما وجد إلى حد الآن. غير أنه كلما ازداد عطر هذه الدلالة تشتتًا وتبخرًا، كلما غدا نادرا عدد أولئك الذين مازالوا يدركونه؛ أما البقية المتبقية فتظل متوقفة بالنهاية عند القبيح محاولة أن تجد متعة فيه، الأمر الذي لن يتحقق لها أبدا بطبيعة الحال. وهكذا يوجد اليوم تياران متوازيان من الموسيقيين في ألمانيا: هنا كوكبة من نحو عشرة آلاف بطموحات أكثر فأكثر سموا ورهافة، مصغية على الدوام بانتباه إلى ما «يعني»، وهناك جمهرة الأغلبية الغفيرة التي تغدو عاما بعد عام أكثر فأكثر عجزا على فهم عنصر الدلالة حتى في شكل القبح الحسي وتتعلم بالتالي أن تبحث في الموسيقى بمتعة متزايدة عن كل ما هو قبيح ومقزز في ذاته، أي ما هو وضيع الحسية.

218

الحجر اكثر حجرا من ذي قبل

لم نعد نفهم الفن المعماري عموما، على الأقل ليس بنوعية فهمنا للموسيقى. نشأنا خارجا عن رمزية الخطوط والأشكال، مثلما فقدنا الصلة بالتأثيرات الصوتية للبلاغة، ولم نرتشف من هذا النوع من حليب الثقافة منذ اللحظات الأولى لحياتنا. في العمارة الإغريقية أو المسيحية كان لكل شيء منذ البداية دلالة، وذلك من منظور نظام سام للأشياء؛ كان ذلك الإيحاء بدلالة لاتنضب يلف العمارة بما يشبه لحافا سحريا. لا يدخل الجمال إلا بصفة ثانوية داخل ذلك النظام دون أن يمس جوهريا بإحساس المروِّع والمتعالي الناجم عن حضور السحري وجوار الآلهة: أقصى ما يفعله الجمال هو أنه كان *يرقق* الفظاعة، -لكن

الفظاعة كانت الشرط الأساسي في كل مكان. -ماذا يمثل جمال العمارة بالنسبة لنا اليوم؟ نفس ما يمثله الوجه الجميل لامرأة بليدة الذهن: شيء شبيه بقناع.

219

الأصل الديني للموسيقى الجديدة

نشأت الموسيقى الروحانية ضمن الإحياء الكاثوليكي الذي عقب مجمع تريانت (trientinum) وعلى يد بالسترينا[٨٠] الذي أسهم في منح الروح المنبعثة توا والمضطربة بحركية حميمية وعميقة بعدها الصوتي، ثم مع باخ من بعدها، وكذلك مع البروتستانتية، عندما تم تعميقها وتخليصها من طابعها الدوغمائي البدئي على يد التقَويّين. كان الاهتمام بالموسيقى الشرط الأساسي والخطوة التمهيدية الضرورية لكلتا النشأتين، مثلما كان الأمر في عصر النهضة وما قبل النهضة، أي ذلك الاعتناء بالعالم بالموسيقى وتلك المتعة العلمية التي يجدها المرء في مقطوعات التناغم والتنسيق الصوتي. ومن ناحية أخرى كان لا بد من سابقة الأوبرا، التي وجد فيها غير الخبير مجالا للتعبير عن احتجاجه على موسيقى غدت باردة وعالمة أكثر من اللزوم محاولا أن يبعث الروح مجددا في بوليمنيا.[٨١] لولا ذلك التعديل الديني العميق، ولولا ذلك الصدى الناجم عن روح تهزها انفعالات عميقة لظلت الموسيقى عالمة أو ذات طابع أوبراتي؛ إن روح حركة الإصلاح المضاد هو روح الموسيقى الحديثة (ذلك أن تلك التقَويّة في موسيقى باخ هي أيضا ضرب من الإصلاح المضاد). لكم نحن مدينون عميق الديْن إلى الحياة الدينية! -كانت الموسيقى *نهضة مضادة* في مجال الفن، وإلى هذه النهضة المضادة تنتمي رسوم المرحلة المتأخرة لموريّو[٨٢]، وربما ينتمي إليها الباروك أيضا، أكثر على أية حال من

النمط المعماري للنهضة أو العصور القديمة. واليوم أيضا يحق لنا أن نتساءل: لو كانت موسيقانا الجديدة قادرة على تحريك الحجارة، فهل سيكون لها أن تجمّعها في معمار عتيق؟ إنني أشك كثيرا في ذلك.[٨٣] ذلك أن ما يسود داخل هذه الموسيقى؛ الانفعال، المتعة المنشودة في السمو، أجواء التوتر الأقصى، الرغبة في الحيوية بأي ثمن، التواتر السريع للأحاسيس المختلفة، مؤثرات النتوء القوية للنور والظلال، مجاورة حالات الانخطاف والسذاجة،[٨٤] -كل ذلك قد كانت له سيادة ذات يوم داخل الفنون التشكيلية وقد أبدع قوانينه الأسلوبية: لكن ذلك لم يكن لا في العصور العتيقة، ولا في عصر النهضة.

220

الماوراء في الفن

ليس دون عميق ألم نعترف لأنفسنا بأن الفنانين من كل العصور، وفي غمرة الاندفاع الأقصى لطموحاتهم قد رفعوا تصوراتهم إلى مستوى الإشراقات السماوية التي ندرك اليوم أنها خاطئة: لقد كانوا الممجدين الكبار للأخطاء الدينية والفلسفية للإنسانية، وما كان لهم أن يكونوا كذلك لولا الإيمان بالحقيقة المطلقة لتلك التصورات. لكن مع تراجع الإيمان عموما بمثل هذه الحقيقة تبهت الألوان القزحية حول الحدود القصوى للمعرفة الإنسانية وأوهامها؛ وبالتالي لن يكتب لهذا النوع من الفن أن يزهر ثانية، هذا النوع الذي، على غرار الكوميديا الإلهية ولوحات رفائيل وجداريات ميشيل أنجلو والكاتدرائيات الغوطية، يشترط وجوده، لا دلالة كوسموغونية فقط، بل ميتافيزيقية أيضا. وستولد لنا بالنهاية حكاية شعبية مؤثرة تروي أن فنا كهذا، وإيمانَ فنانين من هذا النوع قد وجدا ذات يوم.

ذلك الإكراه الذي كان مؤلفو الشعر الدرامي الفرنسي يلزمون أنفسهم به فيما يتصل بوحدة البناء الدرامي ووحدة الزمان والمكان، وبالأسلوب وتركيب الجملة والبيت الشعري، وانتقاء العبارات والأفكار، كان ذلك مدرسة تعادل في أهميتها مدرسة الطباق والتتابع في تطور الموسيقى الحديثة أو صور المَجازات الغورغيانية[٨٥] (*Gorgias*) في الفصاحة اليونانية. قد يبدو هذا النوع من التقيّد عبثيا، غير أنه ليس هناك من وسيلة أخرى للتخلص من الطبيعانية غير تقييد النفس بالطريقة الأكثر صرامة (ربما الأشد تعسفا). هكذا يتعلم المرء تدريجيا المشي برشاقة فوق الدروب الضيقة التي تشكل جسور عبور فوق مهاوٍ سحيقة ليعود بغنيمة المرونة القصوى في الحركة، كما يثبت ذلك تاريخ الموسيقى لكل المعاصرين. يمكننا أن نرى هنا كيف تشرع القيود في الارتخاء شيئا فشيئا، كي *تبدو* بالنهاية، ظاهرا كما لو أنه قد تم التخلص منها كليا: هذا *الظاهر* هو النتيجة القصوى للتطور الضروري في الفن. لكن الشعر الحديث لم يشهد مثل هذا التخلص التدريجي الموفّق من القيود التي فرضها الشعراء على أنفسهم. لقد جعل ليسينغ من الشكل الفرنسي، أي الشكل الفني الحديث الوحيد، موضوعا للهزء في ألمانيا محيلا على شكسبير كنموذج، الأمر الذي تسبب في إحداث انقطاع في ذلك التدرج في مسار التحرر مستعيضا عن ذلك المسار المتصل بقفزة داخل المنحى الطبيعاني؛ أي قفزة إلى الخلف نحو الطور البدائي للفن. ظل غوته يحاول الانعتاق من هذا المنحى الطبيعاني مجددا محاولات إيجاد ضروب جديدة متنوعة من الإلزام لنفسه، غير أن أكبر الموهوبين يظل متوقفا في جهده على التجريب المتواصل لا غير عندما يكون رابط التطور قد انقطع. ويعود الفضل في سلامة الشكل لدى

شيللر إلى الإكبار غير الإرادي الذي كان يكنه لنموذج التراجيديا الفرنسية حتى وهو ينكره، وإلى موقفه المستقل من ليسينغ (وكان يرفض محاولاته الدرامية كما يعرف الجميع). لكن الفرنسيين أنفسهم قد غدوا بعد فولتير مفتقرين إلى المواهب الكبيرة التي كان بإمكانها أن تقود تطور التراجيديا من إكراه اللزوميات إلى ذلك الظاهر من الحرية؛ فقد قاموا من بعدها هم أيضا، سيرا على النموذج الألماني، بقفزة داخل نوع من الطور الطبيعاني الروسوي في الفن، وشرعوا في التجريب. وعلى المرء أن يقرأ بين الفينة والأخرى كتاب «محمد» لفولتير كي يتراءى لوعيه بوضوح مدى ما تكبدته الثقافة الأوروبية من خسارة لا تعوض من خلال الانقطاع الذي طرأ على مسار التقليد. لقد كان فولتير آخر الكتاب الدراميين الكبار الذي أخضع لإلزامات المعيار اليوناني روحه ذات التشكلات المتنوعة، والتي كانت مهيأة لأكبر العواصف التراجيدية، -وكان قادرا على ما لايقدر عليه أي ألماني، لأن طبيعة الفرنسي أكثر قرابة مع الروح اليونانية من روح الألماني-، كما كان آخر الكتاب العظماء، الذي كانت له في معالجة النثر الخطابي أذن يونانية وتفاني فنان يوناني، وبساطةٌ وملاحةٌ يونانيتان، أي كواحد من الناس الأخيرين القادرين على المآخاة بين حرية قصوى للعقل وطبع غير ثوري بكل بساطة، دون أن يمس ذلك في شيء من تناغمهم مع أنفسهم، ودون أن يكونوا جبناء. من بعده غدا العقل الحديث بما يحمله من قلق ومن حقد على المعايير والحدود سيدا في كل المجالات، منفلت الجموح عن طريق حمّى الثورة في البداية، ثم ساحبا العنان من بعدها، عندما يتملكه الخوف والرعب من نفسه، -لكن عنان المنطق وليس عنان المعيار الفني. وفي الحقيقة نجد من خلال هذا التحرر فرصة للتمتع لمدة من الزمن بأشعار كل الشعوب وبكل ما ينمو في المناطق الخفية من نبت طبيعي وزهور بريّة وجمال

عجيب ومتنافرات هائلة، صعودا من الأغنية الشعبية حتى «المتوحش الكبير» شكسبير، نلتذ بمتعة الألوان المحلية ولباس تلك العصور مما ظل إلى حد اللحظة غريبا عن الشعوب الفنانة؛ نغرف بسخاء من «فوائد التوحّش» لعصرنا، تلك التي احتج بها غوته ضد شيللر ملتمسا من وراء ذلك أعذارا مشرّفة لاهتزاز البنية في «فاوست»[٨٦]. لكن كم سيستمر هذا الأمر؟[٨٧] فتدفق السيل العارم للأشعار من كل أسلوب ومن كل الشعوب سيجرف معه حتما وبصفة تدريجية التربة التي كان من الممكن أن يحدُث فوقها نمو هادئ وخفي؛ سيكون على كل الشعراء أن يتحولوا إلى مقلدين مجرِّبين ونسّاخين مغامرين، مهما كانت طاقتهم كبيرة في البداية. ثم إن الجمهور الذي سيكون قد نسي في الأثناء كيف يرى جوهر الفعل الفني في *التحكم* في الطاقة التعبيرية وفي المعالجة المنظمة لكل الوسائل الفنية، سيجد نفسه مدفوعا أكثر فأكثر إلى تبجيل القوة من أجل القوة، واللون من أجل اللون، والفكرة من أجل الفكرة، بل والإلهام من أجل الإلهام، وسيصبح بموجب ذلك غير قادر البتة على تذوق عناصر العمل الفني، عدا أن تكون *متفرّقة*، كي ينتهي أخيرا بالمطالبة بصفة طبيعية بأن يقوم الفنان بتقديمها له منفصلة عن بعضها البعض. أجل، لقد ألقينا بالقيود «اللامعقولة» للفن الفرنسي واليوناني، غير أننا قد تعودنا في غفلة من وعينا على اعتبار كل القيود وكل الشروط غير معقولة؛ وهكذا يمضي الفن باتجاه التفكك والاضمحلال ملامسا في مضيه ذاك -وهذا في الحقيقة شيء مفيد للغاية- كل مراحل بدايته، وطور طفولته وعدم نضجه، والمراحل السابقة للحظات جرأته وانفلاتاته: إنه يقوم، وهو ماض إلى حتفه، بتأويل كامل لنشأته وصيرورته. لقد قال لورد بايرون[٨٨] ذات مرة، وهو واحد من العظماء يمكننا أن نثق في حدسه الغريزي كما في نظريته التي لا تنقصها سوى ثلاثين سنة إضافية من التجربة: «كلما

تفكّرت أكثر في الشعر عموما إلا ووجدت قناعتي تزداد وثوقا بأننا نسير جميعنا، وبقطع النظر عن هذا وذاك، على الطريق الخاطئة. إننا نتبع نظاما ثوريا خاطئا في جوهره، وسيصل جيلنا هذا، أو الجيل اللاحق حتما إلى نفس القناعة.» إنه بايرون نفسه الذي قال: «أعتبر شكسبير أفسد نموذج، وإن كان الشاعر الأكثر تميّزا.»[89] ألا تعبّر الرؤية الفنية الناضجة لغوته في النصف الثاني من حياته عن الأمر نفسه في الحقيقة؟ تلك الرؤية التي جعلته يحقق قفزة فوق عدد من الأجيال، مما يجعلنا نستطيع أن نجزم بأنه لم يُحدِث بعد شيئا من الأثر الذي ينبغي أن يحدثه، وأن زمنه لم يحلّ بعد؟ وبالضبط، لأن طبيعته قد شدته لفترة طويلة من الزمن داخل فلك الثورة الشعرية، ولأنه استطاع أن يتذوق من كل ما تم اكتشافه من رؤى ووسائل جديدة بصفة غير مباشرة من خلال تلك القطيعة التي حدثت على مسار التقليد، وكذلك ما عثر عليه من خلال الحفريات في خرائب الفن، فإن تحوّله ومسيرته اللاحقة قد اكتسبت ذلك الوزن الثقيل: وهو ما يعني أنه قد غدا يشعر عميقا بضرورة الربط مجددا مع التقليد الفني، وبأن يعاد إلى ما ظل قائما بين الأنقاض من أعمدة ذلك المعبد مهابتُها واكتمال صورتها القديمة عن طريق الخيال البصري على الأقل، إذا ما اتضح أن الساعد أضعف من أن يستطيع البناء هناك، حيث تطلّب الهدم نفسه قوى جبارة. هكذا كان غوته يعيش في الفن كما لو كان يعيش داخل ذاكرة الفن الحقيقي؛ وقد تحول عمله الشعري إلى وسيلة للتذكر، ولفهم عصور فنية قديمة غدت في عداد الغابرين منذ أمد طويل. كانت متطلباته غير قابلة للتحقق نظرا لمحدودية طاقات العصر الحديث، غير أن الألم الذي يسببه ذلك يجد له تعويضا ثمينا في الغبطة التي كان يجدها في معرفة أن ذلك *قد كُتب له أن يتحقق* في وقت من الماضي، وأنه ما يزال بإمكاننا أن نجد نصيبنا من متعة ذلك التحقق السابق. ما

من أشخاص، بل شيء قريب من أقنعة نماذج مثلى؛ ما من واقع، بل عمومية مجازية: نماذج طبائع عصر بعينه، ألوان محلية متبخّرة حدّ الامتناع عن النظر تقريبا والتحول إلى هيئات أسطورية؛ الإحساس المعاصر ومشاكل المجتمع المعاصر مختزلة في أشكالها الأكثر بساطة، مجردة من خاصياتها الساحرة والمشوّقة والمرضية ومن كل قدرة على التأثير، عدا التأثير بالمعنى الفني؛ ما من مواد وطبائع جديدة، بل تلك القديمة والمعتادة منذ زمن طويل، مشحونة باستمرار بروح متجددة وإعادة تشكل دائمة: ذاك هو الفن كما فهمه غوته فيما بعد، وكما *كان يمارسه* اليونانيون، والفرنسيون أيضا.

222

ما يبقى من الفن

صحيح أن الفن يكتسي أهمية أكبر من منظور مسلمات ميتافيزيقية بعينها، كأن يتم التسليم بالاعتقاد بأن الطبع ثابت، وأن جوهر العالم يظل يعبر عن نفسه في كل الطباع والأفعال بصفة متواصلة: عندها يتحول عمل الفنان إلى صورة عن *الثبات الخالد*، في حين لا يمنح الفنان عمله في نظرنا إلا صلوحية مرتبطة بزمن بعينه، لأن الإنسان في مجمله كائن صيرورة خاضع للتحول، والإنسان الفرد نفسه أبعد ما يكون عن الكائن الثابت والممتنع عن التحوّل. والأمر نفسه ينطبق على مسلمة ميتافيزيقية أخرى: إذا ما افترضنا أن عالمنا المرئي ليس سوى شيء ظاهري، كما يسلم بذلك الميتافيزيقيون، فسيكون موقع الفن أقرب من العالم الواقعي، لأنه ستكون هناك عناصر شبَه كثيرة بين العالم الظاهري والعالم المحلوم الذي يجسده الفنان، أما ما تبقى من عناصر الاختلاف فهو الذي سيرفع من دلالة الفن إلى مستوى أرقى من دلالة الطبيعة، بما أن الفن يجسد الشكل الثابت والنماذج والأمثلة

النمطية للطبيعة. لكنّ هذه المسلمات خاطئة: إذ ما الذي سيتبقى لنا من الفن اليوم وفقا لهذا المنظور؟ فالفن ظل على مدى آلاف السنين يعلمنا في المقام الأول أن ننظر باهتمام ومتعة إلى الحياة في كل تشكلاتها وأن ندفع بإحساسنا بعيدا، إلى أن نجد أنفسنا نهتف: «كيفما كانت الحياة، فهي شيء حسن!»[٩٠] هذا التعليم الذي يكرز به الفن، أن نجد متعة في الوجود، وأن ننظر إلى الحياة الإنسانية كجزء من الطبيعة، دون نزوعات جامحة، وكموضوع تطور منظّم؛ هذا التعليم قد ترسخ ونما في داخلنا، وها هو يتجلّى اليوم فينا حاجةً قوية ملحة إلى المعرفة. بإمكاننا أن نتخلى عن الفن، لكننا لن نتخلى عن تلك المقدرة التي اكتسبناها منه؛ تماما كما أمكن للإنسان أن يتخلى عن الدين، دون أن يتخلى عن حالات الانفعال الروحي والسمو التي اكتسبها من خلاله. وكما أن الفنون التشكيلية والموسيقى تمثل مقياسا لما تم تحصيله واكتسابه من ثراء في الأحاسيس عن طريق الدين، فإن ما غرسه الفن فينا من كثافة وتنوع في متعة الإقبال على الحياة ستظل حتى بعد انقراضه تفعل فعلها الممتع فينا. إن الإنسان العالم حلقة متقدمة من تطور الإنسان الفنان.

223

غروب الفن

وكما يتذكر الإنسان في سن الشيخوخة سنوات الشباب ويحتفل بالذكريات، كذلك ستجد الإنسانية نفسها عما قريب في علاقة مفعمة بالحنين إلى أفراح الشباب مع الفن. ولعله لم يحدث من قبل أبدا أن تم فهم الفن بمثل هذا العمق وهذا التشبع الروحي مثلما يحدث الآن وسحر موت الفن يبدو حائما فوقه. يذكرنا هذا بتلك المدينة الإغريقية من جنوب إيطاليا التي كانت تقيم في يوم من السنة احتفالات يونانية

في غمرة البكاء والتفجع بسبب مشهد الهمجية الأجنبية الزاحفة يوما بعد يوم على تقاليدها الأصلية؛ أبدا لم يحدث أن احتفى الناس بالثقافة الهيلّينية بمثل تلك المتعة، ولا ارتشف الناس بمثل ذلك الشغف والشهوانية من رحيقها الذهبي في أي مكان آخر مثلما كان يحدث بين أولئك الهلينيّين الماضين إلى الانقراض. عما قريب سنجد أنفسنا ننظر إلى الفنان نظرتنا إلى رواسب رائعة من الماضي ونغمره، مثل كائن غريب بديع يشهد جمالُه وقوتُه بروعة أزمنة سعيدة، بآيات الإعجاب والإكبار مما لا نمنح عادة وبسهولة لأشباهنا ومعاصرينا. لعل أفضل ما فينا يعود إلى موروث أحاسيس من أزمنة ماضية قد غدا شبه متعذر علينا بلوغها اليوم من طرق مباشرة؛ لقد غابت الشمس، إلا أن سماء حياتنا ما تزال ملتهبة ومشعة بلهبها، حتى ونحن لم نعد نراها.

الفصل الخامس

سمات الحضارة الراقية والحضارة الدنيا

224

الانحلال ولقاح النبالة

يعلمنا التاريخ أن العشيرة التي تحافظ على نفسها بصفة أفضل في شعب ما هي تلك التي يكون لأغلب الناس فيها إحساس موحَّد حادّ متأتّ عن ارتباطهم بقوانين أساسية معهودة لديهم وغير قابلة للجدال؛ أي عن معتقد مشترك. هناك تتمتّن التقاليد الصالحة والفاضلة، وهناك يتعلم الناس خضوع الفرد وتكتسب شخصيته ثباتها في الارتباط الوثيق بما يقدم له كموروث في البداية، ثم تدعمه التربية فيما بعد. إلا أن الخطر الذي يتهدد مثل هذه المجموعات المتينة المكونة من أفراد متطابقين في الطبع والشخصية هو التبلّد الذي ينشأ ويتنامى داخلها بالوراثة، والذي يكون ملاصقا لكل استقرار مثل ظله. إن الأفراد الذين لا يشدهم ارتباط، والأقل وثوقا، والأكثر ضعفا على المستوى المعنوي هم الذين سيرتبط بهم كل تقدم ذهني داخل مثل هذه المجموعات المتناغمة: إنهم أولئك الذين سيسعون وراء تجربة كل جديد، وما هو متنوع خاصة. هناك عدد غير قليل من هذا النوع يهلك بسبب من ضعفه دون أن يخلف أثرا يذكر، لكنهم عموما، وخاصة عندما تكون لهم ذرية، يخلخلون الارتباط ويحدثون بين الحين والحين

شروخا داخل عناصر التماسك في المجموعة. ومن خلال تلك الشروخ بالضبط، وتلك المواقع المتصدعة يتم حقن شيء جديد في جسد الكيان؛ وسيكون ذلك الجسد على درجة من القوة التي ستسمح له بأن يتشرب ذلك الجديد في دمه ويدمجه في كيانه. إن للعناصر المنحلّة أهميتها الكبرى في كل مكان ينبغي أن يحصل فيه تقدم. وكل تقدم في العموم لا بد أن يكون مسبوقا بضعف جزئي. فالكيانات القوية *تحفظ ثبات النوع*، والضعيفة تساعد على *تطويره*. إن شيئا مشابها يحدث لدى الأفراد أيضا: قلما كان هناك تفكك، أو بتر، أو حتى عاهة أو أية إعاقة جسدية أو معنوية دون أن تقابل ذلك ميزة مفيدة في موضع آخر. فقد تكون للرجل المريض مثلا في مجتمع محارب ومضطرب فرصة في أن يختلي بنفسه، ومن ثمة يغدو أكثر هدوء وحكمة، والأعور يكتسب نظرا حادا في عينه السليمة، والأعمى يصبح أكثر تبصرا في المسائل الباطنية، وأحسن سمعا على أية حال. ومن هذا المنطلق لا يبدو لي «الصراع من أجل الوجود» المنظور الوحيد الذي يفسر من خلاله تطور أو تنامي قوة فرد أو جنس بشري. ينبغي أن يكون هناك بالأحرى تضافر عاملين مختلفين: تراكم لقوة الاستقرار والثبات عن طريق ارتباط معنوي داخل العقيدة والإحساس المشترك من ناحية، ثم وجود إمكانية لبلوغ غايات سامية من خلال تواجد طبائع منحلّة، ومن ثمة حصول مواقع ضعف وتصدعات جزئية على قوة الثبات من ناحية ثانية، فالطبيعة الضعيفة بالذات، لكونها الأكثر رهافة وتحررا، هي التي تجعل كل تطور ممكنا. إن شعبا يطرأ عليه ضعف أو كسور في هذا الموضع أو ذاك، لكنه يظل متينا ومعافى في مجمله، بإمكانه أن يتقبل لقاح العنصر الغريب ويتبناه لمنفعته. أما فيما يتعلق بالفرد فتكون مهمة التربية هي التالية: أن يوثق رباطه في وضع من الثبات والاستقرار بحيث يغدو من غير الممكن تحويله عن

مساره. لكن سيكون على المربي بناء على ذلك أن يحدث فيه جروحا، أو أن يستغل الجروح التي تحدثها فيه أقدار الحياة، وعندما تحدث الآلام وتنشأ الحاجة يغدو بإمكانه أن يزرع فيه من خلال تلك المواقع المحززة بالجراح لقاح مادة غريبة ونبيلة. وسيتقبل مجمل كيانه ذلك اللقاح ويضمه إليه، كي تظهر مادته النبيلة من بعد في ثماره. أما في ما يتعلق بالدولة فإن مكيافيلّي يقول إن «شكل الحكم لا ينطوي على أهمية ذات بال، وإن كان أنصاف المثقفين على غير هذا الرأي. إن الغاية الكبرى لفن الإدارة السياسية ينبغي أن تكون *الديمومة* باعتبارها أكبر قيمة بكثير من الحرية». إنما في ظل ديمومة متأسسة على قاعدة ثابتة ومتينة فقط يكون التطور المتصل ولقاح النبالة أمرا ممكنا. وفي الحقيقة، غالبا ما تقف السلطة، الرفيقة الخطيرة لكل ديمومة، موقف المقاوم لهذا الأمر.

225

المفكر الحر مفهوم نسبي

يطلق لقب المفكر الحر على من يفكر بطريقة مغايرة لما يُنتظر منه وفقا للأصل الذي ينحدر منه ولمحيطه وموقعه الاجتماعي ووظيفته، أو بسبب تمايزه عن الرؤية السائدة في عصره. إنه الاستثناء، بينما تمثل العقول المقيّدة القاعدة؛ وهؤلاء يعيبون على المفكر الحر كون مبادئ حريته متأتية من الرغبة في جلب الانتباه، أو حتى كونها تسمح بإتيان أفعال متحررة، أي تلك التي تتنافى وإلزامات الأخلاق السائدة. وأحيانا يقال إن هذا المبدأ أو ذاك من مبادئ حريته مرده ضرب من الخلل والتهيّج الذي يطرأ على العقل؛ غير أن هذا حديث الخبث، والخبث وحده، ذلك الخبث الذي لا يؤمن هو نفسه بما يقول، لكنه يسعى من وراء ذلك إلى الإساءة؛ ذلك أن علامات الذكاء الحاد للعقل

الحر وجديته عادة ما تكون مرتسمة على محيّاه، واضحة جلية بحيث لا يمكن للعقول المقيّدة أن لا تدركها جيدا. أما فيما يتعلق بالانحرافيْن الآخرين للعقول الحرة (المذكوريْن أعلاه-المترجم) فإن المعابة متأتية عن نية صادقة، لأن عددا من العقول الحرة ينشأ في الواقع عن هذا النوع أو ذاك من كلا الانحرافين. ومع ذلك قد يكون ذلك هو ما يجعل المبادئ المتوصل إليها من هذين الطريقين (الانحرافين) أكثر صحة ومصداقية من مبادئ العقول المقيّدة. فالمهم في معرفة الحقيقة هو حيازتها وليس الدافع إلى البحث عنها أو الطريق التي تمّت منها حيازتها. وإذا كان أصحاب العقول الحرة على حق، فإن أصحاب العقول المقيدة يكونون على غير حق، بقطع النظر عما إذا كان الأولون قد توصلوا إلى الحقيقة من طريق اللاأخلاقية بينما ظل الآخرون مشدودين إلى الخطأ بدافع من الأخلاق. ثم إنه ليس من شأن الطبيعة الجوهرية للمفكر الحر أن يكون صاحب الرأي الأصح، بل أن يكون قد تحرر من سلطة الموروث، سواء كان النجاح حليفه في ذلك أو مني بالفشل. لكن مع ذلك، غالبا ما تكون الحقيقة، أو روح البحث عن الحقيقة على الأقل، إلى جانبه: إنه يطلب براهين بينما يطلب الآخرون إيمانا.

226

أصل الإيمان

لا يأخذ العقل المقيّد موقفا بموجب سبب ما، بل بموجب العادة؛ يكون مسيحيا مثلا، لا لأنه كوّن لنفسه نظرة عن كل الديانات وأصبح له مجال للاختيار بينها؛ وهو بريطاني، لا لأنه اختار لنفسه أن يكون بريطانيا، بل إنه وجد المسيحية والجنسية البريطانية قائمتين فقبل بهما دون سبب محدد، مثل شخص ولد في بلاد كروم فصار شارب خمر.

ثم إنه ربما يكون قد أفلح فيما بعد، وهو ثابت في مسيحيته وبريطانيته، في إيجاد بعض الحجج التي تؤيد تعوّده ذاك؛ من بعدها يمكننا أن نتوفق في دحض حججه هذه، ومع ذلك لن نزحزحه قيد أنملة عن مجمل موقفه. لنطالب ذا عقل مقيَّد بالإدلاء بحججه ضد تعدد الزوجات مثلا، وعندها سيتضح لنا إن كان تحمّسه المقدس للزواج الأحدي قائما على حجج أم على مجرد تعوّد. التعود على مبادئ فكرية دون حجج، ذلك هو ما يدعى إيمانا.

227

النتيجة كمبرر لما يقوم على حجة وما لا يقوم على حجة

كل الدول والتنظيمات الاجتماعية: الطبقات، والزواج، والتربية، والقانون تستمد جميعها قوتها وديمومتها من إيمان العقول المقيّدة بها؛ أي من غياب الحجج، أو على الأقل من استبعاد الأسئلة التي تتعلق بالحجج. ذلك ما لا يريد أصحاب العقول المقيدة الاعتراف به، وهم يشعرون جيدا بأن ذلك أمرا مخجِلا (*pudendum*). والمسيحية التي كانت على غاية من البراءة في آرائها لم تكن تلاحظ شيئا من هذا الأمر المخجل وكانت تطلب إيمانا ولا شيء غير الإيمان، وترفض بشدة كل مطالبة بحجج محيلة دوما على النتائج الإيجابية للإيمان: ستشعرون بفائدة الإيمان حتما، هكذا كانت تشير دوما، وستكون لكم منه سعادة وطمأنينة. والدولة تتصرف في الحقيقة بنفس الطريقة، وبالطريقة نفسها يربي كل أب إبنه: خذ هذا كحقيقة مسلّمة وسترى كم هو مفيد. غير أن هذا يعني أن رأيا ما يستمد طابع الحقيقة فيه من *الفائدة* الشخصية التي تنجر عنه، وأن نفعيّة مذهب تكون ضمانا ليقينه ولمتانة مستنده العقلي. إن الأمر هنا أشبه بحالة المتهم الذي يصرّح أمام المحكمة: إن محاميّ يقول الحقيقة كل الحقيقة؛ لتنظروا فقط ما الذي سينتج عن

مرافعته: ستحكم المحكمة ببراءتي. ولأن صاحب العقل المقيّد يتبع منفعته في تبني مبادئه الأساسية، فإنه يفترض أن المفكر الحر أيضا يبحث عن منفعته من وراء آرائه، وأنه لا يَعتبر حقيقةً سوى ما يعود عليه بالفائدة. لكن، بما أنّ ما يبدو لهم نافعا للمفكر الحر هو بالضبط النقيض لما هو نافع لأقرانه أو أبناء وطنه، فإن هؤلاء سيفترضون أن مبادئه تلك خطيرة عليهم؛ وسيقولون إذن، أو يشعرون: لا ينبغي أن يكون على حق، إذ في ذلك ضرر لنا.

228

الطبع المتين الجيّد

إن عبودية الآراء المتحولة غريزةً بحكم العادة، تقود إلى ما يسمى بقوة الطبع. فعندما يتصرف أحد ما من منطلق عدد محدود من الدوافع، لكن من منطلق الدوافع نفسها دوما، فإن أعماله تكتسب طاقة كبيرة؛ وإذا ما توافقت أعماله مع المبادئ الأساسية للعقول المقيَّدة، فإنها ستحظى بالاعتراف بها وتحدث في نفس الذي يقوم بها إحساسا براحة الضمير. إن عددا محدودا من الدوافع، مع عمل نشط وراحة ضمير هي التي تكوّن ما يسمى قوة طبع. فقويّ الطبع ينقصه تنوّع إمكانيات واتجاهات العمل؛ ذهنه مقيّد لا يعرف الحرية، لأنه لا يطرح عليه في وضع محدّد ما سوى إمكانيتين في أقصى الأحوال؛ سيكون عليه إذن أن يختار حتما بين هاتين الإمكانيتين وفقا لطبيعته، وسيفعل ذلك بسرعة وسهولة، لأنه لن يكون عليه أن يختار بين خمسين إمكانية. يسعى المحيط المربي إلى جعل كل إنسان مقيّدا، وذلك بأن لا يطرح عليه إلا أقل ما يمكن من الإمكانيات. يعامَل الفرد من طرف مربّيه كما لو أنه شيء جديد في الحقيقة، لكنه ينبغي أن يتحول إلى *مثال مكرّر*. ولئن بدا الإنسان في البداية في هيأة شيء جديد لم يسبق له مثيل، فإنه

سيكون عليه إذن أن يتحول إلى شيء معهود وموجود من قبل. وعندما ينضم الطفل إلى صف العقول المقيّدة يعلن بذلك عن يقظة الحس الجماعي فيه، ومن منطلق هذا الحس الجماعي سيصبح لاحقا رجلا صالحا لدولته أو طبقته.

229

معيار الأشياء لدى أصحاب العقول المقيّدة

أربعة أنواع من الأشياء يعتبرها أصحاب العقول المقيّدة مبرّرة. أولا: كل الأشياء الدائمة هي أشياء مبررة. ثانيا: كل الأشياء التي لا تزعجنا هي أشياء مبررة. ثالثا: كل الأشياء التي تجلب لنا منفعة هي أشياء مبررة. رابعا: كل الأشياء التي ضحينا من أجلها هي أشياء مبررة. والمقولة الأخيرة تفسر لنا لِمَ تتحول حرب يُشرع فيها ضد إرادة الشعب إلى حرب يخوضها الناس بحماس بمجرد أن تقع فيها ضحايا.

ينبغي على المفكرين الأحرار الذين ينافحون عن قضيتهم أمام محفل العقول المقيّدة أن يبرهنوا أولا على أنه كان هناك على الدوام مفكرون أحرار، بما يعني أن حرية العقل شيء ذو ديمومة، ثم أنهم لا يريدون أن يكونوا مزعجين، وأخيرا أنهم يعودون بالمنفعة على أصحاب العقول المقيّدة عموما؛ لكن، وبما أنهم لن يستطيعوا إقناع أصحاب العقول المقيّدة بهذه النقطة الأخيرة، فإنه لن تكون هناك إذن من فائدة في أن يكونوا قد أقاموا البرهان على صحة النقطتين الأولى والثانية.

230

العقل القويّ

مقارنة بذلك الذي يجد سندا له في التقاليد ولا يحتاج لمبررات لعمله

يكون المفكر الحر ضعيفا دائما، في العمل على وجه الخصوص؛ ذلك أنه يعرف العديد من الدوافع ووجهات النظر المتنوعة، ما يجعل يده قليلة الخبرة وغير واثقة. فهل هناك من وسيلة إذن لجعله يغدو *قويا نسبيا*، كي يفرض وجوده على الأقل ولا يهلك دون أن يترك أثرا؟ كيف ينشأ العقل القوي؟ تلك هي المسألة التي تتعلق بكيفية تكوين العبقرية بالنسبة للحالات المنفردة. من أين تأتي الطاقة والقوة التي لا تنثني والقدرة على المثابرة التي يستطيع الفرد بواسطتها أن يواجه التقليد ويسعى إلى تحصيل معرفة بالعالم تكون معرفة شخصية صرفا بالعالم؟

231

نشاة العبقرية

يمكن لمثال البراعة التي يضعها السجين في محاولات الفرار واستغلال أبسط العوامل المساعدة ببرودة وصبر فائقين أن يساعدنا على فهم نوعية الطريقة التي تتوخاها الطبيعة أحيانا لتكوين عبقرية- مع رجائي أن تفهم هذه العبارة مجردة من كل نكهة أسطورية ودينية- : تبدأ بحبسه داخل زنزانة، ثم تشحذ فيه جذوة الرغبة القصوى في التحرر. مثال آخر عن المسألة نفسها: يضل شخص ما طريقه كليا أثناء جولة داخل غابة، لكنه يجدّ بطاقة غريبة في السير باتجاه مخرج ما، وإذا به يكتشف دربا جديدا لا يعرفه أحد غيره: هكذا تولد العبقريات التي يحلو للناس الاحتفاء بأصالتها. لقد ذكرنا سابقا كيف أن إعاقة ما أو عاهة جسدية أو أي خلل يطرأ على عضو غالبا ما يفسح المجال لعضو آخر كي يتطور بشكل غير معهود، لأنه سيكون عليه أن يؤدي مهمة جديدة إلى جانب مهمته الأصلية. انطلاقا من هذه المعاينة يمكننا أن نفهم سر بعض المواهب اللامعة. ومن منطلق هذه الإشارة العمومية

بخصوص نشأة العبقرية يمكننا أن نطبق المبدأ نفسه على الحالة الخاصة لنشأة العقل الحر المكتمل.

232

تخمينات حول أصل حرية العقل

وكما تتكاثر المجاري الجليدية عندما تقذف الشمس بلهيب أكثر حرارة فوق بحار المناطق الاستوائية، كذلك يمكن لحرية عقل عاتية ومتنامية الانتشار أن تكون أمارة على أن لهب الابتكار يتأجج متزايدا على نحو غير معهود في مكان ما.

233

صوت التاريخ

يبدو أن التاريخ في مجمله يفيدنا في ما يتعلق بنشأة العبقرية بما يلي: عنّفي الناس وعذّبيهم، يهتف صوت التاريخ في أهواء الحسد والكراهية والغيرة، وادفعي بهم بعيدا الواحد ضد الآخر، والشعبَ ضد الشعب وذلك على مدى قرون عديدة، فلربما ينبثق نور العبقرية ملتهبا حينئذ كما لو أن شرارة منفلتة من مجمل الطاقة المشتعلة قد أُضرم فتيلُه فجأة؛ وبما يشبه جوادا غدا متوحّشا تحت نخسات مهماز الفارس تنفجر الإرادة إذن وتقفز إلى مجال آخر.

إن من ينتهي إلى إدراك الطريقة التي تنشأ بها العبقرية، ويريد أن يطبق عمليا ما تعلّمه من طرائق اشتغال الطبيعة عموما، سيكون عليه أن يكون هو أيضا شريرا وقاسيا مثل الطبيعة. -لكن، لعلنا أخطأنا السمع.

اهمية منتصف الطريق

ربما يكون تكوين العبقريات من نصيب حقبة زمنية محددة من حياة الإنسانية دون غيرها. وبالتالي لا يحق لنا أن ننتظر حصول شيء كانت ظروف محددة من زمن ماض بعينه هي وحدها المؤهلة لإنتاجه؛ أن لا ننتظر مثلا حصول ذلك التأثير المذهل للأحاسيس الدينية. فقد كان لهذا الأمر وقته، وهناك الكثير من الأشياء الجيدة التي لن تحدث ثانية، لأنه لم يكن لها أن تنشأ إلا من صلبه. وبالتالي فإنه لن يوجد بعد الآن مجال حياتي وثقافي سيكون محدّدا بأفق الدين. ولعل نموذج القديس نفسه لم يكن ممكنا إلا بسبب كوابح بعينها تعيق الذهن، الأمر الذي يبدو أنه لن يتكرر في المستقبل مطلقا. وبالتالي، ربما كانت ذروة الذكاء من نصيب حقبة زمنية واحدة من حياة الإنسانية: لقد ظهرت إلى الوجود- ومازال ظهورها مستمرا، لأننا مازلنا نحيا داخل هذه الحقبة الزمنية-، كطاقة إرادة خارقة تمت مراكمتها على مدى طويل من الزمن ونذرت نفسها بصفة استثنائية، وبفعل الوراثة، لغايات *عقلية*. سيكون زمن هذه الذروة قد ولّى عندما يتوقف إذكاء تلك الوحشية وتلك الطاقة. ولعل الإنسانية ستكون، وهي في منتصف طريقها، وفي المنتصف من زمن وجودها، قد أضحت أقرب من غايتها الجوهرية مما ستكون عليه عند نهايته. قد تضمحل في الأثناء طاقات يغتذي منها الفن مثلا وتمثل شروطا لوجوده: قد تبهُت متعة الكذب والمتعة التي يجدها المرء في الغامض وفي الرمزي وفي النشوة والوجد، وتغدو مزدراةً. وإذا حصل أن غدت الحياة منظمة على وجه كامل فلن يظل في الحاضر ما يمنح نفسه مثيرا يدفع إلى الشعر، وسيظل المتخلفون عن الركب وحدهم يتوقون إلى التخييل الشعري. وسيلتفت هؤلاء عندها بإحساس من الحنين إلى الماضي،

إلى زمن الدولة المنقوصة والمجتمع شبه الهمجي: إلى زمننا.

235

العبقرية والدولة المثالية في تناقض

يطمح الاشتراكيون إلى تحقيق حياة رفاه لأكبر عدد ممكن من الناس. وإذا ما كتب للوطن الدائم لهذا الرفاه، أي الدولة المثالية، أن يتحقق فعلا، فإنه سيتم عبر هذا الرفاه تدمير الأرضية التي ينمو فوقها العقل العظيم، والفرد القوي عموما: أعني بذلك الطاقة العالية. وستغدو الإنسانية، إذا ما تحقق وجود هذه الدولة، على قدر من الوهن يجعلها غير قادرة على إنجاب العبقرية. ألا ينبغي علينا إذن أن نتمنى أن تظل الحياة محافظة على طابعها العنيف، وأن تظل القوى والطاقات الوحشية مدعوة على الدوام إلى الظهور؟[٩١] غير أن القلب الرحيم الشفوق يريد تحييد ذلك الطابع العنيف والوحشي، وأكثر القلوب حرارة مما يمكن أن نتصور هو الذي سيطمح إلى ذلك بأكثر حماس؛ بينما حماسه بالذات يستمد ناره وحرارته، بل ووجوده ذاته من ذلك الطابع الوحشي والعنيف للحياة. القلب الأكثر حرارة يريد إذن إزالة الأساس الذي ينهض عليه، والقضاء على نفسه، وذلك يعني إذن: إنه يريد شيئا غير منطقي، أي إنه ليس ذكيا. فالذكاء الأرقى والقلب الأكثر طيبة لا يمكنهما أن يتعايشا داخل شخص واحد، والحكيم الذي يصدر حكمه على الحياة يضع نفسه فوق الطيبة ولا يعتبرها سوى شيء يجب طرحه جانبا من الحساب الجملي للحياة. ينبغي على الحكيم أن يتصدى لهذه الأماني الخليعة للطيبة الغبية، لأن الأمر يتعلق ببقاء نوعه وبغاية ميلاد العقل الأرقى، وفي أقل الأحوال لا ينبغي عليه أن يدعم تأسيس «الدولة المثالية»، لأنها ستكون موطنا للمتعَبين دون غيرهم. على العكس من ذلك كان المسيح، الذي سنعتبره هنا القلب الأكثر

طيبة، يشجع على نشر الغباء لدى الناس، ويقف مناصرا للفقراء بالروح ويكبح إنتاج العقل الأرقى؛ وكان ذلك أمرا منطقيا. فالنمط النقيض لشخصه، أي الحكيم مكتمل الحكمة سيكون بالضرورة -كما يحق لنا أن نتنبأ بهذا الأمر- عائقا دون ظهور مسيح. -إن الدولة تنظيم بارع لحماية الأشخاص من بعضهم البعض؛ عندما نبالغ في تشذيبها وتهذيبها ينتج عن ذلك إضعاف للفرد، بل انحلاله،- وهكذا تكون الغاية الأصلية من الدولة قد أحبطت على نحو جذري.

236

مناطق الحضارة[٩٢]

يمكننا القول بلغة الاستعارة أن العصور الحضارية تتطابق مع المناطق المناخية المختلفة، عدا أن هذه العصور ترد الواحدة تلو الأخرى وليست متحاذية كما هو الشأن بالنسبة للمناطق الجغرافية. مقارنة بالمنطقة الحضارية المعتدلة، هذه التي تتمثل مهمتنا الآن في عبورها، تمنح المنطقة السابقة في مجملها انطباعا بمناخ *مداري*. نقائض عنيفة، تواتر مباغت لليل والنهار، حرارة وزخم ألوان، احتفاء بكل فجائي وغامض وفظيع، سرعة انفجار الزوابع، وفيض مبذر من خيرات الطبيعة المتدفقة في كل مكان؛ يقابل ذلك في حضارتنا سماء صافية، غير مشعة مع ذلك، هواء نقي في حالة قريبة من الاستقرار، برودة، بل صقيع في بعض الأحيان: هكذا تقف المنطقتان في تناقض الواحدة مع الأخرى. وعندما نرى كيف يتم هناك إخضاع الانفعالات الأكثر تأججا وتحطيم شوكتها بعنف شديد عن طريق التصورات الميتافيزيقية، يحدث لدينا إحساس كما لو أننا نشاهد نمورا وحشية في المناطق المدارية تُخنق أمام أعيننا بين ثنايا أفاع فظيعة تلتوي عليها وتسحقها. يفتقر مناخنا الذهني إلى مثل هذه الوقائع، وخيالنا قد طرأ عليه

الاعتدال، ونحن لا نرى حتى في أحلامنا ما كانت شعوب سابقة ترى في اليقظة. لكن ألا يحق لنا أن نكون سعداء بهذا التبدّل، حتى ونحن نعترف بأن الفنانين قد خسروا الكثير باضمحلال تلك الحضارة المدارية، وأنهم يرون فينا، نحن الذين لسنا فنانين، أناسا على قدر قد يكون مشطا من الفتور، ومن هذا المنظور فإن للفنانين الحق في رفض «التقدم»، ذلك أنه بالفعل، لا يمكننا إلا أن نقف موقف شك في مسألة ما إذا كانت الألفيات الثلاث الأخيرة قد شهدت تقدما في مسيرة الفنون. كما أن فيلسوفا ميتافيزيقيا، مثل شوبنهاور، لن يمكنه أن يجد أي دافع للاعتراف بالتقدم، إذا ما عاين الألفيات الأربع الأخيرة من وجهة نظر الفلسفة الميتافيزيقية والدين. -أما نحن فنعتبر وجود المنطقة الحضارية المعتدلة في حد ذاته تقدما.

237

النهضة والإصلاح

كانت النهضة الإيطالية تحمل في طياتها كل أنواع العنف الإيجابي التي ندين لها بظهور الحضارة الحديثة: تحرر الفكر، احتقار السلط، انتصار الثقافة على غرور الاعتزاز بالأصل، الولع بالعلم وبالتاريخ العلمي للإنسانية، انعتاق الفرد، اضطرام نار الحقيقة ونفور من المظهر والهيأة الخادعة (توقّد ستلتهب شعلته داخل حشد من نماذج شخصيات فنية تطرح على نفسها، وبنقاوة أخلاقية راقية، الحرص على بلوغ الكمال ولا شيء غير الكمال في أعمالها). أجل، كانت النهضة منطوية على طاقات إيجابية لم تستطع داخل حضارتنا الحديثة، *وإلى حد الآن*، أن تستعيد ما كان لها من تلك القوة. كان ذلك هو العصر الذهبي لهذه الألفية بالرغم من كل الشوائب والعيوب. ضد هذه الحركة سينهض الإصلاح الألماني حركةً مناهضةً قوية تقودها عقول

متخلفة عن الركب لم تملّ بعد من الرؤيا القروسطية للعالم، ولم تكن علامات انحلال ذلك العصر وتسطّح الحياة الدينية على نحو خارق وانكفائها على الأشكال الظاهرية لتدخل عليها مشاعر الغبطة كما هو مفترض، بل تقبلتها بعميق الأسى. وبكل ما لدى هؤلاء من قوةٍ وعنادِ الشعوب الشمالية انبروا يعودون بالناس إلى الوراء ويفرضون بعنفِ المقاتلِ تحت الحصار إصلاحهم المضاد؛ أي مسيحية كاثوليكية دفاعية، ليؤخروا الصحوة الكلية للعلوم وسيادة نفوذها لقرنين أو ثلاثة قرون، جاعلين بذلك إمكانية تمازج وتفاعل العقل القديم مع العقل الحديث في كل موحَّد أمرا شبه مستحيل، وإلى الأبد. لم تستطع المهمة العظمى للنهضة أن تبلغ غايتها النهائية إذن، فقد حال دون ذلك الموقف المناهض الذي وقفه العنصر الألماني الذي ظل متأخرا عن الركب (العنصر الذي كان على قدر كاف من الحكمة خلال العصر الوسيط كي يظل يعبر جبال الألب مرارا وتكرارا من أجل خلاصه). كان لمصادفات مضاعفات سياسية استثنائية أن لعبت دورا في أن يستمر لوثر وأن تكتسب تلك الحركة المناهضة قوتها: فقد كان القيصر يمنحه حمايته من أجل استعماله أداة للضغط على البابا، وفي الوقت نفسه كان البابا يمنحه مساندة ضمنية بغاية استعمال أمراء البروتستانتية قوة مضادة لسلطة القيصر. ولولا هذا التفاعل الغريب لتلك النوايا المختلفة لكان مصير لوثر المحرقة على غرار هوس،[٩٣] ولكان لفجر الأنوار أن يطلع مبكرا وربما بإشعاع أكثر رونقا مما يمكننا أن نتصور الآن.

238

إنصاف في حق مفهوم «الله كصيرورة»

عندما يطرح تاريخ الحضارة نفسه للعين في هيأة شبكة متداخلة من التصورات الشريرة والنبيلة والحقيقية والخاطئة ويصاب المرء من جراء

مشهد هذا التلاطم الصاخب بحالة من الدُّوار، عندها ندرك أي عزاء يكمن داخل تصور *إلهٍ صائر*: ينكشف هذا الأمر بصفة مستمرة عبر تحولات ومصائر الإنسانية؛ كلا، ليست الأشياء كلها مجرد آلية عمياء وفوضى حركة غير ذات غاية لمختلف القوى. إن تأليه ما هو صيرورة زاويةُ نظر ميتافيزيقية -وهي أشبه بالنظر في عرض بحر التاريخ من فوق منارة- كان جيل من العلماء التاريخانيين يجدون عزاء لهم فيها؛ ولا يحق لنا أن نواجه هذه المسألة بالاستياء، أيا كان خطأ هذا التصور. وحده من ينفي التطور، مثل شوبنهاور، ولا يحس بشيء من بؤس ذلك التلاطم الصاخب لحركة التاريخ، سيحق له إذن، لأنه لا يعلم شيئا ولا يحس شيئا عن هذا الله الصيرورة وعن الحاجة إلى افتراضه، أن يطلق العنان لهزئه وسخريته من ذلك.

239

لكل فصل ثماره

كل مستقبل أفضل نتمناه للإنسانية هو أيضا من جهة ما مستقبل أسوأ بالضرورة، ذلك أنه من السذاجة أن نعتقد أن مستوى جديدا أرقى من حياة الإنسانية بإمكانه أن يجمع في داخله كل ميزات المستويات السابقة، وأن يكون عليه مثلا أن ينتج الشكل الأرقى للفن أيضا. بل إن لكل فصل سحره وميزاته الخاصة التي تقصي ميزات وسحر سابقيه. وما نشأ في وقت ما عن الدين وما جاوره لن يستطيع أن ينشأ ثانية عندما يكون هذا الأخير قد دُمّر، وفي أقصى الحالات يمكن لبعض الفسيلات المتأخرة التائهة أن تَستدرج إلى الوهم في هذا الشأن، تماما مثل ذكرى الفن العتيق التي تبرز بين الحين والآخر: حالة تنبئ حقا عن إحساس بالفقد والخسارة، لكنها ليست حجة على الطاقة التي يمكن أن ينشأ عنها فن جديد.

240

جدية متزايدة تطبع العالم

كلما تنامت ثقافة شخص ما إلا وتضاعفت المجالات التي تخرج عن دائرة الهزء والسخرية. كان فولتير ممتنا من أعماق قلبه للسماء لابتداع الزواج والكنيسة، لأنها منحتنا بذلك فرصة للمزاح والتسلية. غير أن فولتير وعصره، ومن قبلهما القرن السادس عشر قد استوفوا كل إمكانيات السخرية حول هذا الموضوع؛ وهكذا فإن كل ما سيرد على لسان شخص من عصرنا الحاضر من نوادر ونكات سيكون متأخرا عن وقته، بل بضاعة رخيصة أكثر مما ينبغي كي ما تستطيع أن تستهوي المقتنين. الآن يسأل الناس عن الأسباب؛ إنه عصر الجدية. من تُراه سيبدي اليوم اهتماما بالنظر تحت أضواء السخرية إلى مسائل الفرق بين الواقع والمظهر المتبرج، بين ما هو المرء في الحقيقة وما يود أن يظهر عليه؟ فالإحساس بهذه التناقضات سيكون له مفعول مغاير تماما عندما يتجه اهتمام المرء إلى البحث عن الأسباب. وكلما مضى المرء أعمق في فهمه للحياة، كلما تناقصت سخريته، عدا أن ينتهي ربما إلى السخرية من «عمق فهمه».

241

عبقري الحضارة

لو أراد امرؤ أن يتخيل صورة لعبقري الحضارة، فعلى أية هيأة سيكون يا ترى؟ إنه شخص يعالج بكل وثوق أدوات الكذب والعنف والأنانية الأكثر صفاقة ببراعة المتملك من أدواته، مما سيجعلنا لا نجد له من إسم سوى كائن شيطاني شرير؛ غير أن أهدافه التي تومض بين الحين والحين عظيمة وحسنة. إنه سنتور (Centaure)، نصف حيوان ونصف إنسان، وله علاوة على ذلك جناحا ملاك فوق رأسه.

تربية معجزية

لن يكتسب الاهتمامُ بالتربية قوة كبرى إلا عندما يكف الإنسان عن الاعتقاد في الله وفي عنايته؛ تماما مثل صناعة الطب التي لم تستطع أن تزدهر إلا عندما انتهى الاعتقاد في الشفاء عن طريق المعجزات. غير أنه وإلى الآن مازال الناس يؤمنون بالتربية المعجزية: لقد شهد العالم نشأة أقوى الرجال أغزرهم نتاجا من داخل أوضاع تمتاز بأشد أنواع الفوضى وغموض الغايات والظروف المحبِطة: كيف أمكن لهذا الأمر أن يحدث ووفقا لأي منطق؟

والآن، سنشرع عما قريب في النظر عن كثب في هذه الحالات أيضا وفي تفحصها بعناية؛ ولن تكون هناك من معجزة سنعثر عليها من خلال هذا الفحص. في ظل نفس الشروط يكون هناك دوما عدد غير قليل من الناس يلقى حتفه، والفرد الوحيد الذي ينجو هو ذلك الذي كان عليه أن يغدو أكثر قوة من أجل ذلك، لأنه استطاع أن يتحمل تلك الظروف الصعبة بفضل قوة فطرية فيه غير قابلة للكسر، وقد دأب على استعمال تلك القوة ومضاعفتها: هكذا تجد المعجزة تفسيرا لها.

إن تربية لم تعد تؤمن بأية معجزة سيكون عليها أن تنتبه إلى ثلاث مسائل: أولا، كم هو مقدار الطاقة الموروثة؟ ثانيا: أية طريقة تمكننا من إيقاد طاقات جديدة؟ كيف يمكن للفرد أن ينسجم مع المتطلبات الكثيرة جدا للحضارة دون أن يتسبب ذلك في إزعاجه وفي تفتيت فرديته، وباختصار، كيف يمكن للفرد أن يتموضع داخل الطباق القائم بين الثقافة الفردية والثقافة العمومية، وكيف يمكنه أن يقود اللحن وأن يرافقه في الآن نفسه كلحن؟

مستقبل الطبيب

ليس هناك اليوم مهنة منفتحة على قدر كبير من التطور مثل مهنة الطبيب، خاصة بعد أن كف الأطباء الروحانيون، أو شفاة الأرواح المزعومون عن ممارسة فنون شعوذتهم بموافقة ومساندة العموم، وأصبح كل إنسان مثقف عازفا عن صناعتهم. لا يكون الطبيب قد بلغ اليوم ذروة تكوينه الذهني عندما يكون عارفا بأفضل المناهج الطبية الحديثة ومتمرسا في معالجتها ومتمكنا من الربط السريع بين النتائج والعلل فحسب، وهي الميزات التي تحدد شهرة كل مشخِّص، بل سيكون عليه إضافة إلى ذلك أن يكون حائزا على قدر من الفصاحة التي تستطيع التلاؤم مع كل شخص والنفاذ إلى خبايا قلبه، وعلى فحولة يبدد مرآها كل خجل (السوسة التي تقضم كيان كل مريض)، ورشاقة دبلوماسية تمكن من التواصل بين أولئك الذين يحتاجون إلى مرح ضروري لمعافاتهم وأولئك الذين عليهم (وبمستطاعهم)، لأسباب صحية أن يمنحوا المرح، وعلى رهافة حس الشرطي أو المحامي من أجل النفاذ إلى أسرار النفس وفهمها دون إفشائها. وباختصار، يتعين على طبيب جيد أن يكون اليوم حائزا على أساليب وامتيازات كل الفئات المهنية الأخرى. مسلحا على هذا النحو، سيكون بإمكانه أن يغدو محسنا لمجمل المجتمع من خلال مضاعفة الأعمال الحسنة والغبطة الذهنية والخصوبة العقلية، ومن خلال الوقاية من كل الأفكار الخبيثة والنوايا السيئة والدناءات (التي يمثل ما تحت البطن غالبا مصدرها المقرف)، ومن خلال تأسيس أرستقراطية جسدية-روحية (كعاقدِ زيجات ومانعٍ للزيجات)، ومن خلال استئصال حميد لكل منغصات الروح ومشاعر تأنيب الضمير المزعومة: عندها فقط يتحول «رجل الطب» إلى منقذ ولن يكون بحاجة إذن إلى إتيان معجزات، ولا

حاجة له أيضا في أن يدع نفسه يوضع على الصليب.

244

بجوار الجنون

إن مجمل الأحاسيس والمعارف والتجارب، وبالتالي مجمل حمل الثقافة قد تضاعف بكيفية أصبح معها التهيج المفرط للأعصاب ولطاقات التفكير الخطرَ العام الذي جعل الطبقات المثقفة في البلدان الأوروبية تعاني معاناة كلية من العصاب، وكل واحدة من عائلاتهم الكبيرة تقريبا تعيش من خلال أحد أعضائها حالة قريبة من الجنون. صحيح أننا نسعى اليوم بكل الطرق إلى الحفاظ على الصحة، إلا أننا، وفي المسألة الأهم ما زلنا في حاجة ماسة للحد من هذا التهيّج في الأحاسيس وهذا الحمل الثقافي المرهق، وهو أمر سيمنحنا مجالا لأكبر أمل في حدوث *نهضة* جديدة، حتى إذا ما كلفنا خسائر باهضة. إننا مدينون للدين وللفلاسفة والشعراء والموسيقيين بفائض من الأحاسيس المتهيجة، وكي لا ندعها تفترسنا علينا أن نستدعي روح العلم التي تجعل المرء عموما أكثر برودة وريبة وتفلح خاصة في تبريد السيل المتقد للإيمان بالحقائق النهائية الأخيرة؛ ذلك السيل الذي أصبح عن طريق المسيحية على هذا القدر من الهيجان.

245

مسبك الحضارة الخشن

تشكلت الحضارة مثل ناقوس مسبوك داخل قالب من مادة خشنة رخيصة: الباطل والعنف والتمطط اللامتناهي لكل أنا فردية ولكل الفرديات الأثنية كانت ذلك القالب الذي سكبت فيه الحضارة. هل حان الوقت الآن للتخلص من ذلك القالب؟ هل تصلبت المادة

السائلة، وهل غدت الغرائز الحسنة والنافعة وعادات الطبائع النبيلة ثابتة ومشتركة بين الجميع بحيث لم تعد هناك من حاجة للاتكاء على الميتافيزيقا وعلى التصورات الدينية الخاطئة وانتفت الحاجة إلى كل أشكال القسوة والعنف كأقوى روابط بين فرد وفرد، وشعب وشعب؟

للإجابة على هذه الأسئلة لن تكون هناك من إشارة ربانية تهب إلى مساعدتنا بعد الآن؛ رؤيتنا الخاصة وحدها هي التي ينبغي عليها أن تقرر هنا. وسيكون على الإنسان وحده أن يأخذ بيده زمام إدارة الشؤون الدنيوية للإنسان، و«علمه المحيط» هو الذي سيكون عليه أن يسهر على مراقبة مصير الحضارة بعين متيقّظة.

246

جبابرة الحضارة

من يرى هذا الحوض المحزز بالتصدعات والذي استقرت فيه المجاري الجليدية لن يخطر له البتة على بال أنه سيأتي وقت تمتد فيه، وفي هذا الموقع نفسه حقول معشوشبة وسهول تغمرها غابات بجداول وبحيرات. هكذا تجري الأمور في تاريخ المجتمعات الإنسانية أيضا؛ تنطلق القوى الأكثر وحشية مدمّرة في البداية، لكن عملها ذاك يكون ضروريا مع ذلك، لكي تتمكن بعدها كيانات حضارية أكثر لينا من أن تتخذ لها موطنا هناك. تلك الطاقات الفظيعة -تلك التي تسمى شرًّا- إنما هم جبابرةُ المصمّمين الأوائل وطلائع الإنسانية.

247

دورة الطور الإنساني

ربما تكون الإنسانية بأكملها مجرد طور محدود وجيز في تاريخ تطور فصيلة حيوانية بعينها؛ وبذلك يكون الإنسان منحدرا من القرد وعائدا

مستقبلا إلى القرد، دون أن يكون هناك من أحد سيكون له اهتمام ما بالنهاية العجيبة لهذه الكوميديا. وكما حدث مع انحطاط الحضارة الرومانية، والسبب الرئيسي في ذلك هو انتشار المسيحية، من أن قبحا عاما طرأ على الإنسان وساد كامل الإمبراطورية، فإنه من الممكن أيضا أن تدهورا مستقبليا محتملا للحضارة الأرضية سينجر عنه قدر أكبر من القبح المتصاعد لدى الإنسان، تتبعه في الآخر صيرورة حيْونة تنتهي به إلى منزلة القرد. لكن، بما أننا نملك القدرة على استشراف مثل هذه الإمكانية، ربما نكون قادرين على تفادي مثل هذه النهاية المستقبلية.

248

كلمة سلوان بشان تقدم ميئوس

يعطي عصرنا الحاضر الانطباع بحالة انتقالية؛ فالتصورات القديمة والثقافات القديمة ما تزال في جزء منها حاضرة، والجديدة لم تصبح ثابتة بعد ولم تتحول إلى عادة، وذلك ما يجعلها تفتقر إلى الوحدة والتساوُق. يبدو الأمر كما لو أن الفوضى قد عمت كل شيء؛ القديم قد ضاع والجديد يفتقر إلى القدرة وما ينفك يزداد ضعفا. غير أنّ ذلك هو بالضبط ما يحدث للجندي وهو يتعلم الخطوة العسكرية؛ يغدو لمدة طويلة أكثر ترددا وأكثر رعونة من أي وقت مضى، لأن عضلاته تشتغل بحسب النظام القديم مرة، وبحسب الجديد مرة أخرى دون أن يكون لأحدهما أن يدّعي الانتصار لنفسه. إننا نتأرجح، لكن علينا أن لا نقع في الخوف بسبب ذلك ونتراجع عن المكتسب الجديد. علما وأننا، علاوة على ذلك، **لا نستطيع** العودة إلى القديم، فقد أحرقنا سفننا ولم يبق لنا سوى أن نكون شجعانا أيا كان ما سيحصل بعد ذلك. لنمض إذن قدما، ولنتحرك من موقعنا! فلربما سيكون في يوم ما لخطوتنا أن تبدو بهيأة *التقدم*؛ وإن لم يحصل ذلك، فلتوجّه لنا

تلك العبارة التي قالها فريدريش الأكبر ذات مرة -ولكن على سبيل السلوان هذه المرة-: *Ah, mon cher Sulzer, vous ne connaissez pas assez cette race maudite, à laquelle nous appartenons.* (آه يا عزيزي سولتزر،[٩٤] إنك لا تعرف كفايةً هذا الجنس اللعين الذي ننتمي إليه)[٩٥].

249

تاريخ الحضارة معاشا كمعاناة

من تكوّنت لديه فكرة واضحة عن مسألة الحضارة سيجد نفسه يعاني من إحساس شبيه بذلك الذي يكون لدى شخص قد ورث ثروة محصّلة بطرق غير شرعية، أو مثل الأمير الذي يحكم بفضل العمل العنيف لأسلافه. يفكر بحزن في أصله ويشعر غالبا بالخجل، وغالبا ما يكون سريع الانفعال. وكل ما يمتلك من قوة وإرادة حياة وفرح موظفة لصيانة ممتلكه غالبا ما تنقلب لديه إلى إحساس بإعياء عميق: إنه لا يستطيع أن ينسى أصله. ينظر إلى المستقبل بعين كئيبة، وهو يدرك مسبقا أن ذريته ستتعذب هي أيضا بذلك الماضي كما يتعذب هو الآن.

250

آداب السلوك

تشهد آداب السلوك سيرورة انقراض موازية لتقلص نفوذ البلاط وسيادة أرستقراطيةٍ منغلقة على نفسها؛ وهو تراجع بإمكان المرء أن يلاحظه بصفة جلية من عشرية إلى أخرى إذا ما كانت له عين منتبهة للسلوكات العمومية التي ما فتئت تزداد سوقيّة يوما بعد يوم. لا أحد ما زال يعرف كيف يُكبر أو يمدح بطريقة ذكية راقية، من هنا تتأتى تلك الظاهرة

المضحكة المتمثلة في أن الناس كلما وجد أحدهم نفسه في مقام يستدعي منه أن يعبر عن إكبار أو احترام (لرجل دولة أو لفنان كبير على سبيل المثال)، إلا واستعار لذلك لغة المشاعر العميقة والاستقامة الوفية والساذجة، وذلك لحرج ونقص في الأناقة الذهنية وفي اللياقة. هكذا غدت اللقاءات العمومية والاحتفالية تبدو أكثر فأكثر رعونة، لكنها أكثر عاطفية وإخلاصا، دون أن تكون كذلك في الحقيقة.

لكن، هل ستظل آداب السلوك ماضية حتما نحو التقهقر؟ أجل، بل يبدو لي أنها تتبع خطا منحدِرا، وأنها تقترب الآن من قاع المنحدَر. وعندما يغدو المجتمع واثقا من أغراضه ومبادئه، بما يجعل هذه الأخيرة قادرة على أن تفعل فعل المثال التربوي (بينما الآداب المكتسبة من أوضاع تربوية قديمة تبدو اليوم أقل فأقل قابلية للانتقال وراثةً وتعلمًا)، عندها تظهر آداب سلوك، ومعاملات، وتعبيرات ستبدو طبيعية وضرورية بالقدر الذي تكون عليه تلك الأغراض والمبادئ من طبيعية وضرورة. فالتقسيم الأفضل للوقت والعمل، والنشاط الرياضي المرافق لكل أوقات الفراغ الممتعة، والتفكير الذي سيزداد كمًّا ودقة، والذي سيجعل حتى الجسد أكثر ذكاء ورشاقة، هي التي ستفرز تلك الآداب وكل تلك المعاملات.

ههنا سيحق لنا أن نفكر بشيء من السخرية في علمائنا؛ في ما إذا سيكون بوسعهم، هم الذين يريدون أن يكونوا طلائع هذه الحضارة الجديدة، أن يتميزوا فعلا بآداب سلوك أفضل؟ كلا، إن الأمر بكل تأكيد على غير هذا النحو، بالرغم مما يمكن أن يكون لعقلهم من نوايا حسنة؛ لكن لحمهم ضعيف.[٩٦] فالماضي ما يزال له سلطان مكين على عضلاتهم: ما زالوا يقفون في منزلة المقيّد، نصف الواحد منهم قسّيس دنيوي، ونصفه الثاني مربٍّ تابع لنبلاء وطبقاتٍ أرستقراطية، وهم علاوة على ذلك كائنات قد جعل منها تحذلق العلم والمناهج

الغبيّة التي عفا عليها الزمن كُسحانا ومحنّطين. وهم لم يكفوا بالتالي، من جهة الجسد على الأقل، وغالبا من جهة ثلاثة أرباع عقولهم أيضا، عن كونهم من حاشية حضارة قديمة، بل هرمة، الأمر الذي يجعلهم بهيأة العجائز الهرمين هم أنفسهم، ولا تفعل الروح الجديدة التي تضطرب أحيانا داخل هذه البناية العتيقة سوى أنها تجعلهم أكثر ارتباكا وأكثر خوفا. في داخلهم تحوم على الدوام أشباح الماضي وأشباح المستقبل معا؛ أيّ غرابة إذن إن كانوا لا يبدون على أشرقِ وجه، ولا على أحبّ هيأة؟

251

مستقبل العلم

يمنح العلم متعة كبيرة لمن يعمل ويبحث في مجاله، ولا يمنح سوى النزر القليل لمن يتعلم نتائجه. لكن، وبما أن كل الحقائق العلمية محكوم عليها بأن تصبح عادية ومتداولة، فإن حتى هذا القدر القليل من المتعة يرى نفسه يضمحل، تماما كما أصبحنا منذ زمن لا نجد متعة في جدول الضرب الذي كان يدهشنا من قبل. والآن، وقد غدا العلم يقدم لنا أقل مسرة من خلال نفسه ويحرمنا أكثر فأكثر من المسرة من خلال ما يغذيه من الريبة المتزايدة تجاه عزاء الميتافيزيقا والدين والفن، فإن منبع المتعة يغدو أكثر شحا يوما بعد يوم، تلك المتعة التي يدين لها الإنسان بمجمل إنسانيته تقريبا. لذلك يتوجب على حضارة راقية أن تمنح الإنسان دماغا مزدوجا، أو ما يشبه خانتين مخيّتين، واحدة لتقبّل العلم، والأخرى لغير العلم: أن تتواجد هاتان الخانتان الواحدة جنب الأخرى، منفصلتين ومغلقتين ودون خلط وتشويش، ذلك هو ما تقتضيه السلامة الصحية. فسيكون هناك مجال لمنبع الطاقة، ومجال ثان يوجد فيه المعدِّل: تكون الأوهام والتعصب

والأهواء عناصر لإثارة التهييج، وتساعد المعرفة العلمية على تفادي النتائج الوخيمة للتهيّج المفرط.

وإذا لم يُكتب لهذا المطلب الضروري للحضارة الراقية أن يتحقق فإنه سيكون بوسعنا إذن أن نتنبأ بما يقارب اليقين بمصير التطور المستقبلي للإنسانية: سيمضي الاهتمام بالحقيقة تدريجيا نحو الاضمحلال، بقدر ما تتناقص المتعة التي يجدها الإنسان في ذلك، وسيسترجع الوهم والخطأ والتخييل شبرا شبرا تلك المناطق التي كانت تعتبرها في الماضي مجال نفوذها، لأنها ستظل مرتبطة بإغراءات المتعة؛ ويكون انهيار العلم والانحدار مجددا إلى الطور الهمجي هي الخطوة اللاحقة. وسيكون على الإنسانية أن تبدأ من جديد في نسج نسيجها بعدما تكون قد نقضته ليلا على غرارما كانت تفعل بينيلوبي[٩٧]. لكن، من يضمن لنا أنها ستظل تجد في نفسها القوة للقيام بذلك؟

252

لذة المعرفة

ما الذي يجعل نشاط المعرفة، عنصر اهتمام الباحث والفيلسوف، مرتبطة بالمتعة؟ أولا وقبل كل شيء، لأن الإنسان يكتسب من خلاله إدراكا لطاقاته، أي من منطلق الأسباب نفسها التي تجعل التمارين الرياضية ممتعة حتى وهي تتم بمنأى عن أعين المشاهدين. ثانيا، لأن الإنسان يتمكن خلال ممارسة العملية المعرفية من تجاوز مفاهيم قديمة وممثلي تلك المفاهيم ويصبح بالتالي منتصرا، أو هكذا يعتقد على الأقل. ثالثا، لأن الواحد منا ومع اكتساب معرفة جديدة مهما كانت صغيرة، يشعر بأنه قد غدا متفوقا على *الجميع* والوحيد الذي يمتلك المعرفة الصحيحة في هذا الشأن. هذه هي أهم الأسباب التي

تنشأ عنها تلك المتعة، لكن هناك أسباب أخرى ثانوية مرتبطة بطبيعة كل ساع إلى المعرفة. هناك مثلا قائمة لا يستهان بها من مثل هذه الأسباب يمكن للمرء أن يعثر عليها حيث لا ينتظر أن يجدها، في مؤلفي الوعظي عن شوبنهاور:[٩٨] عرض يستطيع كل متمرّس في خدمة العلم أن يجد فيه ما يشبع حاجته، حتى وإن سيكون بودّه لو أنه يمحو ما يخالطه من مسحة ساخرة تبدو منتشرة على كامل صفحاته. ذلك أنه إذا ما صح أن «كمًّا من الغرائز الإنسانية والغرائز الصغيرة لابد أن تنصهر معا من أجل أن ينشأ عالم»[٩٩]، وأن العالم من معدن نبيل بالتأكيد، لكنه غير نقي، وأنه «يتكوّن من نسيج متداخل من شتى الدوافع والمثيرات»[١٠٠]، فإن الأمر نفسه ينطبق أيضا على تكوين وطبيعة الفنان والفيلسوف والعبقري الأخلاقي، وكل تلك الأسماء الأخرى التي تم تمجيدها في ذلك الكتاب. كل ما هو إنساني يستحق من جهة *نشأته* أن يكون محل معاينة ساخرة: لذلك نجد فائضا من السخرية في هذا العالم.[١٠١]

253

الوفاء دليل على المتانة

إنه لمؤشر هام على صحة نظرية ما أن يظل مبتكرها لأربعين سنة لا يساوره فيها الشك. غير أنني أجزم بأنه لم يوجد بعد فيلسوف واحد لم ينته في يوم ما إلى النظر بشيء من الازدراء-أو على الأقل بعين الريبة- إلى فلسفة ابتكرتها سنوات شبابه. لكنه ربما لم يجاهر بهذا التغير الحاصل في وجهة نظره بدافع من المكابرة، أو -وكما هو متوقع لدى الأنفس النبيلة عامة- بدافع الرفق بأتباعه.

254

تزايد الأشياء المهمة

بقدر ما يرتفع مستوى الثقافة لدى الإنسان يصبح كل شيء مهما في نظره، فيغدو قادرا على العثور بسرعة على الجانب المفيد للأشياء والتقاط العنصر الذي يمكّنه من أن يسد ثغرة في تفكيره أو أن يدعم فكرة ما. هكذا يختفي الضجر شيئا فشيئا، وكذلك يتقلص التهيج المفرط للأحاسيس، ويغدو بالنهاية متنقلا بين الناس تنقّل باحث في العلوم الطبيعية بين النباتات، ولا ينظر حتى إلى نفسه إلا كظاهرة لا تثير فيه سوى غريزته المعرفية.

255

الاعتقاد الخرافي المتعلق بالتزامن

هناك اعتقاد سائد بأن كل ما يرد متزامنا يمت لبعضه بصلة. يموت أحد أقاربنا في مكان بعيد، وفي ذلك الوقت نحلم به،-إذن! لكن هناك عددا كبيرا من أقربائنا الذين يموتون ولا نحلم بهم. كذلك هو الشأن بالنسبة لركاب سفينة نذروا نذورا ، ثم غرقت السفينة، ومن بعدها لا يجد الناس في المعبد نذورا وضعها الذين هلكوا.

شخص يموت، بومة تنعق، وساعة تتوقف، كل ذلك في ساعة محددة من الليل: ألا ينبغي أن توجد صلة بين هذه الأحداث؟ إن مثل هذه العلاقة الحميمة مع الطبيعة، كما يتصورها هذا الحدس تدخل شعورا بالارتياح على الإنسان. يظهر هذا النوع من الاعتقاد الخرافي في شكل أكثر تهذيبا لدى عدد من المؤرخين ودارسي الحضارات، أولئك الذين يبدون نفورا خاصا من كل ظاهرة تجاوُرٍ مجانيّ من تلك التي تعج بها مع ذلك حياة الأفراد والشعوب.

256

نمارس مقدرةً لا علمًا من خلال العلم

إن القيمة التي تكتسيها تمضية فترة من الزمن في ممارسة *علم* دقيق لا تكمن في نتائج ذلك النشاط، لأن هذه الأخيرة لن تكون سوى قطرة ضئيلة ضائعة داخل محيط المحصّلات العلمية القيّمة. لكن المرء يكسب نموا في الطاقة وفي القدرات الاستنتاجية وقدرة على الجهد المستديم؛ يكون المرء قد تعلم السير نحو *الغاية بوسائل مناسبة* لتلك الغاية. ومن هذا المنظور فإنه من الأهمية بمكان أن يكون الإنسان قد مارس نشاطا علميا في يوم ما، وذلك بالنسبة لأي نوع من العمل الذي سيمارسه فيما بعد.

257

سحر العلوم في طور شبابها

ما زال البحث عن الحقيقة إلى حد الآن محتفظا بسحره الذي يستمده من تمايزه بقوة وفي كل موضع عن الخطأ الذي غدا هرِما ومملا. غير أن هذا السحر يتضاءل يوما بعد يوم. صحيح أننا مازلنا نعيش مرحلة شباب العلوم منشغلين بملاحقة الحقيقة ركْضَنا وراء فتاة جميلة؛ لكن ما الذي سيحدث عندما تصبح تلك الفتاة في يوم ما عجوزا بنظرات متجهمة؟ إن اكتشاف المفاهيم الأساسية في كل العلوم تقريبا ما يزال حديث العهد، أو هو قيد البحث؛ ترى كيف سيكون سحر العلوم وهل ستظل جذابة على هذا النحو عندما يكون كل ما هو جوهري قد تم اكتشافه، ولم يتبق للباحث من موسم الحصاد غير جمع فضلات هزيلة بائسة؟ (إحساس يمكن اختباره الآن في بعض مجالات العلوم التاريخية).

258

تمثال الإنسانية

تشتغل عبقرية الحضارة على منوال شلليني عندما كان يصهر معدن تمثال بيرسيوس[١٠٢]: كانت المادة السائلة تهدد بأن لا تكون كافية، لكنه *كان* لا بد لها أن تكون كافية، هكذا راح يقذف داخلها بأواني وصحون وكل ما كانت تقع عليه يداه. وعلى هذا النحو تقذف عبقرية الحضارة في مزيج مادتها بأخطاء وعيوب وأماني وأوهام وأشياء أخرى من معدن نبيل وخسيس، لأنه لا بد لتمثال الإنسانية أن ينجَز ويكتمل؛ ماذا يهم إن تم استعمال مادة خسيسة هنا وهناك؟

259

حضارة رجالية

كانت الحضارة الإغريقية في العصر الكلاسيكي حضارة رجال. أما في ما يتعلق بالنساء، فقد قال بيريكليس في خطبة التأبين الشهيرة[١٠٣] كل شيء في هذه العبارات: سيكنّ في أفضل حال إذا لم يرد ذكرهنّ بين الرجال إلا نادرا. كانت العلاقات الإيروتيقية بين الرجال والغلمان، وعلى مستوى يصعب علينا تصوره، الشرط الضروري والوحيد لكل تربية ذكورية (تقريبا مثلما كانت كل تربية راقية للمرأة عندنا ولزمن طويل لا تتم إلا عبر الحب والزواج). كان مجمل مثالية القوة في الطبيعة الإغريقية متجها نحو هذه العلاقة، ولعله لم يكن للفتيان أن يحظوا بعدها بمعاملة على ذلك القدر من الرعاية والمودة والاعتبار المطلق لأفضل ما فيهم (Virtus–فضيلتهم) التي كانوا يحظون بها خلال القرنين السادس والخامس (ق م)،- أي وفقا لمقولة هولدرلين: «إذ في الحب يكون الإنسان أكثر عطاء». وبقدر ما كان يُمنح من اعتبار لهذه العلاقة، بقدر ما تقلص التعامل مع المرأة: منطلق الإنجاب

والمتعة، ولا شيء غير ذلك كان يدخل في الاعتبار؛ لا وجود لأي تعامل فكري، ولا حتى علاقة حب حقيقي. وإذا ما اعتبرنا علاوة على ذلك أنهن كنّ مقصيات حتى من المباريات الرياضية والعروض المسرحية من كل نوع، فإنه لا تظل هناك سوى العبادات والطقوس الدينية مجالا ثقافيا راقيا وحيدا للنساء. وإذا ما كان صحيحا مع ذلك أن العروض التراجيدية تقدم شخصيات مثل أنتيغونة وإلكترا، فإن ذلك أمر كان يُسمح به في الفن وإن كان الناس لا يرتضونه في الحياة، مثلما ننفر اليوم في الحياة من كل ما هو مثير للعواطف، لكننا نحب مشاهدة ذلك في الفن.

لم تكن للنساء من مهمة أيضا عدا إنجاب أجساد جميلة وقوية تمكن طبيعة الأب من الاستمرار في الحياة ولا تنقطع لأطول مدة ممكنة، والعمل بذلك على مقاومة التهيّج المفرط للأعصاب المتزايد داخل حضارة على مستوى عال من التطور. ذلك هو ما ضمن للحضارة اليونانية شبابا متواصلا لمدة طويلة نسبيا من الزمن؛ ذلك أن العبقرية الإغريقية كانت تجد في الأمهات اليونانيات ملجأ تعود فيه دوما إلى الطبيعة.

260

الفكرة المسبقة عن العظمة

يبالغ الناس بصفة واضحة في تثمين كل ما هو عظيم وبارز. ويتأتى ذلك من الفكرة الواعية أو غير الواعية التي تجعلهم يجدون أنه مفيد جدا أن يركز إنسان كل قواه في مجال واحد، وأن يجعل من نفسه نوعا من عضو وحيد فظيع الضخامة. إلا أنه من الأكيد أن نموا *متوازنا* للقوى يكون أكثر نفعا للفرد ويمنحه أكثر سعادة؛ ذلك أن كل موهبة هي مصّاص دماء يسلب كل الطاقات الأخرى دمها وقوّتها، كما أن

إنتاجا مفرطا يمكنه أن يؤدي بأكثر الناس قدرة إلى ما يقارب الجنون. وفي مجال الفنون أيضا تجلب الطبائع المتطرفة انتباه الناس على نحو لافت، لكن ذلك يقتضي وجود ثقافة من مستوى أدنى تجعلهم ينشدّون إليها، فالناس يخضعون بحكم العادة لكل ما يملك قوة.

261

طغاة العقل

حيث يقع شعاع الأسطورة تكون حياة اليونانيين مشرقة، وفي ما عدا ذلك فهي قاتمة. إلا أن فلاسفة اليونان يديرون ظهرهم للأسطورة: ألا يبدو وكأنهم يفرون من ضوء الشمس ويحبذون الجلوس في الظل، وفي العتمة؟ لكن، ما من نبتة تهرب من النور؛ وفي الحقيقة كان أولئك الفلاسفة يبحثون عن شمس *أكثر إشعاعا*، فالأسطورة لم تكن على قدر كاف من الصفاء والإشراق بالنسبة لهم. كان هؤلاء يجدون النور في معرفتهم، أي في ما كان كل واحد منهم يسميه بـ«حقيقته» الخاصة. غير أن المعرفة كانت أكثر إشراقا آنذاك؛ كانت ماتزال فتية يافعة ولا تعرف الكثير عن المصاعب والمخاطر التي تحف بطريقها. كان باستطاعتها في ذلك الزمن أن تظل تأمل في أن تتمكن بقفزة واحدة من النفاذ إلى قلب الكائن وتستطيع من هناك أن تحل لغز العالم. كان لأولئك الفلاسفة ثقة صارمة بأنفسهم وبـ«حقائقهم» التي كانوا يسحقون بها كل معاصريهم وأسلافهم، وكان كل واحد منهم *طاغية* شرسا وعنيفا. ولعل سعادة الإيمان بامتلاك الحقيقة قد بلغت آنذاك مستوى لم تبلغه في العالم قط، لكن كذلك الشدة والغرور والطغيان والشر الملازمة لذلك الإيمان. لقد كانوا طغاة بحق، وهو ما كان كل يوناني يريد أن يكونه، وما كانه كل يوناني إذا ما *استطاع* ذلك. ربما كان سولون[١٠٤] استثناء في هذا الأمر، هو الذي يعبر في

أشعاره عن مدى ما كان يبديه من احتقار للاستبداد الفردي. إلا أنه كان يفعل ذلك حبا لعمله؛ حبا لتشريعاته؛ وليس سنّ القوانين شيئا آخر غير شكل مصعَّد من الاستبداد. لقد سن برمينيدس[١٠٥] أيضا قوانين، وكذلك فيثاغوراس وأمبيذوقلس؛ وأناكسيمندرُس قد أسس مدينة. أما أفلاطون فكان الرغبة المجسدة في التحول إلى أكبر واضع قوانين ومؤسس دولة فلاسفة، ويبدو أنه قد تألم بشكل فظيع لعدم تحقق مشروعه، وغدت روحه مترعة مرارة سوداء في آخر حياته. وبقدر ما راحت الفلسفة اليونانية تفقد قوتها، بقدر ما تضاعفت معاناتها الداخلية من تلك المرارة وذلك النزوع إلى الهزء والثلب؛ وعندما نزلت مختلف الطوائف لمقارعة حقائقها في الشارع، كانت أرواح كل أولئك اللاهجين بالحقيقة غارقة كليا في أوحال الحماسة المتهيجة وسطوة العنف اللفظي، وكان العنصر الطغياني يضطرم سما داخل أجسادهم. كان بود كل أولئك الطغاة الصغار لو أنهم يفترسون بعضهم أحياء؛ ما من بصيص للمحبة بقي لديهم، ولا شيء من متعة يجدونها في معرفتهم. إن المقولة العامة بأن الطغاة غالبا ما يموتون اغتيالا، وأن ذريتهم تكون قصيرة العمر تنطبق أيضا على طغاة العقل. فتاريخ هؤلاء قصير ومليء عنفا، وتأثيرهم ينقطع فجأة. ويمكننا القول عن كل كبار الهلينيين تقريبا إنهم يبدون كما لو أنهم جاؤوا متأخرين؛ عن أسخيلوس[١٠٦] وعن بيندار[١٠٧] وديموستينس[١٠٨] وثوقيديدس:[١٠٩] جيل آخر واحد بعدهم، ثم يكون كل شيء قد انتهى. ذلك هو الطابع الجارف والفظيع في التاريخ اليوناني. صحيح أننا نبدي اليوم إعجابا كبيرا بإنجيل السلحفاة؛[١١٠] وإذا ما فكرنا على نحو تاريخي، فإن ذلك يعني تقريبا كما لو أن التاريخ وعلى مر العصور كان يصنع بحسب مقولة: «أقل ما يمكن في أطول مدة زمنية ممكنة!» أسفا! لقد كان التاريخ اليوناني يمضي بسرعة فائقة! أبدا لم يعش الإنسان من

بعدها بمثل ذلك التبذير وبمثل ذلك الإسراف! وأنا لا أستطيع أن أجد ما يقنعني بأن التاريخ اليوناني قد عرف ذلك المسار *الطبيعي* الذي غالبا ما يُثنى عليه بسببه. لقد كانت مواهبهم أكثر تنوعا من أن يتسنى لهم أن يمضوا بحسب ذلك النسق المتدرّج الذي كانت تتبعه السلحفاة في مسابقتها مع آخيل: ذلك هو ما يسمى تطورا طبيعيا. لدى اليونانيين كانت الأمور تسير بسرعة إلى الأمام، ولكن بنفس السرعة إلى الوراء أيضا؛ وكانت حركة الآلة على مستوى عال من السرعة حتى أن أي حصاة تلقى بين دواليبها تجعلها تتحطم. إحدى تلك الحصى كان سقراط[١١١] على سبيل المثال؛ بين عشية وضحاها وجد تطور العلم الفلسفي الذي كان إلى حد تلك اللحظة على غاية من الانتظام المدهش، وإن كان ذا نسق فائق السرعة أيضا، وجد نفسه مدمّرا. ولعله لن يكون من باب الأسئلة الفائضة عن اللزوم أن نتسائل عما إذا لم يكن بإمكان أفلاطون، لو كتب له أن يظل بمنأى عن التأثير السقراطي، أن يتوفّق في بلوغ نموذج أرقى للإنسان الفيلسوف، ذاك الذي ضاع منا إلى الأبد. وعندما نلقي نظرة على العصور التي سبقته نرى، كما في ورشة نحات، أمثلة عديدة عن ذلك النموذج. لكن القرنين السادس والخامس كانا يعدان بأكثر وبأرقى مما كان لهما أن ينجزا؛ وظل الأمر إذن لا يتجاوز الوعد والإعلان. وبطبيعة الحال ليس هناك من خسارة أكثر جسامة من خسارة نموذج؛ خسارة ***إمكانية*** جديدة ***لحياة فلسفية أرقى*** ظلت غير مكتشَفة إلى حد تلك اللحظة. بل إن النماذج الأقدم نفسها ظلت في أغلبها غير منقولة بشكل مرضي؛ لذلك يبدو لي كل الفلاسفة القدامى من طاليس إلى ديمقريطس[١١٢] محاطين بهالة من الغموض؛ لكن الذي سيكون قادرا على أن يعيد تشكيل صورة تلك الشخصيات سيجد نفسه متنقلا بين صور للنموذج الأكثر قوة وصفاء. غير أن هذه المقدرة تظل في

الحقيقة نادرة، وقد أعوزت حتى المتأخرين من الفلاسفة اليونانيين من الذين انكب اهتمامهم على معرفة الفلسفة القديمة، وكان أرسطو على وجه الخصوص يبدو غير بصير وهو يقف في مواجهة تلك الشخصيات.(١١٣) هكذا يبدو كما لو أن أولئك الفلاسفة الأفذاذ قد وجدوا عبثا أو كما لو أنهم لم يكونوا هناك إلا لكي يهيئوا لظهور فيالق المولعين بالخطابة والجدالات السجالية من أتباع المدارس السقراطية. هناك، كما قلنا، فجوة وقطيعة في مسار التطور؛ هناك كارثة لابد أنها تكون قد حدثت، وقد تحطم أو فشل التمثال الوحيد، الذي كان بوسعه أن ينبئنا عن المعنى والغاية من وراء تلك التحضيرات الفنية: أما ما حدث فعلا فسيظل إلى الأبد سرا من أسرار الورشة.

ما حدث لدى اليونانيين من أن كل مفكر كبير كان مؤمنا بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة ليتحول إلى طاغية، مما جعل تاريخ الفكر لدى اليونانيين يكتسب هو أيضا ذلك الطابع العنيف المتعجل والخطير الذي يكشف عنه تاريخهم السياسي -هذا النوع من الأحداث لم يستنفد كل قواه معهم، فقد ظلت أنماط مماثلة تظهر فيما بعد أيضا وصولا إلى أحدث العصور، وإن بنسق متباعد دوما، وفي وقتنا الحاضر، لكن بأقل ما يمكن من ذلك الوعي النقي والساذج الذي كان للفلاسفة اليونانيين. ذلك أن النظرية المضادة والريبة قد غدت في العموم تتكلم بقوة وبصوت مرتفع. لقد ولى عصر طغاة العقل وانتهى. وفي أوساط الثقافة الراقية ستظل هناك دوما سلطة مسيطرة، لكن هذه السلطة، ومنذ الآن، ستغدو في أيدي عناصر *الطغمة الفكرية المتنفّذة*. وهؤلاء يشكلون بالرغم من كل المسافات السياسية والجغرافية مجتمعا متجانسا يعرف عناصره بعضهم ويعترفون ببعضهم البعض، مهما كانت المواقف والأحكام، إيجابية أو سلبية، التي يتداولها الرأي العام ومحررو

الصحف والمجلات التي تمارس تأثيرها على عامة الجمهور. أما التفوق الذهني الذي كان في ما مضى يفرق ويخلق العداء قد غدا اليوم مجمّعا وموحِّدا: إذ كيف يمكن للأفراد أن يكونوا أسيادا على أنفسهم وأن يسلكوا طريقهم الخاص في الحياة في مواجهةٍ لكل التيارات، إن لم يكن بوسعهم أن يروا أشباههم هنا وهناك وهم يعيشون ضمن نفس الشروط ويمدون أيديهم إليهم في صراعهم ضد الطابع الأوكلوقراطي(*) لأنصاف الأذكياء وأنصاف المثقفين، وضد محاولات إرساء استبداد يعتمد على تأثير الجماهير؟ إن الطغماويين ضروريين لبعضهم البعض، يستمتعون أشد المتعة ببعضهم، ويعرفون سمات بعضهم المميزة، ومع ذلك فكل واحد منهم حر، يقاتل وينتصر من أجل موقعه *الخاص* مفضّلا الموت على أن يقبل بالخضوع لغيره.

262

هوميروس

تظل الواقعة الأكثر أهمية في الحضارة اليونانية أن هوميروس قد غدا في وقت مبكر مناصرا للوحدة الهلّينية. ومجمل الحرية الفكرية والإنسانية التي بلغها اليونانيون تعود إلى هذه الواقعة. إلا أن ذلك كان في الوقت نفسه القدَر الكارثي الذي حل بالثقافة اليونانية، فهوميروس كان يسطّح فيما هو يُمركز، وكان يفتّت غرائز الاستقلال الأكثر جديّة. وبين الحين والحين كانت تطلع من عمق أعماق الهيلّينية حركة مناهضة لهوميروس، لكنه يظل المنتصر دوما. كل قوة عقلية عظمى تمارس إلى جانب العمل التحرري الذي ينجر عنها عمل اضطهاد أيضا؛ غير

(*) من اليونانية وتعني في أصلها حكم الشعب وحريته في أن يتصرف ويحكم بما يشاء. ثم أصبحت تستعمل في معنى حكم الرعاع والغوغاء.

أنه يظل هناك فرق في الحقيقة بين أن يكون هوميروس، أو الأناجيل، أو العلم هو من يمارس طغيانه على الناس.

263

موهبة

في حضارة بلغت مستوى أعلى من الرقي، مثل الحضارة الحالية، يتلقى كل فرد من الطبيعة إمكانية الحصول على مواهب عدة. ما من فرد إلا ولديه موهبة فطرية، إلا أن عددا محدودا جدا سيحظى من الطبيعة ومن التربية بدرجة من الصلابة والمثابرة والطاقة كي يصبح رجلا موهوبا حقا، أي أن يصير ما هو، يعني: أن ينفق نفسه في آثار وأفعال.

264

الألمعيّ بين التقدير المفرط والانتقاص

الناس الذين لا علاقة لهم بالعلم، لكنهم من الفطنين، يعرفون كيف يقدرون كل ما يدل على الذهن اللامع، سواءً لديهم أكان على طريق الصواب أم الخطأ؛ ما يريدونه بالمقام الأول هو أن يمتعهم الشخص الذي يتعاملون معه بلطافة ذهنه، وأن يستثيرهم ويحمسهم ويجرهم إلى الجد كما إلى الهزل، وفي كل الأحوال أن يكون بمثابة التميمة التي تحميهم من الضجر. أما الكائنات العلمية فتعرف على العكس من ذلك أن موهبة امتلاك حشد من الأفكار لا بد أن تكبحها قبضة العقل العلمي الصارمة؛ فليس ما يلمع ويَظهر ويثير، بل الحقيقة التي لا مظهر لها غالبا هي الفاكهة التي يود العقل العلمي قطفها من شجرة المعرفة. ويمكنه، على غرار أرسطو، أن لا يقيم فرقا بين ما هو «مضجر» وما هو «نبيه»، فشياطينه تقوده عبر الصحراء القاحلة كما عبر

الغابات المدارية، كي لا يجد متعته، في أي مكان كان، إلا في ما هو واقعي ومتين وحقيقي.(١١٤) من هنا يتأتى لدى علماء قليلي الشأن ذلك الاحتقار والريبة تجاه الألمعيين عامة، وبالمقابل يبدي الالمعيون من جهتهم أيضا نفورا من العلم: مثل كل الفنانين تقريبا.

265

العقلانية داخل المدرسة

ليس للمدرسة من مهمة سوى أن تعلّم التفكير الصارم والحذر في إصدار الأحكام والاستنتاج المنطقي. لذلك يكون عليها أن تصرف النظر عن كل ما لا يفيد في هذه العمليات، أي عن الدين مثلا. وبإمكانها أن تثق في أن الغموض والعادات والحاجات البشرية ستنتهي في ما بعد إلى إرخاء قوس التفكير المتحجّر. غير أنها، وطالما يظل لها تأثير، سيكون عليها أن تجتهد في إنتاج ذلك الأمر الذي يمثل الجوهر والخاصية المميزة للإنسان: «العقل والعلم *أرقى وأعظم مقدرة* في الإنسان»، -بحسب حكم غوته(١١٥) على الأقل-.

يعتبر عالم الطبيعيات الكبير فون بائير(١١٦) أن تفوق الأوروبيين على الآسيويين يكمن في ما يكتسبونه في التعليم من مقدرة إقامة البرهان على ما يعتقدونه، وهو ما يعجز عنه الآخرون كليا. لقد انخرطت أوروبا في منهج تعليم التفكير المنطقي والنقدي، بينما ما تزال آسيا غير قادرة على التمييز بين ما هو حقيقي وما هو من باب التخييل الشعري، ولا تدري إن كانت قناعاتها ناتجة عن ملاحظة عينية وتفكير حقيقي سليم أم عن محض خيال. العقلانية في التعليم هي التي جعلت من أوروبا ما هي عليه الآن: أوروبا التي كانت خلال العصر الوسيط في طريق التحول إلى مقاطعة وملحَق تابع لآسيا، أي بصدد التفريط في العقل العلمي الذي تدين به لليونان.

266

سوء تقدير لقيمة دروس الثانوية

قلما تُقيِّم المدرسة الثانوية من خلال الأشياء التي يتعلمها التلميذ حقا هناك وتظل راسخة في ذهنه، بل غالبا ما يتم ذلك من خلال البحث في ماذا يعلَّم عموما، وهي أشياء لا يتقبلها التلميذ إلا مكرها كي يتخلص منها بأسرع ما تسمح له به الظروف. إن قراءة الآثار الكلاسيكية، وبالطريقة التي تمارس بها في كل مكان، هي -وهذا ما يعترف به كل مثقف- عبارة عن خطة فظيعة: قراءة تتم أمام فتيان لا يمتلكون من أية ناحية كانت، النضج المناسب لها، وعن مدرّسين، كل كلمة ينطقون بها، بل وهيأتهم نفسها، تغمر كل كاتب جيد بطبقة من الغبار. لكن هنا تكمن أيضا القيمة التي عادة ما لا يعترف بها لهم، وهي أن هؤلاء المدرسين يتكلمون *اللغة المجردة الخاصة بالثقافة الراقية*، ثقيلةَ الوقع وصعبةً على الفهم كما هي عادة، لكنها رياضة ذهنية راقية، كأن ترد باستمرار على ألسنتهم مفاهيم وتعبيرات فنية ومناهج وإشارات رمزية لم يتعود أولئك الفتيان على سماعها في أحاديث ذويهم، لا داخل العائلة ولا في الشارع. ولو اكتفى التلامذة بمجرد *الاستماع فقط*، فستطرأ على عقولهم تلقائيا تهيئة أولية لنوع من النظر العلمي. إنه من المستحيل أن يخرج الواحد من تلك التربية دون أن يكون قد مسّه شيء من ذلك التجريد، أي طفلا طبيعيا خالصا.

267

تعلم لغات عديدة

تعلم لغات كثيرة يملأ الذاكرة كلمات عوضا عن وقائع وأفكار، بينما هذه الأخيرة وعاء لا يتسع لدى كل الناس إلا لكمية محدودة من المحتوى. كما أن تعلم لغات عديدة مضر إضافة إلى ذلك، من ناحية

كونه يحدث الوهم بتملك مهارات ويخلق بالفعل نوعا من المظهر الخادع داخل العلاقات، وهو مضر كذلك بصفة غير مباشرة من جهة كونه يصد عن تحصيل المعارف العميقة وعن نية نيل تقدير الناس بالوسائل والطرق النزيهة. وهو أخيرا الفأس التي تُحكَم في جذور الإحساس اللغوي المرهف جدا داخل اللغة الأم، الذي سيصاب بتصدع لا برء منه ويمضي بذلك إلى الخراب. والشعبان اللذان أنجبا أكبر فناني الأناقة الأسلوبية، الفرنسي واليوناني، كانا لا يتعلمان أية لغة أجنبية. لكن، وبما أن العلاقات بين الناس ماضية نحو كوسموبوليتية ضرورية متزايدة، وأن تاجرا جيدا من لندن عليه اليوم أن يتعامل بثمان لغات كتابة ومشافهة، فإن تعلم لغات عديدة قد غدا في الواقع *شرا* لا بد منه، شر سيدفع بالنهاية عندما يبلغ مداه الأقصى إلى التفكير في إيجاد علاج: في مستقبل بعيد ما ستوجد لغة جديدة للجميع، كلغة معاملات تجارية في البداية، ثم كلغة للمعاملات الفكرية عموما، وهذا أمر مؤكد مثلما هو مؤكد أنه ستكون هناك في يوم ما مواصلات جوية. وإلا فما نفع أن تكون العلوم اللسانية قد قضت قرنا كاملا في دراسة قواعد اللغة عامة وفي تثمين ما هو ضروري وصالح وناجح في كل لغة؟

268

عن التاريخ الحربي للفرد

نجد لدى فرد عرف ثقافات متنوعة نفس الصراع الذي يحدث عادة بين جيلين، بين الأب والإبن مثلا- لكن في صيغة مركزة في هذه الحالة: فالقرابة الضيقة *تضاعف* من حدة الصراع، ذلك أن كل طرف يستخدم بلا شفقة دواخل الطرف الثاني التي يعرفها جيدا؛ وهكذا يكون الصراع الذي يجري داخل الفرد الواحد أشد ما يمكن لصراع أن يكون: هنا

يدوس كل طور جديد على سابقه ويتجاوزه بأشنع ما يكون من الظلم والتنكر لما له من وسائل وغايات.

269

ربع ساعة قبل الموعد

نلتقي أحيانا بشخص يقف بأفكاره فوق عصره، لكن فقط بالمقدار الذي يجعله يتبنى مسبقا الأفكار المبتذلة للعشرية المقبلة. إنه على رأي الرأي العام قبل أن يصبح عموميا، يعني: إنه وقع قبل ربع ساعة من الآخرين في أحضان فكرة تستحق أن تصبح مبتذلة. غير أن مجده سيكون أكبر وأكثر إشعاعا من مجد العظام والمتفوقين الحقيقيين.

270

فن القراءة

كل اتجاه قوي يكون أحادي الاتجاه، يقترب في طبيعته من اتجاه الخط المستقيم ويكون إقصائيا مثله، بمعنى أنه لا يلامس اتجاهات أخرى، كما تفعل منظومات وطبائع ضعيفة في مراوحتها المتذبذبة: وهذا ما يجب أن نقوله في الفليلولوجيين أيضا، من أنهم أحاديو الاتجاه هم أيضا. لقد سمحت استعادة النصوص القديمة وحفظها إلى جانب تفسيرها، التي انكبت طائفة من الدارسين على ممارستها لقرون عديدة، بأن تم التوصل أخيرا إلى إيجاد المناهج الصحيحة لفهمها: فقد ظل العصر الوسيط عاجزا كليا عن تفسير فيلولوجي صارم، أي عن فهم ما يريد أن يقوله الكاتب، بكل بساطة؛- لقد كان اكتشاف تلك المناهج أمرا مهما حقا؛ فلا نقللنّ إذن من قيمتها! إذ لم يكن لكل العلوم أن تكتسب استمراريتها واستقرارها إلا عندما بلغ فن القراءة، أي الفيلولوجيا، ذروة تطوره.

271

فن الاستنتاج

يكمن النجاح الأكبر الذي حققه الإنسان في أنه تعلم كيف يقوم باستنتاجات صحيحة. وهذا ليس بالأمر الطبيعي قطعا، كما يزعم شوبنهاور عندما يقول: «لجميع الناس القدرة على الاستنتاج، لكن القليلين فقط لهم قدرة على الحكم»،[١١٧] بل هو أمر تم تعلمه في زمن متأخر، وما يزال إلى حد الآن بعيدا عن فرض سيادته. لقد كان الاستدلال الخاطئ يمثل القاعدة في العصور القديمة؛ وتمثل ميثولوجيا كل الشعوب وممارساتها السحرية ومعتقداتها الخرافية وعباداتها الدينية وقوانينها مصدرا لا ينضب من الأدلة الداعمة لهذه المقولة.

272

الطبقات الجيولوجية للثقافة الفردية

إن قوة الإنتاج الفكري وضعفه لا ترتبط بالمواهب الموروثة بقدر ما تتحدد بكمية *الطاقة المحركة* الممنوحة. أغلب الشبان الثلاثينيين المثقفين يعودون إلى طوْر ذلك التحوّل المبكر من حياتهم، ولن تكون لهم من رغبة بعدها في تحولات ذهنية جديدة. لذلك فإن خلاص ثقافة في تطور مطرد يقتضي وجود جيل جديد قد لا يستطيع بدوره، مع ذلك، أن يمضي بها شوطا أبعد؛ ذلك أنه، ولكي يمكن للإبن أن يلتحق بالمستوى الذي بلغته ثقافة الأب، عليه أن ينفق ما يقارب مجمل الطاقة الموروثة التي كان الأب حائزا عليها ساعة إنجابه، وبذلك القليل المتبقي مما أنفقه سيكون عليه أن يواصل الطريق (ولأن الطريق هنا ستقطع للمرة الثانية فإن التقدم سيكون أسرع بقليل؛ فالإبن لن يحتاج إلى نفس الكم من الطاقة كي يتعلم ما كان يعرفه الأب). هناك أناس ذوو طاقة محركة هائلة، من نوع غوته مثلا، باستطاعتهم أن يقطعوا ما

لا تقطعه أربعة أجيال متلاحقة إلا نادرا، لذلك يتحقق لهم سبق سريع للغاية، بما يجعل بقية الناس لا يلحقون بهم إلا في القرن الموالي، بل ربما لا يلحقون بهم إلا جزئيا، ذلك أن الانقطاعات الكثيرة التي تطرأ على وحدة الثقافة تكون قد أضعفت تناسقها.

لقد غدا بإمكان الناس أن يلحقوا بسرعة متزايدة بمجمل الأطوار المعتادة التي مرت بها الثقافة العقلية عبر التاريخ. يشرعون في وقتنا الحاضر في الانخراط في الثقافة كأطفال مفعمين بالأحاسيس الدينية وقد يبلغون في سن العاشرة قمة حيوية تلك الأحاسيس، ثم يتحولون إلى أشكال أقل حرارة (مذهب وحدة الوجود)، فيما هم يقتربون من العلم، ثم يتجاوزون مسائل الله والخلود وما شابه ذلك كليا، لكنهم يقعون في سحر فلسفة ميتافيزيقية. غير أن هذه الأخيرة أيضا ستبدو لهم في آخر المطاف غير ذات مصداقية، بينما يبدو الفن هو الذي يستجيب أكثر فأكثر لحاجياتهم، حتى أن الميتافيزيقا لن يتبقّى لها في وقت ما سوى أن تتحول إلى فن أو إلى منحى لتفسير كل الأشياء من خلال الفن، كي تضمن لنفسها البقاء. غير أن الحس العلمي قد أصبح الآن أكثر فأكثر إلحاحا وغدا يقود الإنسان باتجاه العلوم الطبيعية والتاريخ، وخاصة نحو المناهج المعرفية الأكثر صرامة، بينما تتراجع أهمية الفن وتتقلص طموحاته. كل هذا يحدث الآن خلال الثلاثين سنة الأولى من عمر إنسان. إنه ملخص مهمةٍ ربما قضت الإنسانية ثلاثين ألف عام في الانكباب عليها.

273

خطوة إلى الوراء، لكنها ليست إقامة في التخلف

إن من يتخذ في وقتنا الحاضر نقطة انطلاق لتطوره في الأحاسيس الدينية، وربما يواصل الحياة لمدة طويلة بعدها داخل الميتافيزيقا

والفن، يكون قد جعل نفسه في تأخر لا يستهان به وانخرط في المباراة مع أناس حديثين آخرين ضمن شروط غير ملائمة: إنه يخسر في الظاهر مسافة ووقتا. غير أنه، وبإقامته في تلك المنطقة التي يندفع فيها اللهب والطاقة على نحو عات، وتتدفق القوة فيها بما يشبه سيلا بركانيا منفلتا من نبع لا ينضب، فإنه وبمجرد أن يغادر تلك المنطقة سيجد نفسه يتقدم بسرعة فائقة، قدمه مجنّحة وصدره قد تدرب على التنفس طويلا بمثابرة وهدوء. لقد قام بخطوة إلى الوراء فقط كي يمكّن قفزته من متسع من المسافة الضرورية؛ هكذا يمكن أن يكون هناك أيضا شيء فظيع ومخيف في تلك الخطوة إلى الخلف.

274

جزء مقتطع من ذاتنا كموضوع فنّي

إنها علامة ثقافة متفوقة أن يتوقف المرء عند أطوار محددة من تطوره، من تلك التي يعبرها ذوو المستوى الأدنى دون وعي بها تقريبا ثم يمحونها من لوح روحهم ويمرون؛ أن يثبّتها بوعي ويرسم لها صورة دقيقة: فذاك هو النوع الأرقى من فن الرسم الذي لا يفهمه إلا القليلون. لذلك سيكون من الضروري أن تفصل تلك الأطوار عن بعضها بطريقة مصطنعة. تساعد الدراسات التاريخية على صقل القدرة على إجادة هذا الفن، ذلك أنها تتطلب منا باستمرار، حيال كل جزء من التاريخ أو من حياة شعب أو شخص ما، أن نتمثل أفقا معينا من الأفكار وقوة معينة للأحاسيس، مع إمكانيات تفوق هذه وتراجع تلك. إن المقدرة على إعادة تشكيل مثل هذه الأنظمة من الأفكار والأحاسيس بسرعة من خلال معطيات محددة على غرار رسم صورة لمعبد منهار من خلال بعض الأعمدة وبقايا الجدران التي ظلت قائمة بمحض صدفة، هي التي يتأسس عليها الحس التاريخي. وتكون النتيجة

المباشرة لذلك أننا نغدو قادرين على إدراك غيرنا من البشر كأنظمة مكتملة محددة وممثلين عن ثقافات متنوعة، أي كضرورة، لكن كشيء قابل للتغيير أيضا. وبالمقابل نكون قادرين أيضا على فصل أجزاء من مسيرة تطورنا الخاص ووضعها موضع كليات مستقلة.

275

كلَبيّون وابيقوريون

يرى الكلبي العلاقة بين الآلام المتزايدة التي تغدو أكثر حدّة لدى الإنسان الذي بلغ مستوى راق من الحضارة، والكم الكبير من حاجياته. إنه يدرك إذن أن كمية الآراء حول الجميل والأنيق واللائق والمحبّب تفجر بالضرورة ينابيع سخية من المتعة، ومن القرف في الآن نفسه. ووفقا لهذه النظرة يعيد النظر في حياته بأن يتخلى عن عدد من تلك الآراء ويدع جزء من متطلبات الحضارة، وهكذا يتكون لديه شعور بالحرية وبمزيد من القوة، وشيئا فشيئا، وعندما يجعل التعود نمط حياته محتملا، تصبح أحاسيس القرف لديه نادرة وأقل بكثير مما لدى الإنسان المتحضر، ويغدو أقرب إلى الحيوان الأهلي. وعلاوة ذلك سيغدو لديه إحساس بالكل عبر الإثارة التي يحدثها التضاد؛ وسيكون بوسعه أيضا أن يشتِم ما طاب له، الأمر الذي سيجعله يرتقي بنفسه مجددا فوق عالم الأحاسيس الحيوانية.

للأبيقوري نفس الرؤية التي لدى الكلبي، وليس بينهما غير فارق في المزاج عادة. ثم إن الأبيقوري يستعمل ثقافته العليا لكي يستقل بنفسه عن الآراء السائدة؛ يضع نفسه في منزلة فوقها، بينما يظل الكلبي حبيس موقف النفي. يمضي الأبيقوري كالمتنقل فوق دروب محمية من الريح، آمنة ونصف معتمة، بينما قمم الأشجار من فوقه تنقل إليه هدير العاصفة وتنبؤه عن مدى الاضطراب العنيف الذي

يهز العالم من حوله. أما الكلبي، على العكس من ذلك، فهو يخرج للتنقل عاريا داخل العاصفة ويظل يتصلّب حتى يبلغ فقدان الإحساس.

276

العالم المصغر والعالم الكبير للحضارة

إن أفضل الاكتشافات في ما يتعلق بالحضارة هي تلك التي يجدها الإنسان في نفسه عندما يجد قوتين متباينتين تتفاعلان داخلها. وإذا ما افترضنا أن شخصا ما يحيا في علاقة حب للفنون التشكيلية والموسيقية بالقدر الذي يبدي فيه ولعا عارما بالعقل العلمي، ويرى أنه من المستحيل حل هذا التناقض من خلال القضاء على إحدى القوتين وتحرير الثانية من كل قيد، فإنه لن يظل أمامه إذن سوى أن يجعل من نفسه بناية فسيحة للثقافة بحيث يغدو بإمكان القوتين أن تقطنا داخلها، وإن استقرت كل واحدة في طرف قصي منها، بينما تتخذ قوى وسطية مصالِحة مكانا لها بينهما، وتكون على قدر بالغ من القوة يجعلها قادرة عند الضرورة على التدخل لتهدئة الخصومات التي تنفجر بينهما. مثل هذه البناية الثقافية لدى الفرد المنعزل لها شبَه كبير بالعمارات الثقافية لمختلف العصور ويمكنها أن تمنحنا قياسًا سلسلة غير منقطعة من الدروس في شأنها. ذلك أنه حيثما ازدهر المعمار العظيم للحضارة كانت مهمته تتمثل دوما في فرض توافق بين القوتين الكبريين المتعارضتين عن طريق فرض تحالف بالغ القوة بين بقية القوى التي لا تفرقها تناقضات غير قابلة للتسوية، لكن دون أن تخضعها بالعنف مع ذلك، أو تضعها في الأغلال.

277

السعادة والثقافة

تهزنا دوما رؤية الوسط الذي قضينا فيه طفولتنا: بيت الحديقة الصغير، الكنيسة والمقبرة، البركة والغابة؛ كل هذه الأشياء نراها من جديد ونحن نشعر دوما بألم. تتملكنا الشفقة على أنفسنا عندها، إذ كم عانينا من آلام منذ ذلك الوقت! بينما هنا تربض الأشياء كلها ساكنة خالدة في ثباتها: نحن وحدنا الذين عرفنا كل هذا التغير وكل هذه الانفعالات؛ بل ونجد حتى أناسا لم تمسهم يد الزمن أكثر مما قد تفعل بشجرة بلوط: مزارعون، صيادون، حطابون؛ إنهم كما عرفناهم من قبل. الأحاسيس المؤلمة والإشفاق على الذات هي، مقارنة بأحوال الثقافة الدنيا، من علامات الثقافة الراقية، مما يجعلنا نستنتج أن هذه الأخيرة لم ينتج عنها مزيد من السعادة للإنسان. وبالتالي، فإن من يرغب في أن يجني سعادة وطمأنينة من الحياة، عليه أن يبتعد عن طريق الثقافة الراقية.

278

مثال الرقص

ينبغي أن نعتبر اليوم علامة محدَّدة من علامات الثقافة الراقية أن يكون المرء حائزا على تلك القوة والمرونة اللتين تجعلانه صارما وواضحا فيما يتعلق بالمعرفة، وقادرا في أوقات أخرى على التراجع مئة خطوة وراء الفن والدين والميتافيزيقا والإحساس بقوتها وجمالها. إن موقفا كهذا بين متطلّبين مختلفين تمام الاختلاف صعب للغاية، ذلك أن العلم يدفع بعنف نحو فرض سيطرة مناهجه ولن يخفف في شيء من ذلك الضغط، وهكذا ينشأ الخطر الآخر المتمثل في الضعف المراوح بين قوى جاذبيات مختلفة. إلا أننا، ولكي نفتح، على الأقل من

خلال مثالٍ، فجوة باتجاه حل ممكن لهذه المعضلة، لنتذكر أن *الرقص* ليس شيئا آخر غير خطوات مترنحة جيئة وذهابا بين اتجاهين مختلفين. والثقافة الراقية لابد أن تكون شبيهة برقصة واثقة جريئة: لذلك يتطلب الأمر، كما ذكرنا آنفا، قوة ومرونة.

279

في التخفيف من وطأة الحياة

هناك وسيلة رئيسية لجعل الحياة أقل وطأة وتتمثل في إضفاء صبغة مثالية على كل وقائعها. لكن على المرء أن يتعلم من الرسم فكرة واضحة عما يعنيه إضفاء صبغة مثالية. يفرض الرسام على المشاهد أن لا ينظر بتمعن وبدقة، ويرغمه على التراجع قدرا معلوما إلى الوراء لمشاهدة عمله من ذلك الموقع، وهو مضطر على أن يفترض مسافة معينة بين المشاهد واللوحة، بل أكثر من ذلك ينبغي عليه أيضا أن يتوقع درجة معينة من قوة البصر عند المشاهد؛ وفي هذه المسائل لا يحق له البتة أن يكون مترددا. وبالتالي فإنه لا ينبغي على كل من يريد أن يضفي صبغة من المثالية على حياته أن يرغب في النظر إليها بدقة، وعليه أن يرغم عينه على النظر دوما من مسافة محددة. هذا الفن الحاذق يجيده غوته مثلا على أفضل وجه.

280

ما هو مرهق يكون مريحا، والعكس بالعكس

هناك أشياء كثيرة من تلك التي تثقل كاهل الإنسان في مراحل محددة من حياته ثم تصبح في مرحلة أرقى عنصرا مخففا لتلك الأوزار، لأن ذلك الإنسان كان قد عرف مصاعب أكبر فيما قبل. ويحدث العكس أيضا؛ فالدين مثلا ذو وجهين متناقضين بحسب الكيفية التي ينظر

الإنسان بها إليه: إما أن يرفع بصره إليه على أمل أن يرفع عنه عبء أو يزيح ضنكا، أو ينظر إليه من فوق نظرته إلى قيد يكبله كي يمنعه من الصعود والتحليق عاليا في السماء.

281

الثقافة الراقية يساء فهمها بالضرورة

من أحكَم وتريْن فقط على آلته، مثل العلماء الذين لا يعرفون علاوة على *الدافع العلمي* غير *دافع* ديني مكتسب من خلال التربية، لن يكون بوسعه أن يفهم أولئك الذين يستطيعون العزف على عدة أوتار. إنه من جوهر الثقافة الراقية ذات الأوتار المتعددة أن تظل تُفهَم خطأ من قِبل الثقافات الدنيا، كأن يعتبر الفن شكلا مقنّعا من أشكال التديّن مثلا. والناس الذين ليسوا سوى متدينين، يفهمون العلم نفسه على أنه بحث عن الإحساس الديني، تماما مثلما لا يستطيع الصم أن يعرفوا ما هي الموسيقى، عدا أن تكون جملة حركات مرئية.

282

بُكائية[١١٨]

لعل منافع عصرنا هي التي جلبت معها تراجعا في حياة التأمل (*via contemplativa*)، و انتقاصا من قيمتها. لكن علينا أن نعترف لأنفسنا أيضا بأن عصرنا يفتقر افتقارا كبيرا إلى أخلاقانيين كبار، وأن باسكال وإبيكتيت[١١٩] وشينيكا[١٢٠] وبلوتارك[١٢١] أصبحوا غير مقروئين تقريبان، وأن العمل والتفاني -الذين كانا من حاشية إلهة العافية في ما مضى- قد أصبحا يتراءيان كما لو أنهما وباء يعصف بحياة الناس. ولأنه ينقصنا الوقت للتفكير وللهدوء عند التفكير فإننا لم نعد نمعن النظر في الآراء المغايرة؛ أصبحنا نكتفي بكراهيتها.

وداخل السرعة الجنونية التي تعصف بالحياة تعوّد العقل والعين على النظر والحكم بصفة منقوصة أو خاطئة وغدا كل واحد أشبه بالمسافر الذي يتعرف على بلدان وشعوب عديدة وهو لا يغادر سكة الحديد. وقد غدا يُنظر إلى الموقف المستقل والحذر في المعرفة كنوع من الجنون، وأسيء لسمعة الفكر، خاصة من قبل العلماء الذين لا يجدون في طريقة مقاربته للأشياء ذلك الانشغال المشط بالتدقيق في الجزئيات وانهماك النمل اللذيْن يميزان عملهم، ويودون بالتالي لو أنهم ينبذونه إلى زاوية قصية من ميدان العلوم. في حين أنه يلاحق مهمة أرقى و مغايرة تماما، وهي أن يظل من موقعه البعيد المنعزل يوجه محفل العلماء ورجال المعرفة ويرشدهم إلى دروب الثقافة وغاياتها.

سيأتي يوم يصبح فيه هذا النوع من التذمر الذي كنتم تستمعون إليه شيئا من عداد الماضي، وسيخرس تلقائيا عند العودة العنيفة لعبقرية النظر التأملي.

283

النقص الأساسي في الإنسان النشط

يفتقر العاملون عادة إلى العمل العظيم: أعني الفردي. إنهم يعملون كموظفين وتجار وعلماء، أي كعناصر من فئة، وليس كأشخاص محددين وفرديّي الهوية؛ ومن هذا المنظور فهم أناس خاملون. إنها مأساة العاملين، أن عملهم عادة ما يكون عديم الحكمة إلى حد ما. فلا يحق في ما يتعلق بالمصرفي مثلا أن نبحث عن الغاية من وراء سعيه الدائم إلى تجميع الأموال: إنه نشاط عديم الحكمة. النشطون يتدحرجون كما تتدحرج الحجارة وفقا لغباء قوانين الآلية.[١٢٢] - الآن، وكما عبر كل العصور، ينقسم الناس إلى أحرار وعبيد؛ إذ من

لا يجعل من ثلثي نهاره وقتا لنفسه فهو عبد، وهو بالمناسبة ما أراد لنفسه أن يكون: رجل دولة، تاجر، موظف، عالم.

284

في مديح العطالة والمعطلين

إن من علامات البخس الذي غدت تسام به حياة التأمل أن العلماء غدوا يتبارون مع عامة العاملين من الناس في ضرب من المتعة المتعجلة، حتى ليبدو أنهم أصبحوا يولون هذا النوع من التمتّع أكثر قيمة من ذلك الذي من المفترض أن يكون المناسب لهم، والذي هو بالفعل أكثر متعة.[١٢٣] العلماء يستحون من الفراغ -*otium*؛ ومع ذلك، أي أمر نبيل هو الفراغ والعطالة! وحتى لو كانت العطالة هي *أم* الرذائل كلها، فإنها تقع على الأقل في الموقع الأقرب من كل الفضائل؛ والإنسان العاطل يظل إنسانا أفضل من العامل. -لكن، لا يذهبنّ بكم الاعتقاد بأنكم أنتم من أعني بالفراغ والعطالة، أيها الكسالى!

285

قلق الحداثة

كلما مضى المرء غربا إلا وغدت حركية الحداثة أكبر، حتى أن الأميركيين يتصورون سكان القارة الأوروبية عامة كائنات ميالة إلى حياة الهدوء والمتعة، بينما هؤلاء يتحركون في اضطراب محموم مثل النحل والزنابير. غدت هذه الحركية على مستوى كبير من السرعة حتى أن الحضارة المتطورة لم يعد بإمكانها أن تؤتي ثمارها؛ إذ يبدو الأمر كما لو أن الفصول تتدافع في نسق سريع الواحد تلو الآخر. وبفعل هذا الافتقار إلى الهدوء أصبحت حضارتنا تمضي باتجاه الإفضاء إلى همجية جديدة. لم يعرف العاملون، أي الذين لا يعرفون الراحة، في

أي وقت مضى مثل هذا الاعتبار الذي يولى لهم اليوم. ولذلك فإن أكبر التصحيحات الضرورية التي ينبغي أن تجرى على طبيعة الإنسانية تتمثل اليوم في رد الاعتبار إلى عنصر التأمل وتقويته على نحو مكثف.[١٢٤] وإنه ليحق لكل فرد يتمتع براحة في العقل والقلب أن يعتبر أنه لا يمتلك مزاجا جيدا فقط، بل أنه حائز على فضيلة عامة المنفعة، وأنه يؤدي مهمة نبيلة بحفاظه على هذه الفضيلة.

286

إلى اي مدى يكون الإنسان العامل كسولا

أعتقد أنه ينبغي على كل إنسان أن يكون له رأيه الخاص في كل مسألة يمكن أن يكون للناس فيها آراء، لأنه هو نفسه شيء خاص وفريد من نوعه وله موقع جديد وغير مسبوق بالمرة يأخذه بين بقية أشياء العالم. غير أن الكسل الذي يسكن عمق روح الإنسان الناشط يمنع المرء من أن يتدبر أمره و يعجن خبزه بيده[١٢٥]. وحرية الرأي شأنها شأن الصحة: كلاهما أمر شخصي، و في كلا الأمرين لا يمكننا أن نصوغ مفهوما عاما ينطبق على الجميع. فالأمر الذي يكون ضروريا لصحة فرد بعينه، يمكنه أن يكون سببا في المرض بالنسبة لشخص آخر، وبعض الوسائل والطرق المؤدية إلى الحرية بإمكان طبائع من مستوى راق من التطور أن ترى فيها طرقا ووسائل للعبودية.

287

Censor vitae

(الذي يحاكم الحياة)

تظل المراوحة بين الحب والكراهية لمدة طويلة من الزمن تمثل ميزة من ميزات الإنسان الذي يريد أن يكون حرا في حكمه على الحياة؛ لا

يهمل شيئا ويسجل كل شيء في حساب الأشياء؛ الخير كما الشر. ثم، وعندما يمتلئ لوح روحه بما سجله من التجارب، يغدو مجردا من كل احتقار وكل كراهية تجاه الوجود، ومن الحب أيضا، بل إنه يغدو مقيما فوقه يرمقه بعين الفرح حينا وبعين الأسى حينا آخر، تماما مثل الطبيعة، في حال صيف طورا، وفي حال خريف طورا.

288

كسب إضافي

من يريد بحق أن يصبح حرا يفقد في الأثناء ودون إكراه كل ميل إلى الأخطاء والعيوب؛ ويغدو الغضب والغم حالتين نادرتين لديه. فإرادته لم تعد ترغب في شيء سوى المعرفة والوسيلة الضرورية لها، أي: دوام الحالة التي يكون فيها في أفضل استعداد للمعرفة.[١٢٦]

289

اهمية المرض

يحدث أحيانا أن الإنسان الذي يُلزمه المرضُ الفراش يكتشف أنه عادة ما يكون مريضا بسبب وظيفته أو تجارته أو بسبب مجتمعه، وأنه قد فقد من خلالها كل علاقة واعية بنفسه: هكذا يكتسب هذه الحكمة من العطالة التي أرغمه عليها المرض.[١٢٧]

290

انطباع من الريف

عندما لا تكون للإنسان خطوط ثابتة وهادئة على خط أفق حياته، مثل جبال وحدود غابة، فإن إرادته الباطنية تكون مضطربة مثل طبعِ ساكنِ المدينة: ليس له من سعادة ولا يمنح سعادة.

291

حذر المفكرين الأحرار

يستطيع المفكرون الأحرار الذين نذروا حياتهم بكليتها للمعرفة أن يبلغوا بسهولة الغاية الظاهرية لحياتهم وموقعهم النهائي من المجتمع، ويغدو بإمكانهم أن يجدوا كفايتهم في وظيفة صغيرة أو ثروة تكفي لسد رمقهم، وهكذا يضعون لأنفسهم نمط حياة يجعلهم في مأمن من نتائج التقلبات الخارجية بما في ذلك حدوث تحول كبير في مصير الحياة العمومية، أو حتى انهيار للنظام السياسي. ينفق هؤلاء أقل ما يمكن من الطاقة في مثل هذه الأشياء، كي يستطيعوا بمجمل ما وفّروه من قوة وبما لديهم من طول نفس أن يغوصوا عميقا داخل عنصر المعرفة. هكذا يمكنهم أن يأملوا في الغوص عميقا وفي النظر إلى ما يوجد في القاع. وفي كل حدث مما يجري من حوله سيرغب مثل هذا المفكر في أن لا يأخذ إلا بطرف صغير منه، فهو لا يحب الأشياء في اتساعها وامتداد حركة ثناياها، لأنه لا يريد أن تلتف عليه تلك الثنايا. ويعرف هو أيضا أيام عمل التقيّد والتبعية والخضوع، لكن لا بد له بين الحين والآخر من يوم أحد للحرية، وإلا فإنه لن يكون بوسعه تحمل الحياة. ومن المحتمل أن حبه للناس أيضا سيصبح على قدر من الحذر وغير طويل النفس، لأنه لا يريد أن ينخرط في عالم الميول والعمى إلا بالقدر الذي يكون ضروريا لغرض المعرفة. وعليه أن يكون على ثقة في أن عبقرية العدل ستقول لتلامذته وأتباعه ذات يوم ما ينصفه إذا ما ارتفعت أصوات مُدينة تنعته بنقص في المحبة. هناك بطولة مهذّبة في نمط تفكيره وعيشه تنفر من عرض نفسها لإعجاب الجمهور، خلافا لما يفعله أخوه الذي يفتقر إلى الرهافة، وتجعله يحرص على مواصلة طريقه بصمت داخل العالم، وخارج العالم. ومهما كانت المتاهات التي يعبرها والأجراف التي كان على سيله أن يمر بصعوبة بين ممراتها

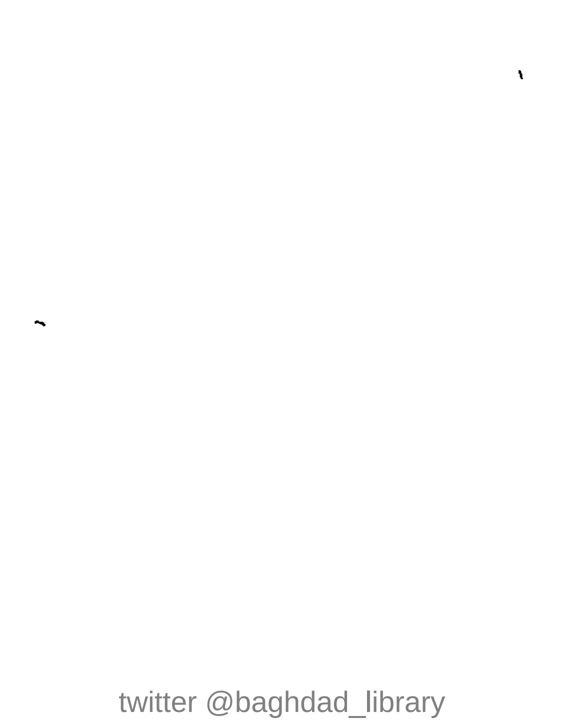
الضيقة، فبمجرد أن يخرج إلى النور، يمضي في طريقه مشعا خفيفا، دون ضجة تقريبا، ويدع أشعة الشمس تغوص متراقصة حتى أعماقه.

292

إلى الأمام

إلى الأمام إذن على طريق الحكمة، بخطى حازمة وبكل ثقة! أيا كنت وكيفما كنت، لتتخذْ من نفسك ينبوعا للطاقة! الق عنك شعور الاشمئزاز من ذاتك واغفر لنفسك إنيّتك، فلك في نفسك في كل الأحوال سلّم بمائة درجة تمكنك من الصعود إلى المعرفة. هذا العصر الذي تشعر بنفسك بكل أسى ملقى داخله يبارك سعادتك من أجل هذه الحظوة، وينْده لك بأنه ما يزال لك حظ في تجارب أخرى قد يكون على أناس من الأزمنة القادمة أن يتنازلوا عنها. لا تستهن بأنك كنت متدينا أيضا في يوم ما، وتفكّرْ مليّا كيف أنك وجدت أيضا مدخلا حقيقيًّا إلى الفن. ألا تستطيع، مستعينا بهذه التجارب بالذات، أن تتقصى بمزيد من التفهّم مسافات هائلة من مسيرة الإنسانية المبكرة؟ أليست تلك التربة التي كنت تنفر منها أحيانا كل ذلك النفور، تربة الفكر الكدِر بالذات هي التي نبت فوقها الكثير من الثمار البديعة للحضارات القديمة؟ على المرء أن يكون قد أحب الدين والفن مثل أم ومرضعة -وإلا لما أمكنه أن يصبح حكيما. لكن عليه أن يمضي بنظره إلى ما ورائهما، وأن يكون قادرا على الوقوف بهامة تتجاوز سقفهما؛ لأنه لن يمكنه فهمهما إذا ما ظل أسير جاذبيتهما السحرية. كما أنه ينبغي عليك أن تكون مستأنسا للرؤية التاريخية وللمعالجة الحذرة لكفّتي الميزان: «من ناحية-من ناحية أخرى». امض إلى الخلف متمشيا على خطى الإنسانية في مسيرتها المؤلمة الكبرى عبر صحاري الماضي: هكذا تكون قد تعلّمت على النحو الأكثر يقينا أي الطرق لا

يمكن للإنسانية ولا ينبغي عليها أن تمضي فوقها مجددا في المستقبل. وفيما أنت تريد بكل ما لديك من طاقة أن تتبيّن مسبقا على أي نحو يتواصل ربط عقدة المستقبل، تكتسي حياتك قيمةً وسيلةٍ وأداةٍ للمعرفة. إنه بيدك أن تتوصل إلى جعل كل تجارب حياتك: من محاولات، ومتاهات، وأخطاء، وأوهام، وأهواء، وحبّك وآمالك تنخرط وتندمج كلها دون استثناء في الهدف الذي رسمته لنفسك. وسيصبح هدفك هذا بدوره حلقة ضرورية داخل سلسلة حضارية بعينها، ومن منطلق هذه الضرورة سينضم إلى سلسلة الضرورة في المسيرة العامة للحضارة الإنسانية. وعندما يكون بصرك قد غدا حادا بما يكفي لكي يرى قاع البئر المظلمة لكيانك ولمعرفتك، ربما سيمكنك عندها أن ترى في مرآته كوكبة النجوم البعيدة لحضارات مستقبلية. أتعتقد أن مثل هذه الحياة بمثل هذه الغايات شيء مضنٍ للغاية ومجرد من كل متعة؟ إنك إذن لم تتعلم بعد أن ليس هناك من عسل أحلى من عسل المعرفة، وأن سحب الأسى المعلقة فوق رأسك ينبغي أن تكون الضرع الذي تستدر منه حليب ارتوائك. وسيأتي التقدم في السن، وعندها فقط سترى حقا أنك قد أصغيت إلى صوت الطبيعة، تلك الطبيعة التي تتحكم في مجمل الكون من خلال المتعة: إن الحياة التي تبلغ ذروتها في الشيخوخة، تبلغ ذروتها في الحكمة أيضا، في ذلك الإشعاع الشمسي الرقيق لغبطة عقلية مستمرة؛ وكلاهما، الشيخوخة والحكمة، ستلتقي بهما معا على ذلك المنحدر من جبل الحياة: هكذا أرادت الطبيعة. وعندها يكون قد آن الأوان، ودون أن يكون لك من داع للغضب، لكي يشرع ضباب الموت في الاقتراب. خطوة باتجاه النور؛ -حركتك الأخيرة؛ هتاف للمعرفة- صوتك الأخير.(١٢٨)



الفصل السادس

الإنسان داخل المجتمع

293

مُداراةُ مودّة

غالبا ما يكون ضروريا أن نتوخى في معاملاتنا مع الناس مداراة ودودة، كما لو أننا لم ننفذ إلى دوافع سلوكهم.

294

نُسخ

ليس نادرا أن نلتقي نسخا عن أشخاص مهمين؛ وهنا أيضا، وكما هو الحال مع نسخ اللوحات، تجد أغلب الناس يعجبون بالنسخة أكثر من الأصل.

295

الخطيب

يمكن أن يتكلم المرء بأرقى ما يمكن من الصحة، حتى أن الجميع يصرخون مع ذلك بما هو مناقض: يحدث ذلك عندما يكون كلام المتكلم غير موجّه إلى الجميع.

296

غياب الحميمية

غياب الحميمية بين الأصدقاء خطأ لا يمكن العتاب عليه دون أن يصبح مستحيلا على العلاج.

297

عن فن العطاء

أن يرى امرؤ نفسه مجبرا على رفض هدية، لا لشيء سوى أنها لم تقدم على الوجه المطلوب، فذلك ما يولّد ضغينة إزاء المانح.

298

المتحزب الأكثر خطرا

في كل حزب هناك واحد تدفع خطاباته المفرطة في الإيمان بمبادئ الحزب ببقية المنخرطين إلى الانفصال.

299

أصحاب النصائح أعداء المريض

من يقدم نصائح لمريض يكسب لنفسه شعورا بالتفوق عليه من خلال ذلك، سواء قُبلت نصائحه أم رفضت. لذلك يحقد المرضى من مفرطي الحساسية وذوي الكبريا على مقدّم النصائح أكثر من مرضهم.

300

نوعان من المساواة

يمكن للتعطش إلى المساواة أن يتجسد على نحوين؛ إما أن يسعى امرؤ إلى سحب الآخرين إلى مستواه الوضيع (من خلال تصغيرهم، أو

تجاهلهم، أوعرقلتهم)، أو أن يحاول الصعود والارتقاء مع الجميع (من خلال الاعتراف والمساعدة والفرح بنجاح الآخرين).

301

ضد الحرج

إن أفضل وسيلة لمساعدة ذوي الحرج الشديد وتهدئتهم تتمثل في الإطراء عليهم بطريقة حازمة.

302

فضائل لا تدرك إلا بفقدانها

نحن لا نولي اعتبارا خاصا بامتلاك فضيلة ما، حتى نلاحظ غيابها التام في خصمنا.

303

لماذا نناقض رأيا ما

غالبا ما نناقض رأيا، في حين لا يكون هناك من أمر لا نستسيغه في الحقيقة سوى النبرة التي عبر بها عن نفسه.

304

الثقة والألفة

من يسعى عن قصد إلى انتزاع ألفة شخص ما، يكون عادة غير واثق من أنه يحظى بثقته. ومن كان واثقا من الثقة لا يولي اعتبارا إلى الألفة.

305

التوازن في الصداقة

أحيانا يعود التوازن إلى نصابه في علاقتنا بشخص ما لمجرد أن نضع بعض حبات من الخطأ على الكفة الخاصة بنا.

306

أخطر الأطباء[١٢٩]

أخطر الأطباء هم أولئك الذين، بالمهارة المكتملة للممثل المقتدر في فن المغالطة، يستطيعون محاكاة الطبيب المقتدر.

307

عندما تكون المفارقات في موضعها

يحتاج المرء أحيانا من أجل إقناع ذوي العقل بمقولة ما إلى أن يقدم لهم تلك المقولة نفسها في شكل مفارقة.

308

كيف يتم إقناع الشجاع

يمكن إقناع الشجاع بعمل ما بأن نقدمه له على صورة أكثر خطرا مما هو عليه في الحقيقة.

309

لطافة

أولئك الذين لا نحبهم نحسب لهم كل الأعمال اللطيفة التي يقومون بها تجاهنا على أنها جرائم.

310

أن ندع أحدا ينتظر

أفضل طريقة لاستثارة غضب الناس ودس أفكار خبيثة في أذهانهم هي أن تجعلهم ينتظرون. إن ذلك يجعل المرء يغدو لا أخلاقيا.[١٣٠]

311

ضد الحميميين

الناس الذين يمنحوننا ثقتهم الكاملة يعتقدون أنهم قد اكتسبوا بذلك الحق في ثقتنا. إن هذا استنتاج خاطئ؛ فالهبة لا تمنح حقا.

312

وسيلة تعويض

يكفي غالبا أن نمنح شخصا قد أسأنا إليه فرصة كي يعبر عن فكاهة خبيثة ضدنا كي نمكنه من أن يرضي نفسه، أي أن نعدل من موقفه لصالحنا.

313

غرور اللسان

سواء أخفى المرء ميزاته وعيوبه أم اعترف بها علنا، فإن غروره يطمع في فائدة في كلتا الحالتين: لنلاحظ فقط بأية دقة يميّز ذلك المرء: أمام من يكون عليه أن يخفي تلك الصفات، وأمام من يغدو صادقا وصريحا.

314

احترام

أن نكون حريصين على أن لا نجرح أحدا وأن لا نسيء لأحد، يمكن أن يكون ذلك علامة حس عادل أو علامة جبن أيضا.

315

من متطلبات المخاصمة

من لا يعرف كيف يثلّج أفكاره لا ينبغي له أن ينخرط في لظى الخصومات.

316

الاختلاط والغرور

ينسى الإنسان الغرور عندما يعرف أنه محاط دائما بأناس مهمّين، فالوحدة تولّد الزهوّ. يكون الشبان مغرورين، لأنهم لا يختلطون إلا بأشباههم الذين لا أهمية تذكر لهم جميعهم ويودون الظهور كشيء مهمّ.

317

دوافع الاعتداء

لا يقوم الإنسان باعتداء من أجل إيلام شخص ما أو الانتصار عليه فقط، بل ربما فقط من أجل أن يغدو واعيا بقوته.

318

المجاملة

أولئك الذين يرومون تخدير حذرنا في التعامل معهم يستعملون وسيلة

خطيرة شبيهة بشراب منوّم، إن هو لم ينجح في التنويم يتحول إلى منشّط ويجعل متناوله أكثر يقظة.

319

كاتب رسائل جيد

من لا يؤلف كتبا، ويفكر كثيرا ويحيا داخل مجتمع لا يناسب مستواه يتحول إلى كاتب رسائل جيّد.

320

الأكثر قبحا

أشك في أن يكون رجل كثير الأسفار قد رأى في أي موضع من الدنيا أكثر قبحا مما في الوجوه البشرية.

321

المشفقون

المشفقون المستعدون دوما للمساعدة في أوقات الشدة نادرا ما يكونون مشاركين في المتعة: لا مكان لهم في سعادة الآخرين، فائضون عن اللزوم ولا يحسون بأي تملك لتفوقهم، ويبدون لذلك على شيء من الغم.

322

اقارب المنتحر

أقارب المنتحر لا يغفرون له أنه لم يختر أن يظل على قيد الحياة مراعاة لسمعتهم.

323

تحسبا لنكران الجميل

من يقدم هدية كبرى لا يستطيع أن يقابل باعتراف بالجميل، ذلك أن المتناول قد غدا يرزح تحت عب ثقيل لمجرد أنه تسلّم.

324

في وسط عديم النباهة

لا أحد سيشكر ذا العقل النبيه على لياقته عندما يضع نفسه في مستوى مجتمع لا يُعدّ من اللياقة لديه أن يبدي أحد شيئا من النباهة.

325

حضور الشهود

سيكون بوسع المرء أن يقفز مرة ومرة ثانية وراء رجل وقع في الماء، إن كان هناك أناس لا أحد منهم يجرؤ على فعل ذلك.

326

ان تصمت

إن الطريقة الأكثر إزعاجا للرد على خصومة بالنسبة للطرفين هي أن ينزعج أحد الطرفين ويصمت؛ إذ يتأول المعتدي ذلك الصمت عادة على أنه علامة احتقار.

327

سر الصديق

سيغدو أكثر فأكثر ندرة عدد أولئك الذين، إذا ما أعوزتهم المواضيع للمحادثة، لا يتورعون عن مد أيديهم للتناول من الأمور الأكثر سرية لدى أصدقائهم.

328

حس إنساني

يتمثل الحس الإنساني لدى مشاهير المفكرين في علاقتهم بغير المشهورين في أن يجعلوا أنفسهم مخطئين تلطّفا بهم.

329

المربِك

أولئك الذين لا يشعرون بالوثوق داخل المجتمع يستغلون كل فرصة ليستعرضوا أمام الجميع تفوقهم على من هو دونهم منزلة أو أهمية من محيطهم، بالمداعبات الساخرة مثلا.

330

الشكر

النفس المرهفة تشعر بالحرج لعلمها أن أحدا مدين لها بالشكر، أما الفجة فلعلمها بأنها هي المَدينة.

331

علامة عدم التناغم

أكبر علامات عدم التناغم في الرؤية بين شخصين هي أن يكلم كل واحد منهما الثاني بشيء من السخرية، لكن لا أحد منهما يشعر بسخرية في ذلك.

332

الغرور عند الجدارة

إن الغرور المتأتي عن الجدارة يولد إهانة أكبر للناس الذين لا جدارة لهم؛ ذلك أن الجدارة في حد ذاتها تهين.

333

خطر في الصوت

أحيانا تجعلنا نبرة صوتنا في محادثة ما نشعر بالحرج وتجرنا إلى مزاعم لا تتناسب البتة ورأينا.

334

في المحادثة

إن كنا في محادثة ما أكثر ميلا إلى منح الطرف الآخر حقا، أم إلى تخطيئه، فتلك مسألة تعوّد صرف: لهذا كما لذاك ما يبرره.

335

الخوف من الاقربين

إننا نرهب روح العدوانية لدى قريبنا، لأننا نخاف أن يتسنى له من خلال تلك الحالة أن ينفذ إلى أسرار دواخلنا.

336

تكريم من خلال اللوم

ذوو الشأن الرفيع يلقون حتى بلومهم وهم يرومون تكريمنا. فذلك من شأنه أن يجعلنا ندرك بأي قدر من الاعتبار يهتمون بنا. وبالتالي سنكون قد فهمناهم خطأ إذا ما أخذنا لومهم على ظاهره ونهضنا للتصدي له والدفاع عن أنفسنا؛ لن نفعل بذلك سوى إثارة غضبهم وتنفيرهم منا.

337

نكد في عطف الآخرين

نخطئ دوما في تقدير مدى ما نثيره في أنفس الآخرين من كراهية

وخوف، لأننا، وإن كنا ندرك جيدا مدى ابتعادنا عن شخص ما أو اتجاه أو حزب، فإن أولئك، بالمقابل لا يعرفوننا إلا بصفة سطحية، ولذلك لا يحقدون علينا إلا بصفة سطحية. نلاقي أحيانا حركة عطف لا ندرك كنهها؛ وإذا ما فهمناها اتضحت لنا الإهانة التي تلحقنا منها، لأنها تدل على أننا لم نؤخذ مأخذ الجد ولم نُمنح الأهمية التي نستحق.

338

غرور في تقاطع مع غرور آخر

عندما يلتقي شخصان على نفس الدرجة من الغرور سيحصل لكل منهما انطباع سيء عن الآخر من خلال ذلك اللقاء، لأن كل منهما كان طوال الوقت منشغلا كليا بالكيفية التي سيفلح بها في ترك انطباع جيد عن نفسه لدى الثاني إلى درجة أنه لا يشعر بأي انطباع عن الآخر. وفي النهاية يلاحظان أن كل جهودهما قد ذهبت سدى، ويلقيان بالمسؤولية في ذلك كلٌ على الآخر.

339

سلوك غير مهذب كعلامة جيدة

يجد العقل المتفوق متعة في السلوك غير المهذب والغرور، وحتى في العدوانية التي يواجهه بها شبان طموحون؛ إن ذلك هو السلوك المتوحش نفسه لحصان جموح لم يسبق أن ركبه فارس، والذي سيكون بعد حين فخورا مع ذلك بأنه يحمل مروّضه.

340

متى يكون من المحبذ أن نقبل بان نكون على خطا

سنفعل خيرا بأن نتقبل الاتهامات الموجهة إلينا دون محاولة لدحضها

عندما نعرف أن صاحبها سيجد فينا عيبا أكبر إذا ما عارضنا رأيه، بل وربما حاولنا حتى تفنيده. من المؤكد أنه، وبهذه الطريقة، سيكون هناك واحد على غير حق دوما لكنّ الحق معه دائما، حتى ينتهي به الأمر إلى أن يصبح، وبضمير مرتاح غاية الارتياح، الطاغية والمارد الأكثر فظاعة: وما ينطبق على الأفراد يمكن أن ينطبق كذلك على طبقات بأكملها من المجتمع.

341

تقدير دون المطلوب

من عادة المعتدّين كثيرا بأنفسهم أنهم كلما عبر لهم أحد عن مستوى من التقدير دون ما كانوا ينتظرون، إلا وراحوا يحاولون خداع أنفسهم والآخرين، واستعملوا مهارة الخبير النفساني المرهف كي يتأكد لهم أن الآخر قد أعرب لهم حقا عن قدر كاف من التقدير؛ وإذا لم يوفقوا في بلوغ هدفهم وتمزقت ستارة الخديعة، يطلقون العنان لنوبة أعتى من السخط.

342

رجع صدى العصور البدائية في خطاب المعاصرين

غالبا ما نتعرف داخل الطريقة التي يطرح بها الناس آراءهم للعموم على صدًى لتلك العصور القديمة التي كان الناس فيها على دراية بالأسلحة أكثر من أي شيء آخر؛ فهم يلوحون بالفكرة كما يصوّب الرامي بندقية حينا، وأحيانا يخيل إلى المرء أنه يسمع صريرا ورنين سيوف، ولدى بعض الناس يهوي الإثبات بفحيح هراوة ساحقة. وبالمقابل تتكلم النساء مثل كائنات ظلت لآلاف السنين جالسة وراء المنسج أو تعالج الإبر أو متصابيات مع الصبية.

343

الراوية

كل من يروي حكاية يجعلنا ندرك بسهولة ما إذا كان يروي بسبب شيء يهمه في ما يرويه، أم لأنه يريد أن يبدو من خلال ما يرويه مهما في أعين الآخرين. وفي الحالة الثانية سيكون عليه أن يبالغ ويستعمل شتى ضروب المفاضلات والتفخيم. ويكون في العادة راوية سيئا، لأنه لا يفكر بما يرويه بقدر ما هو يفكر في نفسه.

344

الإلقاء والملقي

من يلقي أشعارا درامية يكتشف أشياء عن طبعه الخاص: يجد صوته في بعض الحالات والمشاهد أكثر طبيعية مما هو في غيرها، خاصة في كل ما هو مؤثر أو ما هو تهريجي، ربما لأنه فقط لا يجد في حياته العادية فرصا لإبداء الحماسة أو التهريج.

345

مشهد هزلي مما يحدث في الحياة اليومية

يجتهد شخص ما في التوصل إلى فكرة ذكية حول موضوع ما كي يعرضها على مجموعة بعينها من الناس. والآن سيكون بوسعنا أن نسمع ونرى ضمن مسرحية مروية كيف يعالج ذلك الشخص أشرعته مبحرا بالمستمعين باتجاه النقطة التي سيقذف لهم فيها بفكرته، وكيف يحاول في الأثناء أن يدفع بالحديث باتجاه هدف محدد، ومن حين لحين يضيع الاتجاه، ثم يجده مجددا، وأخيرا يبلغ اللحظة المرتقبة: وهنا تضطرب أنفاسه ويكاد يختنق؛- ههنا ينبري شخص آخر من

الجمع ويختطف منه تلك الفكرة التي كانت على طرف لسانه. ما الذي سيفعله عندها؟ يعارض فكرته الخاصة.

346

غير مهذب عن غير قصد

عندما يعامل أحد ما شخصا آخر معاملة غير مؤدبة دون إرادة منه، كأن لا يحييه لأنه لم يتعرف عليه، فإن ذلك سيزعجه، مع أنه ليس لديه من مأخذ يمكن أن يأخذه على نواياه. ما يقلقه هي الفكرة السيئة التي خلّفها لدى ذلك الشخص، أو أنه يخاف عواقب سوء تفاهم، أو أنه يحزنه أن يكون قد جرح غيره؛ -هكذا يمكن أن يحدث لديه تهيج في الغرور، أو في الخوف أو الشفقة، أو فيها جميعا في نفس الوقت.

347

من إبداعات الخيانة

أن يعمد شخص إلى التصريح بالشك الجارح في شريك له في مؤامرة بأنه ربما يُعد لخيانته، بينما يكون المدعي نفسه بصدد خيانة شريكه فتلك واحدة من روائع إبداعات الخبث، إذ بذلك سيلهي الطرف الثاني ويرغمه لمدة من الزمن على عمل كل ما في وسعه للتصرف معه بشفافية وبما لا يمكن أن يثير الشكوك، بينما يكون هو، الخائن الحقيقي، قد غدا مطلق اليد.

348

الذي يهين والذي يهان

إنه أكثر متعة أن يكون الواحد هو الذي أهان ثم يطلب عفوا من بعدها، من أن يكون هو الذي أُهين ثم يَمنح عفوا. فالأول يبدي

علامة قوة في البداية، ثم علامة طيبة طبع. أما الثاني، فسيكون مجبرا، إن لم يكن يرغب في أن لا يظهر بمظهر عديم الإنسانية، على أن يعفو؛ وهكذا تغدو المتعة التي يمكن أن يمنحها إياه تصاغر الأول ضئيلة بسبب ذلك الإكراه.

349

في المحاججة[١٣١]

عندما يعارض أحدنا رأي شخص آخر ويكون في الوقت نفسه بصدد تطوير رأيه الخاص، فإن الإحالة الدائمة على رأي الآخر عادة ما تدخل تشويشا على الهيأة الطبيعية لفكرتنا الخاصة: ستبدو مضمِرة، وأكثر حدة، وربما على شيء من المبالغة أيضا.

350

خدعة

من يريد أن يطلب أمرا صعبا من أحد ما لا ينبغي له البتة أن يقدم ذلك كمشكلة، بل يطرح خطته بكل بساطة كما لو أنها هي الإمكانية الوحيدة؛ وحالما يلاحظ ارتسام ملامح الاعتراض أو المعارضة في عين الطرف المقابل، عليه أن يسارع بإنهاء المحاورة وأن لا يدع له وقتا.

351

تانيب ضمير على إثر بعض اللقاءات

لماذا يعترينا إحساس بالذنب بعد لقاء بمجمع مبتذل؟[١٣٢] لأننا لم نأخذ أشياء مهمة بجدية، أو لأننا لم نتكلم بكامل الصدق عند الحديث عن أشخاص معينين، أو لأننا صمتنا حيث كان ينبغي أن نتكلم، أو

لأننا لم ننهض في وقت محدد وننصرف، وباختصار لأننا تصرفنا في ذلك المجمع كما لو كنا ننتمي إليه.

352

نحن دوما عرضة للأحكام الخاطئة

من يتنصّت باستمرار أحكام الناس عليه، سيظل في انزعاج مستمر. فنحن نظل دوما عرضة للأحكام الخاطئة من قبل أقرب الناس إلينا (من «يعرفنا أكثر»). وحتى بعض أصدقائنا المقربين لا يفوتهم أن يعبروا عن اختلافهم معنا بكلمة حسد؛ وهل سيكونون أصدقاء لنا لو أنهم يعرفوننا جيدا؟

تؤلمنا أحكام المحايدين كثيرا، لأن لها نبرة الحياد، والموضوعية تقريبا. أما إذا ما لاحظنا أن شخصا معاديا لنا يعرفنا جيدا في مسألة نحرص على إبقائها طي الكتمان، فأي نكد عندها إذن!

353

طغيان الصورة

الفنانون ورجال الدولة الذين يستطيعون من خلال بعض الملامح، أن يشكلوا بسرعة صورة كاملة لشخص أو حدث يكونون عادة غير عادلين بسبب هذا العمل، لأنهم سيطالِبون من بعدها بأن يكون ذلك الحدث أو الشخص حقا مطابقا للصورة التي رسموها عنه؛ يطالبون بكل بساطة بأن يكون الشخص موهوبا وماكرا وظالما بالقدر الذي يحيا به في تصورّهم.

354

القريب كافضل صديق!

اليونانيون الذين كانوا يعرفون جيدا ما هو الصديق، -وهم الوحيدون

من بين كل الأمم، الذين كانت لهم فلسفة عميقة ومتنوعة عن الصداقة، حتى أنهم كانوا الأولين، والأخيرين إلى حد الآن، الذين بدت لهم مسألة الصديق مسألة جديرة بأن تُحل-، هؤلاء اليونانيون أنفسهم سمّوا القريب (قرابة دموية) بعبارة هي صيغة تفضيل لكلمة «صديق». أمر يظل مبهما بالنسبة لي.

355

صدق غير معترف به

عندما يستشهد امرؤ بنفسه في حديث («قلت ذات مرة»، «أنا أقول دائما»)، فإن ذلك يعطي انطباعا بالغرور، بينما غالبا ما يكون ذلك صادرا عن منبع مناقض للغرور، على الأقل عن صدق لا يرغب في تزيين اللحظة الحاضرة وتجميلها بأفكار من لحظة ماضية.

356

الطفيلي

إنه لمن علامات الافتقار إلى الروح النبيلة أن يفضل أحد العيش في تبعية وعلى حساب غيره، فقط كي لا يكون مضطرا إلى العمل، مع إحساس دفين بالمرارة عادة تجاه أولئك الذين يعيش في تبعية لهم. مثل هذا الطبع يكون أكثر تواجدا لدى المرأة مما لدى الرجل، وله ما يشفع له أكثر أيضا (لاعتبارات تاريخية).

357

على مذبح المصالحة

هناك أوضاع لا يمكن لشخص أن يحصل فيها على شيء من شخص آخر إلا إذا ما أهانه وجعل منه عدوا: غير أن ذلك الشعور بأن له عدوا

يظل يعذبه على نحو يغدو معه مستعدا للانقضاض على أول علامة انفراج في الأجواء من أجل التصالح معه والتضحية على مذبح المصالحة بتلك الحاجة التي كانت من قبل تعني له شيئا مهما لا يمكن التنازل عنه بأي ثمن.

358

استجداء الشفقة كعلامة على الغرور

هناك أناس إذا ما استبد بهم الحنق وألحقوا الإهانة بغيرهم يطالبون أولا بأن لا يؤاخذهم أحد على ذلك، ثم أن يشفق الناس عليهم لأنهم يعانون من مثل تلك النوبات العصبية الحادة. إلى هذا الحد يمكن أن يذهب غرور الإنسان.

359

طُعم

«لكل إنسان ثمن» (يُشترى به). -هذا ليس صحيحا. لكن يمكن أن يوجد لكل شخص طُعم سيعض عليه حتما. لذلك يحتاج بعضهم من أجل كسب عدد من الناس إلى قضية ما وإلى تلميعها ببريق محبة الإنسانية، والنبل، وعمل الخير والتضحية-وأي قضيّة لا تُمنح هذا الطعم! إنه قطعة الحلوى واللقمة اللذيذة لروحها؛ -ولآخرين غير هذا الطعم.

360

التعامل مع المديح

عندما يمتدح الأصدقاء شخصا موهوبا، فإنه غالبا ما يبدي ابتهاجه بذلك من باب الأدب واللطف، بينما الأمر لا يهمه كثيرا في الحقيقة،

ويظل كيانه العميق يبدي لامبالاة كسولة تجاه المديح ولا يقوم بحركة واحدة للخروج من الرقعة المشمسة أو زاوية الظل التي يستلقي فيها. إلا أن الناس يريدون إدخال البهجة على الآخر من خلال المديح، وسنجعلهم يغتمّون إن نحن لم نبد ابتهاجا بمديحهم.

361

تجربة سقراط

عدما يصبح شخص ما معلّما بارعا في مجال محدد، فإنه يظل بموجب ذلك عاطلا في كل ما عداه؛ غير أن الناس يحكمون بعكس ذلك تماما، كما حصل لسقراط من قبل: إن ذلك هو الوضع الحرج الذي يجعل التعامل مع المعلّمين أمرا غير مريح.

362

وسيلة دفاع

في الصراع مع الغباء يغدو أكثر الناس لينا ونعومة عنيفين بالنهاية. لعلهم يضعون أنفسهم بذلك على الطريق الصحيحة للدفاع عن النفس؛ ذلك أن الجبين الغبي يستدعي قانونًا حُجةَ جُمْع اليد. لكن، وبما أنهم كما سبق أن ذكرنا، ناعمون رقيقو الطبع، فإن تلك الحالات المزعجة ستجعلهم يتألمون أكثر مما يؤذون.

363

فضول

لو لم يكن الفضول موجودا، لما كان هناك مجال كبير للإحسان إلى القريب. لكن الفضول يتسلل إلى بيت البائس والمعوز تحت اسم الواجب أو الشفقة. ربما يكون هناك أيضا نصيب غير قليل من الفضول حتى داخل الحب الأمومي الشهير.

364

حسابات خاطئة في الحياة الاجتماعية

هذا يطمع في أن يكون شخصا مهما من خلال أحكامه، وذاك من خلال ميوله ونفوره، والثالث من خلال علاقاته، ورابع من خلال عزلته، -وجميعهم مخطئون. إذ ذاك الذي تُعرض أمامه المسرحية يعتقد أنه هو العرْض الوحيد الذي يدخل في الاعتبار.

365

مبارزة

إنصافا لكل قضايا الشرف والمبارزات يمكننا أن نقول: إذا كان شخص ذو مشاعر سريعة التجيّش لا يستطيع أن يواصل العيش إذا ما قال عنه هذا أو ذاك كلاما أو فكّر به على هذا النحو أو ذاك، فإنه يحق له أن يسوّي المسألة بموته أو بموت الطرف المقابل. أما عن كونه سريع التهيّج فذلك أمر لا كلام لنا فيه، فنحن ورثة الماضي بما فيه من عظمة ومن مظاهر شطط على حد سواء، من دونها ما كان من الممكن أن تكون هناك عظمة. ولو افترضنا الآن أن هناك نظام أصول شرف يقضي بإسالة دم عَوضاً عن الموت بحيث تنتهي مبارزة تجري وفقا للمقاييس المتعارفة بحصول تهدئة للنفوس، فسيكون ذلك أمرا حسنا للغاية، لأنه من غير ذلك ستظل أنفس بشرية عديدة معرضة لخطر الموت. مثل هذه المؤسسة سيكون من شأنها علاوة على ذلك تربية الناس على توخّي الحذر في ما يعبرون عنه ويجعل التعامل معهم ممكنا.

366

نبل واعتراف بالجميل

تُقبل الأنفس النبيلة على الاعتراف بالجميل بكل ارتياح ولا تتجنب

خائفة كل الأوضاع التي ستفرض عليها الإيفاء بذلك الواجب. كذلك ستكون فيما بعد على غاية من الارتياح وهي تعبر عن اعترافها بالجميل، بينما تحترز الأنفس الدنيئة من كل وضع ملزم، ومن بعدها تبدو في اعترافها بالجميل على قدر من المبالغة ومن التكلف. هذا السلوك الأخير هو، بالمناسبة، ما يحدث أيضا لدى أناس من أصول متدنية أو من أوضاع اجتماعية سفلى: أبسط جميل يقدم *لهم* يتراءى لهم رحمة من قبيل المعجزة.

367

لحظات الفصاحة

هناك من يحتاج إلى شخص من منزلة تفوق منزلته بشكل واضح ومعترف له بذلك كي يستطيع الكلام بفصاحة، وهناك من لا يستطيع أن يجد طلاقة في الكلام وقدرة على التصرف على أحسن وجه في أساليب الفصاحة إلا أمام من هو أدنى منه، وفي الحالتين يظل السبب هو نفسه: كل منهما لا يتكلم جيدا إلا إذا تكلم دون حرج؛ الأول، لأنه لا يشعر أمام المتفوّق بدافع المباراة والمنافسة، والثاني بسبب ذلك الشعور نفسه أمام الأدنى منزلة. لكن هناك الآن نوع آخر مختلف تماما من الناس الذين لا يتكلمون جيدا إلا إذا فعلوا ذلك بحماس المنافسة، وبنيّة الانتصار. أيهما إذن أكثر طموحا من بين هذين النوعين، ذلك الذي يتكلم جيدا عندما يجد مهيّجا لطموحه، أم ذلك الذي، ولنفس السبب، لا يحسن الكلام أو لا يتكلم البتة؟

368

موهبة الصداقة

من بين أولئك الذين يتمتعون بموهبة خاصة في ربط علاقات الصداقة

يبرز صنفان مختلفان: الأول ذو نسق تصاعدي مستمر ويجد لكل مرحلة من تطوره صديقا مناسبا تمام التناسب. وتكون سلسلة الأصدقاء التي كونها لنفسه على هذا النحو غير متصلة ببعضها غالبا، بل بينها اختلافات وتناقضات أيضا، وفقا لكون المراحل اللاحقة من تطوره تلغي المراحل السابقة أو تدخل عليها الضيم. مثل هذا الشخص يمكننا أن نسميه من باب الدعابة *سُلّما*. أما النمط الثاني فيمثل ذلك الصنف الذي يتمتع بجاذبية على أنواع مختلفة من الطباع والمواهب بما يجعله يكسب طوقا كبيرا من الأصدقاء من حوله، ويدخل هؤلاء بدورهم بموجب ذلك في علاقات صداقة بعضهم مع بعض بالرغم من كل الاختلافات التي بينهم. هذا النوع من الناس يمكننا أن نسميه *حلَقة*: ذلك أن هذا التناسق بين حالات وطبائع على غاية من الاختلاف لابد أن يكون أمرا حاصلا فيه، مركوزا في طبعته بشكل من الأشكال. وعلى أية حال فإن موهبة كسب صداقات جيدة غالبا ما تكون لدى عدد من الناس أكبر من موهبتهم في أن يكونوا أصدقاء جيدين.

369

تكتيك في المحادثة

على إثر محادثة مع شخص ما سيجد المرء نفسه على أفضل انطباع عن محادثه إن كان هذا الأخير قد منحه فرصة لإبراز فطنته الذهنية ولطافته على ألمع وجه. ويستعمل هذه الطريقة الأذكياء من الناس إذا كانوا يرمون إلى كسب تعاطف شخص ما، وذلك بأن يمنحوه خلال المحادثة كل الفرص لكي يعبر عن فكاهته وما شابه ذلك من الكلام الشيّق. ويمكننا إذن أن نتصور محادثة مسلّية بين شخصين ماكرين يسعى كل منهما لكسب ودّ الثاني، ويظلان تبعا لذلك يتبادلان التبرع

على بعضهما بأفضل الفرص للتألق دون أن يستغل أحدهما واحدة من تلك الفرص؛ وهكذا تجد تلك المحادثة نفسها تجري بكليتها دون فطنة ذهنية أو لطافة، لأن كلا من الطرفين يظل يدفع إلى الثاني بفرص إظهار الفطنة واللطافة.

370

إجلاء الكدَر

يفضل الإنسان الذي يفشل في شيء أن يلقي بالمسؤولية في ذلك على الإرادة الشريرة لشخص آخر وليس على الصدف. وسيخفف من حدّة استيائه أن يجعل من شخص بشري، لا من شيء، سببا لفشله، ذلك أنه بالإمكان الانتقام من إنسان، بينما سيكون على المرء أن يتحمل نوائب الصدف. لذلك يسارع المقربون من أمير، عندما يفشل هذا الأخير في أمر، بأن يعينوا له شخصا محددا مسئولا مزعوما عن ذلك الفشل وكبش فداء من أجل إنقاذ بقية الحاشية، لئلا يحل سخط الأمير بمجمل الحاشية، ذلك أنه لا يستطيع أن ينتقم لنفسه من إلهة الصدف نفسها.

371

التلون بلون المحيط

لماذا يكون الميل والنفور معديان إلى هذا الحد، حتى أنه لا يمكننا أن نعيش بجوار شخص ذي أحاسيس قوية دون أن نمتلئ مثل دنّ بإيجابياته وسلبياته؟ أولا، لأن الامتناع التام عن إصدار الأحكام صعب للغاية، بل هو أحيانا أمر لا يطاق بالنسبة لغرورنا؛ إن له في أعيننا لون الفاقة الذهنية والعاطفية أو الجبن، أو نقص الفحولة: هكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى اتخاذ مواقف، ربما ضد اتجاه محيطنا أيضا، إن كان في

تلك المواقف أكثر متعة لكبريائنا. غير أننا عادة -وهذا هو السبب الثاني- ما لا نعي عملية المرور من اللامبالاة إلى الميل أو النفور، بل نتعود شيئا فشيئا على نمط إحساس محيطنا، وبما أن الموافقة الودودة والتفاهم مريحان، فإننا سرعان ما نجد أنفسنا حاملين للعلامة واللون المميزيْن لمحيطنا.

372

السخرية[١٣٣]

لا تكون السخرية في محلها إلا كأداة بيداغوجية يستعملها معلم في تعامله مع تلامذة من أي نوع: غايتها هو الإذلال وإثارة الشعور بالخجل، لكنها من ذلك الفن العلاجي الذي يوقظ قرارات جيّدة ويجعلنا نشعر بالإكبار وبالاعتراف بالجميل تجاه من يعالجنا بتلك الطريقة، على غرار شعورنا نحو طبيب. يعمد المعلم الساخر إلى الظهور بمظهر الجاهل وذلك بشكل جيد يجعل التلامذة المتحاورين معه يقعون في المغالطة، وتحدوهم جرأة الاعتقاد النزيه في تفوقهم المعرفي، ويتجردون من كل حماية: يخلعون عنهم تحفظهم ويظهرون على حقيقتهم، إلى أن تحل اللحظة التي يرتد عليهم الضوء الذي كانوا يسلطونه على وجه المعلم ليُسقط أشعته المُهينة على وجوههم. لكن حيث لا تكون هناك علاقة شبيهة بتلك التي بين المعلم والتلميذ سيكون ذلك أسلوبا غير لائق و خلقا فجًا. وكل الكتاب الساخرين يعولون على ذلك النوع السخيف من الناس الذين يروقهم أن يشعروا بأنفسهم متفوقين على بقية الناس مع الكاتب الذي يعتبرونه اللسان الناطق بغرورهم. إن عادة السخرية، مثلها مثل عادة الهزء، تفسد الطبع على أية حال، وتكسب صاحبها شيئا فشيئا طبع تفوق متشفٍ:

يغدو المرء بالنهاية شبيها بكلب شرس يكون قد تعلم الضحك علاوة على العض.

373

غرور

ليس هناك من شيء ينبغي علينا أن نحذر منه مثل نمو تلك العشبة الطفيلية المسماة غرورا، والتي تفسد علينا كل حصاد جيد؛ لأن هناك غرورا في المودة، وفي التعبير عن الاحترام، وفي الحميمية العطوفة، وفي الملاطفة، وفي النصيحة الودية، وفي الاعتراف بالأخطاء، وفي الشفقة: كل هذه الأشياء الجميلة تغدو مثيرة للنفور عندما تنبت بينها هذه العشبة. والمغرور، أي ذلك الذي يريد أن يكون له من الأهمية أكثر مما هو عليه *أو مما* يمنح *له* مخطئ في حساباته دوما. صحيح أنه يضمن لنفسه نجاحا مؤقتا، ذلك أن أولئك الذين يبدي غروره أمامهم عادة ما يمنحونه الكم الذي يطالب به من الاحترام، عن خوف أو تيسيرا لحياتهم؛ غير أنهم ينتقمون لأنفسهم بلا رحمة مقابل هذا، وذلك بأن يقتطعوا معادل ما يطالب به بإفراط من القيمة التي كانوا يمنحونه إياها حتى ذلك الحين. وليس هناك من شيء يستوفي الناس حقهم منه بأغلى ثمن مثل الإذلال. فالمغرور يجعل من قيمته الرفيعة الحقيقية أمرا مشبوها وحقيرا في أعين الناس مما يدفع بهم إلى أن يدوسوا عليها بنعالهم الوسخة. وعلى المرء على العموم أن يحرص على أن لا يسمح لنفسه بسلوك ينم عن الكبرياء إلا حيث يكون واثقا كل الوثوق من أنه لن يساء فهمه وينظر إليه كغرور، أمام صديق أو زوجة على سبيل المثال. إذ ليس هناك من حماقة يرتكبها المرء في علاقاته مع الناس أكبر من أن يجلب لنفسه سمعة الغرور؛ إنه أمر أسوأ حتى من كونه لم يتعلم الكذب عن أدب.

حوار ثنائي

الحوار الثنائي هو الحوار الكامل، لأن كل ما يقوله أحد الطرفين يكتسب لونه المحدد ونبرته والحركات المرافقة *في اعتبار صارم* للطرف الآخر الذي يتحاور معه، أي بما هو مطابق لما يحدث في المراسلة من أن الشخص الواحد نفسه يتوخى طرقا عديدة متنوعة في التعبير عما يجول في خاطره، وذلك بحسب الشخص الذي يتوجه إليه بالمراسلة في كل مرة. في الحوار الثنائي هناك انحراف واحد فقط للتفكير، وهو ذلك الذي يظهره الطرف المحاور على غرار المرآة التي نرغب أن نرى أفكارنا تنعكس فيها على أجمل صورة. لكن كيف يكون الأمر لدى وجود محاورَيْن، ثلاثة محاورين وأكثر؟ هنا سيفقد الحوار حتما جزء من رهافة توجهه الشخصي، فالاعتبارات المتنوعة بتعدد المتحاورين ستتقاطع وتلغي بعضها البعض، والأسلوب التعبيري الذي يرضي الواحد لا يتماشى ونوعية الفهم لدى الآخر. لذلك سيكون على الإنسان لدى حوار يشترك فيه عدد من الناس أن ينسحب على نفسه، وأن يكتفي بعرض الوقائع كما هي، لكنه سيجرّد الأشياء من لعبة ذلك الأثير الإنساني الذي يجعل من المحادثة شيئا من أمتع الأشياء في الحياة. لنصغ فقط لتلك النبرة التي يتخذها كلام الناس في الحديث إلى مجموعات بأكملها من الناس، وسنرى أنه يبدو كما لو أن اللازمة الخلفية لكل خطابهم هي: «هذا أنا، وهذا ما أقوله، ولكم أن تتقبلوه على النحو الذي تريدون!» ذلك هو السبب الذي يجعل نساء متألقات الذهن غالبا ما يتركن لدى من يتعرف عليهن في اللقاءات المجتمعية انطباعا غير مريح، مقلق ومنفّر: إنه الحديث مع عدد من الناس وأمام عدد من الناس، هو الذي يسلبهن كل لطافتهن الذهنية ولا يظهر تحت إنارة ساطعة غير تركيزهن الواعي على ذاتهن وخططهن

التكتيكية وإرادة الانتصار أمام العموم؛ بينما تستعيد تلك السيدات في المحادثات الثنائية أنوثتهن وكل لياقتهن الذهنية.

375

مجد مؤجل

لا يمكن للأمل في اعتراف يضمنه المستقبل البعيد أن يكون ذا معنى إلا إذا ما افترضنا أن الإنسانية تظل في جوهرها ثابتة، وأن ما هو عظيم يظل حتما يدرك كشيء عظيم، لا لحقبة زمنية محددة، بل على مر الأزمنة والعصور. غير أن هذا محض خطأ، فالإنسانية تشهد تبدلا هائلا في مجمل إحساسها وأحكامها بشأن ما هو جميل وحسن؛ وإنها لتصورات واهمة أن نعتقد أننا نسير متقدمين ميْلا على الآخرين، وأن بقية الإنسانية تتبع *طريقنا*. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه بوسع رجل علم غير معترف به أن يكون واثقا من أنه سيتم اكتشافه من قبل أجيال أخرى، وأنه في أفضل الأحوال سيأتي مؤرخ في يوم ما ليعترف له بأنه كان هو أيضا على معرفة جيدة بهذا الأمر أو ذاك، غير أنه لم يكن قادرا على منح أطروحته قدرة على الإقناع. وستظل الأجيال اللاحقة تتأول عدم كسب الاعتراف على أنه ضعف في المقدرة. وباختصار، فإنه لا ينبغي أن ننحاز بسهولة إلى موقف الانعزال المغرور. وهناك على أية حال استثناءات، لكن غالبا ما تكون أخطاؤنا وحالات ضعفنا وحماقاتنا هي التي تحول دون اعتراف الآخرين بميزاتنا الكبرى.

376

عن الأصدقاء

لتنظرْ مرة واحدة فيما بينك وبين نفسك كم مختلفة هي الأحاسيس، وكم متباينة هي الآراء حتى بين أقرب الأصدقاء، وكيف أن حتى نفس

الآراء تتخذ منحى مغايرا وقوة مختلفة في ذهن أصدقائك عما هي عليه لديك، وكيف أن مئات الفرص تمنح نفسها لسوء التفاهم وللافتراق على نحو عدائي. بعد كل هذا، ستقول لنفسك: لكم هي هشة هذه الأرضية التي تقف عليها ارتباطاتنا وصداقاتنا، وكم قريبة هي الزخات الباردة والتقلبات الجوية السيئة، وأي وحدة يقف داخلها كل إنسان! وإذا ما رأى المرء كل هذا، وعلاوة عليه أيضا أن كل آراء معاصريه في اختلاف أنواعها ودرجات قوتها إنما هي على نفس القدر من الضرورة واللاإرادية التي عليها أفعالهم، وإذا ما غدت له عين ليرى تلك الضرورة الداخلية للآراء داخل تشابك غير قابل للانفصام لعناصر الطبع والمَشْغلة والموهبة والمحيط، -فإنه قد يتخلص من مرارة وحدة ذلك الإحساس الذي عبر عنه ذاك الحكيم مرة مناديا: «أيها الأصدقاء، ليس هناك أصدقاء!»[١٣٤].- بل إنه سيعترف: بلى، هناك أصدقاء، لكن الخطأ والوهم بشأنك هما اللذان قاداهم إليك؛ وقد كان عليهم أن يتعلموا السكوت، كي يظلوا أصدقاء لك؛ ذلك أن أساسا هاما ترتكز عليه مثل هذه العلاقات الإنسانية هو أن تظل بعض الأشياء المحددة مكتومة دوما، بل أن يتجنب المرء ملامستها أصلا؛ لكن إذا ما حدث أن تدحرجت تلك الأحجار الصغيرة ذات يوم، فإن الصداقة تتبع تدحرجها وتتحطم. وهل هناك من الناس من لا يُجرح جرحا قاتلا إذا ما عرف ما الذي يعرفه عنه في الحقيقة أقرب الأصدقاء إليه؟

عندما نتعلم معرفة أنفسنا والنظر إلى كياننا نفسه على أنه فلك متحرك من الأفكار والأمزجة، ونخفض تبعا لذلك من درجة تقديرنا له، سيكون بوسعنا عندها أن نستعيد توازننا في علاقتنا بالآخرين. صحيح أنه لدينا ما يكفي من الأسباب التي تجعلنا نقلل من تقدير كل شخص من معارفنا، بما في ذلك أعظم الناس من بينهم، لكن، وما

يكفي من الأسباب أيضا لكي نوجه حربة الإحساس نفسِه إلى أنفسنا أيضا. وهكذا يمكننا أن نتحمل من بعضنا البعض ما نتحمله من أنفسنا؛ وربما تحل على كل منا تلك الساعة السعيدة التي ينادي فيها:

«أيها الأصدقاء، ليس هناك أصدقاء!»، هكذا صاح الحكيم المحتضر.

«أيها الأعداء، ليس هناك أعداء!»، هكذا أنادي، أنا الأحمق الحيّ.



الفصل السابع

عن المراة والولد

377

المراة الكاملة

المرأة الكاملة نوع إنساني أرقى من الرجل الكامل، وأكثر ندرة أيضا. والتاريخ الطبيعي للحيوانات يمنحنا أداة تجعل هذه المقولة قابلة للإثبات.

378

الصداقة والزواج

من المحتمل أن يكون لأفضل صديق أن يحصل على أفضل زوجة، لأن الزيجة الموفقة ترتكز على القدرة على الصداقة.

379

امتداد لحياة الوالدين

ما يظل ممتنعا عن التسوية من أوجه التنافر في مجالي الطبع والذهن لدى الوالدين يتواصل رجع صداه في حياة الطفل وهي التي تحدد تاريخ معاناته الداخلية.

380

إرث أمومي

يحمل كل إنسان صورة أنثوية في داخله آتية من جهة الأم؛ وتلك الصورة هي التي تحدد ما يكنه للمرأة من إكبار أو احتقار، أو من عدم اكتراث بها جملة.

381

تصحيح الطبيعة

من ليس له أب جيد، سيكون عليه أن يبتدع واحدا لنفسه.

382

الآباء والأبناء

للآباء الكثير مما ينبغي عليهم أن يفعلوه، كي يصلحوا ما صنعوه بإنجابهم لأبناء.

383

خطأ نساء المجتمع الراقي

تعتقد النساء الراقيات أن شيئا لا يمكن الكلام عنه داخل المجتمع الراقي هو شيء لا وجود له.

384

مرض رجالي

إن الدواء الأكثر نجاعة لمرض الاحتقار الذاتي لدى الرجل هو أن تحبه امرأة ذكية.

ضرب من الغيرة

تقع الأمهات بسرعة في الغيرة من أصدقاء أبنائهن عندما يحققون نجاحات ذات بال. والأم عادة ما تحب *نفسها* في إبنها، أكثر من إبنها نفسه.

386

حمق عاقل

عند بلوغ النضج عمرا وفهما يستولي على المرء إحساس بأن أباه كان على خطإ إذ أنجبه.

387

طيبة امومة(١٣٥)

من الأمهات من تحتاج إلى أبناء سعداء ومحترمين، وأخرى إلى أبناء تعساء؛ وإلا لما استطاعت أن تعرب عن طيبتها كأم.

388

تنهدات وتنهدات

بعض الرجال عرفوا التنهد لأن زوجاتهم قد اختُطفن منهم، والأكثرية لأن لا أحد أراد اختطافهن.

389

زيجات الحب

الزيجات التي تعقد بدافع الحب (ما يسمى بزيجات الحب) يكون الخطأ أبًا لها، والضرورة (الحاجة) أمًّا.

390

الصداقة مع النساء

تستطيع المرأة أن تعقد علاقة صداقة جيدة مع رجل؛ لكن لابد من شيء من النفور الجسدي كي يُكتب لها أن تستمر.

391

ضجر

العديد من الناس، والنساء على وجه الخصوص، لا يشعرون بالضجر، لأنهم لم يتعلموا العمل بتفانٍ.

392

من مكونات الحب

في كل نوع من الحب لدى المرأة هناك أيضا شيء من الحب الأمومي يطل برأسه.

393

وحدة المكان منشا الدراما

لو كان الأزواج لا يتقاسمون مكان الإقامة، لكان هناك عدد أكبر من الزيجات السعيدة.

394

النتائج المعتادة للزواج

كل معاشرة لا تَرفع تسحب إلى الأسفل، والعكس بالعكس؛ لذلك عادة ما يهبط مستوى الرجال شيئا ما عندما يتخذون زوجة، بينما يرتفع مستوى النساء شيئا ما. والرجال من ذوي النزوع العقلي المفرط

يحتاجون أشد الحاجة إلى الزواج، بقدر ما يبدون من ممانعة، ممانعتَهم إزاء دواء كريه.

395

تعلّم الأمر

يجب أن يتعلم أبناء العائلات المتواضعة ضمن تربيتهم كيف يأمرون، بقدر ما يجب على أطفال آخرين أن يتعلموا الطاعة.

396

عندما يريد المخطوب أن يكون محبا

كثيرا ما يبذل المخطوبون الذين جمعت بينهم اعتبارات مصلحية جهدا من أجل أن *يصبحوا عاشقين*، كي يبعدوا عنهم ملامة البرودة والحسابات النفعية. على النحو ذاته يفعل أولئك الذين تحولوا إلى المسيحية بدافع المصلحة: يجهدون أنفسهم كي يصبحوا أتقياء حقا، إذ ذلك يسهّل عليهم تقمّص هيأة التدين.

397

الحب لا يركن إلى استقرار

الموسيقي الذي يحب الإيقاع البطيء سيظل يعزف المقطوعات نفسها بحسب إيقاع أكثر فأكثر بطء. كذلك ما من حب يركن إلى الاستقرار على حال.

398

حياء

يزداد حياء المرأة عادة بقدر ما يكون جمالها أكبر.

399

زواج في حالة جيدة من الاستقرار

العلاقة الزوجية التي يكون كل طرف فيها راغبا في بلوغ غاية شخصية محددة عن طريق الثاني تضمن لنفسها الاستقرار؛ كأن ترمي المرأة إلى الشهرة من خلال زوجها، والزوج إلى أن يكون محبوبا.

400

طبع قابل لكل صورة

تتحول المرأة عن طريق الحب إلى ما يطابق الصورة التي تكون لها لدى الرجل الذي يحبها.

401

الحب والتملك

تحب المرأة رجلا ذا منزلة مهمة عادة على نحو يجعلها ترغب في أن يكون ملكا لها وحدها. ولولا غرورها لجعلته في حبس مغلق؛ فالغرور يقتضي أن يظهر بكل أهميته أمام الآخرين أيضا.

402

امتحان الزواج الناجح

يتأكد نجاح زواج ما عندما يفلح مرة في قبول «استثناء».

403

وسيلة لإخضاع أي كان لأي شيء

يمكن أن يدجّن أي إنسان عن طريق المتاعب والمخاوف والإرهاق بشتى الأشغال والمشاغل، وأن يتم إضعافه بما يجعله لا يبدي مقاومة

أمام أي أمر يبدو له على هيأة من التعقيد، بل يستسلم له صاغرا؛ يعرف هذا الأمر الدبلوماسيون والنساء.

404

الشرف و الصدق

الفتيات اللاتي يحرصن على تأمين حياتهن المستقبلية بفضل سحر شبابهن وما تهمس لهن به أمهات فطنات من الحيل لذلك الغرض، لا يردن غير ما تريده المحظيات، مع فارق أنهن أكثر ذكاء وأقل صدقا من هذه الأخيرات.

405

اقنعة

هناك نساء يمكن للمرء أن يبحث في كل زاوية لديهن دون أن يجد أثرا لمحتوى داخلي، بل مجرد أقنعة لا غير. وإنه لجدير بالشفقة ذلك الرجل الذي يلقي بنفسه بين يدي مثل هذه الكائنات الشبحية التي لا تُشبَع رغباتها البتة، وهؤلاء بالذات هنّ اللاتي يعرفن كيف يثرن رغبة الرجل أشد الإثارة: يبحث عن روحها ويبحث؛ ويظل يبحث على الدوام.

406

الزواج كمحادثة مطوّلة

على المرء وهو يقدم على الزواج أن يطرح على نفسه السؤال التالي: هل تعتقد أنك ستظل تجد محادثة ممتعة مع هذه المرأة حتى آخر العمر؟ كل ما عدا ذلك يكون عابرا في الحياة الزوجية؛ بينما جل وقت الحياة المشتركة سيكون للحديث.

407

أحلام صبايا

الفتيات عديمات التجربة يغذين في أنفسهن التصور الذي يداعب كبرياءهن بأنه باستطاعتهن أن يجعلن الرجل سعيدا؛ ومن بعدها سيتعلمن أن ذلك يعني تقريبا: إنه انتقاص للرجل أن نعتقد بأنه لا يحتاج إلا إلى فتاة كي يغدو سعيدا. -غير أن غرور النساء يتطلب أن يكون الرجل أكثر من مجرد زوج سعيد.

408

انقراض فاوست وغريتشن(١٣٦)

حسب الملاحظة الثاقبة لأحد العلماء،(١٣٧) يشبه المثقفون الألمان المعاصرون مزيجا من ميفيستولس وفاغنر، لكن لا شيء من الانماط الفاوستية(*) على الإطلاق؛ تلك التي كان أجدادهم (في سنوات شبابهم على الأقل) يشعرون بها تضطرب في أحشائهم. وبالتالي- ولكي نواصل طرحنا- فإن هناك سببين يجعلان نماذج غريتشن لا تتناسب معهم. وبما أنها لم تعد مطلوبة فإنها آيلة إلى الانقراض.

409

الفتاة والثانوية

أرجوكم، لا تخضعوا الفتيات أيضا إلى تعليمنا الثانوي! ذاك التعليم الذي بواسطته غالبا ما جعلتم من شبان متوقدين أذكياء ومتعطشين للمعرفة نسخةً من مدرسيهم.

(*) نسبة إلى فاوست

410

بلا منافِسات

تلاحظ النساء بسهولة إذا ما كان قلب رجل ممتلَكا؛ وهن يردن أن يكن المحبوبات دون منافِس ويعبن على الرجل كل مواضيع طموحه ومشاغله السياسية واهتماماته العلمية والفنية عندما يكون له ولع بهذه الأشياء، إلا إذا ما أكسبه ذلك مجدا وإشعاعا- عندها يداعبهن الأمل، في حالة حصول العلاقة الغرامية به، في ازدياد تألقهن الخاص بتألقه؛ في هذه الحالة يقبلن به عشيقا.

411

الذكاء الأنثوي

يظهر ذكاء المرأة في شكل تمكن تام وحضور ذهني واستغلال لكل العناصر المناسبة. وينقلن ذلك لأبنائهن بالوراثة كخصلة أساسية، بينما يضيف الأب الخلفية القاتمة للإرادة. يكون تأثيره هو الذي يحدد الإيقاع والتناغم الذين ينبغي أن تجري الحياة وفقا لهما، في حين يكون مصدر اللحن هو الأم. ولنقلها لأولئك الذين يجيدون تدبّر أمورهم مسبقا: تمتلك النساء الفهم، ويمتلك الرجال الحساسية والشغف. وهذا لا يتناقض مع كون الرجال يستطيعون بالفعل تحقيق الكثير بذكائهم: إنهم يمتلكون الدوافع الأعمق والأكثر قوة، وهي التي تحرك ذكاءهم -الذي يعد في ذاته خاملا إلى حد ما-وتمضي به بعيدا. والنساء غالبا ما يتعجبن سرا من ذلك الإعجاب الكبير الذي يبديه الرجال بحساسيتهن. وإذا ما رأينا أن الرجل يبحث عن كائن عميق وحساس بينما تبحث المرأة عن كائن ذكي ونبيه ومتألق عند اختيار شريك الحياة الزوجية، فإن ذلك يبين لنا بوضوح كيف أن الرجل يبحث عن الرجل المثالي، والمرأة عن المرأة المثالية في

الحقيقة، أي أن كل منهما لا يبحث عن مكمّل، بل عن كمال ميزاته الخاصة.

412

تاكيدا لحكم هزيود[١٣٨]

إحدى علامات ذكاء المرأة هي أنها، وفي كل مكان من الدنيا تقريبا، قد عرفت كيف تجعل نفسها تتغذى على حساب غيرها، مثل اليعسوب داخل قفير النحل. ولسائل أن يتساءل عما يعنيه هذا الأمر في الأصل وعن السبب الذي يجعل الرجال لا يعيشون على نفقة النساء. يعود ذلك بكل تأكيد إلى أن غرور الرجال وطموحهم أكبر من ذكاء النساء؛ فقد عرفت النساء كيف يجعلن من تبعيتهن مطية لكسب امتيازات هائلة، بل وضمانا للسيطرة أيضا. وقد استطاع ذكاء النساء أن يتخذ حتى من تربية الأطفال ذريعة للتملص قدر الإمكان من مشقة العمل. واليوم أيضا يعرفن، إذا كان لهن عمل حقيقي، كإدارة شؤون منزل مثلا، كيف يجعلن من ذلك أمرا هائلا، بما يجعل الرجال يبالغون في تثمين فضل ذلك النشاط ويولونه عشرات أضعاف ما يستحق من التقدير.

413

حسيرو النظر هم المحبّون

أحيانا تكفي نظارات طبية أقوى لمداواة المحب؛ ومن كان حائزا على طاقة خيالية كافية كي يتمثل وجها وجسدا بعد عشرين سنة من اللحظة الحالية، ربما تكون له حظوظ في أن يمضي حياته في مأمن من القلق.

414

المرأة في حالة الكراهية

في حالة الكراهية تكون المرأة أكثر خطرا من الرجل؛ أولا، لأنها لا تعرف رادعا من العدل في فورة أحاسيسها العدائية عندما تثور ثائرتها، بل إنها تدفع بحقدها حتى الحدود القصوى لتبعاته دون حرج؛ ثم، لأنها تعرف جيدا كيف تعثر على مواقع الضعف (التي لا يخلو منها إنسان أو كائن) وتوجه طعناتها إليها: وسيكون لذكائهن الذي يشبه حد الخنجر أفضل عون لهن في ذلك (بينما تدفع رؤية الجراح بالرجل إلى التحفظ، وغالبا ما تشحذ فيه مشاعر الحِلم والمصالحة).

415

الحب

إن صبغة التأليه الذي تضفيه النساء على الحب هو في الحقيقة وفي أصله ابتكار من مبتكرات الذكاء، من حيث أنهن يضاعفن سلطتهن عن طريق هذه الضروب المتنوعة لأمثَلَة الحب ويظهرن أنفسهن في مقام المرغوبات دوما في أعين الرجال. غير أنهن، وعبر التعود المترسخ على مدى القرون على هذا التقدير المبالغ فيه للحب قد حدث أن وقعن في شباكهن الخاصة ونسين أصل المسألة. وإذا هن اليوم أكثر انسياقا إلى الوهم من الرجال ويعانين تبعا لذلك أكثر منهم من خيبة الأمل التي تعرفها حياة كل امرأة حتما-على افتراض أن يكون لهن ما يكفي من الخيال والفهم كي يخبرْن الوهم وخيبة الأمل.

416

عن تحرر المرأة

هل تستطيع المرأة أن تكون عادلة أصلا، وقد تعودت على أن تحب

وعلى أن تكون محض شعور، سواء مع أو ضد؟ لذلك أيضا نادرا ما تنحاز إلى قضية، بل إلى شخص في معظم الأحيان؛ وإذا ما انحازت إلى قضية فسرعان ما تتحول إلى مقاتلة من أجلها وتشوه بذلك العمل البريء لتلك القضية. لذلك ينشأ عادة خطر غيرُ هيّن إذا ما أوكل لها بشؤون السياسة وبأجزاء من العلم (التاريخ مثلا)؛ إذ لا شيء أندر من امرأة تعرف حقا ما هو العلم،[١٣٩] بل إن أفضل النساء يغذين تجاهه شعورا سريا مكتوما من الاحتقار، كما لو كن، وبموجب مبرر ما، أعلى مقاما منه. ربما سيكون للأشياء أن تصبح على غير هذا النحو في يوم ما، إلا أنها هكذا في الوقت الحاضر.

417

الإلهام في أحكام المرأة

القرارات الفجائية التي تتخذها المرأة عادة في مواقف الـ«مع» والـ«ضد»، والإعلان البالغ السرعة للعلاقات الشخصية من خلال انفجار نزوعات التعاطف أو النفور، وباختصار، كل دلائل الحيف الأنثوي يحيطها الرجال المحبّون بهالة المجد، كما لو أن كل النساء مسكونات بإلهام الحكمة، حتى من دون منصب دلفي[١٤٠] وإكليل الغار؛ وتظل أحكامهن لزمن طويل بعدها محل تأويل وتبرير مثل نبوءات العرافة السبيلّينية[١٤١]. لكن، إذا ما اعتبرنا أن لكل شخص ولكل شيء دوما شيء يحسب لصالحه، كما هناك دوما شيء يحسب عليه، وأن الأشياء كلها ليست ذات وجهين فقط، بل ثلاثة وأربعة وجوه، فإنه سيكون من الصعب وفقا لذلك أن تكون تلك الأحكام السريعة خاطئة بكليتها؛ بل يمكننا القول: إن طبيعة الأشياء قد ضُبطت على نحو يجعل المرأة محقّة في كل الأحوال.

418

محبا او محبوبا

بما أن أحد الطرفين في كل علاقة حب يكون الشخص المحبوب والثاني هو المحب، فقد نشأ الاعتقاد بأن هناك في كل علاقة حب كمًّا محددا من الحب؛ وكلما ازداد مقدار ما يقتطع أحد الطرفين لنفسه، كلما تناقص نصيب الطرف الثاني من ذلك. ويحدث بصفة استثنائية أن يحدّث الغرور كلا من الطرفين بأنه هو الذي ينبغي أن يكون محبوبا، بما يجعل كلا منهما يريد أن يستأثر بحب الآخر: من هنا تنشأ في العلاقات الزوجية أساسا وقائع بين المهزلة والعبث.

419

تناقضات داخل عقل المراة

وبما أن المرأة أكثر تركيزا على الشخص من الموضوع فإنه تتجاور داخل دائرة أفكارها اتجاهات متنوعة تتعارض فيما بينها منطقيا: يتحمسن عادة لأصحاب تلك الاتجاهات العديدة الواحد تلو الآخر، ويتبنين أنظمتهم جملة دون تفصيل، بحيث تنشأ لديهن دوما بقعة فراغ جديدة كلما ظهرت شخصية جديدة تستأثر بتعاطفهن. وليس من المستبعد أن تكون الفلسفة بكليتها في رأس امرأة مسنة مجرد جملة من تلك الفراغات.

420

من الذي يتالم اكثر؟

على إثر خلاف وخصومة بين رجل وامرأة، يتألم أحد الطرفين غالبا بسبب الإحساس بأنه قد تسبب في إيلام الآخر، بينما يتألم الثاني لإحساسه بأنه لم يؤذ الآخر بالقدر الكافي، لذلك يجتهد من خلال

ذرف الدموع والنحيب والهيأة المنهارة في أن يجعله يتألم أكثر بعد الخصومة.

421

مناسبة لشهامة النساء

إذا ما توخينا التفكير لمرة واحدة بمنأى عن مقاييس الاعتبارات الأخلاقية، فإنه سيكون باستطاعتنا أن نتساءل إن لم يكن من المفترض من جهة الطبيعة والعقل أن يعقد الرجل عدة زيجات متتالية، وذلك بأن يتزوج أولا في سن الثانية والعشرين من فتاة تفوقه سنا، بحيث تكون متفوقة عليه ذهنيا ومعنويا وتستطيع أن تكون دليلا له عبر مخاطر العشرينيات (الطموح، الحقد، احتقار الذات وشتى ضروب الأهواء). ثم يتحول الحب لدى هذه المرأة إلى محبة أمومة، وعندها لن تقبل فحسب، بل ستطالبه بمقتضى الحكمة النفعية وقد أصبح في الثلاثينات من عمره، أن يرتبط بفتاة أصغر سنا بكثير يأخذ على عاتقه تربيتها.

إن الزواج شيء ضروري بالنسبة للعشرينيّ، وهو نافع، لكنه غير ضروري للثلاثيني؛ أما في ما يلي ذلك من حقب العمر فسيكون مضرا في أغلب الحالات ويجر إلى التقهقر الذهني لدى الرجل.

422

ماساة الطفولة

لعله ليس من النادر أن رجالا نبلاء وطموحين قد كتب عليهم أن يُمتحنوا بأقسى صراعات الحياة في طفولتهم؛ مثلا في الصراع من أجل فرض نظرتهم للحياة ضد أب وضيع التفكير مستسلم للولع بالزيف والكذب، أو في الاضطرار إلى العيش على غرار لورد بايرون مع أم

صبيانية وذات نوبات غضبية. وإذا ما كان المرء قد عاش مثل هذا، فإنه لن يظل يعذب نفسه طوال حياته فيما بعد بالبحث عن معرفة من كان حقا عدوه الأكبر والأكثر خطرا.

423

حمق الآباء

أشنع الأخطاء في الحكم على إنسان هي تلك التي يقوم بها الآباء: هذه حقيقة واقعة، لكن بم يمكن تفسيرها؟ هل تتكون للآباء تجربة متنوعة جدا عن طفلهم يصبحون غير قادرين معها على تكوين وحدة شاملة لهذه الكثرة المتنوعة؟ يمكننا أن نلاحظ أن المسافرين بين شعوب غريبة يستطيعون إدراك الخاصيات العامة المختلفة لشعب ما خلال بداية إقامتهم فقط، وكلما ازدادت معرفتهم بذلك الشعب تناقصت قدرتهم على رؤية ما هو خصوصي ومميز لديه؛ فبمجرد أن يتعودوا على النظر عن قرب تكف أعينهم عن النظر بعيدا. أيكون السبب الذي يجعل الآباء يطلقون أحكاما خاطئة عن أبنائهم إذن هو أنهم لا يتخذون مسافة كافية في النظر إليهم؟ لكن يمكن أن يكون هناك سبب آخر مغاير تماما وهو أن الناس عادة ما يكفون عن التفكير في كل ما هو قريب ومحيط بهم، بل يكتفون بالقبول به. وبالتالي ربما يكون عدم التفكير المنجر عن العادة لدى الآباء هو السبب الذي يجعلهم يحكمون خطأ كلما دعت الحاجة إلى الحكم على أبنائهم.

424

في مستقبل الزواج

على تلك النساء النبيلات ذوات العقل المتحرر اللاتي يجعلن من تربية الجنس الأنثوي والارتقاء به مهمة لهن، أن لا يغفلن وجهة نظر مهمة

وهي: إن الزواج، منظورا إليه من جهة مفهومه الأرقى كصداقة روحية بين شخصين من جنسين مختلفين لغرض إنجاب وتربية جيل جديد، أي وفقا لما يؤمل من تلك الصداقة في المستقبل، -مثل هذا الزواج الذي لا يدخل الجانب الحسي فيه سوى كوسيلة نادرة وعابرة من أجل هدف أكبر، نخشى أن يكون بحاجة إلى مكمّل طبيعي في *اتخاذ الخليلات*، ذلك أنه إذا ما كان على الزوجة، حرصا منها على حفظ صحة الرجل، أن توجه مهمتها حصرا نحو إرضاء حاجياته الجنسية، فسيكون هناك خطأ يتخلل عملية اختيار القرينة ويتعارض والهدف المذكور من الزواج: ستصبح غاية النسل رهينة الصدفة والتربية الموفّقة أمرا مستبعدا. إن زوجة جيدة يفترض فيها أن تكون صديقة، مساعدة، منجبة، أمًّا، ربّة عائلة ومديرة شؤون، وقد يكون عليها أيضا أن تهتم بشؤونها ووظيفتها الخاصة باستقلال عن الرجل، لا يمكنها أن تكون خليلة: سيعني ذلك عموما أنه يُطلب منها ما يفوق طاقتها. وهكذا يمكن أن يحدث في المستقبل عكس ما كان متداولا في عصر بيريكليس: كان الرجال الذين لم تكن زوجاتهم أكثر من خليلات، يتوجهون بصفة موازية إلى خليلات ميلات،[١٤٢] لأنهم كانوا يحتاجون إلى جاذبية سحر المعاشرة التي تبهج القلب وتحرر العقل، ذلك السحر الذي لا يمكن أن تمنحه غير ملاحة النساء ومرونتهن الذهنية. إن المؤسسات الإنسانية، كالزواج مثلا، لا تسمح إلا بقدر معتدل من الأمثَلَة العملية، وإلا فإن معالجات فجّة تصبح ضرورية.

425

فترة إعصار التحرر النسائي

يمكن للمرء في البلدان الأوروبية الثلاثة أو الأربعة المتحضرة أن يصنع من النساء عبر قرون متواصلة من التربية ما يريد أن يجعل

منهن، بما في ذلك تحويلهن إلى رجال، ليس بالمعنى الجنسي للرجولة بطبيعة الحال، لكن بكل ماعدا ذلك من المعاني. سيتوصلن في يوم من الأيام، وعبر هذا التأثير، إلى اكتساب كل الفضائل والقوى الذكورية، وسيكون عليهن بالقابل أن يقبلن في الآن نفسه بتبني كل مظاهر ضعف الرجال وعيوبهم أيضا: كل هذا قابل للتحقق، كما قلت. لكن كيف سيمكننا تحمل الحالة الانتقالية المرافقة لهذا الأمر، والتي يمكنها هي أيضا أن تمتد على مدى بضعة قرون ستظل الحماقات النسائية وجوْرهن، وقيودهن القديمة (المتوارثة) متمسكة بتفوقها على كل الجديد المكتَسب، وكل ما حُصّل بتعلّم؟ سيكون زمنا يصبح الغضب فيه العنصر الجوهري المكوّن للوجدان الذكوري، الغضب بسبب ما ستكون عليه حال كل الفنون والعلوم التي أصبحت مغمورة موحلة تحت طمي غير معهود من الهوايتية، والفلسفة التي تختنق وتحتضر داخل التيار الجارف لثرثرة مبلبلة للعقول، والسياسة التي غدت أكثر غرابة وتحزّبا من أي وقت مضى، والمجتمع المستسلم إلى انحلال كلي، لأن حارسات القيم التقليدية قد غدون مضحكات بدورهن ولم يعد لهن من هاجس غير التوق إلى الخروج عن كل مجالات القيم. وبما أن المرأة تستمد في الحقيقة سلطتها الكبرى من القيم التقليدية، فأية وسيلة سيكون عليها أن تتخذ كي تتمكن من استعادة مثل ذلك القدر الهائل من السلطة وقد تخلّت الآن عن تلك القيم؟

426

المفكر الحر والزواج

هل يمكن لذوي العقول الحرة أن يعيشوا مع النساء؟ أعتقد أنهم في العموم، وعلى غرار طيور النبوءة في العصور القديمة، سيجدون

أنفسهم، لكونهم من صنف المفكرين الحق والذين ينطقون بالحقيقة، مدفوعين إلى *الطيران* بمفردهم.

427

سعادة الحياة الزوجية

كل عادة تحيك نسيجا من خيوط عنكبوت ما ينفك يزداد متانة من حولنا، إلى أن نلاحظ أن الخيوط قد تحولت إلى أحبولة وأننا غدونا بدورنا نقبع وسطها مثل عنكبوت قد سجن نفسه داخلها وغدا مرغما على الاغتذاء من دمه الخاص. لذلك يكره المفكر الحر كل العادات والقواعد، وكل مستديم ونهائي، ولذلك يظل يواظب دوما، وبألم، على تمزيق الشبكة التي تحيط به، بالرغم مما سيعانيه من جراح طفيفة وعميقة عديدة نتيجة لذلك؛- ذلك أن تلك الخيوط التي يمزقها، إنما هو يقتلعها من نفسه، من لحمه ومن روحه. عليه أن يتعلم أن يحب حيث كان يكره، والعكس بالعكس. بل لن يكون من المستحيل عليه أن يبذر الأسى في الحقل نفسه الذي كان يغمره بفيض خيراته.- من هنا يمكننا أن نستنتج ما إذا كان مجبولا لسعادة الحياة الزوجية.

428

قرب مشط

إن الحياة مع شخص على نحو ملاصق تجعلنا ننتهي إلى حالة شبيهة بتلك التي ننتهي إليها عندما نظل نعيد ونكرر تناول منقوشة بأصابعنا العارية، إلى أن يأتي يوم لن نجد منها بين أصابعنا سوى قطعة ورق ملطخة، لا غير. كذلك تصاب روح شخص ما بالاهتراء لما يتكرر عليها من ملامسات متواصلة؛ أو هكذا تبدو لنا على الأقل، إذ لن نرى بعدها شكلها وجمالها الأصليّين أبدا. هناك دوما شيء نخسره من

خلال علاقة مفرطة في الحميمية مع امرأة؛ وأحيانا تكون لؤلؤة حياتنا هي التي نفقدها من خلال تلك الخسارة.

429

المهد الذهبي

سيظل المفكر الحر يتنفس الصعداء كلما حزم أمره بالنهاية وقرر أن يلقي عنه تلك العناية الأمومية والحراسة التي تحيطه بها المرأة. أي ضرر سيكون له من جراء لفحة تيار هوائي حاد يحرص حارسه بكل خوف على حمايته منه، وأية أهمية بالنسبة لحياته لقدر زائد أو ناقص من ضرر حقيقي ما، خسارة، حادث، إصابة بمرض، تداين، أو احتيال، مقارنة بعبودية المهد الذهبي، وبعبودية الاستعراض (الطاووسي من حوله) والإحساس المرهق بأنه ملزم بالاعتراف بالجميل علاوة على ذلك، لما يحظى به من عناية ودلع مثل رضيع؟ لذلك يمكن لذلك الحليب الذي يغدقه عليه الحس الأمومي للنساء المحيطات به أن يتحول بسهولة إلى مِرّة.

430

كبش فداء طوعي

ليس هناك من طريقة لدى النساء المرموقات لجعل الحياة مريحة لأزواجهن، عندما يكون هؤلاء من المشاهير والعظام، من أن يجعلن من أنفسهن وعاء لاحتواء العداء العام والمزاج السلبي الطارئ لبقية الرجال. فالناس عادة ما يغفرون لعظماء عصرهم العديد من الأخطاء والحماقات، وحتى الفج من الأفعال الظالمة، شريطة أن يجدوا أحدا يتخذونه كبش فداء يحق لهم تعذيبه والتضحية به من أجل التخفيف عن أنفسهم. وليس من النادر أن تجد امرأة في نفسها الطموح الذي

يجعلها تهب نفسها لهذه التضحية، وعندها يمكن للرجل أن يكون سعيدا جدا بذلك، إذا ما كان على قدر كاف من الأنانية كي يقبل بوجود تلك الواقية الدافعة للصواعق والحامية من الأمطار والأعاصير إلى جانبه.

431

خصم لطيف

إن الميل الطبيعي لدى المرأة إلى الحياة والمعاملات الهادئة ذات الانسياب المتناسق والتناغم السعيد الشبيه بنوع من الزيت الذي يسكبه تأثيرهن المهدئ على بحر الحياة، يعمل لا إراديا ضد النزوع الداخلي إلى الأعمال البطولية لدى المفكر الحر. ودون شعور منها، تتصرف المرأة بما يشبه عمل امرئ يزيح الحجارة من درب العِداني(الخبير في علم المعادن) الجوّال كي لا ترتطم بها قدماه، في حين يكون هذا الأخير متنقلا بين الدروب من *أجل* أن ترتطم قدماه بتلك الحجارة.

432

نغمتان متنافرتان

تحب المرأة أن تكون خدومة وتجد في ذلك سعادتها؛ والمفكر الحر لا يحب أن يكون مخدوما، ويجد في ذلك سعادته.

433

زانثيبي[١٤٣]

Xanthippe

لقد وجد سقراط المرأة المناسبة لما كان يحتاجه؛ لكنه ما كان سيبحث عنها لو أنه عرفها جيدا، لأنه ما كان لبطولية ذلك العقل الحر أن

تمضي إلى هذا الحد. وبالفعل فقد كانت زانتيبي تدفع به إلى الانغماس أكثر فأكثر في عمله الحقيقي، وذلك بأن جعلت بيته جحيما لا يُركن إليه ومقامه غير قابل للإقامة. لقد علمته بذلك كيف يقيم في الشوارع وفي كل الأمكنة التي يمكن للمرء أن يثرثر فيها ويقضّي حياة كسولة، وجعلت منه بذلك أكبر جدلي شوارع لمدينة أثينا، الأمر الذي دفع به بالنهاية إلى أن ينعت نفسه بنُعرة مزعجة يضعها إله فوق رقبة الفرس الجميل أثينا ليجعلها لا تعرف الراحة أبدا.(١٤٤)

434

قصر نظر

وكما أن الأمهات لا عين ولا حس لديهن إلا لما يصَر ويحسّ من آلام تصيب أطفالهن، كذلك لا تستطيع زوجات الرجال من ذوي الطموحات الكبيرة أن يتحملن رؤية أزواجهن وهم يعانون ويتألمون، بل ومحتقَرين حتى؛ في حين قد تكون كل تلك المعاناة والآلام والاحتقار، لا علامة اختيار مصيب لنهج الحياة الذي اتبعوه فحسب، بل والضامن بأنهم بالغون ***لا محالة*** أهدافهم العظمى في يوم من الأيام. تتآمر النساء سرا ضد الروح السامية لأزواجهن، ويسعين إلى التضحية بمستقبلهم مقابل حياة حاضرة هنيئة ومريحة.

435

القوة والحرية

أيا كانت درجة التقدير الذي تبديه النساء لأزواجهن، فإنهن يقدرن أكثر ما يعترف به المجتمع من قوة ورؤى: لقد تعودنا على مدى آلاف من السنين على المشي منحنيات وبأيد مضمومة إلى الصدر أمام كل السادة وأصحاب الجاه، وعلى شجب كل مناهضة للسلطة العمومية. لذلك

يعملن دون نية مضمرة، بل بموجب الغريزة، عمل الكابح الذي يكبل حركة عجلات الفكر ويعيق اندفاعه، ويدفعن بأزواجهن في بعض الأحيان إلى أقصى درجات نفاذ الصبر، خاصة إذا ما حدثتهم أنفسهم بأن الحب هو ما يحرك النساء في الحقيقة في مثل ذلك العمل. شجب الوسائل التي تتوخاها النساء والإطراء بشهامة على دوافع تلك الوسائل؛ إنه سلوك رجالي مميز، وفي أغلب الأحيان يأس رجال أيضا.

436

Ceterum censeo[١٤٥]

إنه لمن المضحك أن نرى مجتمعا من المعدمين يقرّ بإلغاء حق الميراث، وليس أقل مجلبة للضحك من ذلك أن نرى رجالا بلا نسل يشتغلون على سن قوانين بلاد ما: ليس لهؤلاء ما يكفي من أثقال في مركبهم كي يبحروا بأمان في محيط المستقبل. غير أنه يبدو من العبث أيضا أن نرى من وضع لنفسه مهمة الانشغال بالمعرفة الشاملة والنظر في مجمل الوجود وهو يشغل نفسه بمسائل تتعلق باعتبارات عائلية من غذاء وحماية ورعاية زوجة وأطفال، ويرهقها ويسحب أمام منظاره المقرّب هذا الحجاب الكدر الذي لا تستطيع أن تخترقه سوى أشعة قليلة من عالم الكواكب البعيد. هكذا أراني أنتهي أنا أيضا إلى هذا المبدأ الذي يقر بأن كل المتزوجين مشبوهون في ما يتعلق بالمسائل الفلسفية السامية.

437

خاتمة القول

هناك أنواع متعددة من سم الشوْكران، وعادة ما يجد القدر فرصة ليضع

كأس هذا الشراب السام في فم المفكر الحر، «عقابا» له كما يقول الجميع. ما الذي تفعله النساء من حوله عندها؟ سيصرخن ويولولن وربما يزعجن راحة اللحظات الأخيرة من حياة المفكر، كما فعلن في سجن أثينا من قبل، مما جعل سقراط ينطق أخيرا: «أي كريتون، دع أحدا يُخرج عنا هذه النسوة!»(١٤٦)



الفصل الثامن

نظرة على الدولة

438

طلب الكلمة

إن الطابع الديماغوجي ونية التأثير على الجماهير أمر مشترك بين جميع الأحزاب السياسية، وتبعا للنية المذكورة تجد نفسها جميعها مجبرة على تحويل مبادئها إلى لوحات من حماقات كبرى، وترسمها كما هي على الحيطان. إنه أمر لا يمكن تغييره، بل لا يستحق حتى مجرد تحريك إصبع ضده. وفي هذا الصدد تصح قولة فولتير: «عندما يشرع الرعاع في التفكير يتلف كلُّ شيء.»(*) ومنذ أن يحدث هذا الأمر يكون على المرء أن يتلاءم مع الظروف الجديدة على غرار ما يفعله عندما يطرأ زلزال يزحزح كل العلامات القديمة التي تحدد شكل قطعة من الأرض ويحدث تغييرا على قيمة الممتلك. إضافة إلى هذا: إذا ما كانت الغاية النهائية من كل سياسة أن تجعل الحياة محتملة لأكبر عدد ممكن من الناس، فإنه سيكون من شأن هؤلاء الكثيرين أن يحددوا ما الذي يعنونه بحياة محتملة؛ وإذا ما كانوا يثقون في قدرة ذكائهم على العثور على الوسيلة المناسبة لبلوغ هذه الغاية، فماذا ستكون جدوى

(*) بالفرنسية في النص الأصلي:
"Quand la populace se mêle de raisonner, tout est perdu"

التشكيك في ذلك؟ إنهم يريدون الآن أن يصبحوا هم الصانعين لسعادتهم وشقائهم؛ وإذا ما أفلح هذا الإحساس بحرية تقرير مصيرهم، وهذا الاعتزاز بالخمس أو ست أفكار التي يحتويها دماغهم ويطرحها الآن للنور في أن يمكّن حياتهم من أن تكون حقا على قدر من المتعة تجعلهم يتحملون بارتياح التبعات الكريهة الناجمة عن ضيق أفقهم؛ فإنه لن يكون هناك إذن من اعتراض تقريبا على هذا الأمر، شريطة أن لا يمضي ضيق الأفق إلى حد المطالبة بأن يتحول *كل* شيء على هذا النحو إلى سياسة، وأن يكون على *كل* أن يعيش ويعمل وفقا لهذا المعيار. أولا، ينبغي عندها، وأكثر من أي وقت مضى، أن يسمح للبعض بأن ينأوا بأنفسهم عن السياسة وأن ينسحبوا قليلا إلى موقع الهامش؛ فهؤلاء أيضا تحركهم في هذا الاتجاه الرغبة في تقرير مصيرهم بأنفسهم مع ما يمكن أن يرافق ذلك من شيء من الكبرياء: أن يصمتوا عندما يكون هناك أكثر مما ينبغي من المتكلمين، أو فقط عندما يتكلم الكثيرون. ثم، لا بد أن يغفر لهؤلاء القلة من الناس عندما لا يولون اعتبارا خاصا لسعادة الكثيرين، شعوبا كانوا أم طبقات بعينها من الشعب، وأن يدعوا علامات السخرية ترتسم بين الحين والآخر على محياهم، ذلك أن لجديتهم موقع غير هذا، ولسعادتهم مفهوم آخر، وهدفهم لا تحتويه أي يد فقط لمجرد أنها ذات خمس أصابع، ولا شيء غير خمس أصابع. وأخيرا- وهذا هو ما لا يُسمح لهم به إلا بصعوبة فائقة، ومع ذلك سيسمح لهم به- تأتي بين الحين والحين لحظة يخرجون فيها من عزلتهم الصامتة ليجربوا مرة أخرى قوة صوتهم؛ عندها يشرعون في مناداة بعضهم مثل تائهين داخل غابة، كي يعرّف الواحد منهم بنفسه للآخر ويشجعوا بعضهم البعض، وتطلع من بين تلك النداءات أشياء تعبر عن نفسها جهرا من تلك التي تخدش مسامع الذين لم تُجعل لهم. أخيرا، ومباشرة بعدها يعود

السكون إلى الغابة، سكون يجعل المرء قادرا على تبيّن كل حفيف وطنين وخفقان جناح يندى عن الحشرات الكثيرة التي تحيا داخل الغابة وفوقها وتحتها.

439

الحضارة والطبقة

لا يمكن أن تولد حضارة راقية إلا حيثما كانت هناك طبقتان متوازيتان داخل المجتمع: طبقة العاملين وطبقة العاطلين القادرين على عطالة حقيقية، أو بعبارة أبلغ: طبقة العمل الإجباري وطبقة العمل الحر. وهنا تغدو مسألة تقاسم النعيم شيئا غير ذي أهمية عندما يتعلق الأمر بإنتاج حضارة راقية؛ غير أن طبقة العاطلين تظل على أي حال هي الأكثر قدرة على المعاناة، وهي الأكثر معاناة، نصيبها من طمأنينة الحياة أضعف ومهمتها أعظم. أما إذا ما حصل تبادل بين الطبقتين، بحيث يكون على عائلات وأفراد من الطبقة العليا ممن خبت جذوتهم وخمدت طاقاتهم الذهنية أن ينحدروا إلى الطبقة السفلى، بينما يتمكن أحرار من هذه الطبقة من الارتقاء إلى الطبقة العليا، وبهذا يبلغ المجتمع وضعا لا يُلمح من ورائه غير محيط شاسع من الأماني اللامحدودة. هكذا يحدثنا الصوت الذاوي للعصور القديمة؛ لكن هل ما تزال هناك آذان للاستماع إليه؟

440

أشياء تجري في العروق

ما يجري في عروق رجال ونساء كجبلّة حاصلة فيهم تمنحهم حقا لا منازع فيه في أرقى آيات التقدير، يتمثل في فنّين متناقليْن وفي تطور مطرد عبر الوراثة: فنّ القيادة، وفن الطاعة بأنفة. غير أنه، وحيثما

تكون القيادة فعلا من قبيل الأشغال اليومية (على غرار ما يحدث في عالم التجارة الكبرى والصناعة)، ينشأ شيء شبيه بهؤلاء النبلاء «بالدم»، لكن تنقصهم نبالة الموقف في الطاعة، تلك التي تكون لدى النبلاء موروثَ أوضاع إقطاعية، والتي لم تعد تريد النمو داخل مناخ حضارتنا.

441

خضوع

عما قريب سيغدو الخضوع الذي يقام له وزن كبير داخل الدول العسكرية والبيروقراطية، أمرا غريبا لدينا، على غرار ما أصبح عليه الآن نظام اليسوعيين المقفل. وعندما يصبح الخضوع أمرا غير ممكن سنرى كمًّا من التأثيرات المدهشة وقد أصبح غير قابل للتحقق، وسيغدو العالم أكثر فقرا. لابد أن يضمحل الخضوع، لأن الأساس الذي ينبني عليه بصدد الاضمحلال: الإيمان بالسلطة المطلقة، وبالحقيقة القطعية. وحتى داخل الدول العسكرية يظل الإكراه الجسدي غير كاف لإنتاجه، بل يلزم ذلك الإجلال المتوارث للإمارة، كإجلال لشيء متعال على المنزلة البشرية. أما في ظل علاقات أكثر تحررا فإن الإنسان لا ينضوي تحت نظام إلا بشروط، وفقا لتعاقد بين مختلف الأطراف، أي مع كل التحفظات الممكنة بشأن المصلحة الشخصية.

442

الجيوش الوطنية

تتمثل أكبر سلبيات الجيوش الوطنية التي يكثر تمجيدها اليوم في تبديد رجال من الحضارة الراقية؛ رجال لم يتحقق وجودهم إلى بفضل تضافر جملة من الظروف المناسبة؛- ولكم كان علينا أن نحيطهم بكل

الرعاية والخوف والاقتصاد، ذلك أنه تلزمنا حقب طويلة من الزمن كي تحصل صدفةُ اجتماع الظروف الملائمة لإنتاج مثل هذه العقول مرهفة التنظيم والدقة! غير أنه، وكما كان الإغريق يريقون الدم الإغريقي، كذلك يفعل الأوروبي اليوم بالدم الأوروبي؛ علما وأن الرجال الأكثر تكوينا وثقافة هم الذين تتم التضحية بهم في أغلب الأحيان، أولئك الذي بإمكانهم أن يضمنوا نسلا وفيرا وممتازا، إذ هم الذين يقفون في الخطوط الأمامية للمعارك كقادة، ويعرضون أنفسهم، بدافع من طموحاتهم الراقية، أكثر من غيرهم إلى الهلاك. اليوم، وقد أصبحت هناك مهام مغايرة أسمى وأهم، فإن الوطنية الرومانية الفجة، المعبر عنها في شعار «الوطن والشرف» (*patria e honor*)، ستصبح إما شيئا مفتعلا غير صادق أو علامة تخلّف.

443

الأمل كضرب من الادعاء

سيكون على نظامنا الاجتماعي أن يذوب تدريجيا، كما حدث لكل الأنظمة السابقة لمجرد أن أرسلت شمس الأفكار الجديدة أشعتها الملتهبة فوق الإنسانية. ونحن لا يمكننا أن نتمنى حصول هذا الذوبان إلا بأن نأمل فيه: ولا يحق للمرء أن يأمل بصفة معقولة إلا إذا ما كان هو وأشباهه يحملون في عقولهم وفي قلوبهم قوة أكبر مما يحمل ممثلو النظام القائم. وعادة ما يغدو هذا الأمل محض ادعاء وثقة مفرطة في النفس.

444

الحرب

مما يمكن أن يقال في الحرب أنها تجعل المنتصر بليدا والمنهزم

شريرا، وفي صالحها أنها تهمّج في كلا التأثيرين المذكورين وتجعل الجميع أكثر طبيعية: إنها فترة نوم أو سبات شتوي بالنسبة للثقافة، يخرج الإنسان منها أكثر قوة وقدرة على الخير والشر.[١٤٧]

445

في خدمة الأمير

أفضل ما يفعله رجل الدولة، كي يستطيع أن يتصرف دون رادع، أن لا يقوم بعمله لحسابه الخاص بل خدمةً لأمير. إن بريق ذلك التجرد العمومي سيبهر عين الملاحظ على نحو يجعله يعمى عن كل تلك الخدع والشناعات التي ترافق عمل رجل الدولة.

446

مسالة قوة، لا مسالة حق

بالنسبة للناس الذين يتناولون كل قضية من وجهة المصلحة العليا لا يوجد في الاشتراكية، إذا ما افترضنا أنها *حقا* انتفاضة المضطهدين والمحرومين منذ آلاف السنين ضد مضطهديهم، أية مشكلة تتعلق *بالحق* (كما يُطرح من خلال السؤال المضحك والمائع: «إلى أي حد ينبغي أن نستجيب إلى مطالبها؟»)، بل مشكلة *قوة* فقط («إلى أي مدى *يمكننا* أن نستغل مطالبها؟»)؛ تماما كما هو الشأن إزاء قوة طبيعية، كالبخار، على سبيل المثال، الذي، إما أن يُسخّر كإله ميكانيكي لخدمة الإنسان، أو أنه، في حالة حدوث أخطاء على الآلة، أي على الحسابات البشرية عند صناعتها، يدمر الآلة والإنسان معا. ولكي نحل مسألة القوة هذه علينا أن نعرف مدى قوة الاشتراكية، وبأي نوع من التعديلات يمكن استعمالها كرافعة قوية داخل آلية اللعبة السياسية الحالية؛ بل ينبغي عند الضرورة أن نفعل ما بوسعنا لتقويتها. على

الإنسانية أن تفكر إزاء كل قوة- بما في ذلك الأكثر خطرا- في الطريقة التي تحولها إلى أداة لخدمة غاياتها. ستتمكن الاشتراكية من حيازة الحق فقط عندما يتطور الصراع بين القوتين؛ ممثلي الجديد والقديم، إلى حرب معلَنة، وعندما تؤدي الحسابات الذكية بشأن إمكانيات الحفاظ على النفس والتوافق إلى الدفع بالطرفين إلى ضرورة إجراء تعاقد. دون عقد ليس ثمة حق. غير أنه، وإلى حد الآن، لا وجود في هذا المجال لا لحرب ولا لعقود، إذن لا حقوق ولا «إلزام».

447

استعمال لأبسط الإخلالات بالنزاهة

تكمن قوة الصحافة في كون كل فرد ممن يخدمها لا يكاد يشعر بأي التزام أو ارتباط. يقول رأيه عادة، لكنه لا يقوله أيضا في بعض الأحيان خدمة لمصلحة حزبه أو سياسة وطنه أو لمصلحته الخاصة. مثل هذه المخالفات الصغيرة المخلة بقواعد النزاهة، أو فقط هذا الصمت غير النزيه، لا يعسر تحملها على الأفراد، إلا أن نتائجها جسيمة، لأنها مخالفات صغيرة يقترفها الكثيرون في نفس الوقت. وكل واحد من هؤلاء يقول لنفسه: «بمثل هذه الخدمة الصغيرة يمكنني أن أسهل على نفسي الحياة، وأستطيع أن أتدبر قضاء شؤوني، ومن دون هذه الحركات اللطيفة الصغيرة سأجعل من نفسي شخصا لا يُطاق» . ولأنه لا يبدو مهمًا تقريبا من الناحية الأخلاقية كتابة سطر زائد أو عدم كتابته، ومن دون إمضاء علاوة على ذلك، فإنه سيكون بإمكان من كان ذا مال وسلطة أن يجعل من كل رأي رأيا عاما. والذي يعرف أن أغلب الناس ضعفاء فيما يتعلق بالأشياء التافهة ويريد أن يبلغ مآربه عن طريقهم، يكون دائما إنسانا خطيرا.

448 -

النبرة المفخّمة في الاتهام

عندما يتم رسم صورة مبالغ فيها عن وضع خطير (عيوب في تسيير إداري، أو ارتشاء، أو محاباة داخل الهيئات السياسية والعلمية) وتقديمها بطريقة شديدة التفخيم، فإن العرض يخسر فعلا من فاعليته لدى المتبصرين، لكنه يؤثر بشكل أقوى لدى غير المتبصرين (أولئك الذين سيقابلون الأمر بكل لامبالاة لو يتم العرض بصفة دقيقة ومتوازنة). لكن، وبما أن هؤلاء الأخيرين يمثلون الفئة المعتبرة من حيث العدد وينطوون على قوة إرادة أمتن واندفاع أعتى إلى الفعل، فإن هذه المبالغة ستتحول إلى فرصة للاختبارات والعقوبات والوعود وإعادة الهيكلة. بهذا يكون مفيدا اعتماد المبالغة في عرض الأزمات.

449

صانعو الأحداث المزعومون في المجال السياسي

وكما يعتقد الشعب في قرارة نفسه أن ذاك الذي يفقه شيئا من أحوال الطقس ويستطيع التكهن بمجرياته قبل يوم هو الذي يصنع الطقس، كذلك ينسب حتى المثقفون والعلماء برصيد هائل من المعتقد الخرافي إلى عظماء رجال الدولة كل التغيرات والملابسات الهامة التي تحدث في فترة حكمهم على أنها من صنع عملهم الخاص، فقط لمجرد أن يبدو واضحا أن هؤلاء كانوا على علم أكثر من غيرهم بحدوثها وقد أعدوا حساباتهم وفقا لذلك: وهكذا يصبحون صانعي طقس في أعين الناس هم أيضا؛ وهذا الاعتقاد ليس أدنى أداة لسلطتهم.

المفهوم القديم والمفهوم الجديد للحكومة

إن التمييز بين الحكومة والشعب، كما لو أن الأمر يتعلق هنا بدائرتين منفصلتين للسلطة، واحدة أكثر قوة وأرقى منزلة تتفاوض وتعقد الاتفاقات مع أخرى أضعف وأدنى منزلة، هو في الحقيقة جزء من إحساس سياسي متوارث مازال يعكس التصور التاريخي لموازين القوى داخل *أغلب* الدول من عصرنا الحالي. وعندما يعرّف بيسمارك مثلا الشكل الدستوري للحكم بأنه صيغة توافق بين الحكومة والشعب، فإنه يتكلم وفقا لمبدإ له مبرراته المعقولة في التاريخ (مع ما يرافق ذلك حتما من لامعقولية في المقابل، تلك اللامعقولية التي لا يمكن أن يتم وجودٌ لشيء إنساني من دونها). وبالمقابل يُطلب منا الآن أن نتعلم -وفقا لمبدأ نابع من الأدمغة، وسيكون عليه بدء من الآن فقط أن يصنع تاريخا- أن الحكومات ليست سوى جهاز للشعب لا «كيانا فوقيا» راعيًا وجديرا بالمهابة مقابل «تحت» معتاد على التواضع. وقبل[١٤٨] أن نقبل بهذا المفهوم الذي ما يزال لاتاريخيا واعتباطيا إلى حد الآن، وإن كان أكثر منطقية، سيكون علينا أن نتفكّر أولا في التبعات التي ستنجر عنه: ذلك أن العلاقة بين الشعب والحكومة هي العلاقة النموذجية الأكثر قوة التي تتشكل على منوالها بصفة آلية مجمل العلاقات، بين المعلم والتلميذ، وبين السيّد والخادم، والأب والعائلة، والقائد العسكري والجنود، والحرفيّ المتمرّس والصبيّ. كل هذه العلاقات سيعاد تشكّلها اليوم تحت تأثير شكل الحكومة الدستورية السائد: أي *تتحول* إلى صيغ توافق. لكن أية انقلابات وأية تحولات وتغييرات في الإسم والكيان ستشهدها عندما سيصبح هذا المفهوم الجديد متمكّنا من العقول! -الأمر الذي قد يتطلب قرنا من الزمن على أية حال. ههنا يغدو أكبر ما يمكننا أن

نتمناه في هذا الصدد هو الحذر والتطور التدريجي البطيء.

451

العدالة وسيلة إغراء بيد الأحزاب

يمكن لممثلين نبلاء (وإن كانوا قليلي التبصر) عن الطبقة الحاكمة أن يأخذوا على أنفسهم عهدا: «نريد أن نعامل جميع الناس على قدم المساواة، ونقر لهم بحقوق متساوية»، وعلى هذا الأساس يصبح نهج اشتراكي قائم على العدالة ممكنا، لكن داخل الطبقة السائدة التي ستمارس في هذه الحالة العدالة من خلال التضحيات ونكران الذات. وبالمقابل فإن *المطالبة* بالمساواة على غرار ما يفعله اشتراكيو الطبقة المسودة لا تنبع على الإطلاق عن مبدأ العدالة، بل عن الطمع. فعندما نضع قطعة لحم طازجة أمام عيني وحش مفترس، ثم نسحبها، إلى أن يشرع في الزعيق؛ أتعتقدون أن ذلك الزعيق يعني حسّ عدالة؟

452

الملكية والعدالة

عندما يُثبت الاشتراكيون أن تقسيم الملكية في المجتمع الإنساني الحالي هو نتيجة لعدد لا يحصى من المظالم وممارسات العنف، ويعلنون رفضهم الجملي للامتثال لشيء متأسس على الظلم، فإنهم لا يرون سوى أمر جزئي. فمجمل الحضارة الماضية قد تم تأسيسها على العنف والعبودية والخديعة والخطأ؛ إلا أننا لا نستطيع، نحن ورثة كل هذه الملابسات ومترسّبات كل ذلك الماضي أن نلغي أنفسنا بمرسوم، ولا يحق لنا أن نرغب في اجتثاث ولو جزء واحد من ذلك الماضي. فروح الجوْر متمكنة من نفوس غير المالكين أيضا، وهم ليسوا أفضل من المالكين، ولا يتمتعون بأي امتياز أخلاقي، إذ في وقت ما كان

أسلافهم ملاكين هم أيضا. إن الأمر لا يتطلب إعادة توزيع بوسائل عنيفة، بل تغييرات تقلب الذهنية؛ ينبغي أن يصبح مبدأ العدالة لدى الجميع أمتن وغريزة العنف أضعف.

453

ربّان الانفعالات

يخلق رجل الدولة انفعالات جماهيرية بهدف الانتفاع من الانفعالات المضادة التي تستثيرها. لنأخذ مثالا على ذلك: يعرف رجل الدولة الألماني حق المعرفة أن الكنيسة الكاثوليكية لا يمكنها أبدا أن تتوافق في مشاريعها مع روسيا، بل إنها ستفضل التحالف مع الأتراك على حلف مع روسيا. كما يعرف أيضا أن حلفا بين فرنسا وروسيا هو أكبر ما يمكن أن يتهدد ألمانيا من مخاطر. وإذا ما توصل إلى أن يجعل من فرنسا موطنا ومعقلا للكنيسة الكاثوليكية فإنه سيكون قد أزاح ذلك الخطر لمدة طويلة من الزمن. وبالتالي سيكون من مصلحته أن يبدي العداوة تجاه الكاثوليكيين وأن يحوّل عن طريق شتى أنواع العدوانية كل الذين يقرون بسلطة البابا إلى قوة سياسية متوقدة بالحماس تبدي العداء للسياسة الألمانية وتندمج بطبيعة الحال في القضية الفرنسية كضد لألمانيا: ويكون هدفه من وراء ذلك أن يجعل انضواء فرنسا تحت لواء الكاثوليكية أمرا ضروريا بالقدر الذي كان يراه ميرابو في تخليص فرنسا من الكاثوليكية كطريقة لخلاص بلاده. هكذا تسعى دولة إلى سحب الظلام على ملايين العقول في دولة أخرى كي تستطيع أن تستفيد من تلك الظلامية. إنها الخلفية الذهنية ذاتها التي تدفع إلى مساندة الشكل الجمهوري للحكم في الدولة المجاورة -الفوضى المنظمة(*)، كما

(*) بالفرنسية في النص الأصلي: “le désordre organisé”

يقول ميريمي[١٤٩]-لسبب وحيد، وهو أنها تعتقد أن ذلك سيجعل شعب تلك الدولة أكثر ضعفا، وأكثر انقساما، وعاجزا عن الحرب.[١٥٠]

454

أخطر صنف من العقول الثورية

لنميّز لدى الذين يسعون إلى الثورة بين صنفين؛ أولئك الذين يعملون لصالحهم الخاص، وأولئك الذين يريدون تحقيق شيء لأبنائهم وأحفادهم. هؤلاء الأخيرون هم الصنف الأكثر خطورة، ذلك أنهم يتمتعون بالإيمان بنزاهة غرضهم وبما تمنحه من راحة ضمير. أما الآخرون فبالإمكان إرضاؤهم، والطبقة الحاكمة لها ما يكفي من الفطنة والثراء لتحقيق ذلك. إن الخطر يبدأ حالما تغدو الأغراض غير شخصية، فالثوريون الذين يعملون لغير المصلحة الشخصية يحق لهم أن يروا في كل المدافعين عن النظام القائم أناسا تقودهم المنفعة الشخصية، ويشعرون أنهم أسمى منهم بسبب ذلك.

455

الأهمية السياسية للأبوة

عندما لايكون للمرء أبناء لا يكون له بالتالي كامل الحق في التداول في شؤون دولة بعينها.[١٥١] على المرء أن يضع مع الآخرين أحَبّ ما لديه في الميزان؛ بذلك فقط تتكون الصلة المتينة بالدولة؛ وعلى المرء أن يضع نصب عينيه سعادة نسله، وأن يكون له نسل قبل كل شيء، كي يكون له حق طبيعي ومستحَقّ في المشاركة في كل المؤسسات وفي العمل على تغييرها. إن تطور الأخلاق السامية تتطلب أن يكون للمرء أبناء، فذلك يجرده من الأنانية؛ أو بصفة أصح: يجعل أنانيته تمتد

على مدى زمني أبعد، ويجعله يتابع جديًا أهدافا تقع في ما وراء حياته الخاصة.

456

الاعتزاز بالأسلاف

يحق للمرء أن يكون فخورا بسلسلة متصلة من ***الأجداد الصالحين*** انحدارا حتى الأب، لكن ليس بالسلالة في ذاتها، إذ ما من أحد لا يملك سلالة. إن الانحدار من سلالة طيبة هو ما يحدد النبالة الأصيلة؛ ويكفي انقطاعٌ واحد في تلك السلسلة، أي جد واحد سيء، كي يلغى الأصل النبيل. ينبغي علينا دائما أن نسأل كل من يتكلم عن نبالته: ألا يوجد في سلالة أسلافك رجل واحد عنيف، شجع، شرير، شنيع؟ فإذا ما استطاع أن يجيب بصدق ورضى أن لا، كان لنا عندها أن نطلب صداقته.

457

عبيد وعمال

إن حقيقة أننا نعلق أهمية أكبر على إرضاء غرورنا مما نعلق على كل ما عدا ذلك من أسباب رفاهيتنا (الأمان، المسكن وشتى أنواع المتع) تتجلى بدرجة مضحكة من السخافة في أن كل الناس (بصرف النظر عن الدوافع السياسية) يتمنون إلغاء العبودية ويشجبون بشدة لامتناهية أن يزج ببشر في مثل ذلك الوضع؛ في حين أن كلا منهم لا بد أن يقول لنفسه إن العبيد كانوا في كل الأحوال وبكل الاعتبارات يتمتعون بحياة أكثر أمانا وسعادة من حياة العامل في العصر الحديث، وأن عمل العبيد كان أقل بكثير مما يقوم به «العامل». نحن نحتج باسم «كرامة الإنسان»، وهذا يعني بعبارة أكثر بساطة إنه ذلك الغرور المحبّب

للأنفس الذي يرى في عدم المعاملة على قدم المساواة وفي القياس مقاس الدونية علنا القدر الأكثر قسوة على الإنسان. غير أن الكلبيّ يرى غير ذلك، لأنه يزدري بالشرف؛ وهكذا كان ديوجينس لمدة من الزمن عبدا ومربيا منزليا.

458

الأدمغة المسيّرة وأدواتهم

نلاحظ أن رجال دولة كبارا، وعلى العموم كل أولئك الذين يستخدمون عددا كبيرا من الناس لتسيير وإنجاز مخططاتهم، يتعاملون مرة على هذا النحو ومرة على ذاك: إما أنهم يتوخون طريقة دقيقة للغاية في اختيار الرجال المناسبين لمخططاتهم، ثم يتركون لهم حرية كبيرة نسبيا في أداء عملهم، لأنهم يدركون أن طبيعة هؤلاء المصطفين ستقودهم حتما إلى حيث يريدون هم أن يصلوا بهم؛ أو أنهم يقومون باختيار سيء، بل يتناولون ما تقع عليه أيديهم دون انتقاء، لكنهم يشكلون من تلك المادة ما يناسب خدمة غايتهم. هذا النوع الأخير من القادة هو الأكثر عنفا، ولا يطلب غير الطيّع والأكثر خضوعا من الأدوات؛ وعادة ما تكون معرفتهم بالإنسان من مستوى أدنى واحتقارهم للإنسان أكبر مما لدى أصحاب الطائفة الأولى، لكن الآلة التي يصنعونها تعمل عادة بصفة أفضل من تلك التي تخرج من ورشة الآخرين.

459

ضرورة القانون الإكراهي

يتخاصم رجال القانون حول ما إذا كان القانون الأكثر حبكة، أم ذلك الذي المتيسر للفهم هو الذي سيكون ناجحا لدى شعب من الشعوب. يبدو النمط الأول الذي يستقي مثاله الأرقى من النموذج الروماني

عسيرا على الفهم بالنسبة لغير المختص، وبالتالي لا يبدو المعبّر عن حسه القانوني. أما القوانين العرفية، كالقانون الجرماني مثلا، فقد كانت بدائية، خرافية، غير منطقية و سخيفة في جزء منها، إلا أنها كانت توافق جملة من التقاليد والأحاسيس المتوارثة. وحيثما لا يكون القانون تقليدا، كما هو الحال لدينا، لا يمكن أن يكون إلا *أمرًا* وإكراها؛ فنحن جميعنا غدونا فاقدين للإحساس القانوني التقليدي، لذلك علينا أن نكتفي بالقوانين الإكراهية التي هي تعبير عن ضرورة تقضي بأنه يجب *أن يكون هناك* قانون. ويظل الأكثر منطقية على أية حال هو الأكثر قبولا، لأنه هو الأكثر حيادية: حتى وإن سلمنا بأن أصغر وحدة قياسية في ما يخص العلاقة بين الجناية والعقاب يتم وضعها اعتباطيا في كل الأحوال.

460

الرجل العظيم في عين الجمهور

إن الوصفة التي تجعل الجماهير تسمي رجلا بالعظيم سهلة للغاية. على المرء في كل الأحوال أن ينجز لها شيئا يكون ممتعا بالنسبة لها، أو أن يضع في ذهنها أولا أن هذا الأمر أو ذاك سيكون ممتعا، ثم يمنحها إياه. على أن لا يكون ذلك في الحين، بأي حال من الأحوال: بل ينبغي أن ينتزعه بجهد جهيد، أو يبدي أنه ينتزعه بجهد، وبعدها يمنحها إياه. لابد أن يكون للجماهير انطباع بأن قوة إرادة عاتية هناك، إرادة لا تقهر، أو ينبغي على الأقل أن تبدو كما لو أنها هناك. فالإرادة القوية محل إعجاب كل الناس، لأن لا أحد يملكها، وكل واحد يقول لنفسه بأنه لو يمتلكها فستضمحل كل الحدود من أمامه ومن أمام أنانيته. وإذا ما اتضح الآن أن هذه الإرادة القوية تنتج أثرا مرضيًّا على الجماهير بدلا من الاهتمام بأمنيات جشعها الخاصة، فإن

الناس سيبدون مرة أخرى إعجابهم بها وسيهنئون أنفسهم بتلك السعادة. وإذا ما كانت هذه الإرادة القوية متسمة بكل خصائص الجماهير، فإن ذلك سيجعلها تفقد أكثر فأكثر الشعور بالخجل من نفسها أمامها، ويجعلها تغدو أكثر فأكثر شعبية. أي: أن يكون عنيفا، حسودا، نهّابا، دسّاسا، متملقا، متصاغرا، منتفخا غرورا، وذلك بحسب الأوضاع والأحوال.

461

الأمير والإله

يتعامل الناس مع أمرائهم غالبا بطريقة مماثلة لتعاملهم مع آلهة، مثلما كان الأمير غالبا ممثل الله على الأرض، أو كاهنه الأكبر على الأقل. لقد عرف هذا الإحساس الفظيع بما يتسم به من إجلال وخوف وحياء تراجعا منذ زمن وغدا اليوم أكثر ضعفا، إلا أن شعلته الخامدة ما زالت تعود إلى الالتهاب من حين لآخر، وفي علاقة دوما بشخصيات قويّة. وإجلال العبقريات ليس شيئا آخر غير إحدى ترجيعات صدى لإجلال الأمير الإله.[١٥٢] وحيثما يكون هناك نزوع إلى رفع شخصيات إنسانية إلى منزلة الكائنات فوق البشرية ينشأ أيضا الميل إلى تصوّر طبقات بأكملها من الشعب في هيأة أكثر بدائية وتدنيا مما هي عليه في الحقيقة.

462

يتوبيا مجتمعي المثالي[١٥٣]

داخل نظام مجتمعي أفضل ينبغي أن تسند الأعمال الشاقة ومصاعب الحياة إلى أولئك الذين يتحملونها بأقل عناء، أي من هم أقل حساسية، وأن يمضي التقسيم تدرجا وتناسبا نحو الأعلى حتى ذلك

الإنسان الأرهف إحساسا بأرقى أنواع الألم وأنبلها، والذي سيكون عليه بالتالي أن يتألم حتى وهو في أفضل وأسهل ظروف الحياة.

463

الجنون في تعاليم الثوريين

هناك حالمون سياسيون واجتماعيون من أولئك الذين يطالبون بكل حماس وبلاغة متوقدة بثورة تقلب كل أشكال النظام، معتقدين أن الصرح الشامخ للإنسانية الرائعة سينشأ بصفة تلقائية على إثرها مباشرة. في هذا الحلم الخطير يرنّ رجع صدى الفكرة الخرافية لروسو التي تؤمن بطيبة طبيعة إنسانية أصلية بديعة، لكنها **مغمورة**، وتحمّل مؤسسات الحضارة، أي المجتمع والدولة والتربية مسؤولية طمر تلك الطيبة الأصلية. لكننا ندرك للأسف من خلال التجارب التاريخية أن مثل هذه الانقلابات تثير يقظة أكثر الطاقات توحشا فيما هي تبعث الحياة مجددا في نزوعات الفظاعة والتوحش المدمر للعصور العتيقة الغابرة؛ وأن بإمكان الثورة أن تكون منبع طاقة بالنسبة لمجتمع بشري قد غدا خامدا باهتا، لكنها لن تكون بأي حال من الأحوال منظما وبنّاء ومهندسا معماريا وفنانا ومحسّنا للطبيعة الإنسانية. كلا، ليس طبع فولتير المتزن وميله إلى الترتيب والتنقية وإعادة البناء، بل حماقات روسو الحماسية وأكاذيبه هي التي أيقظت هذه الروح الثورية المتفائلة التي أصرخ في وجهها: «سحقا للدنيء!»(*) روسو هو الذي كان سببا في إقصاء *روح التنوير والتطور المتدرج* ولأمد طويل من الزمن: ولنر- كل من جهته- إن سيكون من الممكن أن نستعيدها ثانية!

(*) بالفرنسية في النص الأصلي: écrasez l'infâme !

464

اتزان

إن الصرامة التامة في التفكير والبحث، أي حرية العقل وقد تحولت طبعا في صاحبها تجعل الإنسان متزنا في أفعاله؛ ذلك أنها تضعف الرغبة، وتمتص كمًّا كبيرا من الطاقة لتوظيفها في دعم أغراض عقلية، وتكشف قلة الفائدة في كل التغييرات الفجئية، أو عدم فائدتها وخطرها.

465

انبعاث الروح

على سرير المرض السياسي عادة ما يستعيد شعب ما فتوته ويسترد روحه التي كان قد أضاعها تدريجيا في البحث عن السلطة ومساعي التمسك بها. إن الحضارة مدينة بأرقى مكتسباتها إلى فترات الوهن السياسي.

466

أفكار جديدة داخل البيت القديم

انهيار الأفكار لا يتبعه مباشرة انهيار المؤسسات، بل إن الأفكار الجديدة تظل تقطن لمدة طويلة من الزمن داخل البيت المهجور لسابقاتها، والذي غدا في حالة من التداعي والكآبة، بل وتتعهده بالصيانة لعدم وجود مأوى آخر لها.

467

النظام التعليمي

سيصبح النظام التعليمي في الدول الكبرى رديئا في أحسن الأحوال،

وذلك للسبب نفسه الذي يجعل المطابخ الكبرى لا تصنع في أفضل الأحوال سوى طعام رديء.

468

فساد بريء

في كل المؤسسات التي لا تهب داخلها ريح النقد العمومي الحادة ينمو فساد بريء، مثل فطر (مثلا في مجامع العلماء و مجالس الأعيان).

469

العالم كرجل سياسة

عندما يصبح العلماء رجال سياسة، فإنه غالبا ما تسند إليهم المهمة المضحكة التي تتمثل في أن يكونوا عنصر راحة ضمير لسياسة ما.

470

الذئب الذي يختفي خلف الحمل

يحتاج كل رجل سياسة[١٥٤] تقريبا في ظروف محددة إلى رجل نزيه، وذلك على غرار ذئب جائع يقتحم حظيرة أغنام؛ لكنه لا يفعل ذلك من أجل افتراس الكبش الذي يختطفه، بل ليختفي خلف ظهره ذي الصوف الوفير.

471

أزمنة سعيدة

العصر السعيد مستحيل الوجود إطلاقا، لأن الناس لا يرغبون إلا في تمنّيه، لكنهم لا يريدونه، وعندما تحل بشخص ما أيام سعيدة، فإنه سرعان ما يتعلم فعلا كيف يطلب القلق والبؤس. إن قدر الإنسان مهيأ

للحظات من السعادة -وكل حياة تعرف مثل هذه اللحظات-، لكن ليس لأزمنة سعيدة. إلا أن هذه الأزمنة تظل تمثل «ما وراء الجبل» في مخيلة الناس، كإرث من الأجداد الأولين، ذلك أن الإنسان قد استوحى هذا المفهوم منذ غابر العصور من تلك الحالة التي كان الإنسان يستسلم فيها بعد عناء القنص والحرب المضنية إلى الراحة، يمطّ أعضاءه ويدع رفيف أجنحة النوم يداعب أذنيه. إنه استنتاج خاطئ أن يتصور الإنسان وفقا لتلك العادة القديمة أنه بإمكانه اليوم أيضا أن يجد *بعد فترات بأكملها* من التعب والأسى تلك الحالة نفسها من السعادة، وبنفس الدرجة والديمومة المناسبتين.

472

الدين و الدولة(١٥٥)

طالما ظلت الدولة، أو بصفة أدق الحكومة، تعرف أنها تأسست من أجل خدمة كتلة من الجماهير القاصرة، وتتساءل لهذا السبب عما إذا كان عليها أن تحافظ على الدين أو أن تلغيه، فإنها ستظل على الأرجح تقرر دوما اختيار الحفاظ عليه. ذلك أن الدين يهدئ أنفس الأفراد في أوقات الخسارات والفاقة والرعب وانعدام الثقة، يعني في تلك الأوقات التي تشعر فيها الحكومة بنفسها عاجزة عن القيام بشيء للتخفيف من المعاناة النفسية للأفراد؛ بل إن الدين، وحتى إزاء الجوائح العامة التي لا يمكن تفاديها والمحتّمة في لحظة ما (المجاعات، الأزمات المالية، الحروب)، يكون هو الضامن للحفاظ على حالة من الهدوء والصبر والثقة لدى الجماهير. وحيثما يكون التقصير الحتمي أو العرضي للحكومة، أو النتائج الخطيرة لمصالح سلالة حاكمة أمرا واضحا في ذهن المتبصّرين وداعيا للتمرد، فإن عديمي التبصّر سيرون فيه يد الله وسيخضعون لمشيئة ***الأعلى*** (مفهوم

تتداخل فيه عادة أساليب الحكم الإلهية والإنسانية): هكذا يتم ضمان الحفاظ على السلم الاجتماعية الداخلية وعلى استمرار التطور. تجد السلطة نفسها، كشيء يتكون على أساس من وحدة الإحساس الشعبي وتطابق الآراء والأهداف لدى الجميع، محمية ومثبّتة من طرف الدين، عدا في الحالات النادرة التي لا يتوصل الكهنة فيها إلى اتفاق على الثمن مع الدولة، ويدخلون في صراع معها. لكن الدولة عادة ما تنجح في كسب الكهنة، لأنها بحاجة إلى دورهم في التربية الخصوصية والخفية للنفوس، ولأنها تعرف كيف تقدر خدما يَبدون ويُبدون أنهم منصرفون إلى خدمة مصلحة مغايرة تماما. ومن دون مساعدة الكهنة لا يمكن حتى في يومنا هذا أن يتم لسلطة أن تغدو «شرعية»، كما أدرك ذلك نابوليون. هكذا يظل الحكم المطلق الوصي مقترنا وثيق الارتباط بالحفاظ على الدين. غير أن هذا[١٥٦] يفترض أن يكون الأشخاص والطبقات الحاكمة على وعي بنوعية الخدمة التي يقدمها لهم الدين، وأنهم يشعرون بأنفسهم بسبب ذلك من منزلة أرقى من منزلته إلى حد ما، باعتبار أنهم يستعملونه أداة: من هنا نفهم أن تكون هذه هي البؤرة التي ينبع منها الفكر الحر.

لكن ماذا لو أن تلك الرؤية المغايرة لمفهوم الحكم التي تلهج بها الدول *الديمقراطية* تشرع في فرض سيطرتها؟ إن غدا الناس لا ينظرون إلى الحكومات إلا كأداة لإرادة الشعب، لا فوقًا مقابل تحتٍ، بل وظيفة في يد السيد الأوحد، الذي هو الشعب. هنا سيكون على الدولة أن لا تتبنى تجاه الدين سوى الموقف نفسه الذي يتبناه الشعب؛ وكل انتشار للتنوير سيكون له حتما صدى حتى لدى ممثليها، ويغدو كل استخدام واستغلال للانفعالات الدينية وما تقدمه من مواساة لأغراض حكومية غير متيسر الإمكان (عدا أن يكون لزعماء أحزاب أقوياء أن يمارسوا لوقت محدد تأثيرا مشابها لتأثير الاستبداد المستنير). لكن

عندما تصبح الدولة غير قادرة على استدرار أية فائدة من الدين، أو أن الشعب ستكون له آراء مختلفة ومتنوعة حول الدين، مما لا يسمح للدولة بتكوين مواقف متجانسة وموحدة بخصوص المسائل الدينية، عندها سيظهر حتما المخرج المناسب، الذي يقضي بأن يتم التعامل مع الدين كمسألة شخصية، ويترك الأمر لضمير كل فرد وعاداته. ستكون نتيجة هذا بدءً أن الإحساس الديني سيبدو وقد تدعّم، ذلك أن الانفعالات الخفية والمقموعة، التي كانت الدولة تخنق أنفاسها بصفة لا إرادية أو عن قصد ستتفجر وتبلغ حدودا قصوى في اندفاعها المعربد. وسيتضح بعدها أن الدين قد غدا مقتحَما بعدد من الطوائف، وأن كما هائلا من بذار الشؤم قد ألقي في الأرض عندما جُعل من الدين مسألة شخصية. ثم إن مشهد النزاعات والتعرية العنيفة لضعف العقائد الدينية لن يدع بالنهاية من مخرج لكل ذي عقل أرقى وتفوق في النبوغ سوى أن يجعل من عدم التدين مسألته الشخصية. و ستستولي هذه الفكرة عندها على عقول الحاكمين أيضا، وستجعل الإجراءات التي يتخذونها تكتسي رغما عنهم تقريبا طابعا معاديا للدين. وبمجرد أن يحدث هذا الأمر سيتغير موقف أولئك الذين ما تزال تحركهم المشاعر الدينية، والذين كانوا إلى حد ذلك الحين يجلّون الدولة كشيء شبه مقدس أو مطلق القداسة، ليتحول إلى موقف صريح *العداء للدولة*؛ سيترصد هؤلاء قرارات الحكومة وسيعملون كل ما في وسعهم من أجل العرقلة والتصدي وإثارة القلق، ويدفعون بالتالي بالطرف المقابل، طرف اللامتدينين من خلال حماسة المناقَضة المتقدة إلى موقف إعجاب مفرط ومتعصب للدولة، بينما يعتمل في السر دافع آخر داخل هذه الأوساط، التي يتخلل أحاسيسها منذ الانفصال عن الدين شعور بالفراغ وحاجة تدفع بها مؤقتا عن طريق الولاء الوفي للدولة إلى البحث عن معوِّض، وعن ضرب من المشغلة لسد ذلك الفراغ. على

إثر هذا الصراع الانتقالي الذي يمكن أن يمتد على فترة طويلة من الزمن سيتقرر أخيرا ما إذا كانت الأطراف الدينية على قدر كاف بعد من القوة كي تتمكن من استعادة الوضع القديم وتدير عجلة الأمور إلى الخلف، وفي هذه الحالة سيستعيد شكل الاستبداد المستنير (ربما أقل استنارة وأكثر خوفا من ذي قبل) المسك بزمام الدولة؛ -أم أنه سيكون للأطراف اللامتدينة أن تفرض نفسها وتتمكن عن طريق التعليم والتربية على مدى أجيال متلاحقة من استئصال الخصم وجعل عودته بالنهاية أمرا مستحيلا. لكن ذلك الولع بالدولة سيعرف تراجعا لديهم هم أيضا: سيبدو واضحا أكثر فأكثر أن ما طرأ على الشغف الديني الذي يجعل من الدولة أمرا سريا غامضا ومؤسسة من منزلةٍ فوق الطبيعة، سيرافقه أيضا اهتزاز لأحاسيس الإجلال والتقوى التي كانت تسم علاقته بالدولة. منذئذ سيصبح نظر الأفراد مركزا فقط على الجهة التي يمكن أن تأتيهم بالمنفعة أو بالضرر، وسيسعون بكل الوسائل إلى ممارسة تأثيرهم عليها. إلا أن المنافسة ستتعاظم بسرعة، وسيتغير الأشخاص والأحزاب بسرعة فائقة، وسيتدافعون ويلقون ببعضهم البعض من فوق الجبل لمجرد أن تطأ أقدامهم القمة. ستجد كل الإجراءات التي تفرضها حكومة ما نفسها مفتقرة إلى ما يضمن ديمومتها؛ وسينفر المرء من كل المشاريع التي تتطلب نموا هادئا يمتد على مدى عشرات السنين أو بعض القرون كي تأتي أكلها. لا أحد سيظل يبدي التزاما بأي قانون، عدا ذلك الإذعان مؤقتا للسلطة التي سنّت القوانين، لكن سرعان ما سيعمل على تقويضها عن طريق سلطة جديدة، عن طريق أغلبية جديدة في طور التكوين. وبالنهاية-يمكننا أن نعلن هذا بوثوق- ستؤدي هذه الريبة تجاه كل الحاكمين، وإدراك ما تحمله هذه الصراعات ذات النفَس القصير من عدم فائدة وإنهاك إلى الدفع بالناس إلى قرار جديد يقضي باستئصال مفهوم الدولة وبإلغاء

التعارض بين «الخصوصي والعمومي». تتقدم الشركات الخاصة خطوة خطوة باتجاه استلام شؤون الدولة، وحتى ذلك الجزء الأكثر صلابة مما ظل مستمرا من الوظيفة القديمة للدولة (مثلا تلك التي تتمثل في ضمان حماية الخواص من الخواص) ستجد نفسها بالنهاية وقد تحولت هي أيضا إلى عمل تقوم به الشركات الخاصة. التحقير من شأن الدولة، وانهيار وموت الدولة، وتحرر الإنسان الخاص (وأحترس من أن أقول: الفرد) هي نتيجة المفهوم الديمقراطي للدولة؛ هذه هي غاية رسالته. وعندما يكون قد أنجز مهمته -التي تحمل في صلبها قدرا من الحكمة وقدرا من التهور، كما هو حال كل شأن إنساني-، ويكون قد تغلب على كل انتكاسات المرض القديم، عندها نكون قد فتحنا صفحة جديدة في كتاب خرافات الإنسانية سيقرأ المرء فيها كل أنواع الحكايات الغريبة، وربما بعضا من الأشياء الجميلة أيضا.

ولكي نعيد باختصار ما قلناه آنفا: إن مصلحة الدولة ومصلحة الدين متلازمتين تلازما متينا، فإذا ما شرعت الأولى في الانقراض، تزعزعت أسس الدولة أيضا. إن الاعتقاد في نظام إلهي يتخلل الشؤون السياسية، وبالطابع السري الغامض لوجود الدولة يقوم على أصل ديني: وإذا ما اضمحل الدين فستفقد السياسة برقع القداسة (حجاب إيزيس) الذي كان يلفها ولن توحي بعدها بأي احترام. إن سيادة الشعب، منظورا إليها عن قرب، تعمل بدورها على إلغاء آخر مظاهر السحر والاعتقاد الخرافي في مجال هذه الاحساسات؛ الديمقراطية الحديثة هي الشكل الحديث لـ*انحطاط الدولة*. غير أن المستقبل الذي يتراءى من وراء هذا الانحطاط الحتمي ليس بالبائس من كل جهاته وبكل الاعتبارات: فالفطنة ووعي المصلحة عند البشر هل أفضل ما صُقل وتطور لديهم من خصال؛ وعندما تغدو الدولة عاجزة عن الإيفاء بمتطلبات هذه القوى، فإن حلول الفوضى سيكون آخر ما يمكن أن

يحدث، بل إن اختراعا جديدا أكثر موافقة للحاجة مما كانت عليه الدولة هو الذي سيحقق انتصاره على هذه الأخيرة. وكما عايشت الإنسانية عددا من القوى المنظّمة التي شهدت انقراضها،- مثل منظومة الرابطة العرقية التي ظلت لقرون عديدة أقوى من الرابطة العائلية، والتي كانت تسود وتقضي وترتب لمدة طويلة من الزمن قبل نشأة العائلة؛ وكما نشهد نحن بدورنا كيف غدت فكرة القانون العائلي وسلطتها تبهت وتصبح أكثر فأكثر عجزا، وقد كانت في وقت ما ذات قوة وسلطان يمتد على امتداد الامبراطورية الرومانية، فإن جيلا قادما ما سيشهد كيف أن الدولة بدورها ستغدو في مواقع منفردة من العالم مجردة من كل أهمية؛-تصور لا يستطيع عدد كبير من الناس المعاصرين أن يفكروا فيه دون خوف واشمئزاز. غير أن العمل على نشر وتحقيق هذا التصور يظل قضية أخرى: لا بد أن يكون المرء على قدر من الغرور والاعتداد المفرط بعقله، وأن لا يكون له عن التاريخ سوى ما يقل عن نصف فهم كي يضع يده على المحراث الآن، بينما ما من أحد بمستطاعه إلى حد الآن أن يرينا نوعية البذار الذي سينبغي علينا بعدها أن نبذره في الأرض المحروثة. لنكن إذن على ثقة في «ذكاء الإنسان ووعيه بالمصلحة»، كي تظل الدولة قائمة بعد لمدة من الزمن، وكي نرفض المحاولات الهدامة لفئة من المغالين في الحماس وأنصاف العارفين المتعجلين!

473

الاشتراكية من حيث وسائلها

الاشتراكية هي الأخت الصغرى العجيبة للاستبداد المحتضر الذي تريد وراثته؛ وطموحاتها بالتالي رجعية في معناها العميق. فهي تسعى إلى كمٍّ هائل من السلطة لم يبلغه حكم الاستبداد قط، بل إنها تتجاوز كل

الأنظمة السابقة بسعيها إلى القضاء القطعي على الفرد، الذي ترى فيه ترفا طبيعيا غير مبرر ينبغي أن يُعدَّل بهدف جعله *عضوا* نافعا *داخل المجموعة*. وبسبب هذه القرابة تبدو الاشتراكية مجاورة دوما لكل ازدهار مفرط للقوة، على غرار الاشتراكي القديم أفلاطون في بلاط الطاغية الصقلي؛ فهي تتمنى أن تحقق سلطة الدولة القيصرية لهذا القرن(وتساعد على ذلك عند الحاجة)، لأنها وكما سبق أن قلنا تريد أن تكون وريثته. إلا أن الإرث وحده لن يكون كافيا، إذ تظل تحتاج إلى خضوع كل المواطنين خضوع العبيد للدولة المطلقة بكيفية لم يسبق لها من مثيل أبدا؛ وبما أنها لم تعد تستطيع أن تعول على المساعدة التي يقدمها إحساس التقوى الدينية للدولة، بل إنه سيكون عليها أن تعمل تلقائيا على القضاء عليه-بما أنها تعمل في الحقيقة على إزالة كل الدول القائمة-، وبالتالي فإنه لن يكون بإمكانها أن تأمل في فرض وجودها هنا أو هناك إلا لوقت محدد عن طريق الإرهاب الأكثر شططا. لذلك نراها تهيء سرا لممارسات سلطة الرعب ملوحة للجماهير نصف المثقفة بعبارة «عدالة» مثل مسمار يُدقّ في الأدمغة ليسلبها عقلها (بعد أن كان هذا العقل قد تضرر أيما ضرر من الثقافة المنقوصة-نصف الثقافة-)، ولكي يوفر لتلك الجماهير ما يضمن راحة الضمير في هذه اللعبة الشريرة التي سيكون عليها أن تلعبها.

يمكن للاشتراكية أن تساعد في تعيلم الناس بطريقة عنيفة ودامغة درسا بخصوص مخاطر كل تراكمات القوة داخل الدولة مسرّبة من خلال ذلك إحساسا بالريبة تجاه الدولة في حد ذاتها. وعندما يلعلع صوتها الفج من داخل صيحات المعركة: «*أكثر ما يمكن من الدولة*»، فإن صيحاتها ستغدو من خلال ذلك أكثر صخبا من أي وقت مضى؛ لكن سرعان ما ستنفجر، وبقوة لا تقل عن قوة صوتها، صيحة الصوت المضاد: «*أقل ما يمكن من الدولة*».

474

تطور العقل موضع خشية لدى الدولة

كانت المدينة (*polis*) الإغريقية، وككل قوة سياسية تنظيمية، إقصائية شديدة الريبة تجاه تطور المعرفة؛ وكانت غريزتها الأساسية العنيفة لا تتبدّى إلا كمعيقة ومُشلّة لهذا المجال. لم تكن ترغب في القبول بتاريخ ولا بتطور في مجال الثقافة: كان على التعليم المقرر داخل قوانين الدولة أن يكون إجباريا لكل الأجيال وأن يتوقف لدى الجميع في مستوى محدد واحد. ولم يكن أفلاطون من بعد ليرغب في شيء آخر بالنسبة لمدينته الفاضلة. لقد تطورت إذن الثقافة رغما عن إرادة المدينة؛ إلا أنها (المدينة) ساعدت على ذلك بطريقة غير مباشرة ودون إرادة منها، لأن طموح الأفراد داخل المدينة كان على درجة قصوى من التحفز، بحيث أنه بمجرد أن يضع قدمه على طريق التكوين الذهني يرى نفسه مندفعا إلى المضي حتى الحد الأقصى. ومع ذلك لا ينبغي أن نستند في رأينا على تقريظ بيركليس؛[١٥٧] إذ لم يكن ذلك التقريض سوى صورة متفائلة زائفة عن الترابط الضروري المزعوم بين المدينة والثقافة الأثينية؛ أما ثوقيديدس فهو الذي سيجعلها، مباشرة قبل هبوط الليل على أثينا (الطاعون وإنقاذ حبل التراث)، تشع مرة أخرى مثل شفق بديع التوهّج من شأنه أن يجعلنا ننسى اليوم الكريه الذي سبقه.

475

الإنسان الأوروبي ونهاية الأمم المغلقة

إن التجارة والصناعة وتبادل الرسائل والكتب، والثقافة العليا المشتركة، والتغيير السريع للمكان والموطن، وحياة الترحال التي يعيشها اليوم كل من لا يملك أرضا؛ كل هذه الظروف تحمل معها حتما إضعافا،

وبالنهاية تدميرا للأمم، للأمم الأوروبية على الأقل؛ مما سيفضي حتما من خلال عمليات التهجين المتواصلة إلى ميلاد جنس خلاسي، جنس الإنسان الأوروبي. وكل مظاهر انغلاق الأمم على نفسها تعمل اليوم، بصفة واعية أو لاواعية، ضد هذه الغاية من خلال خلق وتنمية العداوات القومية، غير أن مسيرة هذا الاختلاط تواصل طريقها بالرغم من التيارات المعاكسة العابرة: وهذه القومية المفتعلة تظل على أية حال أخطر مما كانت عليه الكاثوليكية المفتعلة، لأنها في جوهرها حالة شدة وحصار مسلطة على الأغلبية من قبل أقلية، وتتطلب كمًّا من الخداع والأكاذيب والعنف كي تظل محافظة على ما تحتاجه من اعتبار. وليست مصلحة الأغلبية (الشعوب) هي ما يدفع إلى هذه النزعة القومية، كما يلهج بذلك الكثيرون، بل مصالح بعض السلالات الأميرية قبل كل شيء، ثم مصالح طبقات معينة من قطاع التجارة ومن المجتمع. وإذا ما فهمنا هذا الأمر فإنه لا يسعنا إلا أن نعلن دون وجل أننا أوروبيون جيدون، وأن نعمل من خلال الفعل على انصهار الأمم، وسيكون للألمان في هذا المجال دور يمكنهم أن يلعبوه، باعتبار ما ظلوا محتفظين به من خاصيتهم القديمة *كترجمان للشعوب ووسطاء بينها*.

وعلى هامش هذا السياق: إن مشكلة اليهود بكليتها لا توجد إلا داخل الدول القومية، بمعنى أن حركيتهم النشطة وذكاءهم الراقي، ذلك الرأسمال الذهني والمعنوي الذي راكموه جيلا بعد جيل عبر مدرسة المعاناة الطويلة سيبرز هنا، وعلى جميع الأصعدة، بقدر من القوة المهيمنة التي تثير الحسد والكراهية، الأمر الذي يجعل ذلك الخطاب المشين ينتشر على نطاق واسع داخل كل الأمم الحالية تقريبا- وذلك بقدر ما تزيد هذه الأخيرة في استعراض قوميتها- داعيا إلى جعل كل اليهود كباش فداء واقتيادهم إلى المذبحة باعتبارهم

مسئولين عن كل المتاعب العمومية والخاصة. وما إن تكف المسألة عن كونها مسألة تتعلق بحفظ الأمم، بل بتربية جنس أوروبي خلاسي قوي على أكبر ما يمكن من القوة، فإن اليهودي سيكون مكوّنة صالحة ومرغوبة مثله مثل أي عنصر آخر من بقايا القوميات. إن الصفات الكريهة والخطيرة أمر مشترك بين كل القوميات وكل الأفراد، وبالتالي فإنه من الفظيع أن يطلب من اليهودي أن يكون استثناء. ويمكن لهذه الصفات أن تكون حتى على قدر خاص من الخطورة والتنفير لديه، وربما يكون فتى البورصة اليهودي أشنع ما ابتكره النوع الإنساني، ومع ذلك أريد أن أعرف كم سيكون علينا عند الجرد الحسابي النهائي أن نغفر لشعب كان عليه، ليس دون مسؤوليتنا جميعا، أن يتحمل أوزار التاريخ الأكثر معاناة على الإطلاق، شعب ندين له بأنبل إنسان (المسيح) وبأنقى حكيم (سبينوزا) وبأقوى كتاب والناموس الأخلاقي الأكثر تأثيرا. إضافة إلى هذا، ففي أحلك العصور الوسيطية، وعندما كانت الغيوم الآسيوية تحط بثقلها على أوروبا، فإن مفكرين وعلماء وأطباء من اليهود هم الذين نهضوا لرفع راية التنوير واستقلال العقل في ظل أقوى أنواع التعسف على أشخاصهم، وأمّنوا الدفاع عن أوروبا ضد آسيا. ونحن مدينون لجهودهم الجبارة على وجه الخصوص بالانتصار الذي استطاع أن يحققه في نهاية المطاف التفسير الطبيعي العقلاني للعالم متحررا من سيطرة التأويلات الخرافية، وبأن ظلت سلسلة الحضارة التي تربطنا اليوم بعصور الأنوار الإغريقية والرومانية القديمة متصلة محصنة من القطيعة. وإذا ما كانت المسيحية قد فعلت كل ما بوسعها من أجل شرْقنة الغرب، فإن اليهودية قد ساعدت على إعادة غرْبنته مجددا، بما يعني بالنهاية وبمعنى ما، على أن تجعل من مهمة أوروبا وتاريخها *مواصلة للمهمة والتاريخ اليونانييْن*.

476

التفوق الظاهري للعصر الوسيط

يبدي لنا العصر الوسيط الكنيسةَ مؤسسةً ذات غاية كونية، وعلاوة على ذلك ذات أهداف تزعم أنها ضرورية لمصلحة الإنسانية؛ مقابل هذا تبدو أهداف الدول والأمم التي ظهرت من صلب التاريخ الحديث مثل شيء يوحي بالضيق: إنها تتراءى حقيرة، وضيعة، مادية ومحدودة النطاق. لكنه لا ينبغي لهذا الانطباع الذي يصنع أثرا في الخيال أن يحدد حكمنا؛ ذلك أن تلك المؤسسة الكونية كانت تستجيب لحاجات مفتعلة قائمة على التوهم، وكان لابد من اختلاقها هناك حيث لم يكن لها من وجود (الحاجة إلى الخلاص)، أما المؤسسات الحديثة فتقدم حلولا لحالات عوز حقيقية، وسيأتي زمن تتكون فيه مؤسسات لخدمة الحاجيات الحقيقية للبشر جميعا وللدفع بذلك النموذج الوهمي إلى موقع الظل والنسيان.

477

الحرب كشيء لا غنى عنه

إنه لمن باب الأحلام المغرورة وتهويمات الأرواح الجميلة أن نظل ننتظر الكثير (أو أن نشرع في انتظار ذلك) من الإنسانية عندما تكون قد نسيت ممارسة الحرب.[١٥٨] وفي الأثناء نحن لا نعرف من وسيلة يمكن أن تعيد إلى الشعوب التي أصابها الفتور تلك الطاقة الخشنة لميدان المعركة، وتلك الكراهية اللاشخصية العميقة، وتلك الدموية الباردة في القتل بضمير هانئ، وتلك الحماسة المتقدة المنظِمة في تدمير العدو، وتلك اللامبالاة الأنوفة إزاء الخسارة الكبرى وإزاء الحياة الخاصة وحياة الأصدقاء، وذلك الاهتزاز الذي يرج النفوس مثل زلزال، لا نعرف من وسيلة يمكن أن تنجز هذا بكل قوة ووثوق مثل ما

تفعل حرب كبرى. إن السيول والأنهار التي ستندفع عندها، وإن جاءت تدحرج في دفقها أحجارا وقاذورات شتى وتدمر المروج بزرعها وغرسها هي التي ستحرك بعدها، وضمن ظروف ملائمة، دواليب ورشة العقل وتغذي دورانها بطاقة جديدة. إن الحضارة لا تستطيع البتة أن تستغني عن الأهواء والرذائل والأفعال الشريرة. -وعندما أصاب الرومان المتحولين إلى قيصريين الملل من الحروب، راحوا يحاولون استدرار طاقات جديدة من خلال صيد الوحوش ومبارزات المصارعين وملاحقة المسيحيين. أما الأنكليز الحاليون، الذين يبدو مجملا وكأنهم قد تخلوا عن الحرب فإنهم يلجأون إلى وسائل أخرى لتجديد تلك الطاقات المتراخية تتمثل في تلك الرحلات الاستكشافية الخطيرة والأسفار البحرية وصعود الجبال من أجل غايات علمية كما يقال عادة، لكنهم كانوا في الحقيقة يسعون من خلال المغامرات والمخاطر إلى اكتساب فائض من طاقات جديدة يعودون بها إلى موطنهم. سيتوصل الناس بالتأكيد إلى ابتكار مزيد من مثل هذه المعوضات عن الحرب، إلا أنهم قد يدركون أكثر فأكثر من خلالها أن هذه الإنسانية التي بلغت مستوى راق من التحضر وبالتالي من الفتور أيضا، مثل أوروبا الحالية، ليست في حاجة إلى الحرب فقط، بل إلى الحرب الأكبر والأكثر فظاعة-أي عودة مؤقتة إلى الهمجية-، لئلا تقودها وسائل الحضارة إلى فقدان حضارتها ووجودها نفسه.[١٥٩]

478

الاجتهاد في العمل في الجنوب وفي الشمال

ينشأ الاجتهاد في العمل على نحوين متباينين كليا. يكون الحرفي في بلاد جنوبية[١٦٠] مجتهدا في عمله، لا بدافع الكسب، بل بدافع من حاجة الآخرين. فلأن أحدا ما يأتي من أجل أن يُنعل فرسا أو يصلح

عربة، يجد الحداد نفسه يجدّ في العمل، وإن لم يأت أحد فسيقضي وقته متسكعا في السوق. وفي بلاد خصبة لا تكون هناك حاجة إلى سعي كبير من أجل الغذاء، ويكفيه لذلك قدر ضئيل من العمل، ولا حاجة له إلى اجتهاد كبير على أية حال؛ وبالنهاية قد يضطر إلى التسول ويظل مع ذلك سعيدا.

أما اجتهاد العامل الأنكليزي فينبع بالمقابل من دافع الرغبة في الكسب؛ إنه واع بنفسه وبأهدافه ويريد من وراء الكسب حيازة القوة، ومن القوة أكبر ما يمكن من الحرية ومن الوجاهة الشخصية.

479

الثراء كاصل للنبالة العرقية

الثراء يولّد حتما أرستقراطية عرقية، ذلك أنه يسمح باختيار أجمل النساء، ودفع المرتّبات لأفضل المدرّسين، ويمنح الإنسان نقاوة ووقتا للتمارين الرياضية وخاصة إمكانية للابتعاد عن الأعمال الجسدية المبلّدة. وبالتالي فإنه يخلق كل الظروف الملائمة كي يصبح الإنسان في غضون بضعة أجيال لائق الحركة ورشيقها، بل ورفيع السلوك أيضا: مستوى راق من حرية العقل، غياب المسكنة البائسة والاتضاع أمام أولياء النعمة والحرص على التقشف في القرش.

تلك الصفات السلبية بالذات هي أثمن ضريبة يدفعها شاب من أجل السعادة؛ فالفقير المعدم عادة ما يؤدي به نبل أحاسيسه إلى الهلاك، فلا يتقدم خطوة إلى الأمام، ولا يكسب شيئا، ويكون نوعه غير قادر على الحياة. لكن لابد أن لا ننسى أن الثراء يفعل نفس الفعل تقريبا، فعندما يكون بوسع أحدهم أن ينفق ثلاثمائة ألف دينار، أو مئة أضعافها (300 Thaler oder 30 000) سنويا، فإنه لن يكون أمامه بعد ذلك من تطور ممكن لظروف حياته الجيّدة. لكن أن يكون المرء

معدما، وأن يكون مضطرا كشاب للتسول ووضع نفسه موضع المهانة فذاك أمر شنيع؛ ولئن بدا ذلك هو المسلك الجيّد بالنسبة لأولئك الذين يسعون إلى سعادتهم داخل بريق حياة البلاطات وفي التبعية للأقوياء وأصحاب النفوذ، أو أولئك الذين يريدون أن يصبحوا أمراء كنيسة. (-هنا يتعلم المرء كيف ينحني للتسلل عبر سراديب الحظوة).

480

حسد وكسل في اتجاهين متباينين

يتساوى الحزبان المتنازعان، الاشتراكي والقومي-أو أيا كانت الأسماء التي يمكن أن يسمَّيَا بها في مختلف البلدان الأوروبية-: فالحسد والكسل هما القوتان المحركتان لكل منهما. في أحد المعسكرين يريد الناس لأنفسهم أقل ما يمكن من العمل اليدوي، وفي الثاني أقل ما يمكن من العمل الذهني؛ المنتمون إلى هذا المعسكر الأخير يكرهون ويحسدون الأفراد المتميزين الذين يصنعون أنفسهم بأنفسهم ولا يقبلون بالانضواء طوعا إلى صفوف الأعمال الجماهيرية؛ أما في صف المعسكر الأول فإن أعضاء الطبقة الراقية المستقرة داخل ظروف مادية جيدة ظاهريا، والذين تتمثل مهمتهم الحقيقية في إنتاج أرقى القيم الحضارية، يجعلون بسبب ذلك حياتهم الداخلية أكثر شدة ومعاناة. وإذا ما نجحت روح العمل الجماهيري في أن تصبح روحَ الطبقات العليا للمجتمع، فإنه سيحق إذن لزمر الاشتراكيين أن تسعى إلى تحقيق مساواة خارجية لنفسها مع تلك الطبقات العليا، بما أن تلك المساواة أمر حاصل بينهما ذهنيا ووجدانيا.

-لتحيوا كرجال راقين، ولتعملوا باستمرار على إنجاز أعمال الحضارة الراقية، وسيعترف لكم كل ما هو حي بحقكم، وسيكون النظام المجتمعي التي تقفون على قمته في مأمن من كل سوء وأذى.

السياسة العظمى وخسائرها

وكما أن شعبا ما لا يتكبد في الحروب والاستعدادات للحروب خسائر جسيمة، فقط من خلال تكلفة الحرب وتعطل التجارة والمواصلات ومن جراء الانفاق على الجيوش الرسمية، -مهما كانت هذه الخسائر باهظة في عصرنا الحاضر حيث تنفق ثمانية بلدان أوروبية مبلغ ما بين المليارين والثلاث مليارات في هذا المجال-، بل من خلال انتزاع عدد مهول من أكثر الرجال كفاءة وأمتنهم بنية وأكثرهم نشاطا وإبعادهم عن أشغالهم وأعمالهم الأصلية ليتحولوا إلى جنود؛ كذلك فإن أمة تطرح على نفسها أن تمارس سياسة عظمى وأن تضمن لنفسها صوتا مسموعا بين الدول العظمى، سيكون عليها أن تتكبد خسائر أخرى غير تلك التي نتوقعها عادة. صحيح أنه بدء من تلك اللحظة ستتم التضحية بعدد هائل من الكفاءات البارزة على «مذبح الوطن» أو من أجل الطموح الوطني، بينما كانت تلك الكفاءات التي تزدردها السياسة اليوم تجد مجالات أخرى مفتوحة أمامها من قبل. لكن إلى جانب هذه المذابح العمومية تجري دراما أخرى أكثر شناعة منها في الحقيقة، دراما تتشكل أحداثها باطراد وفي مائة ألف فصل متزامنة: كل شخص مقتدر، نشيط، ذكي، طموح من هذه الأمة التي ترنو بشراهة إلى أكاليل المجد السياسي، ستستبد به تلك الشراهة هو أيضا ولن يغدو متفانيا في خدمة شأنه الأصلي كما كان من قبل؛ ستلتهم الأسئلة والمشاغل اليومية الجديدة المتعلقة بالمصلحة العمومية كمًّا يوميا من الرأسمال الذهني والمعنوي لكل مواطن، وستكون حصيلة كل هذه التضحيات والخسائر من طاقات الأفراد ومن العمل هائلة الارتفاع بحيث يصبح الازدهار السياسي لشعب ما مرفوقا بصفة شبه حتمية بتفقير وكلل ذهنيّين، وبتقلص في القدرة على إنجاز أعمال تتطلب قدرا كبيرا من التركيز

والانتباه. وبالنهاية يحق لنا أن نتساءل: هل كل هذا البهرج وهذا البريق العمومي (الذي لا يتجسد بالنهاية إلا في الخوف الذي سيكون لبقية الدول أمام العملاق الجديد، وفي الامتيازات المنتزعة من الخارج لصالح ازدهار التجارة والمعاملات)، يستحق كل هذا الاهتمام، وهل كان لابد، من أجل هذه الزهرة المصطنعة الفجة والمزوّقة، أن تتم التضحية بكل النباتات الأكثر نبالة وأكثر رقة وأكثر ذكاء؟

482

ومرة اخرى:

آراء عمومية؛ كسل عقول فردية.

الفصل التاسع

الإنسان وحيدا مع نفسه

483

أعداء الحقيقة

الاعتقادات الراسخة أخطر على الحقيقة من الكذب.

484

قيم معكوسة

ننتقد مفكرا بشدة عندما يطرح مقولة لا نستسيغها؛ وكان أحرى بنا وأكثر حكمة أن نفعل ذلك عندما تكون مقولته مستساغة.

485

الشخصية الواثقة

غالبا ما يبدو لنا أحد ما ذا شخصية واثقة، لأنه يتبع نزواته دوما، لا لأنه يتبع دوما مبادئه.

486

الأمر الضروري الوحيد

هناك شيء لا بد أن يكون المرء حائزا عليه: إما أن يكون لطيف الذهن بطبعه، أو أن يكون ذا عقل قد لطفه الفن والعلم.

487

شغف القضايا

من يركز شغفه على قضايا (علوم، خدمة الدولة، منفعة ثقافية، فنون) يُخمِد الكثير من الحماس في شغفه بالأشخاص (حتى وإن كانوا ممثلين لتلك القضايا، مثلما يكون رجال الدولة لإنجازاتهم، والفلاسفة والفنانون ممثلين لإبداعاتهم).

488

الهدوء في العمل

وكما يفعل شلال يغدو في انحداره أكثر هدوء ومرونة، كذلك ينجز الإنسان العظيم عمله بأكثر هدوء مما توحي به رغبته الجامحة قبل الانخراط في ذلك العمل.

489

أقل عمقا، أكثر أمانا

الأشخاص الذين يمضون عميقا في فهم قضية ما نادرا ما يظلون أوفياء لها. لقد طرحوا عمق تلك القضية إلى النور؛ وهناك دوما أشياء كريهة كثيرة تمنح نفسها للعين.

490

وهم المثاليين

يتوهم جميع المثاليين أن القضايا التي ينخرطون في خدمتها أفضل في جوهرها من كل ما عداها من قضايا في العالم، ولا يريدون أن يقتنعوا بأن قضيتهم ستكون، إذا ما أرادوا لها أن تنتعش، بحاجة إلى نفس السماد النتن الذي تحتاجه كل أعمال الإنسان الأخرى.

491

معاينة ذاتية

يتحصن الإنسان جيدا ضد نفسه، وضد كل أنواع التقصي والمحاصرة التي يجريها على نفسه، ولا يستطيع أن يرى من نفسه عادة غير ما تمنحه لعينه أعماله الخارجية. أما القلعة الحقيقية فتظل مستعصية عليه، بل غير مرئية لعينه، عدا أن يعمل أصدقاؤه وأعداؤه على لعب دور الخونة ويقودنه من درب سري إليها.

492

المهنة المناسبة

لا يتحمل الرجال عادة مهنة لا يعتقدون أو يوهمون أنفسهم بأنها أهم من كل المهن الأخرى. وكذلك شأن النساء مع عشاقهن.

493

نبل الأحاسيس

يتأسس نبل الأحاسيس في جزء كبير منه عادة على طيبة القلب وانعدام الحذر، وينطوي على ذلك الأمر بالذات الذي ينظر إليه المولعون بالربح والأشخاص الناجحون بترفع وازدراء.

494

الهدف والطريق

كثيرون هم الذين يبدون إصرارا عنيدا في ما يتعلق بالطريق التي وضعوا أنفسهم عليها، وقلة قليلة تفعل ذلك في ما يتعلق بالهدف.

495

ما يستثير الناس في أسلوب حياة شخصي

كل أسلوب حياة قائم على قواعد شخصية متفردة تثير حفيظة الناس ضد ذلك الذي اتبعه؛ يشعر هؤلاء بأنهم يُهانون كأناس عاديين من خلال السلوك الخارج عن المعتاد الذي يسمح ذلك الشخص لنفسه به.

496

امتياز العظمة

إنه من امتيازات العظمة أن يَمنح امرؤ قدرا كبيرا من السعادة عن طريق قدر ضئيل من الهبة.

497

نبل لا إرادي

يجعل المرء من نفسه لاإراديا إنسانا نبيلا، عندما يكون قد تعود على أن لا ينتظر شيئا من الناس، وأن يظل يمنح دوما دون أن ينتظر شيئا من أحد.

498

شرط البطولة

كي يريد امرؤ أن يصبح بطلا، لا بد أن يكون الثعبان قد تحول إلى تنّين، وإلا فسيظل ينقصه العدو المناسب.[١٦١]

499

الصديق

إنما الفرح المشترك، لا الشفقة، هو ما يجعل الصديق صديقا.[١٦٢]

500

استعمال المد والجزر

على المرء أن يعرف، خدمة للمعرفة، كيف يستعمل التيار الذي يدفع نحو قضية ما، وكذلك التيار الآخر الذي يبعد عنها بعد فترة من الزمن.

501

متعة يجدها المرء في ذاته

«متعة في الأمر»، يقول الناس عادة؛ لكنها في الحقيقة متعة يجدها المرء في نفسه عن طريق أمر ما.

502

المتواضع

من يكون متواضعا مع الناس يبدي غرورا أشد تجاه الأشياء (المدينة، الدولة، المجتمع، الزمن، الإنسانية): ذلك هو ثأره.

503

الحسد والغيرة

الحسد والغيرة هما عورة النفس البشرية. وربما يمكننا أن ندفع بالمقارنة إلى ما أبعد.

504

أرقى المنافقين

أن لا يتكلم المرء عن نفسه أبدا نفاق على غاية من الرقيّ.

505

الغم

الغمّ مرض جسدي لا تتم المعافاة منه البتة بمجرد إزالة السبب الذي يكمن خلفه.

506

المنافح عن الحقيقة

لا يكون المنافحون عن الحقيقة أكثر ندرة عندما يكون قول الحقيقة أمرا خطيرا، بل عندما يكون ذلك مملاً.

507

أشد وطاة من الأعداء

إن الأشخاص الذين لسنا على يقين من لطف سلوكهم في كل الأحوال، ومع ذلك نظل لأسباب بعينها (كالاعتراف بالجميل مثلا) ملتزمين بالمحافظة على مظهر تعاطف مطلق معهم، يسببون لنا من إرهاق للنفس مما لا يسببه لنا الأعداء.

508

الارتياح إلى الطبيعة

نحب كثيرا أن نكون وسط الطبيعة، لأن ليس لهذه الأخيرة من رأي فينا.

509

لكل مجال لتفوقه

داخل علاقات مجتمع متحضر يشعر كل واحد بنفسه متفوقا على

الآخرين في أمر واحد على الأقل؛ وهذا هو الأساس الذي ينبني عليه التعاطف العام، بما أن كل فرد بإمكانه أن يقدم مساعدة عند اقتضاء الحاجة ويمكنه بالتالي تقبل المساعدة دون خجل.

510

مبررات للعزاء

في حالة وفاة غالبا ما يكون المرء في حاجة إلى مبرر للعزاء، لا لأن ذلك سيخفف من حدة الألم فحسب، بل لأن ذلك يمنحه عذرا عن تعزّيه بسهولة.

511

الأوفياء لقناعاتهم

من كانت لديه أعمال كثيرة يظل محافظا على قناعاته ومواقفه بصفة مستمرة دون تغيير تقريبا. كذلك من نذر نفسه لخدمة فكرة، فإنه لن يضع تلك الفكرة أبدا على محك الاختبار، لأنه لم يعد له من وقت لهذا الأمر؛ بل إن مجرد التفكير في أنها قابلة للنقاش يتعارض ومصلحته.

512

السمو الأخلاقي والكم

غالبا ما يكون السمو الأخلاقي لشخص ما مقارنة مع شخص آخر قائما على كون أهدافه أكبر من حيث الكم. بينما الاهتمام بالقليل يظل يشد الآخر داخل دائرة ضيقة.

513

الحياة كنتاج للحياة

بإمكان المرء أن يمد قامته قدر ما يريد من خلال معرفته، وأن يتراءى لنفسه على مستوى عال من الموضوعية؛ غير أنه لا يُنتج غَلّة من ذلك كله بالنهاية سوى سيرة حياته الذاتية.

514

الضرورة القلّزية(*)

الضرورة القلّزية أمر سيدرك الناس من خلال التاريخ أنه لا هو بالبرونز ولا هو بالضرورة.

515

من صميم التجربة

ليست عبثية شيء ما حجةً ضد وجوده، بل هي شرط له.

516

الحقيقة

ما من أحد يموت اليوم من جراء حقائق قاتلة: هناك أنواع كثيرة من الترياق المضاد لها.

(*) القلّز: معدن شديد الصلابة يسمى أيضا برونز. وعبارة eherne Notwendigkeit، أو حرفيًا: الضرورة القلزية، تعني مبدأ الضرورة الحتمية، أو القطعية. إنما فضلنا الترجمة الحرفي هنا حرصا على إمكانية الحفاظ على التلاعب اللفظي الذي يمارسه نيتشه من خلال هذه العبارة في هذه الشذرة.

517

رؤية أساسية

ليس هناك من انسجام مسبق بين مستلزمات الحقيقة وسعادة الإنسانية.

518

قدَر إنساني

من يفكر بعمق يعرف أنه سيكون المخطئ دوما، أيا كانت أعماله وأحكامه.

519

الحقيقة في مقام كيركا الساحرة

لقد جعل الخطأ من الحيوان إنسانا؛ فهل سيكون على الحقيقة أن تجعل من الإنسان حيوانا من جديد؟

520

خطر حضارتنا

إننا ننتمي إلى عصر تعيش حضارته خطر المضي إلى الهلاك بوسائل الحضارة.

521

العظمة تعني فرض اتجاه

ما من نهر يكون كبيرا وثريا بمياهه الخاصة، بل باستيعابه لأنهار فرعية كثيرة والمضي بها قدما. كذلك يكون الأمر مع العقول الكبرى. إن المسألة ترتبط فقط بأن واحدا يحدد الاتجاه الذي ستتبعه أنهار أخرى كثيرة، وليس بما إذا كان منذ البداية وفير الموهبة أم ضحلها.

522

ضمير رخو

الناس الذين يتكلمون عن أهميتهم بالنسبة للإنسانية هم، من وجهة نظر القانون المدني المتعلق بالإيفاء بالوعود واحترام العقود، من ذوي الضمائر التي لا يعوّل عليها.

523

طلب المحبة

الإصرار على أن تكون محبوبا هو أكبر أنواع الغرور.

524

احتقار الناس

إن العلامة الواضحة لاحتقار الناس هي أن لا يولي المرء أهمية لأحد إلا من ناحية كونه وسيلة *لغاياته الخاصة*، أو أن لا يولي أحدا أهمية على الإطلاق.

525

انتماء بدافع المناقضة

من توصل إلى استثارة الناس ضده يكون قد كسب له أنصارا أيضا.

526

نسيان التجارب

إن من يفكر كثيرا، وبطريقة عملية ينسى بسهولة تجارب حياته، لكن ليس تلك الأفكار التي تولدت عنها.

527

التشبث برأي

واحد يتشبث برأيه لأنه توهم على نحو ما أنه توصل إليه بمفرده، وآخر لأنه اكتسبه بجهدٍ ومعاناةِ التعلّم، وهو بالتالي فخور بأنه استوعب ذلك الرأي: أي عن غرور في كلتا الحالتين.

528

نفور من الأضواء

العمل الصالح ينفر من الأضواء، مثله مثل العمل السيء: هذا يخاف أن يجلب له الانكشاف المتاعب، وذاك يخاف أن تتبدد المتعة عن طريق الانكشاف (تلك المتعة التي يجدها المرء في نفسه، والتي سرعان ما تنتهي لمجرد حلول إحساس الرضا المتأتي عن الغرور).

529

طول النهار

عندما يكون للمرء الكثير مما يملأ به يومه، يكون للنهار مئة جيب وجيب.

530

جنّيّ الاستبداد

عندما تكون النفس نهبا للرغبة المتقدة في التسلط الطغياني ولا تكف عن إذكاء شعلتها، فإنه يصبح بإمكان حتى موهبة من درجة دنيا (لدى رجال السياسة والفنانين) أن تتحول شيئا فشيئا إلى قوة طبيعية طاغية لا تقاوم.

531

حياة العدو

من يحيا من خلال مهمةِ مقاتلة عدو، سيكون من مصلحته أن يظل ذلك العدو على قيد الحياة.

532

تقدير الأهمية

تُمنح الأشياء الملتبسة الغامضة أهمية أكبر من تلك الواضحة التي نجد لها تفسيرا.

533

تقدير قيمة الخدمات

نقدر الخدمات التي يقدمها لنا أحد ما من خلال القيمة التي يضعها فيها ذلك الذي يقدمها، لا من خلال القيمة التي لها بالنسبة لنا.

534

مغالاة في تقدير الأسى

إن التقدير الذي يُمنح للأسى على قدر من العلو (كما لو أنه من مميزات السطحية وفتور الهمّة والرداءة أن يكون الإنسان سعيدا)، حتى أننا عندما نقول لأحد ما: «لكن، كم أنت سعيد!»، يكون ذلك عادة تعبيرا عن احتجاج.

535

فنطازيا الخوف

فنطازيا الخوف هي ذلك العفريت الشرير بوجه قرد، الذي يختار أن

ينط فوق ظهر الإنسان في اللحظة التي يكون رازحا فيها تحت أشد الأثقال.

536

مزية الخصم السخيف

يظل المرء وفيا لقضية، فقط لأن مناهضيها يمعنون في البقاء على بلادتهم.

537

قيمة المهنة

المهنة تجعل الإنسان خالي البال؛ تلك هي نعمتها الكبرى. إنها ملجأ شرعي يحتمي به الإنسان عندما تنهال عليه الهواجس والهموم من كل نوع.

538

الموهبة

هناك من الناس من تبدو موهبته أقل مما هي عليه في الحقيقة، لأنه يحدد لنفسه دوما مهمات مشطة في الطموح.

539

شباب

سن الشباب غير مريحة؛ إذ من غير الممكن أو غير المعقول أن يكون المرء في تلك السن منتجا بأي معنى.

540

أهداف تفوق المقدرة

إن من يحدد لنفسه علنا أهدافا كبرى ثم يدرك من بعدها خفية أنه لا يملك القوة الكافية لذلك، لا يكون له عادة ما يكفي من القوة كي يتراجع علنا عن تلك الغايات، ويتحول حتما إلى منافق.

541

داخل التيار

السيول القوية تجرف معها الكثير من الحصى والأشواك، والعقول القوية تسحب معها الكثير من العقول السخيفة والمشوَّشة.

542

مخاطر التحرر العقلي

في عملية التحرر العقلي ذي النوايا الجدية لشخص ما تحلم أهواؤه أيضا وأطماعه سرًّا باقتطاع فوائد لها من ذلك.

543

تجسد العقل

عندما يفكر شخص كثيرا وبذكاء يكتسي وجهه، بل كل جسده ملامح هيأة ذكية.

544

ضعف النظر وضعف السمع

من لا يرى جيدا، يرى دوما أقل مما ينبغي؛ ومن لا يسمع جيدا، يسمع دوما شيئا زائدا.

545

رضا عن النفس في الغرور

لا يريد المغرور أن يكون متميزا، بل أن يحس بنفسه متميزا، لذلك هو لا يتورع عن استعمال أية وسيلة من وسائل مغالطة النفس والتحايل على النفس. فليس رأي الآخرين فيه، بل رأيه في نفسه الذي يستمده من رأيهم فيه هو ما يشغل قلبه.

546

غرور اضطراري

يصبح الإنسان المكتفي بذاته عادة مغرورا استثناء، ومتقبلا لعبارات المديح والتمجيد عندما يلم به مرض جسدي. فبالقدر الذي يتلَف من نفسه يكون عليه أن يسعى إلى استرداده من الخارج، من خلال رأي الآخرين فيه.

547

«ذو العقل»

ليس بذي عقل ذلك الذي يبحث عن العقل.[١٦٣]

548

غمزة لرؤساء الأحزاب

عندما نفلح في الدفع بالناس إلى التعبير علنا عن موقف إيجابي من مسألة ما، فإننا غالبا ما نكون قد توصلنا أيضا إلى جعلهم يتبنون ذلك الموقف؛ مبتغاهم في ذلك طبعا أن لا يجدهم الناس غير منسجمين مع أنفسهم.

549

احتقار

الاحتقار الذي يصدر عن الآخرين يؤثر في الناس أكثر من احتقارهم لأنفسهم.

550

حبل الاعتراف بالجميل

هناك أنفس صاغرة تدفع بالامتنان لكل من أحسن إليها إلى حد تجعل معه من اعترافها بالجميل حبلا تخنق به نفسها.

551

حيلة للتنبؤ

كي نتمثّل مسبقا الطريقة التي يتصرف بها الناس العاديون، علينا فقط أن نضع في ذهننا فرضية أنهم يبذلون دوما أقل ما يمكن من جهد عقلي للخروج من مأزق ما.

552

الحق الوحيد للإنسان

من يتخلى عن التقاليد يكون ضحية لمفاجآت اللامعتاد؛ ومن يظل وفيا للتقاليد يكون عبدا لها. وفي كلتا الحالتين يمضي المرء إلى حتفه.

553

ما دون الحيوان

عندما يشهق الإنسان ضحكا يكون قد تجاوز في بذاءة فظاظته كل الحيوانات.

554

نصف معرفة

من يعرف قدرا بسيطا من لغة أجنبية يجد في ذلك أكثر متعة ممن يتقنها. فالمتعة دوما من نصيب أنصاف العارفين.

555

خدومية خطيرة

هناك أناس يعملون دوما على جعل حياة الآخرين أكثر شقاء، لا لشيء إلا لكي يعرضوا عليهم فيما بعد وصفات للترويح والتفريج، كالمسيحية مثلا.

556

الجهد والضمير المهني

غالبا ما يكون الجهد والضمير المهني متناقضين من حيث أن الجهد يريد قطف الثمار من الشجرة قبل نضجها، بينما يدعها الضمير المهني معلقة فوق أغصانها إلى أن تقع من لدن نفسها وتتحطم على الأرض.

557

شبهة

الناس الذين لا نطيقهم، نحاول ان نجعل منهم محل شبهة.

558

فرص غير متاحة

هناك عدد كبير من الناس يظلون طوال حياتهم ينتظرون فرصة لكي يكونوا أناسا جيدين *على طريقتهم*.

559

قلة الأصدقاء

إن قلة الأصدقاء لدى شخص ما تجعلنا نستنتج أسبابا تتعلق بالحسد أو الغرور. والكثيرون يدينون بصداقاتهم للظروف السعيدة وحدها التي لم تمنحهم سببا للحسد.

560

الخطر في تعدد المواهب

غالبا ما يغدو الإنسان مع موهبة إضافية أقل وثوقا مما يكون مع واحدة أقل؛ مثل الطاولة تقف أكثر ثباتا على ثلاثة أرجل مما على أربعة.

561

قدوة للآخرين

من يريد أن يكون مثالا للآخرين عليه أن يضيف حبة حمق إلى فضيلته؛ عندها سيكون هناك من يحاكيه ويسعى للتفوق عليه في ذات اللحظة؛ -ذلك هو ما يحبه الناس.

562

عندما نكون مجرد مرمى

عندما يتكلم عنا الآخرون بسوء فغالبا ما لا نكون نحن المقصودين حقا بذلك الاغتياب، بل هو مجرد تعبير عن غضب أو مزاج معكر لأسباب لا علاقة لها بنا تماما.

563

الاستسلام بسهولة

سيتألم المرء أقل ما يمكن من جراء الأماني المخفقة عندما يكون قد درّب خياله على تقبيح الماضي.

564

في خطر

غالبا ما نكون أكثر عرضة لأن تدهسنا عربة في اللحظة التي نكون تلافينا فيها الاصطدام بعربة.

565

الصوت يصنع الدور

من يكون مجبرا على الكلام بصوت أكثر ارتفاعا من المعتاد (أمام جمع من ثقيلي السمع مثلا أو جمهور غفير) يجد نفسه عادة يبالغ في الأشياء التي يريد أن يبلّغها مستمعيه. هناك من غدا متآمرا، مفتريا، مضمرَ سوء، دساسا، لا لشيء إلا لأن صوته لم يُجعل إلا للهمس.

566

الحب والكراهية

الحب والكراهية ليسا أعميان، بل تبهر بصرَهما الشعلة التي يحملانها بين دفتيهما.

567

عداوة مفيدة

أولئك الذين يعجزون عن إظهار مزاياهم بصفة جلية للعالم يسعون إلى

استفزاز عداوة قوية ضدهم. ويكون لهم عندها عزاء في أن تلك العداوة هي التي تقف حائلا دون الاعتراف بمزاياهم، -وفي وأن يكون هناك آخرون يعتقدون نفس الشيء؛ وهذا أمر مفيد جدا للاعتبار الذي يرومون نيله.

568

اعتراف

ينسى المرء ذنبه عندما يعترف به لشخص آخر، غير أن الآخر عادة ما لا ينسى له ذلك.

569

الرضا عن النفس

الفروة الذهبية للرضا عن النفس تقي الإنسان لذع السوط، لكنها لا تقيه وخز الإبر.

570

ظلال داخل الشعلة

لا تكون الشعلة نيّرة في داخلها بالقدر الذي يكون عليه أولئك الذين تضيؤهم: وكذلك هو شأن الحكيم.

571

آراؤنا الخاصة

أول رأي يخطر لنا على بال عندما نُسأل فجأة عن شيء ما عادة ما لا يكون رأينا الخاص، بل الرأي المتداول الذي له صلة بطبقتنا، بموقعنا، بأصلنا: آراؤنا الشخصية نادرا ما تطفو على السطح.

572

مصدر الشجاعة

الإنسان العادي شجاع وغير قابل للكسر مثل بطل، عندما لا يرى الخطر ولا عين له عليه. بالمقابل: للبطل موقع واحد يمكن أن يصاب منه؛ إنه الظهر، أي هناك حيث لا عين له.

573

خطر الأطباء

يجب أن نكون قد خُلقنا لطبيبنا، وإلا فإنه في طبيبنا يكون هلاكنا.

574

غرور معجِز

من يغامر ثلاث مرات بالتنبؤ بالطقس وينجح في ذلك، فهو يؤمن في قرارة نفسه إلى حد ما بموهبته النبوئية. إننا نقبل الإقرار بالمعجزة وباللامعقول عندما يكون في ذلك ما يداعب وتر اعتدادنا بنفسنا.

575

المهنة

المهنة هي العمود الفقري للحياة.

576

خطر التاثير الشخصي

من يشعر بأن له تأثيرا معنويا كبيرا على شخص ما، عليه أن يطلق له العنان، بل ويبارك في بعض الأحيان تنطعه عليه ويدفعه بنفسه إلى ذلك؛ وإلا فإنه حتما سيصنع لنفسه عدوا.

577

ضرورة القبول بالورَثة

من يؤسس شيئا عظيما من منطلق عقلية غيريّة، عليه أن يحرص على إعداد ورَثة له. وإنه لمن علامات طبع استبدادي ووضيع أن يرى المرء في كل الورثة المحتمَلين لعمله خصوما وأن يصرف حياته في حالة متواصلة من حماية نفسه منهم.

578

نصف معرفة

تُحقق نصف المعرفة انتصارات أكثر من المعرفة الكاملة: إنها تعرف الأشياء على هيأة أكثر بساطة مما هي عليه، وبذلك تجعل أفكارها أكثر تيسرا على الفهم وأكثر إقناعا.

579

غير مناسب للأحزاب

من يفكر كثيرا لا يصلح لأن يكون عضوا في حزب؛ لأنه سيجعل أفكاره تخترق الحزب.

580

ذاكرة رديئة

تتمثل فائدة الذاكرة الرديئة في أن المرء يظل دوما يستمتع لأول مرة بنفس الأشياء الجيدة.

581

إيلام النفس

عادة ما تكون القسوة المشطة في التفكير علامة حالة اضطراب داخلي يبحث له عن مخدّر.

582

الشهيد

يتألم مريدو الشهيد أكثر من الشهيد نفسه.

583

غرور نكوصيّ

غرور بعض الناس ممن لا حاجة لهم في أن يكونوا مغرورين هو بقايا عادة قديمة متطورة من زمن لم يكن يحق لهم فيه أن تكون لهم ثقة بأنفسهم، وكان عليهم أن يتسولوا تلك الثقة من الآخرين كصدقة شحيحة.

584

قطرة طفح الإناء (Punctum saliens)

من كان على وشك الوقوع في حالة من الغضب الحاد أو حالة عشق عنيفة يكون قد بلغ نقطة تغدو النفس فيها ممتلئة حتى الحافة، مثل إناء؛ لكن تظل تنقصها قطرة إضافية، هي النية الصادقة في الانفعال (وتسمى عادة بالنية السيئة أيضا). تلك القطرة الصغيرة وحدها تكفي كي يطفح الإناء.

585

خاطرة مزاج معكر

وضع الإنسان لا يختلف عن وضع أكوام من الفحم داخل الغابة. وعلى غرارها سيكون على الشبان أولا أن يحترقوا كليا ويتفحموا، وعندها فقط يصبحون نافعين. وطالما ظلوا يشتعلون ودخانهم يتصاعد يمكنهم أن يكونوا أكثر أهميّة، لكنهم يظلون قليلي الفائدة، بل ومزعجين في أغلب الأحيان.

إن الإنسانية تستهلك كل فرد من أفرادها دون هوادة كوقود لآلاتها الكبيرة؛ لكن ما نفع الآلات بالنهاية، عندما يكون كل الأفراد (بما معناه الإنسانية في مجملها) مسخّرين كليا لخدمتها؟ آلات غايتها في نفسها؛ -هل هذه هي الـ *umana commedia* (الكوميديا الإنسانية)؟

586

مؤشر الساعات في مسيرة الحياة

تتكون الحياة من لحظات معزولة نادرة ذات أهمية قصوى وعدد لا محدود من الفراغات تحوم فيها في أفضل الأحوال من حولنا أطياف تلك اللحظات القليلة. الحب، الربيع، كل نغمة جميلة، الجبال، القمر، البحر: كلها، لا تنفذ كلماتها إلى أعماق القلب سوى مرة واحدة، إذا ما كان لها أن تتكلم؛ ذلك أن الكثير من الناس لا يعرفون مثل هذه اللحظات البتة، وهم في ذاتهم ليسوا سوى فراغات وفواصل صامتة داخل سمفونية الحياة الحق.

587

المناهضة أم الانخراط

غالبا ما نرتكب خطأ إعلان عداوة حادة ضد اتجاه ما، أو مرحلة

أوحزب، لأننا لا نرى من هذه الأشياء، بموجب صدفة، غير جانبها الظاهر، أو جانب انحلالها أو ما يخالط فضائلها حتما من «نقائص»،[١٦٤] -وربما لكوننا قد ساهمنا بدورنا في ذلك مساهمة أساسية. عندها نولي تلك الأشياء ظهرنا ونشرع في البحث عن اتجاه معاكس؛ بينما سيكون من الأفضل لو أننا نبحث عن الجوانب الجيدة فيها، أو أن نوجدها في أنفسنا. صحيح أن ذلك يتطلب نظرة أكثر نفاذا وإرادة أقوى لكي ندفع إلى الأمام بما هو قيد الصيرورة، بدلا من أن نركّز نظرنا على تقصّي نواقصه، وننكره.[١٦٥]

588

تواضع

هناك تواضع حقيقي (يعني أن ندرك أننا لسنا نتيجة عملنا الخاص)، وهو من خاصيات العقل العظيم، لأنه هو الذي يستطيع أن يدرك فكرة اللامسؤولية المطلقة (بما في ذلك في ما يتعلق بالخير الذي يصنعه). ونحن على أية حال لا نكره قلة تواضع العظيم لأنه يحس بقوته، بل لأنه يريد أن يدرك قوته فقط من خلال إهانة الآخرين ومعاملتهم معاملة السيد والنظر إلى أي حد يمكنهم تحمل ذلك. إن هذا السلوك يدل عادة على انعدام الإحساس الواثق بالقوة، ويجعل الناس يشكّون في عظمة صاحبه. وبالتالي فإن الغرور يعد من منظور الفطنة أمرا غير مستحب.

589

الفكرة التي يستهل بها النهار

إن أفضل وسيلة لبداية حسنة لكل يوم هي أن نتساءل عند النهوض من النوم إذا ما كان ممكنا أن ندخل الفرحة على شخص واحد على

الأقل. وإذا ما استطعنا أن نجعل من هذا تعويضا عن العادة الدينية في الصلاة الصباحية، فسيكون للناس من حولنا فائدة في هذا التغيير.

590

الغرور كآخر وسيلة للعزاء

عندما يعمل الإنسان على أن يجعل من إخفاق ما، أو من نواقصه الفكرية أو مرضه أمرا من فعل القدر، أو امتحانا، أو عقابا غامضا على خطيئة سابقة، فإنه يجعل بذلك من كيانه شيئا مهما ويسمو بنفسه في الخيال إلى منزلة أرقى من منزلة الآخرين. والخطيء المتكبر نموذج معروف داخل كل الطوائف الدينية.

591

نبْت السعادة

في موضع ملاصق لآلام العالم، وعلى أرضه البركانية غالبا، أعدّ الإنسان جنان سعادته الصغير؛[١٦٦] وسواء نظر الإنسان إلى الحياة بعين ذلك الذي لا يريد غير معرفة كيانه، أو بعين ذلك الذي فضل الخضوع والاستسلام، أو ذاك الذي يجد غبطته في تذليل المصاعب، فإنه يجد دوما شيئا من سعادة تنمو نبتتها إلى جانب الأسى -بل وأكثر سعادة هناك حيث تكون الأرض بركانية-، غير أنه سيكون من المضحك أن نقول إن هذه السعادة تبرر المعاناة.

592

طريق الأجداد

إنه لمن الحكمة أن يجتهد امرؤ في إتقان مهارة بذل الأب أو الجد جهودا لبلوغها، وأن لا يسلك طريقه في شيء جديد؛ وإلا

فإنه سيحرم نفسه من إمكانية أن يبلغ اكتمال الإتقان في حرفة ما. لذلك يقول المثل: «أي طريق ينبغي عليك أن تسلك؟ -طريق أجدادك»[١٦٧].

593

الطموح والغرور كمربٍّ

طالما لم يتحول شخص ما إلى أداة للصالح العام للإنسانية فإن الطموح سيظل يعذبه؛ أما إذا ما بلغ هدفه، وإذا ما غدا يشتغل مثل آلة لمنفعة عامة الناس، عندها يمكن للغرور أن يحُلَّ؛ وسيؤنْسنه عندها داخل جزئيات حياته ويجعله اجتماعيا أكثر، مطاقا أكثر، وأكثر تسامحا، وذلك بعد أن يكون الطموح قد أتم الجزء الأصعب من العمل على تهذيبه وتربيته (بجعله يغدو أكثر نفعا).

594

الفيلسوف المبتدئ

لمجرد أن يتلقى امرؤ حكمةَ أحد الفلاسفة، تجده يمضي في الشوارع يحدوه شعور بأن تبدّلا كليا قد حصل على شخصه وأنه غدا الآن رجلا عظيما، إذ هو سيجد عددا كبيرا من أولئك الذين لا معرفة لهم بالحكمة، وسيكون لديه إذن في كل مسألة حكم غير معروف يعرضه: -هكذا لمجرد أن يعترف المرء بمدوّنة قوانين يعتقد أنه قد غدا بوسعه الآن أن يتصرف كقاض.

595

أراد سخطا لنيل إعجاب[١٦٨]

أولئك الذين يفضلون أن يجلبوا الانتباه وهم يعملون على إثارة

السخط، يسعون من أجل الأمر نفسه الذي يسعى إليه أولئك الذين لا يريدون جلب الانتباه، ويثيروا بذلك الإعجاب، لكن بدرجة أعلى بكثير وبطريقة غير مباشرة تبعدهم في الظاهر عن هدفهم. إنهم يريدون تأثيرا وسلطة، لذلك هم يستعرضون تفوقهم حتى على النحو الذي يجعله غير مستساغ؛ وهم يعرفون أن ذلك الذي بلغ أخيرا منزلة القوة كان يعجب في كل ما يقوله ويفعله تقريبا، وحتى في الأحيان التي لا يُعجب فيها يظل يظهر مع ذلك بمظهر من يُعجب.

والمفكر الحر أيضا، وكذلك المؤمن يريدان القوة هما أيضا كي يستطيعا من خلالها أن يصيرا محل إعجاب؛ وعندما تتهددهم من وراء تعاليمهما المحن والاضطهاد والسجن والتعذيب، فإنهما يبتهجان للفكرة التي تخامرهما من أن تعاليمهما ستنقش بالحديد والنار في ضمير الإنسانية، ويتقبلان معاناتهما كوسيلة مؤلمة، لكنها قوية، وإن كانت بطيئة التأثير، من أجل بلوغ منزلة القوة بالنهاية.

596

قادح الحرب وما شابهه

إن الأمير الذي يكون قد اتخذ قرارا بإعلان الحرب على جاره ثم يشرع في البحث عن تعلّة لذلك (casus belli) أشبهَ بالأب الذي يفرض على طفله أمًّا ينبغي عليه منذ ذلك الحين أن يقبل بها كذلك. أوليست كل دوافع أفعالنا المعلنة تقريبا هي تلك الأمهات المفروضة علينا فرضا؟

597

الحماسة والحق

لا أحد يستطيع أن يتكلم بحماسة عن حقه مثل واحد يكون في أعماقه شيء من شك في حقه. إنه يستعمل الحماسة سندا لكي يتمكن من

تخدير عقله وشكه؛ وهكذا يكسب راحة الضمير ومعها نجاحا لدى الآخرين.

598

حيلة المتبتّل

من يحتج على الزواج على طريقة القساوسة الكاثوليكيين سيسعى إلى فهم هذه المسألة بحسب تصوره الأكثر دناءة وابتذالا. كذلك فإن من يرفض المجد الذي سيكون له بين معاصريه سيقدم فهما خسيسا للمجد، وبذلك يسهّل على نفسه تحمل الحرمان ومقاومة إغراءات المجد. علاوة على هذا، فإن من يضحي بالكثير على مستوى الكل سيتساهل في التسامح مع نفسه في بعض الأشياء الصغيرة. ومن المحتمل إذن أن ذلك الذي يترفع عن إعجاب معاصريه لا يريد مع ذلك أن يحرم نفسه من إرضاء بعض نزوات الغرور الصغيرة.

599

سن الغرور

ما بين السادسة والعشرين والثلاثين تقع الفترة الأساسية للغرور لدى الموهوبين من الناس؛ إنها فترة بداية النضج مع بقايا قوية من حموضة. يطالب المرء بتشريف واحترام، وفقا لما يشعر به في نفسه، من أناس لا يرون فيه شيئا من ذلك، أو النزر القليل فقط، ثم ينتقم لنفسه لأنه لم يُستجب لمطلبه، وذلك من خلال تلك النظرة وتلك الحركات التي تعبر عن الغرور، وتلك النبرة التي يمكن لكل أذن مرهفة وعين ثاقبة أن تستشفها في كل منتجات تلك المرحلة من العمر، أشعارا كانت، فلسفة، رسوما، أم موسيقى. يقابل الرجال المجرّبون ذلك بابتسامة، وبتأثّر يتذكرون تلك الفترة الجميلة من

العمر، حيث نكون ناقمين على الحظ الذي يجعل نصيبنا أن نكون مهمّين للغاية وأن نبدو تافهين. في فترة لاحقة سيبدو المرء حقا أكبر، لكنه سيكون قد افتقد ذلك الإيمان بأنه شيء مهم للغاية: عدا أن يظل الواحد طوال حياته ذلك الأحمق المغرور الذي لا يرجى له شفاء.

600

رافد أمان وهمي لكنه ناجع

مثلما يحتاج المتمشى على خشبة فوق هاوية أو نهر عميق إلى درابزين، لا للاستناد إليه- إذ سينهار به فورا، لكن من أجل إيهام العين بشيء من الأمان، -كذلك نحتاج في صبانا إلى أشخاص يؤدون لنا لا شعوريا دور ذلك الدرابزين. صحيح أنهم لن يساعودننا إذا ما وجدنا أنفسنا حقا في وضع من الخطر وأردنا أن نتكئ عليهم، غير أنهم يمنحوننا إحساسا بوجود السند بالقرب منا (كما يكون الأب مثلا أو المعلم أو الأصدقاء عادة).[١٦٩]

601

تعلم المحبة

علينا أن نتعلم المحبة، أن نتعلم أن نكون خيّرين، وذلك منذ الصبا؛ وإذا لم تمنحنا التربية والصدف فرصة للتدرب على هذه الأحاسيس فإن أحاسيسنا ستجف وتغدو غير مؤهلة لفهم كل هذه الأحاسيس الرقيقة لدى الناس الودودين. علينا كذلك أن نتعلم الكراهية ونغذيها إذا ما أراد أحدنا أن يغدو في يوم ما باغضا كما ينبغي؛ وإلا فإن بذرة الكراهية ستموت شيئا فشيئا في داخلنا.

602

الكسارات كقطع زينة

يظل أولئك الذين يعرفون تحولات ذهنية كثيرة محافظين من مراحل حياتهم السابقة على بعض من التصورات والعادات التي تبرز مثل قطع من تراث عتيق غامض وكسارات من بنايات رمادية داخل تفكيرهم وسلوكهم الجديدين: كزينة للمشهد العام غالبا.

603

الحب والزواج

الحب يشتهي، والهيبة تتحاشى. ذلك هو ما يجعلنا لا نستطيع أن نكون محبوبين ومحترمين من نفس الشخص وفي نفس الظرف الزمني على الأقل. ذلك أن الذي يحترم يعترف بالقوة، يعني أنه يهابها: وتكون حالته حالة مهابة. أما الحب فلا يعترف بقوة، ولا بشيء يفرق ويُعلي، أو يضع ويرفع في المراتب. ولأن الحب لا يمنحهم ما ينتظرون من إكبار، ترى المولعين بالاحترام ينفرون في السر أو علانية من محبة الآخرين لهم.

604

حكم مسبق لصالح الباردين

الناس الذين يضطرمون بسرعة، سرعان ما يغدون باردين، وهم بسبب ذلك من الذين لا يعول عليهم. لذلك نجد أولئك الباردين دوما، أو يظهرون أنفسهم كذلك، يحظون بالرأي المسبق الذي هو لصالحهم، بأنهم أناس من الموثوق بهم والجديرين بالثقة: هناك خلط يقع هنا بينهم وبين أولئك الذين يشتعلون ببطء ويحتفظون بشعلتهم لمدة طويلة.

605

الخطير في الآراء الحرة

إن علاقة سطحية مع الآراء الحرة تحدث إثارة شبيهة بحكاك؛ إن نحن استسغناه واستسلمنا له سنشرع في حك ذلك الموقع إلى أن ينتهي بنا ذلك إلى إحداث جرح مفتوح مؤلم، يعني: إلى أن تشرع الآراء الحرة في تشويش اختياراتنا الحياتية وعلاقاتنا الاجتماعية وفي تعذيبنا.

606

اشتهاء الألم العميق

تترك فورة الانفعال بعد مرورها حنينا غامضا إليها، وتقذفنا وهي تغادرنا بنظرة إغراء أخيرة. لا بد أن تكون هناك لذة تمنحنا إياها لسعات سوطها. بعدها تبدو الإحساسات المعتدلة باهتة مقارنة بها؛ فالمرء على ما يبدو يفضل القرف الحاد على اللذة الباهتة.

607

مزاج عكر ضد الآخرين والعالم

عندما نلقي بمزاجنا العكر على الآخرين، كما نفعل غالبا، بينما نكون نحن أنفسنا موضوع ذلك الكدر، فإننا نسعى في الحقيقة إلى إلقاء ستارة من الضباب على ملَكة الحكم لدينا ومغالطتها: نريد أن نعلل ذلك المزاج العكر بعديًا من خلال أخطاء الآخرين وعيوبهم وأن نختفي نحن من المشهد.

إن المتدينين المتشددين الذين يحاسبون أنفسهم بشدة لا شفقة فيها كانوا في الوقت نفسه أكثر من تكلم بسوء عن الإنسانية؛ فالقس الذي يخص نفسه بالخطايا والآخرين بالفضائل لم يكن له من وجود

قط، مثله مثل ذاك الذي ينبغي عليه، وفقا لتعاليم بوذا، أن يخفي عن الناس فضائله ولا يظهر سوى رذائله.[١٧٠]

608

الخلط بين العلة والنتيجة

نبحث لا شعوريا عن المبادئ والمذاهب الفكرية التي تتلاءم وطباعنا، بحيث يتراءى لنا بالنهاية كما لو أن المبادئ والمذاهب الفكرية هي التي صنعت طباعنا ومنحتها ثباتها ووثوقها؛ بينما جرت الأمور بعكس ذلك تماما. يبدو إذن أننا جعلنا بعديًّا من تفكيرنا وأحكامنا سببا لكياننا، بينما الواقع هو أن كياننا هو السبب في كوننا نفكر ونحكم على هذا النحو أو ذاك.

لكن ما الذي دفع بنا إلى هذه الكوميديا اللاشعورية تقريبا؟ إنه الكسل وتخيّر الوضع المريح، وكذلك قسط غير يسير من طمع الغرور في أن يجدنا الناس متماسكين ومتفردين في كياننا وتفكيرنا: إذ ذلك يجلب الاحترام ويمنح ثقة وسلطة.

609

السن والحقيقة

يحب الشبان كل ما هو مهم وغريب بصرف النظر عن كونه حقيقيا أو مزيفا. أما العقول الناضجة فتحب في الحقيقة ما هو مهم وغريب. والذين بلغوا النضج الذهني يحبون الحقيقة حتى عندما تبدو بمظهر الشيء البسيط والساذج والذي يضجر الإنسان العادي، لأنهم قد لاحظوا أن الحقيقة تقول أرقى ما تملك من محتوى عقلي في هيأة البساطة الساذجة.[١٧١]

610

الناس شعراء رديئون

مثلما يفعل الشعراء الرديئون الذين يبحثون في عجز البيت الشعري عن فكرة تتناسب والقافية، كذلك يفعل الناس في النصف الثاني من عمرهم وقد غدوا أكثر خوفا عندما يشرعون في البحث عن أعمال وأحوال وعلاقات تتناسب مع تلك التي كانت لهم في النصف الأول من حياتهم كي يبدو كل شيء لديهم متناغما في ظاهره؛ غير أن حياتهم لم تعد تسودها فكرة متينة تقودها وتعيد على الدوام صياغتها، بل غدا يحل محل تلك الفكرة هاجس البحث عن قافية.

611

الضجر واللعب

تضطرنا الحاجة إلى العمل الذي يمنحنا مردودا يشبع تلك الحاجة؛ والعودة المستمرة للحاجة تجعلنا نتعود على العمل. لكننا في أوقات الاستراحة عندما نكون قد لبينا الحاجة فتصبح غافية، ينتابنا الضجر. فاي شيء هذا؟ إنه التعود على العمل عموما هو الذي يعبر عن نفسه الآن كحاجة جديدة؛ وستغدو هذه الحاجة أكبر بقدر ما نكون قد غدونا متعودين على العمل، وربما بقدر ما نكون قد عانينا من الحاجة. ولكي يتفادى الإنسان الحاجة يكون عليه إما أن يعمل بقدر يتجاوز مما تتطلبه حاجياته، أو أنه يبتكر اللعب كشكل من العمل لا يُنتظر منه تلبية حاجة أخرى غير الحاجة إلى العمل. وعندما يغدو اللعب مملا بالنسبة للمرء ولا تكون له من حاجة تدعوه إلى العمل، تظهر لديه عندها الرغبة في حالة ثالثة يكون مقامها بالنسبة للعب كمقام التحليق بالنسبة للرقص، ومقام الرقص بالنسبة للمشي، رغبة في نوع من الحركة الهادئة والسعيدة: إنها رؤية الفيلسوف والفنان للسعادة.

612

ما نتعلمه من صورنا القديمة

عندما نتأمل عددا من صورنا القديمة، من زمن الطفولة حتى بلوغ الكهولة، نكتشف بدهشة لذيذة أن الكهل أكثر شبها بالطفل منه بالشاب؛ وأنه، وعلى ضوء هذه الصيرورة، من المحتمل أن تكون هناك قطيعة مؤقتة قد حدثت على الطبع الأساسي قد استعادت الكهولة المكتملة سيطرتها عليها بما تجمّع لديها من طاقات قد راكمتها في الأثناء. هذه المعاينة تقابلها معاينة أخرى مفادها أن كل التأثيرات التي مارستها علينا ضروب الشغف وأفكار المعلمين والأحداث السياسية، وتجاذبتنا بقوة في سنوات شبابنا تبدو وقد تمت العودة بها أخيرا إلى مقياس ثابت: من الأكيد أنها ما تزال تواصل حياتها في داخلنا وممارسةَ تأثيرها علينا، إلا أن الأساس الأصلي الذي يقوم عليه حسنا وفهمنا يكون هو الماسك بزمام الأمور ويستعملها الآن كمصدر طاقة وليس كمنظم وموجه مثلما كانت تفعل في سن العشرينات. كذلك يبدو حس وتفكير الكهل مجددا أكثر تطابقا مع ما كانا عليه في سن الطفولة،- وهذا الأمر الداخلي يعبر عن نفسه في المظهر الخارجي للإنسان الذي ورد ذكره آنفا.

613

لكل سن نبرته

نبرة الصوت التي يتخذها الشباب في كلامهم ومديحهم وعتابهم وأشعارهم لا تعجب الكهول، لأنها عالية، وفي الان نفسه مدوّية وغير واضحة مثل صوت داخل فضاء مقبّب يتخذ له من خلال الفراغ حدة صاخبة؛ ذلك أن أغلب ما يصدر عن الشبّان من أفكار لا ينبع من زخم امتلاء في طبيعتهم الخاصة، بل هو رجيع وصدى لما يفكّر به، ما

يقال، ما يُمتدح وما يُعاب من حولهم. وبما أن الأحاسيس (من ميل ونفور) هي التي ترن في داخلهم بقوة أكثر من الأسباب، فإنهم كلما أرادوا أن يفسحوا المجال لتلك الأحاسيس كي تعبر عن نفسها إلا وطلعت تلك النبرة المدوية الصاخبة التي تمثل علامة على خواء الأسس أو غيابها. أما نبرة الكهولة الناضجة فصارمة، موجزة الامتداد، معتدلة الارتفاع، لكنها، وككل ما يُنطق بوضوح، بعيدة المدى. والسن تحمل معها غالبا قدرا من اللين والرفق في النبرة وتجعلها في الآن نفسه أكثر عذوبة؛ غير أنها في بعض الحالات تحمّضها أيضا.

614

المتخلفون والطلائعيون

إن الطبع الكريه الذي كله ريبة، والذي يقابل كل نجاح يحرزه زميل أو قريب بإحساس بالحسد، ويواجه كل رأي مخالف بعنف وحنق، يدل على أنه ينتمي إلى مرحلة عتيقة من تاريخ الحضارة، أي أنه أُثارة؛ إذ أن الطريقة التي يتعامل بها مع الناس هي الطريقة التي كانت تتناسب ووضع طور قانون «البقاء للأقوى»: إنه إنسان *متخلف* إذن. وهناك طبع آخر مفعم مودة، يكسب صداقات حيثما حل، يقابل بمودة لكل ما ينمو ويترعرع، ويبتهج لكل شرف أو نجاح يناله الآخرون ولا يدعي لنفسه امتيازا خاصا في حيازة ومعرفة الحقيقة، بل يحيا ممتلئا بحذر متواضع؛ ذاك هو طبع إنسان طلائعي متجه بنظره إلى الطموح إلى حضارة إنسانية راقية.

ينتمي صاحب الطبع الكريه إلى تلك العصور التي كانت فيها الأسس البدائية للمعاملات الإنسانية في طور البدايات من أشغالها، بينما يحيا النوع الثاني في طابقها الأعلى أبعد ما يمكن عن الحيوان الوحشي المنحبس في قبوه يزمجر ويعوي تحت أسس بناية الحضارة.

615

عزاء الموسوَسين

عندما يحدث لمفكر كبير أن يجد نفسه خاضعا مؤقتا لتعذيب النفس عن وسواس أصابه، فإنه بإمكانه أن يواسي نفسه قائلا: «طاقاتك الشخصية الوفيرة هي التي يغتذي منها هذا الكائن الطفيلي وينمو؛ لو كانت طاقاتك أضعف، لكان عذابك أقل». وبهذا يمكن لرجل دولة أيضا أن يحدث نفسه عندما يتسع مجال الغيرة وروح الانتقام، وبصفة عامة ذلك النزوع إلى حالة «*قتال الكل ضد الكل*» -*bellum omnium contra omnes*، -تلك الخصال التي ينبغي عليه كممثل أعلى لأمة أن يكون حائزا عليها بامتياز-، وتقتحم عليه مجال علاقاته الشخصية أيضا وتصبح مصدر نكد في حياته.

616

اغتراب في الحاضر

هناك فائدة كبرى في أن يجد الإنسان نفسه مرة في حالة من الاغتراب الشديد عن عصره، وأن يغادر ساحله مبحرا في محيط رؤى العصور الماضية. من ذلك الموقع البعيد، وهو يرسل نظره نحو الساحل الذي غادره، سيكون بإمكانه أن يحتضن بنظره لأول مرة مجمل المشهد ويكون بمستطاعه عندما يعود إليه فيما بعد أن يفهمه في كليته بصفة أشمل وأفضل من أولئك الذين لم يغادروه أبدا.

617

من نقائصه يزرع المرء ويحصد

أناس من أمثال روسو يعرفون كيف يجعلون من مواطن ضعفهم ونقائصهم ورذائلهم سمادا لموهبتهم. فعندما يشكو هذا الأخير من

فساد وانحطاط المجتمع كنتيجة مشؤومة للحضارة، فإن تجربة شخصية هي التي تكون أساسا لهذا الحكم، تجربة تمنحه مرارتها حدّة في الإدانة وسمًّا للسهام التي يطلقها؛ إنه يخفف عن نفسه كفرد أولا، ويعتقد أنه يبحث عن دواء يعالج المجتمع مباشرة لكنه يعود بالفائدة عليه هو بصفة غير مباشرة.

618

الحس الفلسفي

عادة ما يتجه طموح الناس إلى السعي إلى إيجاد موقف روحاني *واحد* ونمط رؤية موحد لكل الأوضاع الحياتية وكل الأحداث؛ ذلك هو ما يسمى أساسا امتلاك حس فلسفي. غير أن إثراء المعرفة لا بد أن يتطلب شيئا آخر غير هذه الطريقة في السعي إلى التماثل، بل الإصغاء إلى الأصوات الخافتة لمختلف الأوضاع الحياتية؛ وهذه الأخيرة تحمل رؤاها الخاصة معها. هكذا يسهم المرء مساهمة معرفية في حياة ووجود الكثرة المتنوعة، عندما لا يتعامل مع نفسه كفرد ثابت متحجر، *واحد* لا يعرف تنوعا.

619

في نار الاحتقار

إنها خطوة جديدة نحو الاستقلال أن يتجرأ المرء أخيرا على التعبير عن مواقف تعتبر مخجلة بالنسبة لمن يصرح بها؛ في مثل هذه الحالة يشرع حتى الأصدقاء والأقرباء في الإحساس بالخوف. سيكون على الطبع الموهوب أن يجتاز هذا الحريق أولا، وبعدها يصبح أكثر تملّكا بنفسه.

620

تضحية

سنفضل التضحية الكبرى على تضحية صغيرة، إن كان أمامنا مجال للاختيار، لأننا نجد تعويضا لنا من خلال الإعجاب بالنفس في التضحية الكبرى، وهو ما لا يمكن أن تمنحنا إياه التضحيات الصغيرة.

621

الحب كحيلة

من يرغب في معرفة شيء جديد (إنسانا كان أم حدثا أم كتابا) سيكون من الحكمة أن يتقبل ذلك الجديد بما يستطيع من محبة، وأن يحول نظره، على وجه الخصوص عن كل ما يتراءى له عدوانيا فيه منفرا ومزيفا، ويتجاهله بما يجعله يمنح مؤلف كتاب على سبيل المثال، أكبر ما يمكن من السبَق، ويظل يتحرق بقلب خافق، كما في سباق الخيل، إلى أن يراه يبلغ هدفه. بهذه الطريقة يقتحم المرء على الشيء الجديد عمق أعماقه حتى موقع النقطة الحساسة منه؛ وذلك هو ما يعني أن تعرفه. وإذا ما بلغنا هذا الحد سيتكفل العقل مباشرة بعدها بإجراء عملياته الانتقائية؛ ويكون كل ذلك التقدير المفرط السابق وذلك التعليق المؤقت لآلة التدقيق النقدي ليس شيئا آخر غير حيلة لاستدراج خفايا روح شيء جديد.[١٧٢]

622

حسن ظننا وسوء ظننا المفرطان بالعالم

سواء نظرنا إلى الأشياء بحسن ظن مفرط أو بسوء ظن مفرط، فإن لنا في ذلك دوما فائدة الحصول على متعة كبرى: فعندما نقدم رأيا مسبقا إيجابيا أكثر مما ينبغي عن الأشياء (تجارب حياتنا) نكون عادة قد

جعلناها أكثر حلاوة أكثر مما هي عليه في الواقع. أما الرأي المسبق السيء في الأشياء فيمنحنا فيما بعد مفاجأة سارة: فالمستساغ الذي يكمن في الأشياء ذاتها يتضاعف بما ينضاف إليه من عذوبة المفاجأة.
- أما الطبع القاتم فسيعيش التجربة المعاكسة في كلتا الحالتين.

623

العميقون

أولئك الذين يستمدون قوتهم من عمق أحاسيسهم - من يسمّوْن عادة بالناس العميقين- يكون لهم إزاء كل أمر مفاجئ موقف هادئ وحازم: ذلك أن انطباعهم يكون سطحيا في البداية، ولا يصبح عميقا إلا فيما بعد. بينما ما يكون منتظرا من الأشياء أو الأشخاص والمنتبأ بحدوثه مسبقا هي أكثر ما يُثير الاضطراب لدى هذا النوع من الناس ويجعلهم عاجزين تقريبا عن إبداء حضور ذهني عند حلولها بالنهاية.

624

في التعامل مع *ذاتنا الأرقى*(١٧٣)

لكل منا يومه الأفضل الذي تتجلى فيه لديه ذاته الأرقى؛ والحس الإنساني الحق يتطلب أن لا نقيّم شخصا إلا وفقا لهذه الحالة، لا وفقا لتلك الأيام التي يفتقر فيها إلى الحرية ويكون خاضعا للعبودية. علينا مثلا أن لا نقيّم رساما نمنحه ما يستحق من تكريم إلا من خلال الرؤية الأرقى التي استطاع أن يبلغها ويجسدها. غير أن الناس يتعاملون بطرق مختلفة مع هذه الذات الأرقى التي فيهم وغالبا ما يكونون ممثلين يلعبون دورا عن أنفسهم، إذ يتوقفون عند ما هم عليه في لحظة محددة من حياتهم ويظلون في تكرار دائم لمحاكاته وإعادة إنتاجه فيما بعد. والبعض يحيون بإحساس من الخشية والاستكانة بسبب مُثلهم ويودون

لو أنهم يتنكرون لها: إنهم يخشون ذاتهم الأرقى، لأنها عندما تتكلم، تنطق بطموح عال. علاوة على ذلك يكون لتلك الذات الأرقى حرية الأشباح في الظهور والاختفاء متى تشاء، لذلك تسمى غالبا بالهبة الإلهية، بينما كل ما عداها هو الذي يكون في الحقيقة هبة الآلهة (هبة الصدفة): أما تلك، فهي الإنسان عينه.

625

المتوحدون

هناك أناس قد تعودوا على الحياة في اختلاء بأنفسهم، مما يجعلهم لا يقارنون أنفسهم البتة بغيرهم من الناس، بل يصرفون حياة مناجاة ذاتية في جو من الهدوء والفرح والمحادثات اللطيفة مع أنفسهم، بل والضحك أيضا. وإذا ما حدث أن دفعهم الناس إلى مقارنة أنفسهم بآخرين فسيجدون أنفسهم ينزعون إلى الهمهمة باستنقاص أنفسهم، إلى أن يجدوا أنفسهم مرغمين على أن يتعلموا من الآخرين تكوين رأي صحيح عن أنفسهم: بل إنهم سيظلوا يحاولون باستمرار أن ينقصوا شيئا من هنا ويتنازلوا عن قسط من هناك من ذلك الرأي الذي تعلموه عن أنفسهم من الآخرين.

علينا إذن أن ندع مثل هؤلاء الناس لوحدتهم، وأن لا نكون على قدر من السذاجة، كما يحدث غالبا، كي نرثي لحالهم.

626

دون لحن

هناك أشخاص يتمتعون بهدوء داخلي قار وبقدر من الانسجام بين كل ملكاتهم، مما يجعلهم ينفرون من كل نشاطٍ غائيٍّ. إنهم يشبهون مقطوعة موسيقية تتألف من عدد من النغمات المتصلة المتناغمة دون

أن تظهر منها أية علامة حتى عن مجرد تخطيط أولي للحن مهيكل ومتصل. كل حركة تأتي من الخارج لا وظيفة لها سوى أنها تمنح الزورق توازنا جديدا فوق بحر النغم المتناسق. يشعر الرجال المعاصرون عادة بتوتر شديد عندما يلتقون بمثل هذه الطبائع، أولئك الذين لن *يصيروا* شيئا، ومع ذلك لا نستطيع أن نقول عنهم *إنهم* لاشيء. غير أن هيأتهم تدفع في حالات بعينها إلى طرح هذا السؤال غير الاعتيادي: ولِم اللحن بالنهاية؟ لم لا نكتفي بأن تظل الحياة تنعكس بهدوء على سطح بحيرة عميقة؟

كانت العصور الوسيطة أكثر غنى بمثل هذا النوع من الطبائع من عصرنا الحاضر. ولكم غدا من النادر أن نلتقي بواحد يستطيع أن يمضي في حياته مسالما وسعيدا حقا حتى داخل الزحام، مرددا لنفسه مثل غوته: «أفضل ما هناك هو هذا الصمت العميق الذي أحيا داخله وأنمو في تعارض مع العالم، وأكسب فيه ما لن يستطيعوا أن ينتزعوه مني بقوة الحديد والنار.»

627

الحياة وتجاربها

إذا نظرنا كيف أن بعض الناس يتعاملون مع تجاربهم-تجارب عادية من حياتهم اليومية- بطريقة تمكنهم من أن يجعلوا منها حقلا خصبا يأتي أكله ثلاث مرات في السنة؛ بينما آخرون -وكم هم كثيرون!- تتقاذفهم شتى أعاصير المصائر الأكثر اضطرابا والتيارات المتنوعة التي تتنازع العصر ومختلف الشعوب، لكنهم يظلون يطفون على السطح مثل فلّينة، فسيدفعنا هذا الأمر إلى الميل في النهاية إلى تقسيم الإنسانية إلى نوعين، أقلية -قلة قليلة- تعرف كيف تصنع الكثير من القليل، وأغلبية من أولئك الذين لا يصنعون من الكثير إلا القليل؛ بل ونجد أيضا

أولئك السحرة البارعين في إتيان المعكوسات، والذين، عوضا عن أن يخلقوا العالم من عدم، يخلقون من العالم عدما.

628

جدّ في اللعب

استمعت ذات مرة في جنوا ساعة الغروب إلى قرع أجراس طويل قادم من إحدى الصوامع؛ لم يرد ذلك القرع أن ينتهي وظل يرن كما لو كان شرِها لا يشبع من نفسه، طافيا في الغسق فوق صخب الأزقة ونسيم البحر، فظيعا وصبيانيا في الآن نفسه، وحزينا. وجدتني عندها أتذكر كلمات أفلاطون وأحس بها فجأة من أعماق قلبي: «*كل ما هو انساني في مجمله غير جدير بالجدية؛ ومع ذلك...*»[١٧٤]

629

عن القناعة والعدالة

ما يقوله المرء في حالة الانفعال ويعد به ويقرره، يكون عليه الالتزام به في حالة الهدوء والوضوح فيما بعد؛ هذا الإلزام هو من أثقل الأعباء التي تثقل كاهل الإنسان. أن يظل ملتزما إلى الأبد بتبعات الغيظ ورغبة الانتقام المتوقدة والتفاني الحماسي، فإن ذلك قد يثير في النفس سخطا على هذه الأحاسيس، خاصة وأنها تحظى في كل مكان بتقديس وثني، وبصفة أخص من قبل الفنانين. فالفنانون كانوا دوما، وما زالوا يغالون في الإعلاء من شأن الانفعالات، يشيدون بطبيعة الحال بالرضى الفظيع الذي يستمده المرء من الانفعالات، من انفجارات الانتقام المؤدية إلى الموت، والتمثيل بالجسد، والنفي الاختياري المنجر عن ذلك، وذلك الاستسلام الذي يغمر القلب المحطم. وعلى أية حال: هم يعملون على شحذ جذوة الانفعال واشتهاء الانفعال كما لو أنهم يريدون أن

يقولوا لنا: من دون الانفعالات ما كان لكم أن تعيشوا شيئا في حياتكم.

هل يعني أن المرء عندما يكون قد أقسم أيمان الوفاء ربما لكائن من محض التوهم، مثل إله، ولأن الواحد منا قد منح قلبه لأمير أو حزب أو امرأة أو نظام كهنوتي أو لفنان أو مفكر في حالة من الجنون الأعمى الذي يغمرنا بالفتنة ويظهر لنا ذلك الكائن جديرا بكل التضحيات، هل يعني ذلك أنه قد أصبح مقيّدا بقيد لا ينفصم أبدا؟ ألا نكون قد خدعنا أنفسنا بذلك في تلك اللحظة الماضية؟ ألم يكن ذلك وعدا افتراضيا، تحت شرط غير صريح في الحقيقة، بأن تكون الكيانات التي منحناها تكريسنا هي فعلا تلك الكائنات نفسها التي تراءت لتصورنا؟ هل نحن ملزمون بالوفاء لأخطائنا، حتى ونحن ندرك أننا نلحق أضرارا بذاتنا العميقة من خلال هذا الوفاء؟ -كلا، ليس هناك من قانون ولا أي التزام من هذا النوع، بل *علينا* أن نصبح خونة، وأن نمارس عدم الوفاء، وأن نظل نتخلى باستمرار عن مُثلنا العليا. وإننا لا نمضي من مرحلة من حياتنا إلى أخرى دون أن نثير أوجاع الخيانة وأن نتألم منها بدورنا. وهل سيكون ضروريا أن نتفادى اندفاعات أحاسيسنا كي نحمي أنفسنا من هذه الأوجاع؟ ألن يصبح العالم عندها قاحلا، موحشا بالنسبة لنا؟ بل إننا نريد فوق ذلك أن نسأل أنفسنا أيضا، إذا ما كانت هذه الآلام التي ترافق تغيير القناعات *ضرورية*، أم هي مرتبطة برأي وتقدير *خاطئين*؟ لِمَ يبدي الناس إذن إعجابهم بمن يظل وفيا لقناعاته، ويحتقرون ذلك الذي يغيرها؟ أخشى أن يكون الجواب هو التالي: لأن الجميع يفترضون أن دوافع تتعلق بمنافع رديئة، أو الخوف الشخصي، هي وحدها التي تدفع إلى هذا التغيير. بما يعني: نعتقد في الحقيقة أن لا أحد يغير قناعاته طالما ظلت تعود عليه بالفائدة، أو على الأقل طالما ظلت لا تجلب له

المضرة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا ينطوي على شهادة سيئة عن القيمة *العقلية* لكل القناعات. لنراجع إذن الكيفية التي تنشأ بها القناعات، ولنر إن لم نكن مبالغين شديد المبالغة في تقديرها؛ وسيتبين لنا من ذلك أيضا أن تغيير القناعات يقاس في كل الحالات بمقياس خاطئ، وأننا وإلى حد الآن ما زلنا نبالغ في التألم من جراء هذا التغيير.

630

القناعة هي الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة في مسألة محددة من المعرفة. ويفترض هذا الاعتقاد مسبقا أن هناك حقائق مطلقة؛ وفي الآن نفسه بأننا عثرنا على الطرق المثلى للوصول إليها؛ وأخيرا بأن كل من له قناعات يتوخى هذه الطرق المثلى. والفرضيات الثلاثة تثبت كلها أن رجل القناعات ليس برجل التفكير العلمي؛ فهو يمثُل أمامنا في سن البراءة النظرية، وهو طفل، مهما بدا عليه من كهولة. غير أن آلافا من السنين بأكملها قد عاشت على هذه الفرضيات الصبيانية، ومنها انبثقت ينابيع الطاقة الإنسانية. وذلك العدد الذي لا يحصى من الناس الذين كانوا يضحون بحياتهم من أجل قناعاتهم، كانوا يعتقدون أنهم كانوا يفعلون ذلك في سبيل الحقيقة المطلقة. لقد كانوا جميعهم مخطئين في ذلك: فمن المحتمل أن ليس هناك من أحد قد ضحى بحياته من أجل الحقيقة، أو على الأقل أن التعبير الدوغمائي عن إيمانه كان غير علمي، أو شبه علمي فقط. لكن ما كان يريده الإنسان هو أن يكون على حق، لأنه كان يعتقد أنه لا بد أن يكون على حق. فالقبول بأن ينتزع منه اعتقاده ربما كان يعني أن توضع غبطته الأبدية موضع السؤال. في مسألة على هذه الدرجة القصوى من الأهمية كان من

الواضح أن «الإرادة» كانت تلعب من وراء الستار دور ملقّن العقل. وكانت الفرضية المسبقة لكل ذي قناعة أنه يظل في كل الأحوال ممتنعا عن الدحض، وإذا اتضح أن الحجج المضادة كانت على درجة عالية من القوة، فإنه تظل لديه دوما وسيلة القدح في العقل، أو أن يرفع شعار *credo quia absurdum est*(١٧٥) رايةً لأقصى أنواع التعصب. إذ ليس صراع الآراء هو ما جعل التاريخ على ذلك القدر من العنف، بل صراع الإيمان بالآراء؛ أي القناعات. ولو أن أولئك الذين قدموا كل أنواع التضحيات في سبيلها ولم يبخلوا بشرفهم وأجسادهم وحياتهم في خدمتها، قد وهبوا نصف طاقاتهم فقط للبحث عن أي حق سوّغ لهم أن يظلوا متعلقين بهذه القناعة أو تلك، وعن الطريق التي قادتهم إليها، فلكم كان تاريخ الإنسانية سيبدو مسالما! وكم من المعارف الإضافية كنا سنحصّل! ولكُنّا تفادينا كل تلك المشاهد الشنيعة التي عرفتها ملاحقة الهراطقة من كل صنف، وذلك لسببين: أولهما أن المحققين كانوا سيحققون في أنفسهم قبل كل شيء، وسيجدون أنفسهم يتخلصون من غرور الادعاء بالدفاع عن الحقيقة المطلقة؛ ثم لأن الهراطقة أنفسهم سوف لا يكون لهم من داع لكي يولوا اهتماما لتلك المبادئ التي لا تستند إلى أسس جدية، كما هي مبادئ كل الطائفيين و«أصحاب المعتقد الصحيح» من المتدينين، بعد أن يكونوا قد تناولوها بالفحص والتدقيق.

631

في ذلك الزمن الذي كان الناس يؤمنون فيه بالحقائق المطلقة نشأ عدم *الارتياح* العميق لكل المواقف الريبية والتنسيبية من أية مسألة من مسائل المعرفة، وكانوا يفضلون غالبا أن يسلموا أنفسهم كليا ودون قيد ولا شرط لقناعة يكون عليها أشخاص ذوو مكانة وسلطة (آباء، أصدقاء،

معلّمون، أمراء)، وإن هم لم يفعلوا ذلك، يغدون فريسة لتأنيب الضمير. هذا الميل يمكن فهمه بسهولة، ولا تمنح نتائجه أي مبرر للتجريح العنيف الموجه ضد تطور العقل البشري. لكن شيئا فشيئا سيكون على العقل العلمي لدى الإنسان أن يُطور وينضج تلك الخصلة المتمثلة في الحياد الحذر، أي ذلك الاعتدال الحكيم المعتاد في مجالات الحياة العملية أكثر مما في ميدان النشاطات النظرية، والتي عرضها غوته في شخصية أنطونيو كمثال عن السخط على كل أفراد عائلة طاسو،[١٧٦] أي على الطبائع المخالفة للعلم، و العاطلة عن كل نشاط في الآن نفسه.

كل ذي قناعة يحمل في نفسه الحق في أن لا يفهم أصحاب التفكير الحذر، أي نموذج أنطونيو النظري؛ أما الإنسان العلمي فما من حق له بالمقابل في أن يعاتب ذلك الآخر على ذلك، بل يراقبه من فوق ويعرف علاوة على ذلك، في حالات بعينها، أنه سيأتي في يوم ما ليتعلق به، كما فعل طاسو في آخر المطاف مع أنطونيو.

632

من لم يمض عبر حشد من التجارب المتنوعة، ويظل بالمقابل حبيس القناعة الأولى التي وقع في شباكها، يكون في كل أحواله، وبموجب هذا الامتناع عن التغيير، مثالا للثقافة المتخلفة، ويكون وفقا لهذا النقص في الثقافة (التي تتطلب دوما قابلية للتثقّف) فظّا، عديم الفهم، ممتنعا عن التعلّم، عديم المرونة، دائم التشكك، شخصا قليل الحرج لا يتردد في استعمال كل الوسائل لفرض رأيه، لأنه لا يستطيع أن يفهم البتة أنه لابد أن تكون هناك آراء أخرى؛ ولعله من هذه الناحية منبع طاقة وعامل خلاص داخل حضارات مشطة في الحرية وفي الميوعة، لكن فقط من ناحية كونه يثير بقوة رغبة في مقاومته؛ ذلك أن الكيان

الهش للحضارة الجديدة وهو في طور التكوّن سيكتسب متانة ويغدو أكثر قوة وهو يجد نفسه مرغما على الصراع ضده.

633 [(١٧٧)]

مازلنا في جوهرنا من نفس نوعية إنسان عصر الإصلاح؛ وكيف يمكننا أن نكون على خلاف ذلك! غير أن كوننا لم نعد نسمح لأنفسنا ببعض الوسائل من أجل تحقيق الانتصار لآرائنا، فذلك هو ما يرفعنا فوق مستوى ذلك العصر ويثبت أننا ننتمي إلى حضارة أرقى. فكل إنسان مازال يصارع آراء ويطيح بها عن طريق إصدار الشبهات وتفجير نوبات الغضب على طريقة أناس عصر الإصلاح، يجعلنا نرى بوضوح بأنه سيكون بوسعه أن يحرق خصومه لو أنه كان يعيش في عصر آخر، وأنه سيلجأ إلى كل وسائل محاكم التفتيش لو أنه وجد نفسه في موقع المعادي للإصلاح. كانت حملات التفتيش في ذلك العصر أمرا معقولا من حيث أنها لم تكن تعني سوى أن حالة الحصار العام الذي كان ينبغي أن يضرب على كامل مجال نفوذ الكنيسة، والتي، مثلها مثل أية حالة حصار، تمنح شرعية في استخدام الوسائل القصوى، شريطة طبعا (وهو ما لم نعد نتفق فيه مع أناس ذلك العصر) أن يكون المرء ممسكا بالحقيقة، من داخل الكنيسة، وأنه من واجبه أن يحافظ عليها بكل الوسائل وعبر كل التضحيات من أجل خلاص الإنسانية. لكننا لم نعد نعترف اليوم لأحد بسهولة بأنه يمتلك الحقيقة؛ فوسائل البحث الصارمة قد سمحت بانتشار ما يكفي من الريبة والحذر كي يصبح كل من ينافح عن آراء بتوخي العنف قولا أو فعلا عدوا في أعيننا لحضارتنا المعاصرة، أو في أفضل الحالات متخلفا (عن الركب). وبالفعل، فالنبرة الحماسية التي يتم بها إعلان امتلاك الحقيقة لم يعد لها اليوم من قيمة بالمقارنة مع ذلك التعبير الأكثر اعتدالا وأقل

قرقعة، الذي يعلن البحث عن الحقيقة، ولا يكل من التعلم من جديد وإعادة النظر الدائمة في معارفه.[١٧٨]

634

والبحث المنهجي عن الحقيقة، إضافة إلى ما ذكرنا، قد جاء هو نفسه نتيجة لذلك الوضع الذي كانت القناعات فيه في حالة قتال ضد بعضها البعض.[١٧٩] ولو أن كل طرف لم ينافح عن «حقيقته»، أي أن يظل متمسكا بحقه، لما كان من الممكن أن يوجد منهج للبحث؛ لكن، وفي خضم صراع ادعاءات الأفراد الدائم بتملك الحقيقة المطلقة، كان التقدم يمضي خطوة خطوة باتجاه البحث عن مبادئ لا تُدحض يمكن على ضوئها اختبار صحة تلك المزاعم وتسوية النزاع. كانت القرارات في البداية تتخذ بحسب معايير النفوذ، ومن بعدها أصبح الصراع بين الأطراف المتنازعة يدور حول نقد الطرق والوسائل التي تم التوصل من خلالها إلى العثور على الحقيقة؛ وفي ما بين الفترتين كانت هناك مرحلة غدا كل طرف فيها يستخلص الاستنتاجات من مبدإ الخصم وربما يتوصل إلى إعلانها مُضرّة ومَجلبة للشقاء؛ سينتج عن هذا أن كل طرف سيحكم بأن قناعة الخصم تحمل خطأ. وانتهت *الصراعات الشخصية* بين *المفكرين* أخيرا إلى تدقيق المناهج حتى غدا اكتشاف الحقائق ممكنا حقا، وكُشف لأنظار الجميع عن أخطاء المناهج القديمة.

635

تمثل المناهج العلمية إجمالا نتيجة من نتائج البحث لا تقل أهمية عن أية نتيجة أخرى؛ ذلك أن استيعاب المنهجية هو الأساس الذي يقوم عليه العقل العلمي، ولو افتُقدت تلك المناهج لوجدت كل نتائج العلم

نفسها عاجزة عن أن تتصدى لعودة استبداد المعتقدات الخرافية والسخافات. بإمكان أناس من ذوي التكوين المعرفي أن *يتعلموا* قدر ما يريدون من نتائج العلوم، غير أننا نظل نلاحظ دوما من خلال محادثاتهم والفرضيات التي يسوقونها أنهم يفتقرون إلى العقل العلمي: ينقصهم ذلك الحذر الغريزي من انفلاتات التفكير، الذي يكون قد ترسّخ بطول الممارسة في روح كل عالم. يجد هؤلاء كفايتهم في مجرد العثور على أية فرضية بخصوص مسألة ما، وإذا هم يشتعلون حماسا لتلك الفرضية، ويعتقدون أنهم قالوا القول الفصل في تلك المسألة وأن الأمر قد قضي. أن يكون لهم رأي يعني في نظرهم: أن يتعصبوا له وأن ينزلوه من قلوبهم منزلة القناعة. تأخذ هؤلاء الحماسة لأول خاطرة تخطر في ذهنهم وتكون لها هيأة ما يشبه التفسير: وذلك هو ما تنجم عنه باستمرار أسوأ التبعات؛ في مجال السياسة على وجه الخصوص. لذلك ينبغي على كل إنسان أن يكون قد حصّل معرفة وافية في مجال علمي *واحد* على الأقل، لأنه سيكون قد عرف ماذا يعني شيءٌ إسمه منهج وكم ضروري هو الحذر أقصى الحذر. ولعل النساء هن من يجب أن تقدم لهم هذه النصيحة على نحو أخص، إذ هن الآن فريسة ميئوس منها لكل الفرضيات، خاصة عندما تتخذ هذه الأخيرة هيأة النبوغ الذهني، وما هو ساحر، ومنعش، ومنشط. إن معاينة دقيقة تجعلنا نلاحظ أن الجزء الأكبر من المثقفين ما زال يطالب المفكر بقناعات ولا شي غير قناعات، وأن قلة قليلة فقط تريد مسائل *معارف موثوقة*. أصحاب الصنف الأول يرغبون في شيء يهزّهم بقوة ليكتسبوا منه زخما إضافيا من الطاقة، والآخرون، وهم القلة، لهم ذلك الاهتمام بالأشياء في ذاتها، الذي يطرح من حساباته كل المنافع الشخصية بما فيها ذلك المزيد من الطاقة المذكور. إن تلك الفئة الأولى التي تمثل الأغلبية الساحقة هي التي يتجه إليها اهتمام المفكر

في كل المواضع التي يتصرف فيها كعبقري ويطرح نفسه كعبقري؛ أي وهو يرى في نفسه كائنا أرقى جديرا بأن يكون متنفّذا. إن عبقريا يغذي هذا النوع من حماسة القناعات ويوقظ الارتياب تجاه الروح الحذرة والبسيطة للعلم، لهو عدو للحقيقة وإن ظل يعتقد أنه من خُطّاب ودّها.

636

هناك أيضا نوع آخر مختلف جدا من العبقرية، وهي عبقرية العدل؛ وأنا لا أستطيع أن أجزم البتة إن كنت سأعتبرها أدنى منزلة من أية عبقرية فلسفية أو سياسية أو فنية. ويتميز هذا النوع بكونه يبتعد بنفور صريح عن كل ما يعمي ويشوش الحكم على الأشياء؛ إنه بالتالي *عدو للقناعات*، ذلك أنه يريد أن يمنح كل شيء حقه، حيا كان أم ميتا، حقيقيا أم متخيَّلا، ويكون عليه في الآن نفسه أن يكوّن لنفسه معرفة دقيقة عنه؛ لذلك يضع كل شيء تحت أفضل إنارة ويظل يراقب كل جوانبه بعين شديدة التنبّه. وبالأخير يغدو منصفا حتى لعدوته المتمثلة في «القناعات» العمياء أو قصيرة النظر (كما يسميها الرجال، وتسمى لدى النساء «إيمانا»)، ويمنحها حقها كقناعات،-حبا في الحقيقة.

637

عن شتى ضروب الشغف تنشأ الآراء، *والتقاعس الذهني* هو الذي يجعلها تتحجر في هيأة *قناعات*.-أما من يشعر بنفسه عقلا حرا لا تعرف حيويته كللا، فيمكنه من خلال التغيّرات المستمرة أن يمنع هذا التحجر، وإذا ما كان في كلّيته كرة ثلج مفكرة، فإنه لن يضع البتة آراء في رأسه، بل يقينيات واحتمالات موزونة بدقة. -لكننا، نحن الكائنات المختلطة التي تلهبها النيران تارة ويبرّدها العقل تارة أخرى،

نريد أن نركع أمام العدالة ربّةً وحيدة نعترف بها من فوقنا. إن النار التي تسكننا عادة ما تجعلنا غير عادلين، وبالتالي نجسين في نظر هذه الربّة، ولن يحق لنا إذن أبدا ونحن على هذه الحالة أن نمسك بيدها، ولن تحوم من فوقنا أبدا ابتسامة رضاها المهيبة. ونظل نعبد فيها إزيسَ حياتِنا المحجَّبةَ؛ مترعين خجلا نقدم لها ألمنا كفّارةً وأُضحية عندما تحرقنا النار وتهدد بالتهامنا. إلا أن *العقل* هو الذي ينقذنا من أن نحترق كليا ونتفحّم؛ ينتزعنا بين الحين والآخر من أمام مذبح العدالة أو يلفّنا داخل نسيج من الأسبستوس(*). وعندها، مخلّصينَ من سطوة النار سنمضي مدفوعين بقوة العقل متنقّلين من رأي إلى رأي وعبر تغيير الولاءات، خونةً شرفاءَ لكل الأشياء القابلة للخيانة عامة، -ودون أدنى شعور بالذنب مع ذلك.

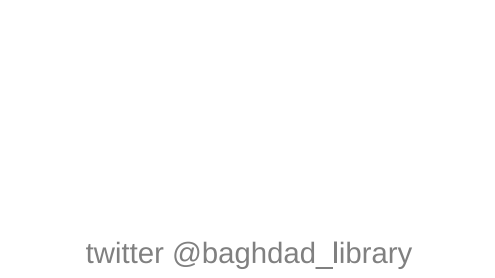
638

المسافر الجوّال

إن من بلغ ولو قدرا معتدلا من حرية العقل لن يشعر بنفسه من بعدها فوق الأرض إلا كرحالة، وإن لم يكن مسافرا يمضي *إلى* غاية محددة؛ إذ لا وجود لمثل هذه الغاية أصلا. لكنه يريد أن ينظر وأن يمضي بعينين مفتوحتين على كل ما يجري في العالم. لذلك لا ينبغي له أن يجعل مهجته تتعلق بكل شيء تقع عليه عيناه، بل يجب أن يكون في داخله شيء من الترحال الذي يجد متعته في التغيير وفي كل ما هو عابر. لا شك أن مثل هذا الإنسان سيعرف ليال قاسية يكون فيها متعبا

(*) أسبستوس، أو أسبيستوس من أصل يوناني (Asbest, asbestos) وهو نسيج من أصل معدني يسمى أيضا بالحرير الصخري، ويعرف كذلك بـ«أميانت» (amiante)

وأبواب المدينة التي كان من المفترض أن تمنحه مأوى موصدة أمامه، وربما تكون هناك أيضا، كما يكون في مدن الشرق، صحراء ضاربة حتى باب المدينة، وأصوات الوحوش يرتفع عواؤها بعيدا تارة وعلى مقربة منه تارة أخرى، ولربما تكون هناك ريح عاتية ترتفع في الفضاء، ولصوص يسرقون راحلته. ثم يهبط الليل على قلبه مثل صحراء ثانيةٍ داخل الصحراء، وتغدو نفسه مرهقة قد ملّت الترحال. وعندما تطلع عليه شمس النهار من بعدها متقدة مثل إله للغضب وتفتح المدينة أبوابها فيرى في وجوه سكانها ملامح ربما أكثر وحشة من الصحراء، وقذارة وخداعا وانعدام أمان أكثر مما أمام بابها، وإذا النهار أشنع تقريبا من الليل. كل هذا يمكن أن يحدث للمسافر الجوال بين الحين والآخر؛ لكن تأتي عليه من بعدها، مثل تعويض ومكافأة، صباحات ممتعة في مناطق أخرى، وأيام يرى فيها في غبش الفجر كوكبة ربات الشعر تتقدم راقصة بالقرب منه، ثم تغمره بعدها سكينة توازُنِ روحٍ صباحيّ وهو يتقدم متجولا تحت الأشجار، وكمٌّ من الأشياء الجميلةَ والمضيئة تقع أمام قدميه من قممها العالية ومخابئ أغصانها الكثيفة، هدايا لكل المفكرين الأحرار الذين يجدون أنفسهم في موطنهم الحميم في الجبل وداخل الغابة والوحدة، من أولئك الذين هم، مثله في حال من المراوحة بين الفرحة والتفكّر، جوّالون وفلاسفة. طالعين من زخم الأسرار الصباحية يمضون متسائلين كيف يمكن لليوم في ما بين دقات أجراس العاشرة ومنتصف النهار أن يكتسي وجها نقيا، مضيئا، مترعا ببهجة النور-يبحثون عن ***فلسفة ما قبل الظهيرة***.



في ما بين الأصدقاء

نشيد الملحق

1

جميلٌ أن نصمت معاً
وأجملَ أن نضحك معاً،
تحت لحاف السماء الحريري
مسندنا جذوع الزان والطحالب،
ضحكا مرِحًا صاخبًا نضحك مع الأصدقاء،
ونكشف لبعضنا عن بيض الأسنان

استحسانًا، إن أنا أحسنتُ،
سنصمت.
وإن أسأت صنعًا، فمن القلب سنضحك،
ونصنع أسوأ، أسوأ فأسوأ،
أسوأ صنيعًا، أكثر ضحكًا،
إلى أن يضمنا القبر.

أي أصدقائي! حقا؟ كذا ينبغي أن يكون؟
ليكن إذن! سلامًا! وآمينْ!

* * *

2

لا اعتذار، لا صفح وغفران!
أصدقاء الفرحة، القلوب المفعَمة حريةً،
امنحوا هذا الكتاب الطائش
أُذنًا، قلبا مفتوحا ومأوى!
صدقوني أصدقائي، ما كان لعنةً
عليّ هذا التهوّر !

ما أجده، ما أبحث عنه،
هل حدّث به يوما كتاب؟
أكرموا فيّ عُصبة الحمق،
وتعلّموا من كتاب الحمق هذا
كيف يؤوب العقل- إلى «الصواب» يعود!

أي أصدقائي، كذا ينبغي أن يكون؟
ليكن إذن! سلامًا، وآمينْ!

الهوامش

(١) رينيه ديكارت «خطاب المنهج»- الجزء الثالث:
(Discours de la méthode pour bien conduire sa raison et chercher la vérité dans les sciences)

(٢) هو العنوان الفرعي لكتابه «في ماوراء الخير والشر» الذي صدر عن دار ناومان بلايبزخ سنة ١٨٨٦، أي حين كان نيتشه بصدد تحرير هذه المقدمة، علما وأن الكتاب الأول من «إنساني مفرط في الإنسانية» كان قد صدر سنة ١٧٧٨ دون هذه المقدمة.

(٣) عرف نيتشه فترة من حياته كطالب معرفة ومفكر ارتبط فيها فكريا وروحيا بكل من أرثر شوبنهاور وريتشارد فاغنر، وكان يعتبرهما منارتين في عالم الفكر والثقافة الألماني. وظل لسنوات عديدة يجلّهما ويقتدي بهما، قبل أن تتطور أبحاثه وتأخذ المنحى الصارم الذي سيجعله أكثر انتقاء فيتراجع عن موقفه القديم منهما ويكتشف فيهما عقلين مشبعين بالميتافيزيقا والروح اللاهوتية كما سيذكر في عدة مؤلفات له من بعد (إنساني مفرط في الإنسانية، غسق الأوثان، هذا هو الإنسان، على سبيل المثال) . إلا أن شوبنهاور سيظل مع ذلك حاضرا بقوة في عقل نيتشه، وآثار أفكاره أيضا، هو الذي قضى سنتين (أيام دراسته في جامعة لايبزخ) عاكفا على قراءة كتاب «العالم كإرادة وتمثل» الذي أبهره على نحو غير معتاد. وسيلاحظ القارئ الحضور القوي والملح لشوبنهاور-كخصم هذه المرة- في هذا الكتاب الذي نحن بصدده الآن، كما لو أن نيتشه مازال يجاهد في التخلص من بقايا ذلك الإعجاب، وذلك التأثر بشوبنهاور وفكره.

(٤) في صياغة أولى عدلها نيتشه فيما بعد، فيما هو يختصر ويكثف الصيغ الأولى

الواردة في كنشاته، ترد الجملة كالآتي: «يعاني جميع الفلاسفة من الخطأ المشترك نفسه، وهو أنهم ينطلقون من الإنسان المعاصر ويعتقدون أنهم سيبلغون من خلال ما يجرونه عليه من تدقيق وتشريح هدف تحصيل معرفة شاملة عن الإنسان عامة». (هوامش وتعليقات طبعة الدراسة النقدية التي وضعها كوللي ومونتيناري؛-هامش ٢٣ [٩]

(٥) أجرى نيتشه تعديلات متكررة على هذه الشذرة، آخرها تعديلات سنة ١٨٨٨التي اهتصرتها وجعلتها أكثر تكثيفا، كما تثبت ذلك تحقيقات كوللي ومونتيناري في مجلد «التعليقات» (المجلد ١٤ من الأعمال الكاملة المعروفة باسم «طبعة الدراسات النقدية». من بين ما شمله التعديل هذه الجملة التي حذفت من هذا الموقع: «هؤلاء الفلاسفة كانوا أشخاصا في المقام الأول؛ بل إن كلا منهم كان يشعر في قرارة نفسه: إنني «الشخص ذاته»، أي ما يعني الحقيقة الكونية للإنسان، «الإنسان في ذاته» [ما أعرفه عن نفسي]. وعن هذه النظرة اللاتاريخية التي كانوا يمارسونها على أنفسهم نشأ العدد الأكبر من أخطائهم.

(٦) ٢٣ [٩] «يلاحظ الفيلسوف «غرائز» لدى الإنسان المعاصر ويتصور مباشرة أن كل ما هو غريزي ينتمي إلى المعطيات الثابتة لدى الإنسان ويمثل بالتالي مفتاحا لفهم الوجود عامة...»

(٧) هذه الجملة للمفكر أفريكان سبير Afrikan Spir, *Denken und Wirklichkeit. Versuch einer Erneuereung der kritischen Philosophie* (Leipzig, 1877)

أفريكتن ألكسندروفيتش سبير (١٨٣٧-١٨٩٠) فيلسوف ومنطقي روسي أوكرايني درس بجامعة لايبزخ وحرر مؤلفاته باللغة الألمانية. كان له تأثير على كل من نيتشه وتيودور ليسنغ الذي حرر أطروحة دكتوراه حول أعماله.

(٨) *Prolegomena & 36*

(٩) تعديلات على هذه الفقرة كما يتضح من نسخة المسودات (٢٢ [٢٨] هوامش نسخة «طبعة الدراسة النقدية») -. نورد الفقرة كاملة مع التعليم بالخط السميك على المواقع التي غيرها نيتشه بنفسه: «سنكون قد بلغنا الدرجة الأولى من العلم عندما يتجاوز الإنسان مخاوفه وأفكاره الخرافية والدينية، ويكف مثلا عن الاعتقاد في الملائكة الخيّرة، مثلما كانت تفعل سيدات روما

المتعلّمات: وعندما نكون قد بلغنا هذه الدرجة من التحرر، سيكون علينا عندها أن نقوم بحركة *ارتداد إلى الوراء*، سيكون علينا أن نفهم المبررات التاريخية، وكذلك البسيكولوجية، لتلك التصورات، وكيف أن الشعر يتأسس على مثل هذه التصورات، وأننا من دون هذه الخطوة إلى الوراء سنكون قد حرمنا أنفسنا من أفضل ما توصلت إليه الإنسانية من نتائج. وفي ما يتعلق بالميتافيزيقا الفلسفية، ربما أكون أول من بلغ ذلك الحد السلبي، ثم عاد أدراجه حتى البداية، بينما لم يتجاوزوا التحرر من الميتافيزيقا والنظر إليها من بعدها بعين المتفوق، نظرتهم إلى شيء يقع خلفهم. في حين أنه ينبغي علينا، هنا أيضا، وكما في ميدان سباق الخيل، أن نُتم الدورة حتى نقطة الانطلاق لبلوغ نهاية السباق.

(١٠) في نسخة المخطوطة الأولى: «انعدام الثقة وهذا القلق يعبران عن نفسهما بوضوح في المعمار وفي اللباس.» (٤٤ ١-٢)

(١١) تنتهي الفقرة في المخطوطة الأولى (Mp XIV 1,45) بهذه الجملة التي حذفها نيتشه بنفسه فيما بعد: «وفي المجمل، يمكننا أن نقول مرددين كلمة لغوته مع تحوير طفيف: «من له علم وفن لا حاجة له إلى دين». الجملة الأصلية لغوته هي التالية: *«من له علم وفن/ له أيضا دين. . .»*، *Goethe, Zahme Xenien,* 3,119

(١٢) وردت هذه الشذرة في الصياغة الأولى لمخطوطة *Rs* كالآتي:

«تتحول فلسفتي إلى تراجيديا. والحقيقة تغدو معادية للحياة، ولما هو أفضل. ويظل السؤال: هل يمكننا أن نستمر في البقاء على أفكارنا الخاطئة عن وعي؟ إذ أنه لم يعد هناك من موجب إلزامي. والأخلاق قد تم إلغاؤها، مثلها مثل الدين. والمعرفة لن تحفظ من دوافع لها سوى اللذة والاشمئزاز: لكن كيف سيكون على هذه الدوافع أن تتفاعل مع الحقيقة؟ وهذه الدوافع قائمة هي أيضا على قاعدة من الأخطاء (بصفتها كميل ونفور على الأقل). إن مجمل الحياة الإنسانية غارقة عميقا في الخطأ/ الباطل، وليس بمستطاعنا أن نخرجها من هذه البئر العميقة؛ فنحن لن نستأصل ماضينا فقط، بل ودوافع حياتنا الحاضرة أيضا (الشرف، الرفاه، وغيرها). يمكن أن يُسمى هذا إعدادا لفلسفة تراجيدية؛ لكن لن يتبق لدينا في الحقيقة غير حياة أكثر بساطة، حياة منقّاة من الانفعالات (ولن تواصل الدوافع القديمة ممارسة تأثيرها إلا بموجب عادات

يصعب التغلب عليها، لكن على نحو يزداد ضعفا باستمرار). سيكون بالإمكان أن يحيا المرء بين البشر ومع نفسه كما في *الطبيعة*، دون مدح، دون عتاب، أو حماسة مستمتعا بالأشياء كلها، لمجرد أنه لم يعد يخافها.

(١٣) « . . . لاروشفوكو ومن شابهه فكرا وفنا وصولا إلى ستندال آخر عظماء المذهب الأخلاقي. . . » وفي نسخة أخرى من المسودات: « لا روشفوكو ومن شابهه في الفكر والفن مثل فوفنارغ وشامفور وستندال. . »

(١٤) « . . . ولم يدأب على ممارسته مثلي أنا: ولتغفروا لي هذا الادعاء بأنني أمثل هنا استثناء من بين جميع الألمان. »

(١٥) في الأصل (المسودات *Dm*): « . . قراء الأمثال الحِكمية من الألمان»

(١٦) La Rochefoucauld, *Reflexions, sentences et maximes morales*, précédé d'une note de Sainte-Beuve.

(١٧) ترد في النص بلغتها الأصلية (الفرنسية):

"Ce que le monde nomme vertu n'est d'ordinaire qu'un fantôme formé par nos passions, à qui on donne un nom honnête pour faire impunément ce qu'on veut." *Reflexions, sentences et maximes morales de La Rochefoucauld*, précédé d'une notice de Sainte-Beuve.

(١٨) هذا الكاتب الألماني هو بول ريه - Paul Rée وهو الصديق المشترك لنيتشه والكاتبة الروسية الشابة لو سالومي. ويشير نيتشه إلى قراءته لهذا الكتاب في رسالة إلى إرفين روهدا (Erwin Rohde) بتاريخ ٨ ديسمبر ١٨٧٧. (م)

(١٩) Paul Rée, *Der Ursprung der moralischen Empfindungen*, Chemnitz 1877 («أصل الأحاسيس الأخلاقية»)، ويذكر نيتشه هذا الكتاب في رسالة أخرى إلى إرفين روهدا في شهر جوان ١٨٧٧. كما يشير إليه في كتاب *جنيالوجيا الأخلاق*.

(٢٠) يعتبر شوبنهاور الوعي (das Gewissen) مدوّنة (محضَر) الأفعال (Protokoll der Taten)، أنظر: (عن أسس الأخلاق)

Über der Grundlage der Moral, Suhrkamp Tachenbuch

(٢١) أنظر شوبنهاور: *Die Welt als Wille und Vorstellung*, (العالم كإرادة وتمثّل) الفصل الذي يتطرق فيه إلى «الإيتيقا»

(٢٢) "Operati sequitur esse" أو ما معناه: «من الكائن يتأتى الفعل» (أسس الأخلاق)

(٢٣) يوناتان سويفت (١٦٦٧-١٧٤٥) كاتب أنكليزي، مؤلف أسفار جلّفر. لكن المقولة التي يوردها نيتشه هي في الحقيقة للشاعر الأنكليزي السندر بوب (Alexander Pope) كما أثبتت ذلك تدقيقات كوللي ومونتيناري، وهي مأخوذة من «كتّيب سويفت» (*Swift Büchlein*) الذي كان بحوزة نيتشه. وقد اشتهر ألكسندر بوب خاصة بمؤلفه «*حول الإنسان*» (١٧٧٣-١٧٧٤)

(٢٤) أنظر الهامش رقم ١٦

(٢٥) بالفرنسية في النص الأصلي:

"Sachez enfin qu'il n'y a rien de plus commun que de faire le mal pour le plaisir de le faire:" Prospère Mérimée, Lettres à une inconnue... Vol I, p. 8 (م)

(٢٦) Jonathan Swift, *Humoristiche Werke 2, 188*, Stuttgart 1844.

(٢٧) - أنظر مسألة «القرار الاختياري» (*Wahlentscheidung*) التي يتعرض إليها شوبنهاور في «العالم » Die Welt §5

(٢٨) باندورا (وتعني في اللغة الإغريقية «كل الهبات») هي المرأة الأولى حسب الميثولوجيا اليونانية، وقد تم خلقها بأمر من زويس بهدف الانتقام من الرجال بسبب ما اقترفه بروميثيوس بسرقته للنار التي وهبها لهم. وقد تم صنعها من صلصال بيدي هيفايستوس، ثم منحتها الربة أثينا الحياة فيما بعد وعلمتها فنون الحرف اليدوية . . . زوّجها زويس من إبميثيوس أخ بروموثيوس ومنحها هدية تتمثل إناء غريب (علبة يقول البعض، وجرة يقول البعض الآحر) كان يحتوي كل الشرور التي يمكن أن تصيب الإنسانية (الشيخوخة، المرض، الحرب المجاعة، البؤس، الجنون) وأمرها بان لا تفتحه أبدا. غير أن باندورا لم تستطع أن تقاوم فضولها وذات يوم فتحت الإناء، وفي الحين اندفعت منه كل الشرور خارجة إلى العالم، ولم يبق داخله عندما أغلقته إلا الأمل الذي كانت حركته بطيئة فبقي سجين الإناء الوحيد. هكذا تحولت حياة البشر إلى عالم من البؤس والشقاء، إلى أن بادرت باندورا بفتح الإناء مرة أخرى لتطلق سراح الأمل للعالم. ذلك الإناء أصبح يعرف بإناء باندورا. غير أن نيتشه، وكما نرى في هذه الشذرة، يعتبر تحرير الأمل تحريرا لآخر

الشرور وأسوأها على الإطلاق، لأنه يطيل عذاب البشر بأن يمنحهم داعيا أو مبررا لعدم رفض الحياة وما تحمله من شرور.

(٢٩) هناك خطأ في وضع رقم المقطع، فالمقطع الذي تم قلبه من طرف نيتشه هو الحادي عشر من الإصحاح الرابع عشر وليس الثامن عشر: إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع عشر؛ ١١: «بل إذا دُعيتَ فاذهب واتكئ في الموضع الأخير حتى إذا جاء الذي دعاك يقول لك يا صديقُ ارتفعْ إلى فوقِ. حينئذٍ يكون لك مجدٌ أمام المتكئين معك، لأنّ كل من يرفع نفسَه يتّضعُ ومن يضع نفسَه يرتفعُ.»

(٣٠) ثوقيديدس مؤرخ يوناني (٤٥٦-٤٠٠ ق م) مؤسس علم التاريخ المنهجي، يشمل مؤلفه «*التاريخ*» الفترة الزمنية ما بين ٤٣١ و٤١١ ق م. نورد هنا بعض مقاطع من الجدالات التي دارت بين أهل أثينا والميليين، التي يتضمنها مؤلف «التاريخ» لثوقيديدس.

ف ٩٢: الميليون: وأي فائدة ستكون لنا في أن نصير خاضعين، وأي فائدة ستكون لكم في أن تحكموا مصيرنا؟

ف ٩٣: الأثينيون: أي أنكم ستكسبون الخلاص بأن تصبحوا رعايا دون أن يكون عليكم أن تقاسوا أمر المحن، وأننا نحقق مكسبَ عدم الاضطرار لإبادتكم.

ف ٩٤: الميليون: ألا تقبلون إذن بإن نغدو، ونحن في راحة من أمرنا، أصدقاء لكم عوض أن نكون أعداءكم، ودون أن ندخل في حلف مع أحد؟

ف ٩٥: الأثينيون: أو! إن كراهيتكم لنا أقل ضررا علينا مما يمكن أن تكونه صداقتكم. فهذه الأخيرة ستبدو في أعين رعيتنا علامة ضعف، بينما ستكون الأولى مثالا على قوتنا.»

(٣١) باروخ سبينوزا: *Tractatus theologico-politicus*, II,4-8 «الكل من الحق بمقدار ما تبلغه قوته»، ويعدل نيتشه هذه المقولة كالآتي «الكل من الحق بمقدار ما يُعتقد عن مدى قوّته»- يورده شوبنهاور في *Parerga...., 2, 258*

(٣٢) كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لا نطوف بالبيت في ثياب قد أذنبنا فيها، وكانت المرأة تطوف عُريانة أيضا، إلا أنها تلبس رهطا من سُيور.

(٣٣) Adyton كلمة يونانية تعني: المكان المقدّس المحرّم، ما يعادل الحرَم. (م)

(٣٤) «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربيّ.» (قرآن)/ (م)

(٣٥) متّى ٧، ١: «لا تدينوا كي لا تدانوا»(م)

(٣٦) جون كالفن Jean Calvin (١٥٠٩-١٥٦٤) أحد أعلام الإصلاح الكنسي من القرن السادس عشر. أقام في جينيف حيث دعي لكسب المدينة لحركة الإصلاح. يعرف مذهبه الإصلاحس بإسم الكالفينية. (م)

(٣٧) ميغيل سيرفيتو المعروف باسم ميشال سيرفت (١٥٠٩- ١٥٥٣) طبيب وعالم لاهوت إسباني قدم للدراسة في باريس وكانت له مراسلات مع كالفين الذي لم تعجبه أفكاره التي تنفي التثليث والتي تقول بوحدة الوجود (الحلولية) فحرّض عليه مطران فينا الذي أمر بغيقافه. وبعد محاكمة دامت شهرين كانت نهايته الحرق حيًا في جنيف. (م)

(٣٨) شوبنهاور، «*إيتيقا*» *Schopenhauer, Ethik 200, Parerga 2.* وفي «أسس الأخلاق» يستعرض شوبنهاور التزوعات الطبيعيةلدى الإنسان من وجهة نظر أخلاقية كالآتي: ١-الأنانية، أو البحث عن المنفعة الشخصية. ٢- الخبث، أو البحث عن الأذى (الشر) للآخر. ٣-الشفقة، أو إرادة تحقيق الخير للآخر.

(٣٩) في المسودات: «... في الكذب الاضطراري مثلا، كما يصفه شوبنهاور. لكن، أن يكون اللاأخلاقي إذن؟»

(٤٠) [من «التفاعلات الكيمياوية.... مع الآخرين] قد أجرى نيتشه تحويرا كاملا على هذا المقطع الذي ورد في البداية كالآتي: « فالتفاعلات الكيمياوية ليست بالمزية، مثلها مثل حالة الصراع الداخلي الأليم التي يعيشها أب يكون عليه أن يتخذ قرارا إما أن يضحّي بابنته أو أن يدنس لسانه بالكذب (تلك الحالة التي يصفها والتر سكوت في سجن إيدمبورغ)، أو مثل التضحية بثمانية أبناء التي قام بها المعلم العجوز لزعيم عشيرة ذات صيت رفيع (التي تروى وقائعها على نحو بديع في طفتاة بيرث الجميلة»). تنطوي هذه الأفعال أولا على خطأ مزدوج في دافعها يتمثل تارة في الاعتقاد بأن هناك إله يحرّم الكذب، وتارة أخرى في أن سمعة القائد أهم من حياة ثمانية أبناء. ثانيا، يظل إحساسنا مرتبطا دوما بذلك التصور الخاطئ الذي ذكرناه آنفا، الذي يجعلنا نفكر كما لو أنه كان بوسع هذان الشخصان أن يتصرفا على نحو مغاير، وأن

يتخذا قرارا آخر غير ذلك الذي اتخذاه. - وعندما نتتهي إلى الاقتناع بأن كل دوافع الشرف والعار لا بد أن تضمحل، لأنه لا يحق لنا أن نكرم أو نعيب إلا الأفعال «الحرة»، أما المجريات الطبيعية فلا، فإننا لن نعرف في حالتنا هذه بحسب أي مبدأ سيكون على الناس أن يحيوا؛ إن لم يكن وفقا لدوافع المصلحة/ المنفعة، التي ستكون بدورها محددة بدوافع المتعة والاشمئزاز/ القرف. -أما في ما يتعلق بوضع الحقيقة في مرتبة أعلى من الكذب -] لماذا؟ هذا في حد ذاته أخلاق[- فكيف توصلنا إلى هذا، بالنظر إلى المبدأ المذكور نفسه؟ هل في هذا اعتبار للمنفعة، أم للأخلاق؟

(٤١) كتاب العهد الجديد: رسالة بولس إلى العبرانيين ١٢-٦: «لأن الذي يحبُّهُ الربُّ يؤدّبُهُ ويجلدُ كلَّ ابنٍ يقبَلُهُ.»(م)

(٤٢) [من: «من الأكيد.... الضمير النقي»] أضاف نيتشه هذه الفقرة الأخيرة بعد اطلاعه على رسالة من هـ. فون فولتزوغن (H. von Wolzogen) إلى بيتر غاست يعلن له فيها عن رفضه نشر ثلاث مقالات لصحيفة *Bayreuther Blätter* معتبرا إياها «*ذات محتوى إلحادي صرف*».

(٤٣) أنظر شوبنهاور؛ *باريرغا* ٢ ، «*عن الدين*». *A. Schpopenhauer, Parerga 2, Über Religion*

(٤٤) ثلاثي الربّات الإغريقيات اللاتي يتربعن على عرش السيادة فوق كل الآلهة، وهن غازلات يمسكن بخيوط الحياة لكل إنسان ويتحكمن بمصيره.
يرد ذكرها كثيرا لدى شوبنهاور في كتاب «العالم مغرادة وتمثل»، ويذكرها نيتشه في «مولد التراجيديا». وMoire في الفرنسية تستعمل كمرادف للقدر.

(٤٥) سير جون لوبوك، «*أصل الحضارة والوضع البدائي للإنسان*»، و«*الزواج والطوطم والدين*». والكتاب الأول هو الذي كان بحوزة نيتشه في ترجمة ألمانية: *Die Entstehung der Civilisation und des Urzustand der Menschengeschlechtes*, Jena 1875

(٤٦) الإشارة هنا إلى شوبنهاور، «العالم» ١، ٤٨٦ (خاتمة الكتاب الرابع من «العالم كإرادة وتمثل») (م).

(٤٧) «مناطقة من أمثال أفريكان سبير Spir Afrikan» (المسودة)

(٤٨) فريدريش إرنست شلايرماخر فيلسوف وعالم لاهوت بروتستانتي ألماني، أستاذ تيولوجيا(لاهوت) بجامعة برلين من ١٨١٠ إلى ١٨٣٤. سيرد ذكره من

طرف نيتشه في كتابه الأخير «هذا هو الإنسان» بطريقة ساخرة في تلاعب بالألفاظ محبب لديه، وهو يستعمل إسمه في معناه الحرفي الأول: صانع الحُجُب. - «هذا هو الإنسان» : قضية فاغنر، الفقرة ٣.

(٤٩) عنوان كتاب بول ريه الذي ورد ذكره آنفا.(م)

(٥٠) أنظر الهامش رقم ١٩

(٥١) كانت هذه الشذرة تحمل في الأصل عنوان : «السمو الخلاقي الناجم عن الانفعال/ كنتيجة للانفعال»، كما يرد في كنّش Mp XIV 1, 184، أو ما يعرف بـ«أوراق سورانتي» (Sorrente Blätter)

(٥٢) [من: ولكي يبدو هذا الصراع.... هرطقة الحسيّة] يرد هذا المقطع في Mp XIV 1,122 في صياغة أخرى حذفها نيتشه في ما بعد : «وعوض أن يكونوا ممتنّين لكون بعض الوظائف الجسدية التي تقتضيها العافية مقترنة بالمتعة، فإنهم وسموها بميسم التبليس، وجعلوا لعبارة *«متعة»* مدلولا تحقيريا.»

(٥٣) هناك في هذا الموضع مقطع قد أسقطه نيتشه: «وفي النقطة بالذات يتعين على الإنسانية أن تعود إلى تلك الرؤية البريئة لليونانيين الذين يرى فيلسوفهم الأكثر قتامة أمبيذوقلس في أفروديت -شخصان يجدان متعة أحدهما في الآخر- الظاهرة الأفضل والأجمل والأكثر تجسيدا للأمل على وجه الأرض، ولا يبدي شيئا من تلك الشناعة الرهبانية النصف شهوانية التي يرى بها شوبنهاور إلى الأمور. -صحيح أن أفلاطون يعتبر كل الحواس هرطوقية، بدأ بالعين والأذن، وبالنهاية فإن لليونانيين أيضا استثناءات مناقضة للعقل والطبيعة. (Mp XIV 1,122)

(٥٤) بيدرو كالديرون دي لاباركا، لاهوتي ومؤلف درامي إسباني(١٦٠٠-١٦٨١) انتمى سنة ١٦٥٠إلى طائفة الأخوية الفرنسيسكانيين. له ١٢٠ مسرحية و٢٠ عملا مسرحيا قصيرا. (م)

(٥٥) بيدرو كالديرون، من «الحياة منام» La vida es sueno, I,2 يورده شوبنهاور في «العالم كإرادة وتمثل»

(٥٦) أمبيذوقلس (Empedokles) فيلسوف يوناني (حوالي ٤٩٠-٤٣٠ ق م) كان يقول بأن كل الوقائع ناجمة عن اندماج وانقسام العناصر الأساسية وهي الهواء والنار التراب والماء. في الشذرة ٢٦ يفسر أمبيذوقلس كيف أن العناصر

تندمج وتذوب في بعضها البعض في هيأة أحاسيس إنسانية: «تارة تتحد في كلية واحدة تحت تأثير إحساس الحبّ، وتارة تتشتت تحت تأثير الكراهية وتنفصل عن بعضها البعض.» (أنظر *"Trois Contemporains: Heraclite, Parmenide, Empedocle"*, traduction de Yves Battistini, Paris, Gallimard, 1955)

(٥٧) فقرة أخرى أسقطها نيتشه، ترد في (Mp XIV 1,39): «إن المسيحية نتاج فترة بلغت الحد المفرط من الحضارة(حد التعفّن، كما تدل على ذلك عبارة Überreif الألمانية التي تطلق على الثمار عندما تتجاوز الحد المطلوب من النضج- المترجم-)، وبما هي كذلك كان لها على الشعوب المتوحشة المفعمة فتوة وحيوية مفعول السم والفساد. وبينما كانت روح العصور العتيقة تطلب نوعا محددا من الانفعال، ذلك الذي يثير الفرح في كل مستوياته، جاءت روح المسيحية متجهة نحو انفعال الألم (التي تنشأ عنها جانبيا وبصفة ظرفية رغبة المتعة الماجنة المعربدة.)

(٥٨) Novalis, *Schriften*, Leipzig 1923

(٥٩) هذه الخاتمة تختلف عن تلك التي وردت في مخطوطة Mp XIV 1,236، حيث استبدل الاستشهاد الذي نقله عن نوفاليس بمقطع أخر يتكلم فيه نوفاليس عن القدّيس: «تتمثل براعته في استعراض سلسلة من الحالات الباطنية من تلك التي يعرفها أيضا أي شخص آخر ويعيشها لكن بفعل صدف التأثيرات الخارجية، بينما يعرفها هو ويخبرها بفعل دوافع باطنية متشكلة من تفاعل معرفة رديئة ونوايا حسنة وحالة صحية معكّرة.

- غير أن هذا الرأي لا ينبغي أن يمنعنا من أن نعترف بأن الراهب والقديس، منظورا إليهما من جهة النتائج التي يصلون إليها، لا من جهة العناصر المكونة لشخصيتهما، ينتميان إلى صنف أكبر الطاقات الإنسانية البديعة والمثمرة - داخل فترات محددة من الزمن حل الجنون الديني فيها محل حس الحقيقة.»

- Novalis, Schriften, Tieck-Schlegelschen Ausgabe, 1815, 2, 250

(٦٠) لا أدري كيف لم يحضر في ذهن نيتشه وهو يكتب هذه الشذرة، الذي كان مولعا ولعا هوسيذا تقريبا بالعلوم من طبيعيات وفيزياء ورياضيات وهندسة - ربما أكثر من ولعه بالفن، وإلا لكان قد عدل شيئا ما من طابعها التعميمي. (م)

(٦١) نقرأ في Mp XIV 1,31: «من هذا النوع هو جمال خليج نابولي مرئيا من بوسيليبي [و ألحان بيتهوفن المتمهّلة- Adagios]

(٦٢) في M I 1,85: «عند اليونانيين أيضا كان الانحطاط يتبع في كل مرة ظهور حالة من العظمة. وكل لحظة كانت تتراءى حاملة لبذرة نهاية سيئة.

(٦٣) «. . . مثلما وجدت روما نفسها بالنهاية داخل صحراء ممتدة من حولها.»

(٦٤) يضيف نيتشه في هامش المسودّة (Mp XIV 1,9) هذه الجملة: «إن علاقتها بالطباع الحقيقية كعلاقة الحذاء في لوحة الرسام بالحذاء الحقيقي. وعلى نفس النحو تكون معرفة الرسام بالحذاء عموما مقارنة بالمعرفة التي يمتلكها صانع الأحذية عنه.»

(٦٥) جيوفاني لورانسو برنيني، المدعو الفارس برنيني، (١٥٩٨-١٦٨٠)، فنان إيطالي ولد بنابولي، وهو في الآن نفسه مصمم معماري ونحات ورسام. من أشهر أعماله نافورة الأنهار الأربعة بساحة نافونا بروما، التمثال النصفي لسيبيون بورخيزي وضريحا أوربان الثامن والإسكندر السابع. (م)

(٦٦) Hegesias von Magnesias خطيب ومؤرخ يوناني(ق ٥ ق م) . عرف بأسلوبه القائم على الجمل القصيرة والإيقاع الخافت مع عبارات منتقاة وثراء تعبيري فائق. (م)

(٦٧) الأسلوب الآسيوي: نتاج لانتشار البلاغة اليونانية في آسيا الصغرى، قبل أن يتطور في أثينا على يد Hegesias في البداية. وشيشرون الروماني الذي درس الفلسفة والبلاغة في مدرسة رودس الشهيرة، واستمع في أثينا إلى ديميتريوس السوري، يعرّف الأسلوب الآسيوي كالآتي: «هناك نوعان من الأسلوب الآسيوي: أحدهما حكمي/ وقور ومدروس، لا تتميز حِكمه بوزنها المعنوي بقدر ما تتميز بأناقتها وسحرها. . . أما النوع الثاني فغير ثري بالحكم بقدر ما تنساب فيه الكلمات انسيابا سريعا؛ هنا تتجلى آسيا كليا، لا بدفق الخطاب فحسب، بل وبنوع اللفظ المصقول والموشى بضروب الزينة أيضا.»

(٦٨) J. W. Goethe, "Zwischen beiden Welten" والبيت هو: «ويليام! نجم الأعالي البديعة!»

(٦٩) أفلاطون، «*فيدرا*» 244 a

(٧٠) جملة أخيرة مشطوبة: «كما حدث عدة مرات لغوته. وما كان لشيللر أن ينجز شيئا بتلك الرداءة مثل «المهتاجون».

(٧١) إيريس Eris هي إلهة الفتنة والحرب في الميثولوجيا اليونانية. وفي مؤلفه Theogonie . . . يورد هزيود قائمة لآلهة يعدها من نسل إريس، نذكر منهم بونوس Ponos (المعاناة) وليثه Lethe (النسيان) وليموس Limos (الجوع) وألجيا Algea (الألم) وهيسميناي Hysminai (القتال) وفونوي Phonoi (القتل) وبسويديا)Pseudiaالكذب). . . . إلخ

(٧٢) «مجموعة لآوكون» أو **Laokoon-Gruppe** المعروضة بالفاتيكان، منحوتة تجسد صراع لاوكون وأبناؤه مع الأفاعي الفظيعة. ولاوكون من الشخصيات الشهيرة في الميثولوجيا والآداب اليونانية، خاصة في ما يتعلق بحرب طروادة. وهو حسب بعض الروايات الرجل الوحيد من طروادة الذي تفطن لخدعة الحصان الخشبي الذي قدمه اليونانيون كهدية لأهل المدينة وهم يتظاهرون بمغادرتها نهائيا

(٧٣) في كنش الملاحظات والخواطر (شفرة N II 3,47) نقرأ في المسودة الأولية لهذه الشذرة: «نقش بارز: رغبة في الخروج، توقف في منتصف الطريق: إضاءة ساطعة.»

(٧٤) «كل الكلمات قد تم استعمالها بصفة مشطة؛ لقد نزلنا أعمق ما يمكن حَفرًا في تربتها، مثلا: فن، حكيم، خيّر. . إلخ

(٧٥) غمزة واضحة بخصوص فاغنر الذي أصبح نيتشه يعيب عليه تنازلاته وتلاؤمه مع المحيط. أنظلا على سبيل المثال ما جاء في كتاب «هذا هو الإنسان»، - فصل: «إنساني مفرط. . . ». (م)

هكذا هاجمت دافيد شتراوس، أو بصفة أدقّ *النجاحَ* الذي لقيه داخل «الثقافة» الألمانيّة كتاب مهترئ تجاوزته الأحداث ، وبذلك استطعت أن أضع يدي على تلك الثقافة وهي في حالة تلبّس . . . وهكذا هاجمت فاغنر، أو بصفة أدقّ الطابع المزيّف والهجين لـ«ثقافتنا» التي تخلط بين الأغنياء و رفيعي الشأن، وبين المتأخّرين والعظماء.

(. . .) إنّ ما لم أغفره أبدًا لفاغنر هو ارتداده إلى الحظيرة الألمانيّة ؛ أي أنّه تحوّل إلى ألماني الإمبراطوريّة . . . حيثما حلّت ألمانيا داخَل الثقافةَ الفسادُ.

(. . .) من بإمكانه أن يحرز الإحساس الذي خالجني عندما استيقظت ذات يوم في بايرويت ، تمامًا كما لو أنّني كنت أحلم أين كنت إذًا ؟ لم أستطع أن أدرك أيّ شيء ، وكان من الصعب عليّ التعرّف على فاغنر من جديد.

(. . .) ما الذي حدث ؟ لقد وقعت ٱلْمَنَّةُ فاغنرا وغدا الفاغنريّ سيّدًا على فاغنر! - الفنّ *الألماني* ! المايسترو *الألماني* ! البيرّة الألمانيّة ! . .

-(. . .) يا لفاغنر المسكين! أيّة منزلة أنزل نفسه! لو أنّه قد سرح مع الخنازير على الأقلّ! لكن مع الألمان ؟!

(. . .) باختصار، قرّرت الرحيل فجأة و في خضمّ هذه الأحداث ، بالرغم من جهود المواساة التي بذلتها سيّدة باريسيّة لطيفة تجاهي، معتذرًا لفاغنر بتلغرام ذي طابع قدَريّ. . . وفي مكان قصيّ داخل غابات بوهيميا يدعى كلينغنبرون رحت أجرّ معي كآبتي واحتقاري لكلّ ما هو ألماني مثل مرض ؛ ومن حين لحين كنت أخطّ جملة في دفتر الجيب تحت عنوانٍ جامعٍ : «سكةّ المحراث» ؛ خواطر بسيكولوجيّة قاسية قد يجد المرء شيئًا منها بعدُ في كتاب « إنسانيّ مفرط في الإنسانيّة». أنظر أيضا فصل: «قضية فاغنر (قضية موسيقية)» (م)

(٧٦) هناك فقرة إضافية ترد هنا في مخطوطة Mp XIV 1,6، قد تخلى عنها نيتشه فيما بعد. «وتعويض اللاتينية باليونانية ضرب ثان من الهمجية هو أيضا؛ ولو ظل الامر يتعلق فقط بالاطلاع على روائع الأعمال الفنية فإن ذلك سيعد أمرا مصيبا، غير أن عمر التلامذة لم يبلغ النضج المطلوب لذلك، لأنه على المرء أن يكون قد أبحر طويلا عبر كل عقبات ثقافتنا الخاصة كي يستطيع أن يجد متعة في ولوج ذلك المرفأ. هكذا لا يفعل المرء من خلال تعلّم سابق لأوانه سوى إفساد ما يمكن أن يكون تأثيرا عميقا. لكن لا شيء هناك غير الكذب لدى التلامذة كما لدى المدرسين: فلا هؤلاء ولا أولئك يستطيعون خلال حياتهم كلها أن يعيشوا لحظة من الإحساس بأي شيء من التراث العتيق، ولا حتى بشيء من غوته ؛ فهم لا يعرفون حقا ما هو طيب المذاق، وظلوا على الدوام لا يشعرون إلا بالخجل من أن يتميّزوا بإحساس خاص.»

(٧٧) يضيف هنا (في M I 1,47): « فيلاند مثلا كان قادرا على إعداد مثل هذا الشراب السحري من خلال مزيج من الفكر الحر والخلاعة.»

(٧٨) أرسطوطاليس: «الشعرية» (أو فن الشعر، حسب بعض الترجمات)
Aristoteles, *Poetik, 1449b 28 sqq - Politik, 1341b 38 sqq*

(٧٩) أفلاطون، الجمهورية Plato, *Republik, 605c-606b*

(٨٠) جيوفاني بالسترينا مؤلف موسيقي إيطالي-١٥٢٥-١٥٩٤ رائد البوليفينية. له مؤلفات دينية. (م)

(٨١) بوليمنيا واحدة من ربات الفن التسع ، وهن شقيقات كن يحمين الشعر والغناء والفنون والعلوم. يظهرهن هوميروس في الإلياذة وهن ينشّطن مأدبة الآلهة في الأولمب. (م)

(٨٢) برتوليميو موريو-١٦١٧-١٦٨٢، رسام إسباني، ولد في إشبيلية . تشع رسومه بالنور ورهبة التصوف. امتاز بالواقعية في رسم الناس البسطاء: «المتسول»، «آكل البطيخ». . . (م)

(٨٣) (مشطوب) «لو أن موسيقى بيتهوفن ستحرك الحجر، فستفعل ذلك بالحرى على منوال برنيني وليس على منوال العصور القديمة.» (Mp XIV 1,37)

(٨٤) (مشطوب) «وطالما مازلنا جميعنا لم نصبح أناسا حديثيين، سنظل أناسا برنينيّين.» Mp XIV 1,37

(٨٥) نسبة إلى غورغياس ليونتيني- نسبة لمكان ولادته ليونيوم- (٤٨٠-٣٧٥ق م) Gorgias de Leontini فيلسوف إغريقي، أحد السفسطائيين ومؤسس البلاغة، عرف باستعمال أسلوب يمتاز بوفرة الاستعارات وصنعة في انتقاء الصور والعبارات الشعرية والسجع ومؤثرات الإيقاع الموسيقي. عندما قدم إلى أثينا سنة ٤٢٧ أبهر الشعب هناك بفصاحته وأسلوبه البلاغي. وقد جعل أفلاطون لواحد من حواراته عنوان *Gorgias* . (م)

(٨٦) أنظر رسالة غوته إلى شيللر بتاريخ ٢٧ جوان/ حزيران ١٧٩٧ . وأنا أحاول أن أجد مرادفا لهذه العبارة الألمانية "die barbarischen Avantagen" التي بدت لي غريبة نوعا ما وعلى شيء من الغموض، بالرغم مما يمكن أن تمنحني إياه بعض السياق الذي وردت فيه، عدت إذن إلى مراسلات غوته وشيللر لأستوضح الأمر أكثر، فوجدت بالفعل أن شيللر في رسالته المؤرخة بـ ٢٦ جوان/ حزيران ١٧٩٧ يقدم احترازات، بل وانتقادات جدية على أسلوب فاوست الذي كان غوته بصدد ضبط صياغته النهائية. ومن بين ما أخذه على النص نوع من التقطع في البنية، وعدم التناسق في الأسلوب. وهنا يأتي رد غوته في اليوم الموالي ليشكر شيللر على ملاحظاته التي يقول إنها جاءت مطابقة تماما لنواياه ومخططاته، ليضيف مباشرة وهو يطرح وجهة نظره في بعض المسائل التي لم يرتح إليها شيللر في المحتوى كما في

الأسلوب، : «. . . إلا أنني يسّرت على نفسي من خلال هذه الصياغة البربرية (التشديد من عندنا) مفكرا في الاكتفاء بمجرد ملامسة المتطلبات الأرقى أكثر من تحقيقها.»

(٨٧) بعد: «الكم من الوقت سيستمر هذا؟ نجده يضيف في نسخة المخطوطة النهائية قبل الطبع *Rs* (Mp XIV, 1, 235 d) : «يبدو جليا أننا غدونا الآن مدفوعين باتجاه التقهقر نحو مزيد من إكبار الحالات الشعرية البدائية. هل سيكون بإمكان شعر مرتد إلى وضع التوحش منتشيا بالاحتفاء بالقوة واللون والتأثير أن يظل قادرا على الحفاظ على المهابة التي يوحي بها الفن؟ ألن يؤدي هذا النزوع إلى إثارة الانتشاء حتما إلى القرف على إثر ذلك؟ ألن يتسنى للعلم مسلحا بسوط المنطق الذي لا يرحم أن يظل يحقق مزيد الانتصارات حيثما ظل التهتّك والقرف يحطان من شأن الفن؟

(٨٨) رسالة بايرون إلى مورّاي (Murray) بتاريخ ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٨١٧ من: *Vermischte Schriften, Briefwecsel und Lebensgeschichte* في ثلاثة مجلدات ؛ منشورات إرنست أورتليب، شتوتغارت. وهي التي كانت بحوزة نيتشه. (عن روبرت روفني أحد مترجمي «إنساني مفرط. . .» طبعة غاليمار)

(٨٩) رسالة ثانية من لورد بايرون إلى موراي بتاريخ ١٤ جويلية ١٨٢١ (نفس المصدر).

(٩٠) البيت الأخير من قصيدة «العريس» (Der Bräutigam): غوته.

(٩١) في مخطوطة Mp XIV 1,23 نقرأ في هذا الموضع: «ربما يأتي الحكم الأرقى على قيمة الحياة نتيجة لهذه اللحظة التي يبلغ فيها توتر المتناقضات ذروته داخل الفوضى الشاملة والإرادة والذكاء، كصراع تدور رحاه داخل الإنسان الفرد.»

(٩٢) في مسودة Mp XIV I 1,150 نقرأ على الهامش (ربما كعنونان فرعي) «مرور الإغريق من المنطقة التراجيدية إلى المنطقة المعتدلة: السفسطائيون» . وترد الجملة نفسها كعنوان لهذه الشذرة في مخطوطة الناشر *Dm* أنظر ٢٣ [١١٠]

(٩٣) Jan Hus (١٣٦٩-١٤١٥) مصلح كنائسي تشيكي كان يمزج بين الخصومات الدينية والخطاب القومي التشيكي التي وجد فيها مساندة من الشعب والملك فينسيسلاس (Wenceslas). وقد جعل من جامعة براغ قلعة للفكر الفينسيسلاسي (نسبة للملك فينسيسلاس). بعد أن حُكم بفصله من الكنيسة

البابوية سنة ١٤١١ فانعزل وعكف على تحرير مؤلفه الرئيسي *De Ecclesia* ممعنا في عدم الانصياع إلى الكنيسة حتى حكم عليه بالهرطقة وأحرق.

(٩٤) يوهان غيورغ سولتزر (١٧٢٠-١٧٧٩) Johann georg Sulzer كاتب وفيلسوف سويسري. من مؤلفاته مقالات حول الاستيطيقا

(٩٥) أنظر عمانوئيل كنط، (الأنتربولوجيا من منظور براغماتي) I. Kant, *Anthropologie in pragmatischen Hinsicht (1789)*, Akademic VII, 332, Anmerkung

(٩٦) أنظر متّى ، ٢٦، ٤١: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف.» (م)

(٩٧) بينيلوبي هي في الاسطورة الإغريقية مثال الزوجة الوفية. بينيلوبي(أو بينيلوبيا) هي زوجة إليسوس التي ظلت لثلاث سنوات خلال غياب أليسوس في أوديسته الشعيرة تحاول مماطلة خاطبيها بالانشغال بنسج رداء قالت لهم إنها لن تقبل بالزواج قبل أن تنتهي منه، لكنها في المساء تعمد إلى نقض ما نسجته، حتى تفطنوا إلى حيلتها بالنهاية على إثر وشاية من إحدى خادماتها. وبينيلوبي تشبه في عملها هذا ريطة (سعيرة الأسدية) المعروفة في الثقافة العربية بريطة الحمقاء. وريطة كانت حسب الرواية العربية تقضي أيامها في نسج قطعة ثم تأمر معاوناتها مساء بنقض ما نسجن نهارا، لكن مع فارق واحد وهو أن ريطة كانت تفعل ذلك من دون موجب عملي أو غاية محددة وقد جاء ذكر عملها هذا في القرآن(سورة النحل): «ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا...» وربما تجدر الإشارة هنا إلى تأويل آخر لعمل ريطة قدمه الكاتب المغربي عبد الفتاح كيليطو في كتاب «لسان آدم» وهو تأويل يحمل وجهة نظر فلسفية جديرة بأن يتم الانتباه إليها (م)

(٩٨) يشير نيتشه هنا إلى نص «شوبنهاور مربّيا»، وهو النص الثالث من «معاينات غير معاصرة».

(٩٩) المصدر السابق؛ أنظر الهامش رقم ٩١

(١٠٠) نفس المصدر

(١٠١) جملة أخيرة حذفها نيتشه فيما بعد: «تُكتسب المناهج العلمية من خلال الجدالات السجالية». سنجد هذا الجملة في موقع آخر من هذا الكتاب (الشذرة رقم ٦٣٤) في صياغة محورة: «وانتهت *الصراعات الشخصية* بين

المفكرين أخيرا إلى تدقيق المناهج حتى غدا اكتشاف الحقائق ممكنا حقا، وكُشف لأنظار الجميع عن أخطاء المناهج القديمة.» (م)

(١٠٢) بيرسيوس Perseus بطل من الميثولوجيا الإغريقية وهو قاطع رأس الغورغون ميدوسا. ملك أرغوس وسليل هيبرمنيسترا ابنة داناوس التي لم تقتل عريسها ليلة زفافها، وحفيد الملكأكريسيوس من ابته داناي وكان قد تم التنبؤ أن داناي ستنجب طفلا سيقتله فحبسها في برج برونزي لكن زويس زارها في شكل مطر ذهبي وأنجبت منه بيرسيوس. يتعلق الأمر هنا بالتمثال الذي صنعه بنفينيتو شيلليني (١٥٠٠-١٥٧١) وهو نحات إيطالي من فلورنسا.

(١٠٣) بيريكليس، زعيم سياسي يوناني وخطيب كبير؛ خطاب التأبين. أنظر «التاريخ» لثوقيديدس (II, 45): «إذا ما كان علي أن أذكر خصال النساء المترمّلات، فسألخص ذلك في هذه النصيحة الموجزة: يتمثل مجدهن في أن يكن وفيّات لطبيعة جنسهنّ، وأن لا ينلن من الرجال سوى أقل قدر ممكن من الشهرة، في ما هو حسن كما في ماهو سيّء.»

(١٠٤) سولون (٦٤٠- ٥٥٨ ق. م) واحد من الحكماء السبعة لأثينا. رجل سياسة ومشرّع، كان رائد الديمقراطية اليونانية. بعد انتخابه حاكما على أثينا (Archonte) سنة ٥٩٤ منحت له صلوحيات تصرف كاملة من أجل حل المشاكل الاقتصادية، فسن قوانين تشمل شتى المجالات: اقتصادية (تشجيع الهجرة من أجل تطوير التجارة والصناعات)؛ اجتماعية (الإعفاء من الديون الذي شمل بصفة خاصة المزارعين)؛ سياسية (انتخاب مجلس الطبقة الوسطى: مجلس الأربع مائة). «رجل الوسط» كان يحب أن يسمي نفسه. وإلى جانب نشاطه السياسي كان يعرف أيضا بما يكتبه من أشعار. (م)

(١٠٥) برمينيدس الإيلي(النصف الأول من القرن ٥ ق م) فيلسوف إغريقي، كان تلميذا لكسينوفان. ويقول عنه ديوجينس لايرتيوس إنه كان أيضا مشرّعا. (م)

(١٠٦) أسخيلوس (٥٢٥-٤٥٦ ق م)؛ شاعر يوناني من أعماله المسرحية الشهيرة «الضارعات»، «بروميثيوس مقيّدا»، «أغاممنون». يذكر عنه أنه كان المدافع عن وطنه في مبارزات ماراتون. (م)

(١٠٧) بندار (٥١٨-٥٣٨ ق م) أحد كبار الشعراء اليونانيين القدامى، والكثيرون

يعدونه أكبرهم. لم يكن يبد احتراما خاصا للنظام الديمقراطي الأثيني، وقد خص بالكثير من قصائدة طاغيتا صقلية وملوك كيرينا Cyrene (مستعمرة يونانية قديمة على أرض ليبيا الحالية). برز بندار في الشعر الغنائي. ألف مجموعة «أغاني الانتصار» وعددها ٤٥ خص بها الفائزين في الألعاب الهلينية. كان يمتدح فيها الفائز مع ذكر خصال أسلافه وينتهي بمديح مجد الآلهة. (م)

(١٠٨) ديموستينس (٣٨٤-٣٢٢ ق م)، خطيب ورجل سياسة من أثينا قاوم فيليب المقدوني وحرض عليه الشعب في مجموعة من الخطب منها «الفيليبينيات» و «الأولينثيات» و «ضد رسالة فيليب». . .(م)

(١٠٩) ثوقيديدس(٤٧٠-٤٠٠ ق م) مؤرخ وقائد يوناني من مؤلفاته «حرب البوليبونيز» التي اشترك فيها. يعتبر أول المؤرخين القدامى واشتهرت مؤلفاته بالنقل الدقيق للوقائع الحربية والسياسية والاقتصادية. (م)

(١١٠) يتعلق الأمر هنا بـ«أخيل والسلحفاة» واحد من براهين الفيلسوف اليوناني زينون الإيلي(أواخر القرن الخامس ق م) عن عدم وجود الحركة. تعلم على برمينيدس. ألف زينون عددا من «البراهين» التي سماها مفارقات ليثبت عدم وجود الحركة كما يورد ذلك أرسطو الذي عرض براهينه الأربعة (أنظر *«الفيزياء»* VI). وقد كان زينون يسعى من خلالها إلى الدفاع عن أطروحات برمينيدس بشأن وحدة الكائن (أنظر أفلاطون، *برمينيدس*، 128 a-e). يتعرض نيتشه إلى زينون في نص من سنة ١٨٧٣ بعنوان «الفلسفة في عصر التراجيديا الإغريقية» (م)

(١١١) في كتاب مولد التراجيديا يتكلم نيتشه عن سقراط كـ«محور وقطب لمجمل ما يكوّن تاريخ العالم». وفي «كتاب الفيلسوف» يلخص مجمل عمله كالآتي: «١- لقد دمر سذاجة الحكم الفنّي (الإستيطيقي). ٢- قضى على العلم كليا. ٣- لم يكن له أي حس بالفن. ٤- اجتث الفرد من سياقه التاريخي. ٥- تطفّلٌ ديالكتيكي (جدلي) وثرثرة ضرورية .»

(١١٢) التصور الذي كونه نيتشه عن الفلاسفة من طاليس إلى ديموقريطس، في ما يشبه ملخصا تصنيفيا مختزلا هو ذلك يقدمه في *«كتاب الفيلسوف»* كالآتي: «-طاليس؛ اللاأسطوري. -أناكسيماندر؛ الانقراض والميلاد داخل الطبيعة منظورا إليهما كخطأ وعقاب. -هيراقليطس؛ الشرعية والعدالة في العالم.

-برمينيدس؛ العالم الآخر خلف هذا العالم؛ هذا الأخير كمشكلة. -أناكساغوراس؛ مصمّم العالم. أمبيذوقلس؛ حب أعمى وحقد أعمى؛ ماهو لاعقلاني جوهريا داخل ماهو أكثر عقلانية في العالم. -ديمقريطس؛ العالم مجرد كليا من العقل والغريزة؛ لقد تمت زعزعته بشدة. كل الآلهة وكل الأساطير لا طائل من ورائها.»

(١١٣) يستعرض أرسطو في كتاب «*الميتافيزيقا*» (A) مجمل الفللسفات ما قبل الأفلاطونية: أمبيذوقلس وأناكساغوراس وديمقريطس في الفصل الرابع؛ والفيثاغوريون والإيليون في الفصل الخامس.

(١١٤) أنظر الهامش رقم ١٠٣ ، النقطة ٣ .

(١١٥) إشارة إلى فاوست- *Faust* I, 1851-1852.

(١١٦) كارل إرنست فون بائير (١٧٩٢-١٨٧٦) عالم طبيعيات إستوني من أصل ألماني رائد علم الجنينيات الحديث. أستاذ بكونغسبيرغ وسانت بيترسبورغ. مؤلف «حول تاريخ تطور الحيوانات» *Über der Entwicklungsgeschichte der Tiere* : و «بحوث في تطور الأسماك» : *Untersuchungen über die Entwicklung der Fische*

(١١٧) ربما يكون نيتشه قد استدعى هنا من الذاكرة هذه الجملة لشوبنهاور التي ترد في صياغة مختلفة شيئا ما في كتاب «العالم كإرادة وتمثل» المجلد الثاني، الفصل السابع الذي خصصه للعلاقة بين المعرفة المحسوسة بالمعرفة المجردة، حيث يقول: «الاستنتاج سهل، أما الحكم فصعب» (“Schließen ist leicht, urteilen schwer”)

(١١٨) ترد هذه الشذرة تحت عنوان «دفاعا عن الأخلاقانيين» في مخطوطة Mp XIV 1,295. وقد أجرى نيتشه تعديلا شبه كلي على النص فيما هو يحرر المسودة على مرحلتين: مرحلة مسودة U II 5, 161 «عدم توافق مع العصر: يشكو عصرنا من غياب الأخلاقانيين الكبار- موناتيي وبلوتارك لم يعودا مقروءين- ما من اعتبار لحياة التأمل. ألغيت الأديرة، حمّى العمل- ازدراء، بل وحقد على الرؤى المغايرة بما في ذلك في أوساط العلماء، «حمق»-تسارع مهول لوتيرة الجياة، وبالتالي رؤية سيئة أو خاطئة للأشياء كما يحدث لعين المسافر على متن قطار- احتقار للعقل الحر من قبل العلماء («الدقة الصارمة»، «تقسيم العمل»)

- الشذرة نفسها كما ترد في مسودة N II 1 : «غياب الأخلاقانيين- مونتاني ولاروشفوكو لا تعاد قراءتهماز- ازدراء بحياة التأمل- ألغيت الأديرة- انعدام لحياة التبصّر- ازدراء بالرؤى المخالفة- حقد حتى لدى العلماء. - تسارع مهول في وتيرة الحياة. - وبالتالي نظر وحكم مشوهين وخاطئين- ازدراء ب بين العلماء (ليشتنبارغ مثلا).

(١١٩) إبيكتيت (أو إبيكتيتوس) فيلسوف يوناني (٥٠-١٢٥)، كان عبدا أعتقه نيرون. تلقى الفلسفة على الرواقي ميزونيوس ريفوس، ثم درّس الفلسفة بدوره. تدعو أطروحات كتابه «*حوارات*» إلى القبول بالقدر بفرح ، على غرار فلسفة كل الرواقيين. ربما كانت تعاليمه حاضرة في ذهن نيتشه عندما اجترح لنفسه مصطلح «حبّ القدر» *amor fati*

(١٢٠) لوسيوس أنائيوس شينيكا (٤ ق م- ٦٥ ب م) Seneca ولد بقرطبة وترعرع في روما حيث درس الفلسفة على يد معلمين من مدرستي الرواقيين والفيثاغوريين. كانت تعاليمه تدعو إلى التحكم في الأهواء والتخلي عن الثروة المادية(مع أنه قد أثرى من خلال الإقراض بفوائض!)، واللامبالاة بخطوب الحياة. أبدى في رسائله «*رسائل إلى لوسيليوس*» عن قدرة فائقة في المعاينة الدقيقة للعيوب البشرية.

(١٢١) بلوتارك، Plutarch Cheronee كاتب يوناني مؤلف «حيواة متوازية» التي يقابل فيها بين ديموستين وشيشرون، أو بين الإسكندر المقدوني ويوليوس قيصر. في «*المؤلفات الأخلاقية*» يقف إلى جانب الأفلاطونية ضد الأبيقورية والرواقية.

(١٢٢) « آلية الغباء» في M I 1,21 قبل أن يغيرها بـ «غباء الآلية».

(١٢٣) جملة محذوفة (من طرف نيتشه) في هذا الموضع: «في زمن قد نسي ما هي العطالة والفراغ ، يحق لنا أيضا أن نسمح لنفسنا بكلمة حسنة في حق العطالة.»

(١٢٤) بقية الجملة محذوفة ، وقد وردت في مسودة مخطوطة Mp XIV 1,297 كالآتي: «. . . وتقويته على نحو مكثف] وهو ما يمكن بلوغه بالطريقة الأكثر بساطة من خلال مزج دم آسيوي وروسي جبليّ مع دم أوروبي وأميركي.»

(١٢٥) العبارة الأصلية إذا ما ترجمناها حرفيا هي: «أن يرِد ماءه من نبعه

الخاص». . نجد بعدها جملة حذفها نيتشه فيما بعد، مسودة مخطوطة M I 1,16 : «علما وأن الأشياء تنقسم إلى ضنفين، أشياء يمكن أن نكوّن عنها علما، وأخرى يمكن أن نكون عنها آراء؛ والأمر لا يتعلق هنا إلا بهذا النوع الأخير.»

(١٢٦) *إضافة* (مسودة U II 5, 155): «إنه صراع ضد الضرورة المزعومة التي تأسر الإنسان.»

(١٢٧) إضافة (١٢ ٢٣٤-١٤ هوامش طبعة الدراسات النقدية- المجلد ١٤ تعليقات المجلد ٢): «يكون الإنسان المريض غالبا أكثر عافية في روحه من الإنسان المعافى.»

(١٢٨) لكأن نيتشه يستحضر هنا تلك الجملة الأخيرة؛ الكلمة الأخيرة التي نطق بها غوته قبل أن يغمض عينيه نهائيا: Mehr Licht! Mehr Licht! -«مزيدا من النور! مزيدا من النور!» (م).

(١٢٩) صيغة أولية لهذه الشذرة Mp XIV 1,329: «يكون الطبيب إما عبقريا أو ممثلا؛ والأطباء الأكثر خطرا هم أولئك الممثلون الذين يجيدون محاكاة العبقري وربما يغالطون بذلك حتى أنفسهم.»

(١٣٠) «لقد جعلت المسيحية الناس غير أخلاقيين، لأنها وعدتهم بالقيامة وتركتهم ينتظرون إلى اليوم.»

(١٣١) صياغة أولى من المخطوطة النهائية المعدة للطبع *Rs*: «عندما يناقض أحدنا رأيا، غالبا ما يطور رأيه الخاص على نحو خاطئ، أو على الأقل على غير ما كان بإمكانه أن يطوره.»

(١٣٢) في *Vs* (المخططات التحضيرية للمسودة) N II 3,10 «لماذا ينتابني إحساس بالذنب بعد كل لقاء مع المجتمع: ١، ٢، ٣، ٤، ٥ أسباب.»

(١٣٣) في *Vs* N II 2,117: «السخرية وسيلة بيداغوجية للمعلّم (سقراط). لكن بشرط: أن يتم أخذها بجد كتواضع، وأن *تعري دفعة واحدة غرور الآخر*. وإلا فإنها لن تكون سوى مزاح بليد سمج. - الهزء طبع كلب شرس داخل عقل الإنسان: يضاف إليه من قبل الإنسان ضحك الشماتة.»

(١٣٤) جان بيير كلاريس دي فلوريان (١٧٥٥- ١٧٩٤) Jean-Pierre de Claris, *Fables* III,7

(١٣٥) لكأن نيتشه يستقي هذه المقولة من صلب تجربته الخاصة، إذ كانت أمه -

وأخته إليزابيت أيضا- من ذاك النوع الذي يجد سعادة كبرى في رعاية إبن مريض وفي حاجة إلى عناية، كما كان حال نيتشه. وقد أعرب مرات عن تأففه من ذلك، بل إنه خص كل من أمه وأخته بجمل قاسية تعبر عن النفور والاشمئزاز في كتابه الأخير «هذا هو الإنسان» - فصل: لم أنا على هذا القدر من الحكمة؛ الفقرة ٣ ، وهي تلك التي حذفتها يد غريبة وعوضتها بفقرة أخرى، ثم أثبتتها فيما بعد نسخة طبعة الدراسات النقدية التي أعدها جيورجيو كوللي ومازينو مونتيناري: «وعندما أبحث لي عن نقيض جوهري؛ خسّة طبع وسفالة في الغرائز لا حدود لها، أجد أمامي على الدوام أمي وأختي، والاعتقاد بأن لي قرابة مع مثل هذا الرهط هو ضرب من التجديف على منزلتي الألوهية.»

(١٣٦) غريتشن تصغير لاسم فتاة طاهرة هي مارغريت الشهيرة التي تعلق بها الدكتور فاوست (أوبرا «فاوست» لشارل غونود)

(١٣٧) في N II 2,43 يذكر نيتشه إسم هذا العالم وهو باول أنطون بوتيشر Paul Anton Bötticher المعروف بإسم باول دي لاغارد (١٨٢٧- ١٨٩١) ، عالم لسانيات ومنظر سياسي ألماني عرف بكتاباته القومية والمعادية للسامية. والمقولة التي يشير إليها نيتشه هنا نجدها في المقطع التالي من مؤلفه *Über die gegenwärtige Lage des deutschen Reich. Ein Bericht*, Göttingen, 1876: «على مدى نصف قرن من الزمن ظل كل الألمان الذين لم يكونوا خاضعين لقيود الكنيسة يتعرفون على أنفسهم في فاوست وغريتشن ويرون جوهر كيانهم ممثلا فيهما، لكن في هيأة مجردة من كل مصادفات الوجود الفردي. غير أنه سيكون من المضحك لو أننا ادعينا بأن عددا مهما من شباب عصرنا الحاضر سيتفاعل مع مشاهدة فاوست وغريتشن بنفس ما كان لنا نحن المتقدمون في السن من تفاعل معهما ؛ وعلى أية حال فإن أولئك الذين يبدون مثل هذا التفاعل من أبناء أمتنا الحاضرة غير فاعلين ولا تأثير لهم. وإذا ما أردنا أن نظل في مجال الكتب فإننا سنجد خليطا من ميفيستولس وفاغنر من جهة، وفالنتين من جهة أخرى كنمط نموذجي ممثل للألمان المعاصرين.»

(١٣٨) هزيود (أو هسيودُس بداية القرن الثامن ق م) شاعر يوناني له أشعار تعليمية أدبية تعرف بـ«الأشغال والأيام»، وله أيضا مدونة *النساء الشهيرات* ومؤلف

عن الإناث المحبوبات من الآلهة: *جنيّات عظيمات*. هكذا يعبر عن حكمه على المرأة في *Theogonia* 585-602: «من هناك طلع جنس الأوغاد اللعين للنساء، الكارثة الفظيعة التي استقرت بين الرجال الفانين. وهن لا يتلاءمن البتة مع الفقر المقيت، بل مع الرخاء وحده.»

(١٣٩) «لم أعرف بعد أية امرأة يمكن أن تكون قد عرفت حقا ما هو العلم.» *Vs*

(١٤٠) المنصب المقدس ثلاثي القوائم الذي كان من المفترض أن يجلس فوقه أبولون. لكن الكاهنة والعرافة بيثيا(عرافة دلفي) انتصبت فوقه وجعلت منه مقعدا تستلهم نبوءاتها من الأبخرة الغازية التي تصعد من تحته وتجعلها تدخل في حالة من التخمر وتشرع في النطق بنبوءاتها مصدرة أصةاتا غريبة كان اليونانيون يعتقدون أنها كلمات أبولو.

(١٤١) سيبيللا، أو السيبيلّيات في الميثولوجيا اليونانية من راهبات أبولو لها دور العرافة ، على خلاف بيثيا (الهامش السابق) لا تقيم السيبيللافي المعبد ، بل تحيا مستقلة ومتنقلة ولا تلقي بنبوءاتها إلا في حالات ظرفية. و تتميز نبواتها بالغموض بما يجعلها قابلة لتأويلات عديدة وهو يحصنها من كل احتمالات الاعتراض والدحض. وهي في ذلك تشبه نبوءات نوسترادراداموس تقريبا. والسبيلّيات هن في أصلهن خادمات للإلهة سيبال (Cybèle) جئن من بيسينونت (Pessinonte) بآسيا الصغرى.

(١٤٢) خليلات ميلات. واسمهن في اليونانية Apasias نسبة لأبازيا الميليّة (من آسيا الصغرى) التي خلال القرن الخامس ق م وكانت خليلة بيريكليس وعرفت بحيازتها على مستوى ثقافي رفيع استطاعت أن تكسب من خلاله احترام ثلة من كبار الفلاسفة مثل بيريكلي وسقراط، وقد لعبت دورا مؤثرا في الحياة السياسية لعصرها. يأتي ذكرها في كتابات أفلاطون وأريستوفان وكزينوفون.

(١٤٣) زانثيبي هي زوجة سقراط وقد عرف عنها أنها كانت شرسة وقاسية معه. وتزعم بعض الروايات أن سقراط تزوجها وهو يكبرها بقرابة الأربعين سنة، فقط من أجل أن يدرب نفسه على الصبر. غير أن أفلاطون يظهر لنا وجها آخر من علاقتها به، إذ يؤكد في «فايدون» مدى لوعتها يوم قرر سقراط أن يتناول قدح السم.

(١٤٤) أنظر أفلاطون: *مديح سقراط* Platon, *Apologie*. 30e; 20c-23c

(١٤٥) *ceterum censeo*: عبارة شهيرة لكاتون الروماني غدت مثل لازمة يختتم بها كـل خـطـبـة لـه: "„Ceterum censeo Carthaginem esse delendam."، ومعناها: «وبالمناسبة أردت أن أقول: قرطاج لابد أن تدمّرا»، ثم تحولت فيما بعد إلى ضرب من الصورة البيانية اشتهر باستعمالها شيشرون مثلا.

(١٤٦) أنظر افلاطون: فيدرا Plato, *Phaedra, 116b, 117d*

(١٤٧) أنظـر ليشتنبرغ G.Chr. Lichtenberg, *Über Physionomik*: «السبات الشتوي المقوّي في مرحلة همجية جديدة...»

(١٤٨) بدء من هذا الموضع وحتى آخر الشذرة، كانت الصياغة الأولية (Mp XIV 1, 175) كالآتي: «من لا يستطيع أن يتحرر من هذه التفرقة سيظل محتفظا في جميع المجالات الأخرى بذهنية العبودية القديمة تجاه السيد؛ إن ذلك نموذج علاقات يُنقل آليا وتكريسه في مجالات الحياة الزوجية والعلاقات مع الخدم والعمال ورفاق الحزب وعلاقة التلميذ بالمدرّس.»

(١٤٩) بروسبير ميريمي: رسالة إلى مجهولة، Propspère Mérimée, *lettre à une inconnue*, 2, 372

(١٥٠) في Mp XIV 1, 278 يواصل نيتشه هذا المقطع كالآتي: «يمكن لهذه العقلية أن تكون مفيدة بالنسبة لازدهار دولة بعينها؛ لكنها مناهضة لازدهار الحضارة الكونية ومضرة. وبالتالي فإن وجود الدول الفردية (التي تسود علاقاتها بالضرورة حالة دائمة لحرب الكل ضد الكل- bellum omnium contra omnes) عائق أمام الحضارة.»

(١٥١) ...كما يقول بيريكلس في خطبته التأبينية». أنظر ثيوقيديدس II, 44 (Mp XIV 1, 18)

(١٥٢) بدء من هذا الموضع حتى آخر الشذرة، حلت الجملة الأخيرة محل هذا المقطع الذي يرد في Dm: «إن ارتقاء أفراد من الناس على نحو خارق إلى مرتبة فوق البقية هونتيجة الإهمال المخزي الذي يلحق بالشعب وبالتربية العلمية؛ فلأن المستوى على غاية من التدني يحتل هؤلاء مرتبة عليا.»

(١٥٣) عنوان آخر في نسخة *Dm*: توزيع أعباء الحمل.

(١٥٤) «كل حزب سياسي.» *Vs*

(١٥٥) على قفا رسالة من أوفرباك إلى نيتشه بتاريخ ٩ مارس/ آذار ١٨٧٨ خط نيتشه هذه الملاحظات: «إذن، و للمرة الثالثة أقول، إن انهيار الدين

سيرافقه انهيار الدولة أيضا، - لكن هذا الأمر ليس بالكارثة في كل الأحوال/ من جميع جهاته.

(١٥٦) عوضا عن هذه الجملة: («غير أن هذا. . . . .ينبع منها الفكر الحر.») نقرأ في (*Vs*) BN II 2,62 : «هكذا ينشأ ما يسمى بالمستبعد المستنير (المستبد لا ينير عند الضرورة سوى نفسه.)

(١٥٧) بيركليس: خطبة التأبين. أنظر ثيوقيديدس *Thukydides II 35-46*

(١٥٨) أنظر N II 2,107a .[90]22 جملة في هذا الموضع قد تخلى عنها نيتشه فيما بعد: «إن الأنانية المتوحشة والأحقاد القومية وحرب الكل ضد الكل (*bellum omnium contra omnes*) على نفس القدر من الأهمية والضرورة مثل البحر وتقلبات الطقس كي يكون هناك ربيع وصيف وخريف في مجرى حياة الإنسانية.

(١٥٩) صياغة أولى لهذه الجملة الأخيرة، كما يرد في *Dm* : «. . . كي لا تموت بسبب من وهنها// بضعفها، وتتحول إلى همجية.»

(١٦٠) يتحدث نيتشه عن الجنوب منطلقا من إيطاليا التي كان يقيم بها جل الوقت بعد تخليه عن كرسي التدريس بجامعة بازل، كما تدل على ذلك الصياغة الأولى الواردة في المسودات *Rs* : «فالحرفيون هنا]في الجنوب. . .» ، وكان عندها في سورينتي.

(١٦١) أنظر أ. شوبنهاور، «العالم كإرادة وتمثل» I : *"serpens, nisi serpentem comederit, non fit draco"*

(١٦٢) صياغة أولى في Mp XIV 1, 342 «الفرح المشترك يكوّن الصديق، والشفقة تكوّن رفيق الآلام.»

(١٦٣) (كذلك الموسيقي الحقيقي، يفر من الموسيقى أكثر مما يركض وراءها).

(١٦٤) «نقائص الفضائل» عبارة يستعيرها نيتشية من جورج صاند : «الكلُّ نقائصُ فضائله» (*"A chacun les défauts de ses vertus"*)

(١٦٥) في Mp XIV 1,28 (Rs) نجده ينهي هذه الشذرة بالجملة اللاحقة التي سيحذفها فيما بعد: «وفي هذا المضمار فأنا أجدني محقا في نقدي لطبقة المثقفين المتبلّدين وللمرض التاريخي للعصر الحديث؛ غير أنني، ولهذا السبب بالذات، أرى أنه من الأفضل أن ندعم العالم الحديث، لا أن نخذله.»

(١٦٦) عوضا عن هذه الجملة الأولى نقرأ في MI 1,56 صياغة أولى ورجت كالآتي: «كانت آلام العالم تدفع بالإنسان دوما إلى أن يستمد منها نوعا من السعادة الإضافية.»

(١٦٧) تحيلنا هذه الشذرة على وصية كونفيثيوس: «كما كان يفعل الأجداد دوما.» نيتشه وكونفوثيوس في نفس الخندق؟

نيتشه الذي يدعو إلى النقض وقلب كل القيم، وكونفوثيوس الذي أسس نظاما فلسفيا موجها بكليته إلى تأبيد السائد ونبذ القطيعة! إن الأمر يستحق مزيدا من التفكير والتدقيق، فباطن المقولة أبعد ما يكون عما تظهره للقراءة المتسرعة.

(١٦٨) في مخططات المسودة الأولية المشار إليها بعلامة [25] 16 : *Vs* في دفاتر الأرشيف، نجد صياغة أولية لهذه الشذرة ترد كما يلي: «يفضل الناس جلب الانتباه وهم يثيرون النفور على أن يكونوا محل رضا ولا يثيرون أي انتباه؛ وهو ما يجعلنا نستنتج أن السعادة تهمهم أقل بكثير مما تهمهم القوة. فالإحساس بأنهم مثار انطباعات كريهة لا قيمة له لديهم مقارنة بإحساسهم بالاستقلال وما يرافق ذلك من سيطرة؛ أو : إن السعادة التي تتحقق لهم عن طريق القوة تغريهم أكثر من تلك التي يتم الحصول عليها بأكثر سهولة من خلال رضا الناس؛ علاوة على أن القوي يكون بإمكانه أن يفرض على الآخرين إبداء الرضا في كثير من الأشياء.»

(١٦٩) صياغة أخرى للحملة الأخيرة كما ترد في مسودة Vs- NII 3,26 : «يلعب الآباء والأساتذة والأصدقاء دور الدرابزين (وإن لم تكن ثابتة فإن رؤيتها تمنح إحساسا بالاطمئنان)

(١٧٠) - *Dm* - جملة أخيرة شطبها نيتشه في ما بعد (Mp XIV 1,28): أما المسيح فيقول على عكس ذلك: لابد أن تظهروا أعمالكم الحسنة للناس.» -أنظر متى ٥، ١٦ : «فلْيضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات»

(١٧١) لا بد أن يكون المرء حائزا على مستوى عقلي رفيع كي يحب الحقيقة البسيطة؛ لكن، ولأن الناس يدركون حدسا هذه المسألة نراهم يتظاهرون غالبا بحبهم لأعمال اليونانيين.»

(١٧٢) ربما يتحدث نيتشه هنا عن تجربته الشخصية مع كل من شوبنهاور وفاغنر اللذان كان يغمرهما بالإكبار والإجلال في مرحلة سابقة من مسيرته الفكرية. ويلاحظ القارئ أنه يعود إلى ذكر هذه التجربة في عدة مواضع من هذا الكتاب، حتى لكأنه مؤلفه هذا الذي بين أيدينا هو في جزء منه نوعا من تكريس الاستقلال الفكري النهائي عن كل منهما. لننظر على سبيل المثال إلى هذا المقطع من الفقرة الأولى من مقدمته لهذا الكتاب: «ولربما سيعاب علي في هذا الشأن قدر من «التفنن في الكلفة» وقدر من التزييف الحاذق؛ كأن أكون قد أغمضت عيني قصدا وعن وعي عن مسألة إرادة الأخلاق لشوبنهاور في وقت كنت فيه واضح الرؤية بما فيه الكفاية في ما يتعلق بالأخلاق، أو كأن أكون قد خدعت نفسي بشأن الرومانسية المزمنة لريتشارد فاغنر، ....»

(١٧٣) في مسودة Vs- MI 1,42 نجد العنوان: «في التعامل مع المثال الأعلى»

(١٧٤) أنظر أفلاطون: «القوانين» *803b*، «الجمهورية» *604b*

(١٧٥) عبارة من اللاتينية غدت شائعة في لغة اللاهوت المسيحي وتعني: أؤمن، لأن هذا محال. وتنسب هذه العبارة لكل من تارتوليان والقديس أغسطينوس، مع شيء من التحريف. فأصل العبارة كما جاء على لسان تارتوليان: *«Et mortus est Dei Filius : CREDIBILE EST QUIA INEPTUM EST ; et sepultus resurrexit ; certum est quia impossibile est* – أو ما معناه: «ابن الله قد مات: هذا أمر حقيق بالإيمان، لأنه محال؛ ومن بعد أن دفن عاد من الموت، وهذا أمر لا شك فيه، لأنه مستحيل.» (م)

(١٧٦) غوته: مسرحية توركواطو تاسو (أو طاسو): J.W. Goethe: Torquato Tasso والتي تدور حولب شخصية الشاعر الإيطالي توركواطو طاسو (١٥٤٤- ١٥٩٥). ويبدو حسب تأويل بعض النقاد أن غوته لم يفعل فس تلك المسرحية التي ألفها على إثر مغادرته لقصر فايمار هروبا من الأجواء الخانقة لأجواء البلاط ، إنما اتخذ شخصية الشاعر الإيطالي تعلة كي يعبر من خلالها عن القرف الذي أصابه شخصيا أثناء إقامته في قصر فايمار من الأجواء البلاطية التي لم تكن تتلاءم مع ذائقته وميوله الفنية والفكرية العالية. (م)

(١٧٧) كانت هذه الشذرة في مخطوطة *Rs* (Mp XIV 1,30) تحمل عنوان: توجس من كل المدافعين بحماس وعنف عن «الحقيقية».

(١٧٨) في مخطوطة *Rs* (Mp XIV 1,30) نجد هذه الفقرة الأخيرة التي تنتهي بها الشذرة، ثم حذفها نيتشه فيما بعد: «أية مفارقة أن نرى كل من غوته في نظريته عن الألوان، وشوبنهاور في كل رؤاه الميتافيزيقة، قد جانبا الصواب، وأن يكون فخرهما فيما يتعلق بهاته المسائل كان بالتالي وفي كل الأحوال غير مبرر! إن هذا يدعو إلى التواضع، أو الحذر عل الأقل؛ علاوة على أنه إن كان المرء غير مسؤول عن أفعاله، وغير مسؤول كذلك عن إنجازاته الناجحة، فإنه لا يحق له بالتالي أن يطمع في إطراء، ولا أن يطالب الناس بأن يعجبوا به. عليه أن ينتظر، وأن يمتنع عن التعبير عن مآخذ على الآخرين -وهم يأتون كل أعمالهم عن عدم مسؤولية دوما-.»

(١٧٩) في *Rs* (Mp XIV 1,110) ترد الجملة الأولى من هذه الشذرة في صياغة مغايرة: «الاعتقاد في قيمة الحقيقة أقدم بكثير من وثوق منهج السعي إلى بلوغ الحقيقة؛ «لي الحق في أن أفكر هكذا»، تحيل هذه الجملة على العنصر الأخلاقي في المسألة ، ويعني: «إن ذلك من حقي»، لكن الحقوق ليست دوما حجة.»

المحتويات

هذا الكتاب

كثيراً ما قيل لي، وبكثير من الدهشة دوما، أن شيئاً مشتركاً ومميِّزاً يتخلل كل كتاباتي، من «مولد التراجيديا» حتى آخر ما نشر لي وهو «توطئة لفلسفة مستقبلية»: جميعها تحمل بين طياتها شباكاً وشراكاً لطيور عديمة الحذر، وشيئاً قريباً من تحريض خفي دائم على قلب التقييمات المعتادة والعادات المتعارف على قيمتها. ماذا؟ ***كل شيء*** ليس سوى- إنساني، مفرط في الإنسانية؟